

زَهْرُ الْأَدَابِ وَفَرْحَةُ الْأَلْبَابِ

لأبي إسحاق إبراهيم بن عليّ الحنبلّي الشيرازي
(المتوفى سنة ٥٤٣هـ / ١١٦١م)

شَدِيدُ النَّقْطَةِ وَفَرِحَةُ رُؤُوسِ مَنَارِهِ
الدكتور صلاح الدين الحواري

المكتبة العصرية
بيروت - لبنان

زَهْرُ الْأَرْبَابِ فِي مَثَرِ الْأَلْبَابِ

لأبي إسحاق إبراهيم بن عليّ الحصريّ القيروانيّ
(المتوفى سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م)

قدّم له ووضّعه وشرّحه ووضّعه ههنا
الدكتور صلاح الدين الهوارى

المجلد الرابع

المكتبة العصرية
مستيد - بيروت

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - 2001 م

للطباعة
والنشر
والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار السجورجية المطبعة العصرية

بيروت - ص ١١/٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١٦٥٥٠١٥

صيدا - ص ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧٧٦٣١٧



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[نماذج من الشعر الجيد]

لابن المعتز

ومن الشعر الذي يجري مع النفس قول ابن المعتز يمدح المكتفي؛ إذ قدم من الرقة بعد القبض على القرمطي فقال^(١):

لَا وَرَمَّانَ النَّهْدِودِ	فَفَوْقَ أَغْصَانِ الْقُدُودِ ^(٢)
وَعَنَاقِيدَ مَنْ أَصْدَا	غَ وَوَرْدَ مَنْ خُذُودِ ^(٣)
وَبُدُورَ مَنْ وَجُوهُ	طَالَعَاتِ بِالسُّعُودِ ^(٤)
وَرُسُولَ جَاءَ بِالْمِ	عَادٍ مِنْ بَعْدِ الْوَعِيدِ
وَنَعِيمَ مَنْ وَصَّالِ	فِي قَفَا طُولِ الصُّدُودِ ^(٥)
بَا رَأَتْ عَيْنِي كَظَبِي	زَارَنِي فِي يَوْمِ عِيدِ
فِي قَبَاءٍ فَاخْتِي الدَّ	لَسُونِ مِنْ لِبْسِ الْجَدِيدِ ^(٦)
كُلَّمَا قَاتَلَ جُنْدُ	لِدِي بِسَيْفٍ وَعُمُودِ
قَاتَلَ النَّاسَ بَعِينِ	مِنْ وَخَسَدَيْنِ وَجِيدِ ^(٧)

- (١) ابن المعتز، الديوان: ص ٢٣٥.
- (٢) يشبه النهود بالرمان، والقُدود بالأغصان، ويقسم بها جميعاً.
- (٣) الأصداغ: جمع صُدغ، وهو جانب الوجه من العين إلى الأذن. وفي الديوان: «وعناقيد من الصُدغ».
- (٤) في الديوان: «ووجوه من بدور طالعات من سُعود».
- (٥) قفا كل شيء: خلفه. وفي الديوان: «خُلَّ من طول الصُدود».
- (٦) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب، أو القميص، يُمنطقُ به. وفاختي اللون: لونه كلون الفاخنة: نوع من الحمام البري. وفي الديوان: «من لبس جديد».
- (٧) الجيد: العنق.

قَدْ سَقَانِي الْخَمْرَ مِنْ فَيْدٍ هِ عَلَى رُغْمِ الْحُسُودِ^(١)
 وَتَعَانَقْنَا كَأَنَّا وَهَسَوْ فِي عَقْدٍ شَدِيدِ^(٢)
 نَقَرُ الثَّغْرِ بِثَغْرِ طَيِّبٍ عِنْدَ الْوُرُودِ^(٣)
 [مثل ما عاجلَ بَسْرَدٍ قَطَرَ مُزْنَ بِجُمُودِ^(٤)
 سَحَرًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْرِجَعَ أرواحُ الْوُفُودِ^(٥)
 وَمَضَى يَخْطُرُ فِي الْمَشَدِّ سِي كَجِبَارٍ عِنْدَ
 مَرْحَبًا بِالْمَلِكِ الْقَا دَمٍ بِالْجِدِّ السَّعِيدِ
 يَا مُذِلَّ الْبَغْيِ يَا قَا بَلَّ حَيَّاتِ الْحُقُودِ^(٦)
 عِشْ وَدُمُ فِي ظِلِّ عَيْشٍ خَالِدٍ بِأَقِي جَدِيدِ
 فَلَقَدْ أَصْبَحَ أَعْدَا وَكَ كَالزَّرْعِ الْحَصِيدِ
 ثُمَّ قَدْ صَارُوا حَدِيثًا مِثْلَ عَادٍ وَثُمُودِ
 جَاءَهُمْ بِخَرٍ حَدِيدٍ تَحَتَّ أَجْبَالُ بُؤُودِ
 فِيهِ عِقْبَانُ خِيُولٍ فَوَقَهَا أَسَدُ جُنُودِ
 وَرَدُّوا الْحَرْبَ فَمَدُّوا كُلَّ خَطِيٍّ مَدِيدِ^(٧)
 وَحُسَامٍ شَسِيرِهِ الْحَدِّ دَ إِلَى قَطْعِ الْوَرِيدِ^(٨)
 مَا لِهَذَا الْفَتْحِ يَا خَيْدٍ رَ إِمَامٍ مِنْ نَدِيدِ^(٩)
 فَاحْمَدِ اللَّسَةَ فَإِنَّ الدَّ حَمْدَ مِفْتَاحِ الْمَزِيدِ

- (١) فِي الدِّيوان: «قَدْ سَقَانِي الرَّاح».
- (٢) الْعَقْدُ: الْعَهْدُ. وَفِي الدِّيوان: «وَتَعَانَقْنَا كَأَنِّي وَهُوَ».
- (٣) الْقَرْعُ: الضَّرْبُ.
- (٤) الْمَزْنُ: جَمْعُ مَزْنَةٍ، وَهِيَ السَّحَابَةُ الْمَمْطُورَةُ.
- (٥) سَحَرًا: أَيِ وَقْتُ السَّحَرِ، وَهُوَ آخِرُ اللَّيْلِ قَبْلَ الْفَجْرِ.
- (٦) الْبَغْيُ: الظُّلْمُ، وَمَجَاوِزَةُ الْحَدِّ.
- (٧) الْخَطِيُّ: الرَّمْحُ الْمُنْسُوبُ إِلَى الْخَطِّ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْبَحْرَيْنِ تُجَلِّبُ مِنْهُ الرِّيحُ، أَوْ تَسْتَوْدِدُ عَنْهُ.
- (٨) وَالْمَدِيدُ: الطَّوِيلُ.
- (٩) فِي الدِّيوان: «وَحُسَامُ سَرَّهُ الْحَدِّ إِلَى...». الْوَرِيدُ: عَرَقٌ فِي الْعُنُقِ.
- (٩) التَّنْدُ: الْمِثْلُ وَالنَّظِيرُ. وَفِي الدِّيوان: «مِنْ مَزِيدٍ».

لعلي بن الخليل أمام الرشيد

وقول علي بن الخليل مولى يزيد بن يزيد الشيباني وكان يُرمى بالزندقة، قال لعلي بن الفضل بن الربيع: جلس الرشيد يوماً للمظالم، فجعلت أتصفحُ الناسَ، وأسمعُ كلامهم، فرميت بطرفي، فرأيتُ في آخرهم شيخاً حسنَ الهيئةِ والوجه ما رأيتُ أحسنَ منه؛ فوقف حتى تقوّضَ المجلسُ^(١) ثم قال: يا أمير المؤمنين، رقتي؛ فأمر بأخذها، فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي بقراءتها؛ فأنا أحسنُ تعبيراً لخطي من غيري - فقال له: اقرأ، فقال: شيخ ضعيف، ومقام صعب، ولا آمنُ الاضطراب؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يصلَ عنايتَهُ بأمرِي في الإذن بالجلوس فعل، فقال: اجلس، فجلس وأنشأ يقول:

يا خَيْرَ مَنْ وَخَدْتُ بِأَرْحُلِهِ	نُجِبُ الرِّكَابِ بِمَهْمِهِ جَلَسِ ^(٢)
تَطْوِي السَّبَابِ فِي أَرْمَتِهَا	طَيَّ التَّجَارِ عَمَائِمَ الْبُرْسِ ^(٣)
لَمَّا رَأَيْتُكَ الشَّمْسُ طَالَعَةً	سَجَدْتُ لِوَجْهِكَ طَلَعَةُ الشَّمْسِ
خَيْرُ الْبَرِيَةِ أَنْتَ كُلَّهُمْ	فِي يَوْمِكَ الْغَادِي وَفِي الْأَمْسِ
وَكَذَلِكَ لَنْ تَفْكَ خَيْرَهُمْ	تُمْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ مَا تُمْسِي
لِلَّهِ مَا هَارُونَ مِنْ مَلِكٍ	عَفَّ السَّرِيرَةِ طَاهِرِ النَّفْسِ ^(٤)
تَمَّتْ عَلَيْهِ لِرَبِّهِ نِعَمٌ	تَزْدَادُ جِدَّتِهَا مَعَ اللَّبْسِ
مِنْ عَثْرَةٍ طَابَتْ أَرْوَمَتِهَا	أَهْلِي الْعَفَافِ وَمُنْتَهَى الْقُدْسِ ^(٥)
مُتَهَلِّلِينَ عَلَى أَسْرَتِهِمْ	وَلَدَى الْهِيَاجِ مَصَاعِبِ شُمُسِ ^(٦)

- (١) تقوّض المجلس: انفضَّ أهله، وأصله: من تقوّض البناء إذا تهدّم.
- (٢) وَخَدْتُ البعير يَخْدُ وَخَدًا، وَوَحِيدًا، وَوَحْدَانًا: أَسْرَعُ وَوَسَّعَ الْخَطْوُ، أَوْ رَمَى بِقَوَائِمِهِ كَمَثِي النِّعَامِ. النَّجِبُ: جمع النجيب، وهو الفاضل على مثله النفس من نوعه، ونجائب الإبل: خيارها. والمهمه: المفازة البعيدة، والبلد المُقْفِر، والجمع مهمامه. والجلَسُ: الغليظ والمرتفع والطويل من كل شيء، والجمع أجلاسٌ وجلاسٌ.
- (٣) السَّبَابُ: جمع السَّبَبِ: المفازة. والأزْمَةُ: جمع الزمام، وهو الخيط الذي يُنْذُ فِي الْبُرَّةِ أَوْ فِي الْخِشَاشِ، ثُمَّ يُنْذُ إِلَى طَرَفِ الْمُقَوْدِ. وَالْبُرْسُ: الْقُطْنُ.
- (٤) السَّرِيرَةُ: مَا يُكْتَمُ وَيُسْرَى، وَالْجَمْعُ سَرَائِرُ.
- (٥) العثرة: نسل الرجل، أو أهله وعشيرته. والأرومة: أصل الشجرة، واستعملت للحب، فيقال: هو طيب الأرومة: كريم الأصل.
- (٦) شُمُسٌ فلان: تأبى واستعصى، وتشامسا: تعاديا وتعاندا، ويقال: رجل شمسٌ، وامرأة =

إِنِّي لَجِئْتُ إِلَيْكَ مِنْ فَرْعٍ قَدْ كَانَ شَرُّدَنِي وَمِنْ لَبْسٍ^(١)
لَمَّا اسْتَخَرْتُ اللَّهَ مُجْتَهِدًا يَمُمْتُ نَحْوَكَ رِحْلَةَ الْعَنْسِ^(٢)
وَاخْتَرْتُ حِلْمَكَ لَا أَجَاوِزُهُ حَتَّى أُغَيَّبَ فِي ثَرَى رُمْسِي^(٣)
كَمْ قَدْ سَرَيْتُ إِلَيْكَ مُدْرِعًا لَيْلًا يَمْوِجُ كَحَالِكِ النَّفْسِ^(٤)
إِنْ رَاعِنِي مِنْ هَاجِسٍ فَزَعٍ كَانَ التَّوَكُّلُ عِنْدَهُ تُرْسِي^(٥)
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنِّي رَجُلٌ أَصْبُو إِلَى نَفَرٍ مِنَ الْإِنْسِ
يَبْضُ أَوَانِسُ لَا قُرُونُ لَهَا يَقْتُلْنَ بِالتَّطْوِيلِ وَالْحَبْسِ^(٦)
وَأَجَاذِبُ الْفَتِيَانِ بَيْنَهُمْ صَفَرَاءَ مِثْلَ مُجَاجَةِ الْوَرْسِ^(٧)
لِلْمَاءِ فِي حَافَاتِهَا حَبٌّ نَظَّمُ كَرَفَمَ صَحَائِفِ الْفُرْسِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ فِي بَيْتِهِ مَا إِنْ أَضَعْتُ إِقَامَةَ الْخَمْسِ^(٨)

قال: ومن تكون؟ قال: علي بن الخليل، الذي يقال إنه زنديق، فقال له: أنت آمن، وأمر له بخمسة آلاف درهم.

وصف دعوة لمحمد بن حازم

وأشدد أبو العباس المبرذ لرجل يصف دعوة دعا بها الله عز وجل، وقد رأيتها في شعر محمد بن حازم الباهلي^(٩):

= شمس، والجمع شُمسٌ. والمصاعب: جمع مصعب، وهو من الإبل الذي تصعب مقادته.

- (١) اللَّبْسُ: الشبهة، وعدم الوضوح.
- (٢) الْعَنْسُ: الناقة القوية، شُبِّهَتْ بالصخرة لصلابتها.
- (٣) الثرى: التراب، أو الأرض. والرمس: القبر.
- (٤) النَّفْسُ: المدادُ يُكْتُبُ به، الحبر.
- (٥) الهاجس: الخاطر. الثرس: ما كان يُتَوَقَّى به في الحرب.
- (٦) الأوانس: جمع آنة، وهي الفتاة الطيبة النفس المحبوب قُرْبُهَا وحديثها، يُؤْنَسُ بها، وقيل: الفتاة ما لم تَرْوِج.
- (٧) الْمُجَاجَةُ: الريق، ومُجَاجَةُ كُلِّ شَيْءٍ: عُصَارَتُهُ. والورس: نبت من الفصيلة القرنية، يستعمل لتلوين الملابس الحريرية، لاحتوائه على مادة حمراء، وعلى راتينج.
- (٨) الخمس: أي الصلوات الخمس.
- (٩) هو أبو جعفر، محمد بن حازم بن عمرو الباهلي بالولاء: شاعر مطبوع هجاء. ولد ونشأ =

وَسَارِيَةٍ لَمْ تَسْرِ فِي الْأَرْضِ تَبْتَغِي مَحَلًّا، وَلَمْ يَقْطَعْ بِهَا الْبَيْدَ فَايُطْعُ^(١)
 سَرَتْ حَيْثُ لَمْ تُحْدِ الرِّكَابُ وَلَمْ تُنْخَ لَوْرْدَ، وَلَمْ يَقْصُرْ لَهَا الْقَيْدَ مَانِعُ^(٢)
 تَمَرُّ وَرَاءَ اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ ضَارِبُ بِجُثْمَانِهِ فِيهِ سَمِيرٌ وَهَاجِعُ^(٣)
 إِذَا وَرَدَتْ لَمْ يَرُدِّدِ اللَّهَ وَفَدَهَا عَلَى أَهْلِهَا، وَاللَّهُ رَأَى وَسَامِعُ
 تَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّمَوَاتِ دُونَهَا إِذَا قَرَعَ الْأَبْوَابَ مِنْهُنَّ قَارِعُ
 وَإِنِّي لَأَرْجُو اللَّهَ حَتَّى كَأَنِّي أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ سَا اللَّهَ صَانِعُ

[من مستحسن الأجوبة]

بين معن بن زائدة ورجل من شببان

ودخل رجل [من شببان] على معن بن زائدة، فقال: ما هذه الغيبة؟ فقال: أبيتها الأمير، ما غاب عن العين مَنْ يذكركه القلب، وما زال شوقي إلى الأمير شديداً، ودون ما يجِبُ له، وذكري له كثيراً، ودون قدره، ولكن جفوة الحجاب، وقلة بشر الغلمان، منعاني من الإتيان! فأمر بتسهيل إذنه، وأجزل صلته.

بين المنصور ومعن بن زائدة

وقال أبو جعفر المنصور لمعن بن زائدة: كبرت يا معن! قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين، قال: إنك لَجَلْدٌ^(٤)، قال: على أعدائك، قال: وإن فيك لَبَقِيَّةً، قال: هي لك يا أَمِيرَ المؤمنين، قال: فأَيُّ الدولتين أَحَبُّ إليك؟ هذه أم دولة بني أمية؟ قال: ذلك إليك يا أَمِيرَ المؤمنين، إن زاد برك على برهم كانت دَوْلَتُكَ أَحَبَّ إليّ.

= بالبصرة، وانتقل إلى بغداد فسكنها، ومدح المأمون. كان من أجود الشعراء لفظاً وألطفهم معنى. توفي نحو ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٣٠٧؛ الأصفهاني، الأغاني: ٨٧/١٤؛ المزماني، معجم الشعراء: ٣٧١).

- (١) السارية: السائرة بالليل، يريد الدعوة.
- (٢) حدا الإبل، وبها، حذاء: ساقها، وحَنَّاها على السير بالحداء. وأَنَّاخَ الجمَل: أبركه.
- (٣) السَمِيرُ: المُتَحَدِّثُ مع جلسيه ليلاً. والهاجع: الآوي إلى فراشه، النائم.
- (٤) الجَلْدُ: القوي، الصابر على المكروه.

[من ترجمة معن بن زائدة، وأخباره]

ومعن هذا هو معن بن زائدة بن عبد الله [بن زائدة بن مطر بن شريك بن عمرو أخي الحوفزان بن شريك بن عمرو بن قيس] بن شرحبيل بن منبه بن مرة بن ذهل بن شيبان، وبنو مطر بيت شيبان، وشيبان بيت ربيعة.

لابن أبي حفصة في بني مطر قوم معن

وكان معن أجود الناس، وفيه يقول مروان بن أبي حفصة ويعم بني مطر:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللَّقَاءِ كَانَتْهُمْ أَسُودٌ لَهَا فِي غِيلِ خَفَّانٍ أَشْبُلٌ^(١)
هُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَانُوا لِجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَاكَيْنِ مَنْزِلٌ^(٢)
وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فَعَالَهُمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا
بِهَالِيلٍ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ كَأُولِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلٌ^(٣)
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دَعَوْا جَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا^(٤)

أخذ البيت الأول ابن الرومي، وزاد فيه، فقال^(٥):

تَلَقَّاهُمْ وَرِمَاحُ الْخَطِّ بَيْنَهُمْ كَالْأَسَدِ الْبَسَّهَا الْأَجَامَ خَفَّانٌ

[الرأي والشجاعة]

أتى قوم من العرب شيخاً لهم قد أرْبَى على الثمانين، وأهدف على التسعين^(٦). فقالوا: إِنَّ عَدُوَّنَا اسْتَأَقَ سَرَحَنَا، فَأَشِرْ عَلَيْنَا بِمَا نُنْذِرُكَ بِهِ الثَّأْرَ، وننفي به العارَ، فقال: الضعفُ فسح هِمَّتِي، ونكت إيوام عزيمتي، ولكن شاوروا الشجعان من ذوي العزم،

(١) الغيل: الوادي فيه ماء، وموضع الأسد، والشجر الكثيف الملفف الذي يُتَسَرَّ به. خَفَّان: اسم موضع قرب الكوفة تكثر فيه الأسود.

(٢) السماكان: نجمان ثيران، أحدهما في الشمال، وهو السماك الرامح، والآخر في الجنوب، وهو السماك الأعزل.

(٣) البهاليل: جمع بَهْلُول، وهو السيد الجامع لصفات الخير.

(٤) أطابوا: جاءوا بما هو طيب أو حلال، يقال: أطاب في مكسبه، وأطاب في كلامه.

(٥) ابن الرومي، الديوان: ١٧٩/٦. والبيت من قصيدة طويلة يمدح بها إسماعيل بن بُلَيْل.

(٦) الأجام: جمع أجمة، وهي الشجر الكثيف الملفف.

والجبناء من ذوي الحزم؛ فإنَّ الجبان لا يَأْلُو برأيه ما يَبْقِي مهجكم، والشجاع لا يَأْلُو برأيه ما يشيد ذكركم، ثم أخلصوا من الرأي بنتيجة تبعد عنكم معرَّة نقص الجبان، وتَهَوَّر الشجاعان، فإذا نجم الرأي على هذا كان أنفذ على عدوكم من السَّهْم الصائب، والحسام القاضب.

[قضاء الله وعدله]

قال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول لرجل تخصمته: والله لو صَوَّرَ الجهل لأظلم معه النهار، ولو صَوَّرَ العقل لأضاء معه الليل، وإنك من أفضلهما لمعدم؛ فَخَفِ الله، واعلم أنَّ من ورائك حَكَمًا لا يحتاج المدعى عنده إلى إحضار البينة.

[بنو كليب]

قال الفرزدق يهجو كليباً^(١):

وَلَوْ يُرْمَى بِلُؤْمِ بَنِي كَلَيْبٍ نُجُومُ اللَّيْلِ مَا وَضَحَتْ لِسَارِي^(٢)
وَلَوْ لَيْسَ النَّهَارُ بَنُو كَلَيْبٍ لَدَنَسَ لُؤْمُهُمْ وَضَحَ النَّهَارِ^(٣)

[من جيد كلام الأعراب]

دعاء أعرابي بعرفة

وقال سفيان بن عيينة: سمعت أعرابياً يقول عشية عرفة: اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنِي خَيْرَ مَا عِنْدَكَ لِشَرِّ مَا عِنْدِي، وإن لم تقبلْ تعبي ونصبي فلا تَحْرِمْنِي أَجَرَ الْمَصَابِ عَلَى مَصِيئِهِ.

عتاب بين صديقين

وقال آخر منهم لصديق استبطأه فلامه: كانت لي إليك زَلَّةٌ يمنعني من ذكرها ما أَملْتُ من تجاوزك عنها، ولست أعتدُّ إليك منها إلا بالإقلاع عنها.

وقال آخر لابن عم له: والله ما أعرفُ تقصيراً فأقلع، ولا ذنباً فأعتب، ولست أقول: إنك كذبت، ولا إني أذنبت.

(١) الفرزدق، الديوان: ٣٥٣/١.

(٢) في الديوان: «وَلَوْ تَرْمَى».

(٣) دَنَسَ ثوبه: وَسَخَهُ وَلَطَّخَهُ، وَدَنَسَ عِرْضَهُ وَخَلَّقَهُ: فعل به ما يشينه.

وقال آخر لابن عم له: سأنتخطي ذنبك إلى عُذْرِكَ، وإن كنت من أحدهما على يقين، ومن الآخر على شك، لَسَمَّ النعمة مني إليك، وتقوم الحجة لي عليك.

وأصيب أعرابيُّ بآبن له فقال - وقد قيل له: اصبر - أَعْلَى اللَّهِ أَنْجَلَدُ، أم في مصيبي أتبلد؟ والله للجزع من أمره أحبُّ إليَّ الآن من الصبر! لَأَن الجزع استكانة، والصبر قساوة، ولئن لم أجزع من النقص لا أفرح بالمزيد.

دعاء أعرابي

ودعا أعرابي فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقَرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أَذِلَّ فِي عَزِّكَ، أَوْ أَضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أَضْطَهَدَ وَالْأَمْرَ إِلَيْكَ.

قال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يَعِظُ رجلاً وهو يقول: وَيَحَكَ! إِنْ فَلَاناً وَإِنْ ضَحَكَ إِلَيْكَ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ سَكَ، ولئن أظهر الشفقة عليك، إِنْ عَقَارِيهِ لَتَسْرِي إِلَيْكَ؛ فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوّاً فِي عِلَانِيَتِكَ، فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقاً فِي سِرِّيَتِكَ.

سمع أعرابيُّ رجلاً يَقَعُ فِي السُّلْطَانِ، فقال: إِنَّكَ غُفْلٌ لَمْ تُسَمِّكِ التَّجَارِبَ، وَفِي النَّصِيحِ لَسَعُ الْعُقَارِبِ، كَأَنِّي بِالضَّاحِكِ إِلَيْكَ، وَهُوَ بِكَ عَلَيْكَ.

وحذّر بعضُ الحكماء صديقاً له صحبه رجل، فقال: احذِرْ فَلَاناً فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْمَسْأَلَةِ، حَسَنُ الْبَحْثِ، لَطِيفُ الْاسْتِدْرَاجِ، يَحْفَظُ أَوَّلَ كَلَامِكَ عَلَى آخِرِهِ، وَيَعْتَبِرُ مَا أَخَّرْتَ بِمَا قَدَّمْتَ، فَلَا تَظْهَرَنَّ لَهُ الْمَخَافَةُ فَيَرَى أَنَّ قَدْ تَحَرَّزْتَ؛ وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ يَقْطَعُ الْفِطْنَةَ إِظْهَارَ الْغَفْلَةِ مَعَ شِدَّةِ الْحَذَرِ، فَبَائِثُهُ مُبَائِثَةٌ^(١) الْآمِنِ، وَتَحَفُّظُهُ مِنْهُ تَحَفُّظُ الْخَائِفِ؛ فَإِنَّ الْبَحْثَ يَظْهَرُ الْخَفْيَ الْبَاطِنَ، وَيُبْدِي الْمُسْتَكْرَنَ الْكَامِنَ.

أُتِيَ أعرابيُّ رجلاً لم يكن بينه وبينه حرمة في حاجة له، فقال: إِنِّي امْتَطَيْتُ إِلَيْكَ الرَّجَاءَ، وَسَرَيْتُ عَلَى الْأَمَلِ، وَرَافَقْتُ الشُّكْرَ، وَتَوَسَّلْتُ بِحُسْنِ الظَّنِّ، فَحَقَّقْتُ الْأَمَلَ، وَأَحْسِنِ الْمَثُوبَةَ، وَأَكْرِمِ الصَّفْدَ^(٢)، وَأَقِمِ الْأَوْدَ^(٣)، وَعَجِّلِ السَّرَاحَ^(٤).

(١) بَائِثُهُ مَا فِي نَفْسِهِ: أَبْثُهُ إِيَّاهُ وَبَثَّهُ: أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ.

(٢) الصَّفْدُ: الْمِعْطَاءُ.

(٣) الْأَوْدُ (بِالتَّحْرِيكِ): الْإِعْوَجَاجُ.

(٤) السَّرَاحُ: الْفَكَاحُ.

قال الأصمعي: وسمعتُ أعرابياً يقول: إذا ثبتت الأصول في القلوب، نطقت الألسنة بالفروع! والله يعلم أنَّ قلبي لك شاكر، ولساني ذاكر، ومحال أن يظهر الود المستقيم، من الفؤاد السقيم.

ومدح أعرابي رجلاً، فقال: إنه ليغسل من العار وجوهاً مسودة، ويفتح من الرأي أبواباً مُسَدَّة.

وقال أعرابي:

كَمْ قَدْ وَلَدْتُمْ مِنْ رَئِيسِ قُنُورٍ دَامِي الْأُظْفَارِ فِي الْخَمِيسِ الْمُطِيرِ^(١)
سَدَكْتَ أَنْسَامِلَهُ بِقَائِمِ مُرْهَفٍ [وَبَنَشْرِ فَائِدَةٍ وَجَذْوَةٍ مَبِيرِ^(٢)
مَا إِنْ يُرِيدُ إِذَا الرَّمَاحُ تَشَاجَرَتْ دِرْعاً سَوَى سِرْبَالِ طَيْبِ الْعُنْصُرِ^(٣)
يَلْقَى السِّيفُ بِسَوْجِهِهِ وَيَنْحَرُهُ] وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمَغْفَرِ^(٤)
وَيَقُولُ لِلطَّرْفِ اضْطَبِرْ لِشَبَا الْقَنَا فَعَقَرْتُ رُكْنَ الْمَجْدِ إِنْ لَمْ تُعْقِرِ^(٥)
وَإِذَا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مُقْبِلٍ مُتَسَرِّبِلِ سِرْبَالِ مَحَلِ أَغْبِرِ^(٦)
أُؤْمِي إِلَى الْكُومَاءِ هَذَا طَارِقٌ نَحَرْتَنِي الْأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ تُنَحِرِي^(٧)

وقال:

قَامَتْ تَصَدَّى لَهُ عَمْدًا لِعَقْلَتِهِ فَلَمْ يَرَ النَّاسُ وَجْداً كَالَّذِي وَجَدَا

- (١) القسور: الأسد، ومن الغلمان: الشاب القوي، والجمع قساورة. الخميس: الجيش، والساق.
- (٢) سدك بالشيء سذكاً وسدكاً: لزمه، فهو سديك، وهي سدكة. ويقال: هو سديك بالرمح: طعان به، خفيف، سريع. والقائم: مقبض السيف. والمرهف: الرقيق اللطيف الممدد. والجنوة: الجمرة الملتبته.
- (٣) تشاجر الشيء: تداخل بعضه في بعض، وتشاجرت الرماح: تشابكت، وتشاجر القوم: تخالفوا وتنازعوا. السربال: القميص. والعنصر: الأصل.
- (٤) الهامة: الرأس. المغفر: زرد يتسج من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القنصوة، والجمع مغافر.
- (٥) الطرف: الكريم من الناس والخيال ونحوها.
- (٦) المحل: الجفاف، ويس الأرض، والشدة، والبعد. والأغبر: الزاهب النارس، وغير الشيء غبراً وغبرة: علاه الغبار، أو صار لونه كلون الغبار، فهو أغبر.
- (٧) الكوماء: الناقة العظيمة السنام.

جَيْدَاءُ رَنْدَاءُ لَمْ تَعْقِدْ فَلَائِدَهَا وَنَاهِدٌ مِثْلُ قَلْبِ الطَّبْنِيِّ مَا خَضِدَا^(١)
فَرَاخَ كَالْحَائِمِ الصَّدْيَانِ لَيْسَ لَهُ صَبْرٌ وَلَا يَأْمَنُ الْأَعْدَاءُ إِنْ وَرَدَا^(٢)
وقال آخر:

وَمُكْتَمَاتٍ بَعْدَ وَهْنٍ طَرَفْتَنِي بِأَرْدِيَةِ الظُّلُمَاءِ مُلْتَحِفَاتٍ^(٣)
دَسَنَنْ رَسُولًا نَاصِحًا وَتَلَوْنَهُ عَلَى رِقْبَةٍ مِنْهُنَّ مُسْتَشْرَاتٍ^(٤)
فِيئُ أَعَاظِيهِنَّ صِرْفَ صَبَابَةٍ وَتَشْنُ عَلَى اللَّذَاتِ مُعْتَكِفَاتٍ^(٥)
فِيَا وَجَدَ قَلْبِي يَوْمَ أَتَيْتُ نَاطِرِي سُلَيْمَى وَجَادَتْ بَعْدَهَا عِبْرَاتِي



وقال الأحف بن قيس: من لم يستوحش من ذل المسألة لم يأنف من الرد.

وقال سفيان الثوري لأخ له: هل بلغك شيء مما تكرهه عمن لا تعرف قال: لا، قال: فأقلل ممن تعرف.

أخذه ابن الرومي، فقال^(٦):

عَذُوكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَأَقْلِلْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الصَّحَابِ^(٧)
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ^(٨)
فَدَعْ عَنْكَ الْكَثِيرَ فَكَمْ كَثِيرٍ يُعَافُ، وَكَمْ قَلِيلٍ مُسْتَطَابٍ^(٩)

- (١) الجيداء: التي طال عنقها وَحْنٌ. والناهد: الفتاة التي نهت نديها، أي: برز وارتفع. وَخَضِدَ خَضْدًا: لَان، وخضد الثمر: ضَمُرَ وَانْزَوَى.
- (٢) الحائِم: العطشان. والصديان: الذي اشتد عطشه.
- (٣) الوهن: بعد نصف الليل أو نحوه.
- (٤) الرُقْبَةُ: التحفظ والفرع، أو الحالة التي تكون عليها المراقبة.
- (٥) عاطاء الشيء معاطاة: ناوله إياه. والصرف: الخالص لم يُشَبَّ بغيره. والصبابة: رقة الشوق وحرارته. وعكف على الشيء: أقبل عليه، ولزمه، ولم ينصرف عنه.
- (٦) ابن الرومي، الديوان: ٢٤٦/١.
- (٧) في الديوان: «فلا تستكثر من الصحاب».
- (٨) في الديوان: «يحول من الطعام أو الشراب».
- (٩) يُعَافُ: يُكَرَهُ وَيُبْعَضُ. مُسْتَطَاب: طيب، محبوب.

وَمَا اللَّجَجُ الْمَلَحُ مُرَوِّاتٌ وَيُلْفَى الرَّيُّ فِي التُّطْفِ الْعَذَابِ^(١)

[جَمَلُ مِنَ أَلْوَانِ الْمَدِيحِ]

وقال رجل لخالد القسري: والله إنك لتَبْذُلُ ما جَلَّ، وتَجِيرُ ما انْفَلَّ^(٢)، وتكثر ما قَلَّ؛ ففضلك بديع، ورأيك جميع، تحفظ ما شَدَّ، وتؤلف ما نَدَّ^(٣).

وسئل أعرابي عن قومه، فقال: يقتلون الْفَقْرَ، عند شدة الْفَقْرِ، وأرواح الشَّاءِ، وهبوب الْجَرِيَاءِ^(٤)، بأسنة الجزور، وَمُتْرَعَاتِ الْقُدُورِ، تهش وَجُوهُهُمْ عند طلب المعروف، وتعبس عند لمعان السيف.

ووصف أعرابي قوماً فقال: لهم جودٌ كرام اتَّسَعَتْ أحوالها، وبأسٌ ليوث تَبَّعُهَا أَشبَالُهَا، وَهَمُّهُمْ ملوكٍ انْفَسَحَتْ آمالُهَا، وفخرٌ أباء شَرَفَتْ أحوالها.

وقال خالد بن صفوان، وقد دخل على بعضِ الْوَلَاةِ: قدمت فَأَعْطَيْتُ كُلاًّ بِقِسْطِهِ من نظرك [ومجلسك]، وصوتك، وَعَدْلِكَ، حتى كأنك من كلِّ أحد، وحتى كأنك لست من أحد.

وذكر خالد رجلاً فقال: كان والله بديعَ المنطق، ذلقَ الجُرْأَةِ^(٥)، جَزَلَ الألفاظ، عريَّ اللسان، ثابت العقدة، رقيقَ الحواشي، خفيفَ الشفتين، بَلِيلَ الريق، رَحَبَ الشرف، قليل الحركات، خفيَ الإشارات، حُلُوَ الشمائل، حسن الطلاوة، حيًّا جريًّا، قَوْلًا صموتًا، يفل الحزَّ، ويصيب المفاصل، لم يكن بالهذر في مَنَاطِقِهِ، ولا بالزمر في مروءته، ولا بالخرق في خليقته، متبوعاً غير تابع، كأنه علمٌ في رأسه نارٌ^(٦).

(١) اللججُ: جمع لجة، وهي معظم الماء، واللجج الملاح: أي اللجج العظيمة. والمرويات: التي

تزيل الظما. والري: الشيع. والنطف: جمع نطفة، وهي القليل القليل من الماء. والعذاب: العذبة.

(٢) جَبَرَ الْعَظْمَ الْكَسِيرَ جَبْرًا وَجُورًا: أصلحه، أو وضع عليه الجبيرة. وما انْفَلَّ: ما تَلَمَّ، يقال: انفلَّ السيف: انثلم حدّه، انكسر.

(٣) نَدَّ: يقال نَدَّ البعير ونحوه: نَفَرَ وَشَرَدَ، ونَدَّتْ الكلمة: شَدَّتْ عن القاعدة.

(٤) الْجَرِيَاءُ: ريح الشمال، أو بردها، أو هي ريح بين الشمال والجنوب.

(٥) ذَلَقَ الْجُرْأَةَ: يقال: ذَلَقَ السنان واللسان ذَلَقًا: ذَرَبَ، أي صار حاداً وذلق السراج: أضاء، وذلق السكين ونحوه: حَدَّدَهُ.

(٦) «كأنه علم في رأسه نار»: من قول الخنساء في أخيها صخر:

وإن صَخْرًا لتَأْتُمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

(ديوانها: ص ٤٩).

وقال بعض البلغاء لرئيسه: إِنَّ من النعمة على الْمُثْنِي عليك أنه لا يَأْمَنُ التقصير، ولا يخاف الإفراط، ولا يحذر أن تُلْحَقه نقيصةُ الكذب، ولا ينتهي به المَدْحُ إلى غايةٍ إلَّا وَجَدَ في فضلك عَوْنًا على تجاوزها. ومن سعادةِ جَدِّكَ أن الداعي لا يعدم كثرةَ المشايخين، ومساعدةُ النيةِ على ظاهر القول.

ألفاظ لأهل العصر، في ضروب المصاح

قد وضعت كثرةُ التجارب، في يده مرآةِ العواقب. قد نَجَّدَتْه صروفُ الدهور^(١)، وحَنَكَّتْهُ مصايرُ الأمور. قد أَرْضَعَتْهُ الحُنْكَهَ بلبانها، وأدَبَتْهُ الذُّرْبَةَ في إبانها. فَلَانُ نوازلُ التجارب حَنَكَّتْهُ، وفودُحُ الأيام عَرَكَّتْهُ. هو عارف بتصاريف [الأيام، أَخَذَ برهان التجارب، نافذ في مجال التحصيل والتمييز. قد صحب الأيام، وتولَّى] النقض والإبرام. هو ابنُ الدهر حُنْكَةً وتجريباً، وعُوداً على الدهر صليلاً^(٢). قد أدَّبَه الليلُ والنهار، ودَارَتْ على رأسه الأدوار، واختلَّفت به الأطوار. له همةٌ علا جناحُها إلى عنان النجم. وامتدَّ صباحها من شرق إلى غرب، لا يتعاضده إشراف الأمر إذا أخطره بفكره، وانتساف الصَّخَر إذا ألقاه في وَهْمِهِ، هِمَّتُهُ أَبْعَدُ من مَنَاطِ الفرقد، وأعلى من منكب الجوزاء. أوسعُ من الأرض ذات العرض. هو حي القلب، مشرَّح الصدر، ذكيُّ الذهن، شجاعُ الطبع، ليس بالنؤوم ولا السؤوم، فذَّ فَرْد، وأسَدَ وَرْد، وكَأَنَّ له في كل جارحة قلباً. كَأَنَّ قلبه عين، وكَأَنَّ جِسْمَهُ سمع. شهابٌ مقدَّم، وقِدْحٌ مقوَّم. [وهو شهيمٌ] مشدود النطاق، قائم على ساق، قد جَدَّ واجتهد، وحشر وحشَّد، شَمَّر عن ماق الجد ما أطاق، قد ركب الصعب والدُّلُول، وتَجَسَّم الحَزَنَ والشُّهُول، وقطع البر والبحر، وأعمل السيف والرُّمَح، وأسرج الدُّهْم والشَّهْب^(٣). هو مولود في طالع الكمال، وهو جملة الجمال. قد أصبح عينَ المكارم، وزَيْن المحافل. هو فَرْدُ دهره، وشمسُ عَصْرِهِ، وزَيْنُ مِصْرِهِ، وهو عِلْمُ الفضل، وواسطة عِقْدِ الدهر، ونادِرَةُ الفلك، ونُكْتَةُ الدنيا^(٤)، وغُرَّةُ العصر. قد بايعته يَدُ المَجْد، ومالت به الشورى إلى النصر.

(١) نَجَّدَتْهُ صروف الدهر: عَجَمَتْهُ وَعَلَّمَتْهُ.

(٢) الصَّلِيبُ: الشديد القوي.

(٣) أسرج: وضع السرج. والدُّهْمُ: جمع أدهم، والشَّهْبُ: جمع أشهب، والدُّهْمَةُ والشَّهْبَةُ: من ألوان الخيل.

(٤) النكته: العلامة الخفية، أو الفكرة اللطيفة المؤثرة في النفس، أو النقطة في الشيء تخالف لونه.

فلان يزيدُ عليهم زيادةَ الشمس على البدر، والبحر على القطر. هو راثٍ نبلهم، ونَبَعَةٌ فضلهم، وجُمَّةٌ ورديهم، وواسطة عقدهم. هو صَنَرُهُمْ ويَنَرُهُمْ، ومن عليه يدور أمرهم، يُنِيفُ عليهم إنافةَ صفحة الشمس على كُرَّة الأرض، كأنهم فلك هو قُطْبُهُ، وجَسَدٌ هو قَلْبُهُ، ومملوك هو رَبُّهُ. هو مشهور بسيادتهم، وواسطة قِلادتهم. موضعه من أهل الفضل موضع الواسطة من العقد، وليلة الثَمِّ من الشهر، بل ليلة القَدَر إلى مطلع الفجر. أَفْضَلُ وَأَنْعَمُ، وأَسْدَى في الإحسان وَالْحَم، وَأَسْرَجَ في الإكرام وَالْجَم، قسم من إنعامه ما يَسْعُ أُمَمًا، وتلقى السعادة أُمَمًا^(١)، أعطاه عَنانَ الاهتمام، حتى استولى على قَصَبِ المرام. رَدَّ عنه الدهرُ أَحْصَ الجَنَاح^(٢)، وملَّكه مَقَادَةَ النجَّاح. أولاه من معهود البرِّ ومألوفه، وقَصَّرَتِ الأعداء عن مِثَالِهِ وألوفه. أولاه إِسْعَافًا سَمَحًا وعطاء سَحًا، ومتنًا صَفَوًا وعَفَوًا. أَفَاضَ عليه شِعَابَ البرِّ وَمَسَائِلَهُ، وجمع له شعوبَ الجميل وقبائله، وهَطَلَتْ عليه سحائبُ عنايته، ورفرفت حوله أَجْنَحَةُ رعايته. قد فكاه بكرمه من قَيْدِ السَّوَال، ومَعَرَّةِ الاختلال. رَاشَهُ بعدما حصَّه الفقر، وأَرْضَاهُ وقد أسخطه الدهر. ملَأَنَ العيونَ، وسهر دوننا لتحقيق الظنون. قد شِمْتُ من كرمه أَكْرَمَ سحاب، وحصلت من إنعامه في أَحْصَبِ جَنَاب. قد سدَّ ثُلْمَةُ حالي، وأَدَّرَ حَلْوِيَةَ آمالي. ما أَخْلُو من طَلٍّ إِحْسَانِهِ ووابله، وغابِرِ إنعامه وقابله. قد استمطرتُ منه بَسْوَةٌ غزير. وسرَيْتُ في ضوء قمر منير. قد كَرَعْتُ من بَرِّهِ في مَشَارِعِ تَغْزَر ولا تَنْزَر، وَرَفَلْتُ من طَوْلِهِ في ملابس تطول ولا تقصُر. إقامته في ظِلِّ ظليل، وَفَضْلُ جَزِيل، وريح بليل، ونسيم عليل، وماء رَوِيٍّ، ومهاد وَطِيٍّ، وَكُنَّ كُنِين، ومكان مَكِين. أَنَا أَوِي إِلَى ظِلِّهِ كَمَا يَأْوِي الطَّيْرُ الْمَذْعُور إِلَى الْحَرَم، وَأَوَاجِهِ مِنْهُ وَجَّةُ الْجَدِّ وَصُورَةُ الْكَرَم. أَنَا مِنْ إِنْعَامِهِ بَيْنَ خَيْرِ مُسْتَفِيز، وَجَاهِ عَرِيض، وَنَعَمِ بِيض. قد استظهرت على جَوْرِ الْآيَامِ بِعَدْلِهِ، وَاسْتَرْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّهِ. مَا أَرَدْتُ فِيهِ طَرْفِي وَأَعَدَّهُ مِنْ خَالِصِ مُلْكِي مُتَسَبِّ إِلَى عَطَائِهِ، أَوْ مُكْتَسَبٌ بِجَمِيلِ آرَائِهِ. مَسَاقَةٌ بَصْرِي تَبْعِدُ إِنْ سَافَرْتُ فِي مَوَاهِبِهِ، وَرَكَائِبُ فِكْرِي تَطْلُعُ^(٣) إِنْ أَنْصَيْتُهَا فِي اسْتِقْرَاءِ صَنَائِعِهِ^(٤). نِعْمَتُهُ نِعْمَةٌ عَمَّتِ الْأُمَمَ، وَسَبَقَتْ النِّعَمَ، وَكَشَفَتْ الْهَمُومَ وَرَفَعَتْ الْهَمَمَ، نِعْمَهُ قَدْ سَطَعَ صَبَاحُهَا مُسْتَنِيرًا، وَطَنِبَ شِعَاعُهَا مُسْتَطِيرًا، قَدْ عَرَفْتَنِي نِعْمُهُ حَتَّى

(١) أُمَمًا: قَرِيبًا.

(٢) أَحْصَى الْجَنَاح: كَنَایَةُ عَنِ الضَّعْفِ.

(٣) تَطْلُعُ: تَعْمِي، وَتَضَعْفُ، وَتَكُلُ.

(٤) أَنْصَى الدَّابَّةُ: أَتَعَبَهَا وَأَهْزَلَهَا.

استفدت شُكْرَ لساني ويدي وأتعبت ظهري، وملأت صَدْرِي. نِعْمُهُ عِنْدِي مُشْرِقَةُ الْجَوِّ،
 مغرقة النوء، مونة الضوء. تَتَابَعَتْ نِعْمُهُ تَتَابِعَ الْقَطْرِ عَلَى الْقَفْرِ، وترادفت مِنْهُ ترادفَ الغنى
 إلى ذوي الفقر. نِعْمُهُ أَشْرَقَتْ بِهَا أَرْضِي، ومُطِرَ بِهَا رَوْضِي، وورَى لها زُنْدِي، وعلا معها
 جَدْيِي، وأتاني الزمانُ يعتذرُ من إساءته، وجاءني الدهرُ ينتظرُ أمري. نِعْمُهُ أَنْعَمَتِ الْبَالُ،
 وسرت النفس والحال. نعم تعمُ عمومَ المطر، وتزيدُ عليه بإفراد النفع عن الضرر. نعمُ
 تَضَعُفُ الخواطر عن التماسها، وتَصْغُرُ القرائح عن اقتراحها. له أَيَادٍ قد عَمَّتِ الْآفَاقُ،
 ووسمت الأعناق، وأيادٍ قد حبست عليك الشكر، واستعبدت لك الحر. مِنْ تَوَالَتْ تَوَالِي
 الْقَطْرِ، واتسعت سَعَةُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وأثقلت كاهل الحر. عِنْدِي قِلَادَةٌ مُنْتَظِمَةٌ مِنْ مَنَّهُ قد
 جعلتها وَقْفًا على نحور الأيام، وجلوتها على أبصار الأنام. أَيَادٍ يَقْصُرُ عَنْ حَقْقِهَا جَهْدُ
 الْقَوْلِ، وتزهو فيها سواطع الإنعام والطول. أَيَادِيهِ أَطَوَّقَ فِي أَجْيَادِ الْأَحْرَارِ، وَأَفْلَاكُ تَدَوَّرُ
 عَلَى ذَوِي الْأَخْطَارِ. لَهُ مِنْ تَضَعُفٍ عَنْ تَحْمِلِهَا عَوَاتِقُ الْأَطْوَادِ، ويتضاعفُ حملها على
 السَّيِّعِ الشَّدَادِ، لو تحمل الثَّقْلَانِ ثَقْلَ هَذَا الْامْتِنَانِ لِثَقْلِ كَوَاهِلِهِمْ وَأَضْعَفُ عَوَاتِقِهِمْ. أَيَادٍ
 يَفْرُضُ لَهَا الشُّكْرَ وَيَحْتَمِ، وَمِنْ يُبْنِئُ بِهَا الذِّكْرَ وَيُخْتَمِ. أَيَادٍ تَثْقُلُ الْكَاهِلَ، وَمِنْ تَتَّعِبُ
 الْأَنَامِلُ. مِنْ تَضَعُفِ مَنْ الشُّكْرِ^(١)، وينشر معها قوى الشُّرِّ، من هي أحسن أثرًا من الغيث
 فِي أَزَاهِيرِ الرَّبِّيعِ، وَأَحْلَى مَوْقِعًا مِنَ الْأَمْنِ عِنْدَ الْخَائِفِ الْمَرْوَعِ. إِنْ أَتَعَبْتُ نَفْسِي فِي تَعْدَادِ
 مِنْهُ وَحَصَرُهَا فَسَاطِعَ فِي إِحْصَاءِ السَّحَابِ وَقَطَرِهَا. أَيَادٍ لَا تَحْصِي أَوْ تَحْصِي مُحَاسِنُ
 النُّجُومِ، وَمِنْ لَا تَحْصِرُ أَوْ تَحْصِرُ أَقْطَارُ الْغَيُومِ. أَيَادٍ كَعَدَدِ الرَّمْلِ وَالنَّمْلِ، أُعِيَتْ عَلَى
 الْعَدِّ، وَلَمْ تَقِفْ عِنْدَ حَدٍّ. زَادَتْ أَيَادِيهِ حَتَّى كَادَتْ تَجْهَدُ الْأَعْدَادَ، وتسبق الإعداد. أَيَادِيهِ
 عِنْدِي أَغْزَرَ مِنْ قَطَرِ الْمَطَرِ، وعوارفه^(٢) لَدَيْ أَسْرَعُ مِنْ رَجْعِ الْبَرِّ. رَفَعْتَنِي مِنْ قَعْرِ التَّرَابِ،
 إِلَى سَمَكِ السَّحَابِ. اسْتَنْبَطَهُ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ، إِلَى السَّاءِ الْأَمْجَدِ، وَقَدْ نَبَّهَهُ عَنْ
 خُمُولٍ، وَأَجْرَى الْمَاءَ فِي عَوْدِهِ بَعْدَ ذُبُولٍ، وَرَقَّاهُ إِلَى ذِرْوَةٍ مِنَ الْمَجْدِ بَعْدَ نَزُولٍ. فَضَائِلُ
 تَزَلُّ أَقْدَامُ النُّجُومِ لَوْ وَطَّنُهَا، وَتَقْصُرُ هِمَمُ الْأَفْلَاكِ لَوْ طَلَبَتْهَا، ثَبَّتَ قَدَمُهُ فِي الْمَحَلِّ الْمَنِيفِ،
 وَمَكَّنَهُ مِنْ جَوَامِعِ التَّشْرِيفِ. جَذَبَ بِضَبْعِهِ^(٣) مِنَ الْمَسْقُطِ الْمُنْحَطِّ، إِلَى الْمَرْفَعِ الْمَشْتَطِّ.

(١) مَنْ (الأولى): جمع مَنَّةٍ وهي العطية، وَمِنْ (الثانية): جمع مَنَّةٍ، وهي القوة.

(٢) الْعَوَارِفُ: جمع عارفة، وهي الإحسان.

(٣) الضَّيْعُ: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها، وهما ضيعلان.

ولهم في أدعية من صدور الكتب تليق بهذه الأثنية والممادح

أطال الله له البقاء، كطُولِ يَدِهِ بالعطاء، ومدَّ له في العمر، كامتدادِ ظِلِّهِ على الحرِّ، وأدام له المواهب، كما أفاض به الرغائب، وحرس لديه الفضائل، كما عوَّذ به الشمائل^(١).
تولَّى الله عني مكافأته، وأعان على الخير نيَّته وفعله، وأصبح بقاءه عزًّا يسطُّ يديه لأوليائه على أعدائه، وكلاءةً تذبُّ عن ودائعِ منتهِ عنده^(٢)، وزاد في نعمه وإن عَظُمَتْ، وبلغه آماله، وإن انْفَسَحَتْ، ولا زال الفضلُ يأوي منه إلى رُكنٍ منيع، وجنابٍ مريع. لا زالت الألسنُ عليه بالثناء ناطقة، والقلوبُ على مودته متطابقة، والشهاداتُ له بالفضل متناسقة. لا زال يَعْظِفُ على الصادر والوارد، عَظَفَ الأم والوالد. أبقاها الله للجميل يُعْلي مَعَالِمَهُ، ويَحْمِي مكارمَهُ، ويعمر مَدَارِجَهُ، ويشمِّر نتائجَهُ. أدام الله أيامَهُ التي هي أيام الفضائل ومواقيتِها، وأزمان المآثر وتواريخِها. أدامه الله للمواهب، ساميةً الذوائبِ، مُوفيةً على مُنيَّةِ الراجي وبغية الطالب. أبقاها الله للعطاء يفِضُّه بين خدَمِهِ، والجمال يُفِيضُهُ على إنشاءِ نعمه، والله يتابعُ له أيامَ العلاء والغبطة، والنماء والبسطة، ليرتَعَ أنواع الخدم في رياض فواضِلِهِ، وَيَكْرَعَ أصنافُ الحشم في حياضِ مواهبِهِ، والله يُقيِّه طویلَ النزع، مديدَ الباع، مليّاً بالاتصال والاصطناع. جزاءُ الله عن نعمةٍ هيأها بعد أن أسبغها، وعارفةً ملأها بعد أن سَوَّغها. أفضلُ ما جازى به مبتدئ إحسان، ومُجِيرُ إنسان، لا زال مكانُهُ مَصَاناً للكرم، مَعاناً للنعم، لا تريمه المواهب، ولا ترومه النوائب^(٣)، بُسِطَتْ بالعلا يدُهُ، وَقُرْنَ بالسعادة جَدُهُ، وجُعِلَ خيرُ يَوْمِيهِ غَدُهُ، ولا زالت الأيام والليالي مطاياهِ، في أمانيه وآمالِهِ [وأيامِهِ]، وصَرَفَ صرُوفَ الغَيْرِ عن إصابة إقبالهِ وكمالهِ.

وقال ابن المعتز في القاسم بن عُبَيْد الله^(٤):

(١) الشمائل: جمع شمال، وهي هنا الخصلة والخلة والطبيعة والعُلُق. قال عبد يغوث بن وقاص الحارثي:

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْمَلَأَةَ نَعْمَهَا قَلِيلٌ وَمَا لَوْمِي أَخِي مِنْ شِمَالِيَا
(ابن منظور، لسان العرب: شمل).

(٢) الكلاءة: الحفظ والرعاية. تذبُّ: تدفع.

(٣) مَصَاناً: موضعاً للصون. ومعاناً: موضعاً للعون. لا تريمه: لا تبرحه. لا ترومه: لا تطلبه أو تبتغيه.

(٤) البيتان الأول والثاني في ديوانه: ص ٣٠٥، ضمن قصيدة من اثني عشر بيتاً، ولا وجود لبقية الأبيات في الديوان.

أَيَا حَاسِدًا يَكْهِنُ التَّلْهُفُ قَلْبَهُ إِذَا مَا رَأَهَ غَازِيَا وَسَطَ عَسْكَرٍ^(١)
تَصَفَّحَ بَنِي الدُّنْيَا فَهَلْ فِيهِمْ لَهُ نَظِيرٌ تَرَى ثُمَّ اجْتَهِدْ وَتَفَكَّرْ^(٢)
فَإِنْ حَدَّثَكَ النَّفْسُ أَنَّكَ مِثْلُهُ يَنْجُو ضَلَالٍ بَيْنَ جَنِيكَ مُضْمَرٍ^(٣)
فَجُدْ، وَأَجِدْ رَأْيَا، وَأَقْدِمْ عَلَى الْعِدَا وَشُدَّ عَنِ الْإِثْمِ الْمَآزِرَ وَأَصْبِرْ
وَعَاصِرِ شِبَاطِينَ الشَّبَابِ وَقَارِعِ الدَّ وَائِثْبُورِ الْفُجْرِ وَاجْبُرِ^(٤)
فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَا فَاغْزِرِ الدَّهْرَ وَاعْتَرِفْ لِأَحْكَامِهِ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَغْفِرْ

[منزلة صناعة الكلام]

قال الجاحظ: صناعة الكلام عِلْقُ نَفْسٍ، وَجَوْهَرٌ ثَمِينٌ، هُوَ الْكَزْبُ الَّذِي لَا يَقْنَى وَلَا يَتَلَى، وَالصَّاحِبُ الَّذِي لَا يُمَلُّ وَلَا يُقْلَى، وَهُوَ الْعِيَارُ عَلَى كُلِّ صِنَاعَةٍ، وَالزَّمَامُ لِكُلِّ عِبَارَةٍ، وَالْقِسْطُ الَّذِي بِهِ يَسْتَبِينُ نَقْصُ كُلِّ شَيْءٍ وَرُجْحَانُهُ، وَالرَّأُوقُ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ صَفَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَكُدْرُهُ، وَالَّذِي كُلُّ عِلْمٍ عَلَيْهِ عِيَالٌ، وَهُوَ لِكُلِّ تَحْصِيلٍ آلَةٌ وَمِثَالٌ.

وقال ابن الرومي^(٥):

مَا عُنْزُ مُعْتَزَلِيٍّ مُوسِرٍ مَنَعَتْ كَفَّاهُ مُعْتَزَلِيًّا مِثْلُهُ صَفَا^(٦)
أَيَزُعِمُ الْقَدْرَ الْمَحْتُمُومَ تَبْطَأُهُ إِنْ قَالَ ذَاكَ فَقَدْ حُلَّ الَّذِي عَقَدَا^(٧)

وقال [ابن الرومي]^(٨):

- (١) في الديوان: «إِذَا مَا رَأَهَ عَادِيَا وَسَطَ عَسْكَرٍ».
- (٢) في الديوان: «نَظِيرٌ تَرَاهُ وَاجْتَهِدْ وَتَفَكَّرْ». وَتَصَفَّحَ الشَّيْءُ: نَظَرَ فِيهِ، وَتَصَفَّحَ الْقَوْمُ: نَظَرَ فِيهِمْ لِيَتَعَرَّفَ أُمُورَهُمْ.
- (٣) النجوى: إِسْرَارُ الْحَدِيثِ، أَوْ الْقَوْمُ الْمُتَنَاجُونَ.
- (٤) عَاصَاهُ: عَصَاهُ: خَرَجَ عَنْ طَاعَتِهِ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ. وَأَجْبَرَ الشَّيْءُ: جَبَرَهُ: أَصْلَحَهُ وَقَوَّمَهُ.
- (٥) ابن الرومي، الديوان: ١٦٤/٢. وَالْبَيْتَانِ مِنْ قَصِيدَةٍ قَالَهَا فِي أَبِي الْعَبَّاسِ الْقَاسِي.
- (٦) في الديوان:

مَا عُنْزُ مُعْتَزَلِيٍّ مُوسِرٍ مَنَعَتْ كَفَّاهُ مُعْتَزَلِيًّا مُقْتَرَا صَفَا
وَالصَّفَا: الْعَطَاءُ.

- (٧) تَبْطَأُهُ عَنِ الشَّيْءِ: عَوَّقَهُ وَبَطَّأَهُ.
- (٨) ابن الرومي، الديوان: ٢٢٣/٣.

لِذَوِي الْجِدَالِ إِذَا غَدَوْا لِجِدَالِهِمْ
وَهُنَّ كَاتِبَةُ الزُّجَاجِ تَصَادِمَتْ
فَالْقَاتِلُ الْمَقْتُولُ ثُمَّ لِضَعْفِهِ

حَجَّحَ تَضَلُّ عَنْ الْهُدَى وَتَجَوَّرُ
فَهَوَتْ، وَكَلَّ كَاسِرٌ مَكْسُورٌ
وَلَوْهِيهِ، وَالْأَسِرُ الْمَأْسُورُ^(١)

وقال أبو العباس الناشيء يفتخر بالكلام:

وَتَحَنُّ أَتَسَّ يَعْرِفُ النَّاسُ فَضْلَنَا
تُنِيرُ وَجْوهَ الْحَقِّ عِنْدَ جَوَابِنَا
صَمَتْنَا فَلَمْ نَشْرُكَ مَقَالاً لِصَامِتٍ
وَقَالَ يَصِفُ أَصْحَابَهُ:

بِالسُّنَنِ زَيْنَتْ صُدُورُ الْمُحَافِلِ^(٢)
إِذَا أَظْلَمَتْ يَوْمًا وَجْوهَ الْمَسَائِلِ
وَقُلْنَا فَلَمْ نَشْرُكَ مَقَالاً لِقَائِلِ

فَلَوْ شَهِدْتَ مَقَامَاتِي وَأُنْدِيَّتِي
فِي فِتْيَةٍ لَمْ يَلَاقِ النَّاسُ مُذْ وَجِدُوا
مُجَاوِرُو الْفَضْلِ أَفْلاكُ الْعُلَا سُبُلَ الدِّ
كَأَنَّهُمْ فِي صُدُورِ النَّاسِ أَفْئِدَةٌ
يُبْدُونَ لِلنَّاسِ مَا تُخْفِي ضَمَائِرُهُمْ
دَلُّوا عَلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا بِظَاهِرِهَا
مَطَالَعِ الْحَقِّ مَا مِنْ شُبْهَةٍ غَسَقَتْ

يَوْمَ الْخِصَامِ وَمَاءُ الْمَوْتِ يَطَّرِدُ
لَهُمْ شَيْهًا وَلَا يُلْفَوْنَ إِنْ فُقِدُوا^(٣)
غَوَى مَحَلُّ الْهُدَى عُمْدُ النَّهْيِ الْوُطْدُ
تَحَسُّ مَا أَخْطَأُوا فِيهَا وَمَا عَمَدُوا
كَأَنَّهُمْ وَجَدُوا مِنْهَا الَّذِي وَجَدُوا
وَعَلِمَ مَا غَابَ عَنْهُمْ بِالَّذِي شَهِدُوا
إِلَّا وَمِنْهُمْ لَدَيْنَا كَوَكَبٌ يَقْدُ^(٤)

وقال سعيد بن حميد:

قَالَتْ: اكْتُمُ هَوَايَ وَأَكْنِ عَنْ اسْمِي
قُلْتُ: لَا أَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، قَالَتْ:
وَتَخَلَّيْتُ عَنْ مَقَالَةٍ بِشْرٍ بـ

بِالْعَزِيزِ الْمُهِمِّينِ الْجَبَّارِ^(٥)
صِرْتُ بَقْدِي تَقُولُ بِالْإِجْبَارِ
— غِيَاثٍ لِمَا ذَهَبَ النِّجَارِ

(١) الْوَهْيُ: الضَّعْفُ.

(٢) الْمُحَافِلُ: جَمْعُ مُحَفَلٍ: مَكَانُ الْاجْتِمَاعِ، وَالْمَجْلِسِ.

(٣) يُلْفَوْنَ: يَوْجِدُونَ.

(٤) غَسَقَتْ: أَظْلَمَتْ.

(٥) كَتَى عَنْ الشَّيْءِ كِتَابَةً: تَكَلَّمَ بِمَا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَيْهِ وَلَمْ يُصْرَحْ.

وقال أبو القاسم بن عباد الصاحب:

كُنْتُ دَهْرًا أَقُولُ بِالِاسْتِطَاعَةِ وَأَرَى الْجَبَرَ ضِلَّةً وَشَنَاعَةً^(١)
فَقَدْتُ اسْتَطَاعَتِي فِي هَوَى ظَ بَنِي؛ فَسَمِعًا لِلْمُجِيرِينَ وَطَاعَةً
وقال أيضاً:

وَلَمَّا تَنَاءَتْ بِالْحَيِيبِ دِيَارُهُ وَصِرْنَا جَمِيعًا مِنْ عِيَانٍ إِلَى وَهْمٍ^(٢)
تَمَكَّنَ مِنِّي الشَّوْقُ غَيْرَ مُخَالِسٍ كَمُعْتَزَلِيٍّ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ خَضَمٍ^(٣)

[بعض ما قيل في النسيب]

وأشند محمد بن سلام بعض هذه الأبيات التي أنشدها، وزعم أنها لأبي كبير الهذلي، ورويت ليزيد بن الطثرية وغيره، والرواة يُدخلون بعض الشعر في بعض، وهي^(٤):

عَقِيلِيَّةٌ، أَمَّا مَلَاتُ إِزَارِهَا فَوَعْتُ، وَأَمَّا خَضَرُهَا فَبَيْلٌ^(٥)
تَقِيْظُ أَكْنَافَ الْحِمَى، وَيُظْلِلُهَا بِنَعْمَانٍ مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ مَقِيلٌ^(٦)
فِيَا خُلَّةَ النَّفْسِ الَّتِي لَيْسَ دُونَهَا لَنَا مِنْ أَخْلَاءِ الصَّفَاءِ خَلِيلٌ^(٧)
وَيَا مَنْ كَتَمْنَا حُبَّهُ، لَمْ يُطْغِ لَهُ عَدُوٌّ، وَلَمْ يُؤْمَرْ عَلَيْهِ دَخِيلٌ^(٨)
أَمَّا مِنْ مُقَامٍ أَشْتَكِي غُرْبَةَ النُّوَى وَخَوْفَ الْعِدَا فِيهِ إِلَيْكَ سَبِيلٌ

(١) شنع الشيء شناعة: اشتد قبحه، وصار كريهاً.

(٢) عيان: معاينة ومشاهدة.

(٣) جلس الشيء خلساً: استلبه من نهزة ومخاتلة، وخالس فلاناً: انتهب منه فرصة فأعجله.

(٤) الأبيات في وفيات الأعيان: ٣٦٨/٦، وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ منسوبة ليزيد بن الطثرية.

(٥) في وفيات الأعيان: «فَدِغَصُ وَأَمَّا خَضَرُهَا فَبَيْلٌ». عقيلية: منسوبة إلى عقيل. ملات إزارها: الموضع الذي يُدار عليه الإزار. الوَعْتُ: كلٌّ لئِنْ سهل. والدعص: التلّة من الرمل (كناية عن عظم كفلها). بئيل: دقيق، هضم، كأنّه منقطع عمّا تحته، وما فوقه.

(٦) قَيِّظُ القوم بالمكان: أقاموا فيه أيام الحرّ. الأكثان: الظلال والنواحي والجوانب، مفردها: كنف.

(٧) خُلَّةُ الإنسان: أهل مودّته، أو زوجته.

(٨) في وفيات الأعيان: «لَمْ يُطْغِ بِهِ».

أَلَيْسَ قَلِيلًا نَظَرَةً إِنْ نَظَرْتُهَا
وَلَنْ عَنَاءَ النَّفْسِ - مَا دُمْتُ هَكَذَا
أَرَا جَمْعَةً قَلْبِي عَلَيَّ فَرَائِحُ
فَلَا تَحْمِلِي وَزْرِي وَأَنْتِ ضَعِيفَةٌ
فَيَا جَنَّةَ الدُّنْيَا، وَيَا مُتَّهَى الْمَنَى
فَدَيْتُكَ، أَعْدَانِي كَثِيرٌ، وَشَقَّتْنِي
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ جِئْتُ بَعْلَةً
فَمَا كُلَّ يَوْمٍ لِي بِأَرْضِكَ حَاجَةٌ
وَأُنْشِدُ ابْنَ سَلَامٍ لِأَبِي كَبِيرِ الْهَذَلِي^(٦):

وَأَنِّي لَمُسْتَنْقٍ لَهَا اللَّهُ كُلَّمَا
سَحَابٌ لَا مِنْ صَيِّبٍ ذِي صَوَاعِقٍ
وَلَا مُخْلَفَاتٍ حِينَ هَجَنَ بِسَمَةِ
إِذَا مَا هَبَطْنَ الْقَاعَ قَدْ مَاتَ نَبْثُهُ

لَوَى الدَّيْنَ مُعْتَلٌّ وَشَحَّ غَرِيمٌ^(٧)
وَلَا مُحْرِقَاتٍ مَأْوُهُنَّ حَمِيمٌ^(٨)
إِلَيْهِنَّ هَوَجَاءُ الْمَهَبِّ عَقِيمٌ^(٩)
بَكَيْنَ بِهِ حَتَّى يَعِيشَ هَشِيمٌ^(١٠)

- (١) في وفيات الأعيان: «وكلُّ ليس منك قليل».
- (٢) العنود: الشديد العناد، وقد عَنَدَ عنه عَنَدًا وعنودًا: تباعد وانصرف.
- (٣) في وفيات الأعيان: «فلا تحملي ذنبي».
- (٤) الشَّقَّةُ: السفر الطويل، وقيل: بُعْدُ مَسِيرٍ إِلَى الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ، أَوْ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ. وَالْأَشْيَاعُ: الأولياء والأنصار.
- (٥) الْعِلَّةُ: السبب، والمرض، والحدث يشغل صاحبه عن حاجته.
- (٦) هو أبو كبير، عامر بن الحليس الهذلي، من بني سهل بن هذيل: شاعر جاهلي فحل، من شعراء الحماسة. أدرك الإسلام وأسلم. عُرِفَ بمطالع واحدة لأربع قصائد لم يسبقه إليها أحد من الشعراء. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٥٦١/٢؛ البغداد، خزانة الأدب (صادر): ٤٧٣/٣).
- (٧) مُعْتَلٌّ: يقال: اعتلَّ فلان: تَمَسَّكَ بِعِلَّةٍ، واعتلَّ فلاناً وعليه: اعتاقه عن أمرٍ، وتجنَّى عليه. وشَحَّ فلان بالشيء: بخل. والغريم: الدائن.
- (٨) الصَّيِّبُ: السحاب ذو الصَّوْب. الحميم: الحار.
- (٩) الهوجاء من الرياح: المتداركة الهبوب كأنَّ بها هَوْجاً. والمَهَبُّ: موضع الهبوب. وريح عقيم: لا تأتي بمطر.
- (١٠) الهشيم: اليابس من كل شيء، أو النبت الذي بقي من عام أوَّل.

[عمران بن حطّان والحجاج]

ولما ظفر الحجاج بعمران بن حطّان الشاري^(١) قال: اضربوا عُنُقَ ابن الفاجرة، فقال
عمران: لبئسا أدبَكَ أهلك يا حجاج! كيف أمنت أن أُجيبك بِمِثْلِ ما لقيتني به؟ أبعَدَ الموت
منزلةً أصابعك عليها؟ فأطرق الحجاج استحياءً، وقال: خلّوا عنه؛ فخرج إلى أصحابه،
فقالوا: والله ما أطلقك إلّا الله، فارجع إلى حربته معنا، فقال: هيهات! غلّ يداً مُطْلَقَها،
واسترق رقبَةً مُعْتَقَها! وأنشد:

أَقَاتِلُ الْحَجَّاجَ عَنْ سُلْطَانِهِ	يَسِدُ تَقِرَّ بِأَنَّهَا مَوْلَاتُهُ؟
إِنِّي إِذَا لَأَخُو الدُّنْيَا، وَالَّذِي	عَفَتْ عَلَى عِرْفَانِهِ جَهْلَاتُهُ
مَاذَا أَقُولُ إِذَا وَقَفْتُ مُوَازِيًا	فِي الصَّفِّ وَاحْتَجَّتْ لَهُ فَعَلَاتُهُ؟
وَتَحَدَّثَ الْأَكْفَاءُ أَنَّ صَنَائِعًا	عُرِسَتْ لَدَيَّ فَحَنَظَلَتْ نَخْلَاتُهُ ^(٢)
أَقُولُ جَارَ عَلِيٍّ؟ إِنِّي فِيكُمْ	لَأَحَقُّ مَنْ جَارَتْ عَلَيْهِ وُلَاتُهُ
تَاللَّهِ مَا كِدْتُ الْأَمِيرَ بِآلَةٍ	وَجَوَارِحِي وَسِلَاحَهَا آلَاتُهُ

أخذ أبو تمام هذا فقال معتذراً إلى أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي^(٣):

أَلَيْسَ هُجْرَ الْقَوْلِ مَنْ لَوْ هَجَوْتُهُ	إِذَا لَهَجَانِي عَنْهُ مَعْرُوفُهُ عِنْدِي ^(٤)
كَرِيمٌ مَتَى أَمَدَحُهُ أَمَدَحُهُ وَالْوَرَى	مَعِي، وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحَدِي ^(٥)

وعمران بن حطّان هو القائل:

لَمْ يُعْجِزَ الْمَوْتَ شَيْءٌ دُونَ خَالِقِهِ	وَالْمَوْتُ فَإِنْ إِذَا مَا غَالَهُ الْأَجَلُ ^(٦)
وَكُلَّ كَرِبٍ أَمَامَ الْمَوْتِ مُنْقَطِعٌ	بِالْمَوْتِ، وَالْمَوْتُ فِيمَا بَعْدَهُ جَلَلُ ^(٧)

(١) الشاري: واحد الشراة، وهم الخوارج، زعموا بأنهم شروا أنفسهم وأموالهم من الله، أي باعوهما، بأن لهم الجنة.

(٢) الأكفاء: جمع كفاء، وهو المماثل، أو القوي القادر على تصريف العمل.

(٣) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٩٠.

(٤) هُجْرُ الْقَوْلِ: فاحشه.

(٥) في الديوان: «ومتى ما لُمْتُهُ وَحَدِي».

(٦) غَالَهُ غَوَلًا: أهلكه، أو أخذه من حيث لا يدري فأهلكه.

(٧) الْجَلَلُ هُنَا: معناه يَسِيرٌ هَيِّنٌ.

وكان الْفَرَزْدَقُ عمل بيتاً، وحلف بالطلاق أنْ جَريراً لا يَنْقُضُهُ، وهو^(١):
 فَإِنِّي أَنَا الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ نَازِلٌ بِنَفْسِكَ فَاَنْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهُ
 فاتصل ذلك بجرير، فقال: أنا أبو حَزْرَةَ، طَلقت امرأةَ الْخَبِيثِ، وقال^(٢):
 أَنَا الدَّهْرُ يُفْنِي الْمَوْتَ والدَّهْرُ خَالِدٌ فَجِئَنِي بِمِثْلِ الدَّهْرِ شَيْئاً يُطَاوِلُهُ
 وإنما أشار جرير إلى قول عمران.

وهو عِمْرَانُ بن حِطَّانَ بن ظَبْيَانَ بن سَهْلَ بن معاوية بن الحارث بن سدوس بن
 سنان بن ذهل بن ثعلبة، ويكنى أبا شهاب، وكان من الشُّرَاةِ، وكان من أخطب الناس
 وأفصحهم، وكان إذا خطب ثارت الخوارجُ إلى سلاحها، وكان من أقبح الناس وجهاً،
 قالت له امرأته وكانت في الجمال مثله في القبح: إني لأرجو أن أكون وإياك في الجنة؛ لأن
 الله رزقك مثلي فَشَكَرْتُ، وابتلاني بمثلك فَصَبَرْتُ!

[بين أعرابي وبعض الولاة]

ودخل أعرابي على بعض الولاة فقال: أَصْلَحَ اللهُ الأمير، اجعلني زمماً من أزمَّتِكَ،
 فَإِنِّي مِسْعَرُ حَرْبٍ^(٣)، وَرَكَّابُ نَجَبٍ، شَدِيدٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ، لَيِّنٌ عَلَى الْأَصْدِقَاءِ، مَنْطَوِي
 الْحَصِيلَةِ، قَلِيلُ الثَّمِيلَةِ^(٤)، [قليل] غرار النوم، قد غَذَّتْنِي الْحُرُوبُ أَفَاوِيْقَهَا^(٥)، وَحَلَبْتُ
 الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ، فَلَا يَمْنَعُكَ مِنِّي الدَّمَامَةُ^(٦)، فَإِنْ تَحْتَهَا لَشَهَامَةٌ.

[الدنيا، وأهلها]

قال المسيح عليه السَّلام: الدُّنْيَا لِإِبْلِيسَ مَزْرَعَةٌ، وَأَهْلُهَا لَهُ حُرَّاثٌ. وقال إبليس لعنه
 اللهُ: الْعَجَبُ لِبَنِي آدَمَ يُحِبُّونَ اللهَ وَيَعْصُونَهُ، وَيُبْغِضُونِي وَيُطِيعُونِي.

(١) الْفَرَزْدَقُ، الديوان: ١٧١/٢. وفيه: «إِنِّي أَنَا الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ».

(٢) جرير، الديوان: ص ٣٨٨.

(٣) مسعر حرب: موقدها ومشعلها.

(٤) الثميلة: ما يبقى في البطن من الطعام والشراب.

(٥) أفويق: جمع فَيْقَةٍ، وهي اللبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين.

(٦) الدمامة: القبح.

[أربع كلمات طيبات]

خرج الزهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيْتُ كالِيومَ، ولا سمعت كأربع كلمات تكلمَ بهن رجلٌ عند هشام؛ دخل عليه فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ احفظ عني أربع كلمات، فيهن صلاحُ مُلْكِكَ، واستقامةُ رَعِيَّتِكَ. قال: هاتهن؟ قال: لا تَعِدَنَّ عِدَّةً لا تَبْقَى من نفسك بإنجازها، ولا يَغْنُرَنَّ الْمُرتَقَى وإن كان سهلاً إذا كان المُنَحْدَرُ وَغَرّاً، واعلم أن للأعمال جزاءً فاتَّقِ العواقبَ، وأن للأمور يَغْتَاتِ فَكُنْ على حَذَرٍ.

قال عيسى بن دأب: فحدَّثْتُ بهذا الحديث الهادي وفي يده لُقْمَةٌ قد رفعها إلى فيه فأمسكها، وقال: ويحك أَعِدْ عليّ! فقلت: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَسْغُ لِقْمَتَكَ، فقال: حديثك أحبُّ إليّ.

[بين معاوية وعمرو بن سعيد]

ولما عقد مُعَاوِيَةُ الْبَيْعَةَ لِيَزِيدَ قَامَ النَّاسُ يَخْطُبُونَ؛ فقال لعمرُو بن سعيد: قُمْ يا أبا أمية، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أَمَّا بعد فَإِنَّ يَزِيدَ بن معاوية أَجَلَ تَوْمُونِهِ، وَأَمَلُ تَوْمُونِهِ، إِنْ اسْتَضَفْتُمْ إِلَى حِلْمِهِ وَسَعْيِكُمْ^(١)، وَإِنْ احْتَجَجْتُمْ إِلَى رَأْيِهِ أَرشُدَكُمْ، وَإِنْ افْتَرَقْتُمْ إِلَى ذَاتِ يَدِهِ أَغْنَاكُمْ، جَذَعَ قَارِحَ^(٢)، سُوبِقَ فَسَبَقَ، وَمُوجِدَ فَمَجَدَ، وَقُورِعَ فَفَرَعَ، وَهُوَ خَلْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا خَلْفَ عَنْهُ، فقال له معاوية: اجلس، فقد أَبْلَغْتَ.

وَعَمْرُو بن سعيد هذا هو الْأَشْدَقُ؛ [وإنما سُمِّي الْأَشْدَقُ] لتشادقه في الكلام، وقيل: بل كان أَفْقَمَ مَائِلَ الشُّدُقِ، وهذا قول عوانة بن الحكم الكلبي، وهو خِلَافُ قول الشاعر:

تَشَادَقَ حَتَّى مَالَ فِي الْقَوْلِ شِدْقُهُ وَكُلُّ خَطِيبٍ لَا أَبَا لَكَ أَشْدَقُ^(٣)

وكان أبوه سعيد بن العاصِ أَحَدَ خُطَبَاءِ بَنِي أُمِيَّةٍ وبلغائهم.

ولما مات سعيد دخل عمرو على معاوية فاستنطقه فقال: إِنْ أَوَّلَ كُلِّ مَرْكَبٍ صَعْبٌ،

(١) استضفتم: ملئتم.

(٢) الجذع: الشاب الحدث. والقارح: الشديد المجرب.

(٣) شِدْقٌ شِدْقًا: اتَّسع شِدْقُهُ، فهو أَشْدَقُ، وهي شِدْقَاءُ. وقد تشدَّقَ فلان: لوى شدقه بكلام يتفصَّح. ويقال: خطيب أَشْدَقُ: جَهِيرٌ مُقَوَّهٌ.

وإن مع اليوم غداً، فقال معاوية: وفي هذه العلة إلى من أوصى بك أبوك؟ قال: أوصى إلي ولم يوصِ بي، فقال معاوية: إن ابن سعيد هذا لأشَدُّ!

[من تواضع الرشيد]

قال ابن السماك للرشيد: يا أمير المؤمنين، تواضعك في شرفك أفضل من شرفك؛ إن رجلاً آتاه الله مالاً وجَمَلاً وحَسَباً، فوَاسَى في مَالِهِ، وَعَفَّ في جَمَالِهِ، وَتَوَاضَعَ في شَرَفِهِ، كُتِبَ في ديوانِ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ.

[للمتبي في حمى أصابته بمصر]

نالت أبا الطيب المتبي علة بمصر، فكان بعض إخوانه من المصريين يُكثر الإلمام^(١) به، فلما أبلَّ قطعه، فكتب إليه: وَصَلْتَنِي أَعَزَّكَ اللَّهُ مُعْتَلًّا، وَقَطَعْتَنِي مُبَلًّا، فَإِنْ رَأَيْتَ الْآ تَكْدِرُ الصَّحْبَةَ عَلَيَّ، وَتَحْبِبُ الْعِلَّةَ إِلَيَّ، فَعَلَّتْ.

وفي هذه العلة يقول^(٢):

أَقَمْتُ بِأَرْضٍ مِصْرَ؛ فَلَا وَرَائِي	تَخُبُّ بِي الرِّكَابُ، وَلَا أَمَامِي ^(٣)
عَلِيلُ الْجِسْمِ مُنْتَبِعُ الْقِيَامِ	شَدِيدُ الشُّكْرِ مِنْ غَيْرِ الْمُدَامِ
وَرَأَيْتَنِي كَأَنْ بِهَا حَيَاءٌ	فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا	فَعَافَتْهَا، وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي ^(٤)
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ نَفْسِي وَعَنْهَا	فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ
إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَلْتَنِي	كَأَنَّ عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامِ ^(٥)
كَأَنَّ الصَّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي	مَدَامُهَا بِأَرْبَعَةِ سَجَامِ ^(٦)

(١) الإلمام: من ألم به: إذا زاره أو عادَهُ. وأبلَّ المريض: برىء من مرضه.

(٢) المتبي، الديوان: ٢٩٧/٢.

(٣) الخب: ضرب من العلو.

(٤) المطارف: جمع مطرف، وهو رداء من خز. والحشايَا: جمع حشية، وهي الفراش المَحْشُور. وعافتها: أبتَّها.

(٥) لا وجود لهذا البيت في رواية الديوان.

(٦) المدام: مجاري الدمع. وقوله: بأربعة، أي بأربعة أدمع. وسجام: منسكة.

أُرَاقِبُ وَفَتْهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ مُرَاقِبَةُ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامُ^(١)
وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا وَالصَّدْقُ شَرٌّ إِذَا أَلْقَاكَ فِي الْكُورِ الْعِظَامُ^(٢)

ألفاظ لأهل العصر في العيادة وما جانسها من ذكر التشكي والمرض وتلونه، وسوء أثره، والانزعاج لعوارضه

عرض لي مرضٌ أساء بالنجاة ظني، وكاد يصرف وجه الإفاقة عني. هو شوري بين أمراض أربعة: صداع لا يخف، وحُمى لا تُغب^(٣)، وزُكام لا يجف، وسعال لا يكف. علة هو في أسرها مُعْتَقِلٌ، وَبَقِيدُهَا مُكَبَّلٌ. أمراض تلذت عليّ، وأسأت بي والي، فأنا أشكر الله تعالى إذ جعلها عِظَةً وتذكيراً، ولم يَبْقِ منها الآن إلا يسيراً، أحسب أن الأمراض قد أقسمت على أن تجعل أعضائي مَرَاتِعَهَا، [وَأَلَّتْ عَلَى أَنْ تُصَيِّرَ جَوَارِحِي مَرَابِعَهَا]. عِلَلٌ لَا يصدر منها [آبٌ إِلَّا لَتَكْدِيرٍ وَرَدٌ] ولا يعزل منها وال إلا بولي عهد. قد كَرَّتْ تلك العلة فعادت عِلَلاً، [وسقتني بعد نَهْلٍ عِلَلاً]^(٤). عِلَلُ بَرَّتُهُ بِرِّي الْأَخْلَةَ، ونقصته نَقَصَ الْأَهْلَةَ، وتركته حَرَضاً^(٥)، وأوسعته مَرَضاً، وغادرتُه والخيالُ أَكْثَفُ مِنْ جُتَّةٍ، والطيْفُ أَوْفَرُ مِنْ قُوَّةٍ. عرض له من المرض ما صار معه القنوط يُعَادِيهِ وَيُرَاوِحُهُ، واليأس يُخَاطِبُهُ وَيُصَافِحُهُ. قد وَرَدَ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ أَوْخَمُ الْمَنَاهِلِ، وِبَاتَ مِنْ حَسَنِ الرَّجَاءِ عَلَى مَرَاحِلٍ. طَالَعْتُ الْكَرْمَ يَتَرَجَّعُ نَجْمُهُ بَيْنَ الْإِضَاءَةِ وَالْأَفُولِ، وتمثلُ شمسُه بَيْنَ الْإِشْرَاقِ وَالْغُرُوبِ. أَصْبَحَ فَلَانٌ لَا يُقِلُّ رَأْسَهُ^(٦)، وَلَا يَحُورُ ظِلُّهُ^(٧)، وَيَدُّ الْمَنِيَّةِ تَقَرَّعَ بَابَهُ. مَا هُوَ لِلْعِلَّةِ إِلَّا عَرَضٌ، وَلِسَهَامِ الْمَنِيَّةِ إِلَّا عَرَضٌ. شَاهَدْتُ نَفْسِي وَهِيَ تَخْرُجُ، وَلَقِيتُ رُوحِي وَهِيَ تَعْرُجُ، وَعَرَفْتُ كَيْفَ تَكُونُ السُّكْرَةُ، وَكَيْفَ تَقَعُ الْغَمْرَةُ، وَكَيْفَ طَعَمُ الْبَعْدِ وَالْفِرَاقِ، وَكَيْفَ تَلْتَفُّ السَّاقُ بِالسَّاقِ. مَرَضٌ لِحَقَّقَتِي رَوْعَتُهُ، وَمَلَكَتْنِي لَوْعَتُهُ. وَجَدْتُ فِي نَفْسِي أَلَمًا أَوْحَشُهُ أَنْسُهُ وَأَنْسُهُ أَوْحَشُهُ. بَلَغَنِي مِنْ شَكَايَتِهِ مَا أَوْحَشَ جَنَابَ الْأَنْسِ، وَأَرَانِي الظَّلْمَةَ فِي مَطْلَعِ الشَّمْسِ. قَدْ بَلَغَنِي مَا

(١) يريد أنه لجزعه من ورودها يراقب وقت زيارتها خوفاً لا شوقاً.

(٢) يقول: إنها صادقة الوعد لأنها لا تتخلف عن ميقاتها وذلك الصدق شرٌّ لأنها تصدق فيما يضرُّ.

(٣) الإغباب: أن تزور يوماً وترك الزيارة يوماً.

(٤) التَّهْلُ: الشرب الأول. والقلل: الشرب الثاني.

(٥) الحَرَضُ: الشديد المرض.

(٦) لا يقلُّ رأسه: لا يرفعه، أو لا يحمله.

(٧) حار حوراً، وخُثُوراً: رجع، أو نقص، وحار الماء في الغدير: تَرَدَّد.

عَرَضَ لك من المرض، وألَمَ بك من الألم؛ فتحاملَ على سوداء صدري، وأقْدَى سوادَ طَرْفي، وقد استنفد القلبُ لِعَلَّتْك ما أعدّه الصبرُ من ذخيرة، وأضعف ما قواه العزم من بصيرة. قلبي يتقلب على حدِّ السيف إلى أن أعرف انكشافَ العارض وزِيَاله، وأتحقق انحساره وانتقاله. أنهى إليّ من الخبر العارض، حسمَ الله مادَّته، وقصّر مدَّته، ما أراني الأفق مظلمًا، والعيش مُبْهِمًا.

فقر في تهوين العلة بحسن الرجاء،

وذكر المشاركة والاهتمام بخُلُولها والاستبشار بزوالها

إن الذي بلغني من ضَعْفِهِ قد أضعف المنة، وإن لم يُضَعِف الظنَّ بالله والثقة. قد استشفَّ العافية من ثوب رقيق. ما أكثر ما رأينا هذه العلة حَلَّتْ ثم تَجَلَّتْ وتوالت ثم تولَّت. خبرني فلان يعلتكَ فأشركني فيها ألمًا وقلَقًا، فلا أعلَّ الله لك جسمًا ولا حالًا، فليست نِكاية الشغل في قلبي بأقلَّ من نِكاية الشكاية^(١) في جسمك، ولا استيلاء القلبِ على نفسي بأيسر من أعراضِ السقم لبذلك، ومن ذا الذي يصحُّ جسمه إذا تألمت إحدى يديه، ومن يحل محلَّها في القرب إليه؟ أنا مُتَزَعِّجٌ لشكَّاتك، مبهجٌ بمُعَافَاتك، إن كانت عِلَّتْك قد قَرَحَتْ وجَرَحَتْ، فإنَّ صحتك قد آسَتْ وآسَتْ^(٢). بلغتني شكَّاتك فأرتُعت، ثم عرفت خِفَّتَها فأرتُحت. الحمد لله على قُرْبِ المدة بين المِحْنَةِ والمِنْحَةِ، والنقمة والنعمة، وعلى أنا لم نتهالك بأيدي المخافة حتى تدارك بِحُسْنِ الرَّأفَةِ، ولم نستسلم لخِطَّةِ الحذر حتى سَلِمَ من وَرْطَةِ القدر.

ولهم في شكاة أهل الفضل والسؤدد

شكَّاتُه التي تتألم منها المروءة والفضل. وسقم منها الكرم المَحْضُ. شكَّاتُه التي غَصَّتْ بها خلوق المَجْدِ، وَحَرَجَتْ لها صدورُ أهل الأدب والعلم^(٣)، وبدا الشحوبُ معها على وَجْهِ الحرية، وحرم معها البِشْرُ على غُرَّةِ المروءة. قد اعتلَّ بعِلَّتِه الكرم، وشكا بشكايته السيفُ والقلم. شكاة عرضت منه لِشَخْصِ الكرم الغضِّ، والشرف المَحْضِ. لو قبلت

(١) نكى العَدُوَّ وفيه نِكاية: أوقع به، أو هزمه وغلبه.

(٢) آسَتْ: عالجت ودأوت.

(٣) حرجت لها الصدور: ضاقت.

مهجتي فدية، دون وعكة تجدها، لجذت بها، وساعة أنس تفقدها لبذلتها، عالماً بأنني أفدي الكرم لا غير، والفضل ولا ضير.

ولهم في تسم الإقبال، وذكر الإبلال

قد شمت بارقة العافية، وشمنت رائحة الصحة. أقبل صنع الله من حيث لم أحسب، وجاءني لطفه من حيث لا أرتقب، وتدرجت إلى الإبلال وقد حسبتة حُلماً، ورضيت به دون الاستقلال غُماً، وقد تخلصت إلى شط العافية لما تداركني الله تعالى بلطفه من لطافته، وجعل هبة الروح عارفة من عوارفه^(١)، وتسمت رُوح الحياة، بعد أن أشفيت على الوفاة^(٢)، وثبتت وجهي إلى الدنيا بعد مواجهتي للدار الأخرى. قد صافح الإقبال والإبلال، وقارب النهوض والاستقلال. سيربك الله من العافية التي أذاقك ويسخ ثوبها، ولا يعبد عليك مكروهاها. قد استقل استقلال السيف حُودث عهده وأعيد فرنده^(٣)، والقمر انكشف سراره^(٤)، وذاعت أسرارها. حين استقلت يدي بالقلم، بشرتك بانحصار الألم. قد أذاك الله بالسلامة الفائضة، وعافاك من الشكاة العارضة. أبل فانشرح الصدر، وشمل السرور. الحمد لله الذي حرس جسمك وعافاه، ومحا عنه أثر السقم وعفاه. الحمد لله الذي جعل العافية عُقبى ما تشكيت، والسلامة عَوْضاً عما عايشت. الحمد لله الذي أعفاك من مُعاناة الألم، وعافاك للفضل والكرم، ونظمني معك في سلك النعمة؛ وضمتني إليك في مُبلج الصحة. الحمد لله الذي جعل السلامة ثوبك الذي لا تنضوه^(٥)، وسيفك فيما تأمله وترجوه. الله يجعل السلامة أطول بُرديك، وأشدّها سُوغاً عليك، ويدفع في صدور المكاريه دون ريعك، وفي نحور المحاذير قبل الانتهاء إلى ظلك. لا زالت العافية شعارك، ما واصل ليّلك نهارك.

فقر في أدعية العيادة، والاستشفاء بكتبها

أغناك الله عن الطب والأطباء، بالسلامة والشفاء، وجعله عليك تمحيصاً^(٦) لا

(١) العارفة: الإحسان.

(٢) أنفى على الشيء: قاربته ودنا منه.

(٣) حُودث عهده: أراد جدد صقاله. وفرند السيف: جوهره.

(٤) السّرار: الليلة التي يخفي فيها القمر.

(٥) لا تنضوه: لا تخلعه.

(٦) التمحيص: الاختبار والامتحان.

تغيباً، وتذكيراً لا نكيراً، وأدباً لا غضباً. الله يدرك لك صَوْبَ العافية، ويضفي عليك ثوبَ الكفاية الوافية. أوصل الله تعالى إليك من برِّد الشفاء ما يكفيك حرَّ الأدوية. كتابك قد أدَّى رَوْحَ السَّلامة في أعضائي، وأوصل برِّدَ العافية إلى أحشائي. تركني كتابك والنعم تثبُّ إلى صحتي، والخطوب تتجافى عن مُهْجتي، بعد أمراضٍ اكتنفت، وأسقامٍ اختلفت. قد استبق كتابك والعافية إلى جسمي كأنهما فرساً رَهانَ تباريا، ورَسِلا مِضْمارَ تجاريا^(١). أبدلني كتابك من حُزُون الشكاية سُهولَ المعافاة، ومن شِدَّة التَّألم، رخاءَ التَّنعَم.

قطعة من كلام الأطباء والفلاسفة

العاقل يترك ما يحبُّ ليستغني عن العلاج بما يكره.
جالينوس: المرض هَرَم عارِض، والهَرَم مرضٌ طبيعي.
وله: مجالسة الثَّقيلِ حُمَّى الروح.
بختيشوع: أَكَلُ القليل مما يَضُرُّ أَصلح من أَكَل الكثير مما ينفع.
يوحنا بن ماسويه: عليك من الطعام بما حَدَث، ومن الشراب بما قَدِم.
وقال له المأمون: ما أَحْسَنُ ما يُنْقَلُ به على النبد؟ قال: قول أبي نواس، يريد قوله^(٢):
الحمد لله لَيْسَ لِي مَثَلُ خَمْرِي شَرابي وَثَقْلِي القَبْلُ^(٣)
ثابت بن قرة^(٤): ليس شيء أضرَّ بالشيخ من أن تكون له جارية حسناء، وطباخ حاذق؛ لأنه يكثر من الطعام فيَسْقَم، ومن الجماع فيَهْرَم.
غيره: ليس لثلاث حيلة: فقرٌ يُخالِطُه كسل، وخصومة يُخامرُها حَسَد، ومرض يُمازِجه هَرَم.

(١) المِضْمار: المكان تَضمر فيه الخيل، أي تسابق.

(٢) أبو نواس، الديوان: ص ٣٧١.

(٣) في الديوان:

ما لِي فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ مَثَلُ مَائي عَفَّارٍ وَثَقْلِي القَبْلُ
وَالثَّقْلُ: ما يُنْقَلُ به على الشراب من فواكه، أو ما يُفَكَّ به من جوز ولوز وبنقد ونحوها.

(٤) هو أبو الحسن، ثابت بن قرة بن هارون الحراني؛ كان في مبدئ أمره صيرفياً بحرَّان، ثم انتقل إلى بغداد، واشتغل بعلوم الأوائل فمهر فيها، وبرع في الطب وكان الغالب عليه الفلسفة، وله تأليف كثيرة. توفي سنة ٢٨٨ هـ / ٩٠٢ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/٣١٣).

ثلاثة يجب مداراتهم: السلطان، والمريض، والمرأة.

ثلاثة يُعَذِّرون على سوء الخلق: المريض، والمسافر، والصائم.

فقر في ذكر المرض والصحة والموت والحياة لغير واحد

شيثان لا يُعرفان إلا بعد ذهابهما: الصحة والشباب. بمرارة السقم توجد حلاوة الصحة. هذا كقول أبي تمام^(١):

إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَذْكَرَتْ حُسْنَ فِعْلِهِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا الشَّرُّ لَمْ يُعْرِفِ الشَّهْدُ^(٢)
وقوله أيضاً^(٣):

وَالْحَادِثَاتُ وَإِنْ أَصَابَكَ بُؤْسُهَا فَهَوَ الَّذِي أَذْرَاكَ كَيْفَ نَعِيمُهَا^(٤)
ما سلامةُ بدنٍ معرَّضٍ للآفات، وبقاء عمرٍ معرضٍ للساعات؟
قال أبو النجم:

إِنَّ الْفَتَى يُضْبِحُ لِلْسَقَامِ كَالْغَرَضِ الْمَنْصُوبِ لِلْسَهَامِ
أَخْطِئاً رَامٍ وَأَصَابَ رَامٍ

وقيل لبعض الأطباء وقد نهكته العلة: ألا تتعالج؟ فقال: إذا كان [الداء من] السماء بطل الدواء، وإذا قدر الرب بطل حذرُ المريبوب، ونعم الدواء الأمل، وبس الداء الأجل.

برزجمهر: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثل الحياة فالغنَى، وإن كان شيء مثل الموت فالفقر.

غيره: خيرٌ من الحياة ما لا تَطِيبُ الحياةُ إلا به، وشرٌّ من الموت ما يُمَتِّنى الموت له.

(١) أبو تمام، الديوان: ٢٧٨/١. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شيبانة الخراساني.

(٢) الشري: الحنظل. الشهد: العسل.

(٣) أبو تمام، الديوان: ١٤٣/٢. والبيت من قصيدة يمدح بها كُتَّاب عبد الله بن طاهر: عبد الحميد ابن غالب، والفضل بن محمد بن منصور، وإبراهيم بن وهب.

(٤) في الديوان: «فهو الذي أنباك».

قال المتنبي في مريثة أم سيف الدولة^(١):

أَطَابَ النَّفْسَ أَنَّكَ مَوْتًا تَمَنُّهُ الْبَوَاقِي وَالْخَوَالِي^(٢)
وَزُلَّتْ وَلَمْ تَرَيَّ يَوْمًا كَرِيهًا تُسَرُّ النَّفْسُ فِيهِ بِالزَّوَالِ
رَوَاقِ الْعِزِّ فَوْقَكَ مُسَبِّطًا^(٣) وَمُلْكُ عَلِيٍّ ائْتِكَ فِي كَمَالِ^(٤)

المَوْتُ باب الآخرة

الحسن: ما رأيتُ يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت.

ابن المعتز: الموت سَهْمٌ مُرْسَلٌ إِلَيْكَ، وعمرُكَ بقدر سفره نحوكَ.

أخذَه بعض أهل العصر فقال:

لَا تَأْمَنِ الدَّهْرَ الْخَوُّو نَ وَخَفَ الْبَوَادِرَ أَفْتَاهُ^(٤)
فَالْمَوْتُ سَهْمٌ مُرْسَلٌ وَالْعُمُرُ قَلْبٌ مَسَافَتَاهُ

البيسي:

لَا يَغُرُّنَّكَ أَنِّي لَيْسَ الْمَد مَنْ فَعَزَمِي إِذَا انْتَضَيْتُ حُسَامُ^(٥)
أَنَا كَالْوَرْدِ فِيهِ رَاحَةُ قَوْمٍ ثُمَّ فِيهِ لِأَخْرَيْنَ زُكَامُ

وقال آخر:

إِنِ الْجَهْلُورَ تَضُرُّنِي أَخْلَاقُهُ ضَرَرَ السُّعَالِ لِمَنْ بِهِ اسْتِنْقَاءُ

ولآخر، وهو البيسي:

فَلَا تَكُنْ عَجَلًا فِي الْأَمْرِ تَطْلُبُهُ فَلَيْسَ يُحَمَّدُ قَبْلَ التُّضَجِ بُحْرَانُ

(١) المتنبي، الديوان: ١١٦/٢.

(٢) الخوالي: المواضي.

(٣) المسبط: الممتد.

(٤) البوادر: جمع بادرة، وهي ما يبدو من رجلٍ عند غضبه من خطيٍ أو سقط، وقيل: هي الغضبة السريعة.

(٥) الحسام: السيف. وانتضى السيف: أخرجه من غمده.

وقال آخر:

لَا تَعْتَمِدْ إِلَّا رَئِيساً فَاضِلاً إِنَّ الْكِبَارَ أَطْبُ لِبَلَاءِ وَجَسَاعِ

وقال آخر:

وَإِنِّي لِأَخْتَصُّ بَعْضَ الرِّجَالِ وَإِنْ كَانَ قَدَمًا ثَقِيلاً عَبَآمًا^(١)
فَإِنَّ الْجُبْنَ عَلَى أَنَّهُ ثَقِيلٌ وَخِيمٌ يُشْهِي الطَّعَامَا

وقال المتنبي^(٢):

لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَالِ^(٣)

وقال أيضاً^(٤):

أَعْيِذُهَا نَظَرَائِ مِثْلِكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فَيَمْنُ شَحْمُهُ وَرَمَّ^(٥)

[من الأجوبة المفحمة]

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي: كان بلال بن أبي بردة جلدًا حين ابتلي، أحضره يوسف بن عمر في قيوده لبعض الأمر، وهم بالحيرة؛ فقام خالد بن صفوان فقال ليوسف: أيها الأمير، إن عدو الله بلالاً ضربني وحسني ولم أفارق جماعة، ولا خلعت يداً من طاعة، ثم التفت إلى بلال فقال: الحمد لله الذي أزال سلطانك، وهذ أركانك، وأزال جمالك، وغير حالك، فوالله لقد كنت شديد الحجاب، مستخفاً بالشريف، مظهرًا للعصية! فقال بلال: يا خالد؛ إنما استطلت عليّ بثلاث معك هُنَّ عليّ: الأمير مُقبلٌ

(١) القدم: العي عن الكلام. والعبام: الثقل.

(٢) المتنبي، الديوان: ١٠٨/٢. والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة الحمداني.

(٣) يقول: لعل عتبك يكون سبباً لتحقيق وفائي وإخلاصي في خدمتك، ويقطع عني ألسنة الحساد فأحمد عواقبه، كما أن من العلل ما قد يكون سبباً لصحة الأجسام وانتفاض الدخل منها فتأمن عود غيره إليها.

(٤) المتنبي، الديوان: ٩٤/٢. والبيت من قصيدة قالها وقد جرى له خطاب مع قوم متشاعرين وظن الحيف عليه والتحامل في بلاط سيف الدولة.

(٥) الشحم والورم: مثل لما يتشابه ظاهره وهو في الحقيقة على طرفي نقبض.

عليك، وهو عني مُعْرِض. وأنت مُطْلَقٌ، وأنا مأسور. وأنت في طيبتك، وأنا غريب! فأفحمه، [ويقال: إن آل الأهتم زعفة دخلت في بني منقر فانتسبت إليهم]^(١).

وكان سبب ضرب بلال خالداً في ولايته أن بلالاً مرّ بخالد في موكب عظيم، فقال خالد:

سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ

فسمعه بلال، فقال: والله لا تقشع أو يصيبك منها شُبوب^(٢) برد، وأمر بضربه وحَبَسِه.

[رثاء قدح]

وقال أبو الفتح كشاجم يرثي قدحاً له انكسر:

عَرَائِي الزَّمَانُ بِأَحْدَاثِهِ	فَبَغْضَاءٍ أَطَقْتُ، وَيَغْضُ فَدَحٌ ^(٣)
وَعِنْدِي فَجَائِعٌ لِلْحَادِثَاتِ	وَلَيْسَ كَفَجَعَتِنَا بِالْقَدَحِ ^(٤)
وِعَاءُ الْمُدَامِ، وَتَاجُ الْبَنَانِ	وَمُذْنِي السَّرُورِ، وَمُقْصِي التَّرَحِ ^(٥)
وَمَعْرِضُ رَاحٍ مَتَسَى تَكُوسُهُ	وَيُسْتَوْدَعُ السَّرَّ مِنْهَا يُحِ
وَجَسْمٌ هَوَاءٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ	يُرَى لِلْهَوَاءِ بِكَفِّ شَبَحِ
يَرُدُّ عَلَى الشَّخْصِ تِمَالَهُ	وَإِنْ تَخِذَهُ مِرَاةً صَلَحَ
وَيَعْبَسُ مَنْ نَكَهَاتِ الْمُدَامِ	فَتَحْسِبُ مِنْهُ عَيْبَرًا نَفَحَ ^(٦)
وَرَقٌّ؛ فَلَوْ حَلَّ فِي كِفَّةِ	وَلَا شَيْءٍ فِي أُخْتِهَا مَا رَجَحَ ^(٧)
يَكَادُ مَعَ الْمَاءِ إِنْ مَنَّهُ	لِمَا فِيهِ مِنْ شَكْلِهِ يَنْفَسِحُ ^(٨)

(١) ما بين المعقوفين ساقط من أكثر الأصول، وهو كلام مُقَحَّم.

(٢) الشُّبوب: الدفعة العظيمة من المطر.

(٣) عراه الداء والأمر عَرَوَا: أَلَمَ بِهِ وَأَصَابَهُ. وفدحه الأمر: أَثْقَلَهُ.

(٤) الفجائع: جمع فجعة، وهي المصيبة المؤلمة.

(٥) المدام: الخمر. الترح: الحزن.

(٦) نفح الطيب: انتشرت رائحته.

(٧) رجح الشيء رجوحاً وَرَحَجَاناً: ثَقُلَ.

(٨) انفسح المكان: اتَّسع، وانفسح الشيء: انبسط، وانفسح الصدر: انشرح.

هَوَى مِنْ أَنَامِلٍ مَجْدُولَةٍ فَيَا عَجَباً مِنْ لَطِيفِ رَزْخٍ
فَأَفْقَدْنِيهِ عَلَى ضَنْسَةٍ بِهِ لِلزَّمَانِ غَرِيمٌ مَلَخٌ
كَأَنَّ لَهُ نَاطِراً يُتَّقِي فَمَتَى يَتَمَّمُذُ غَيْسَرَ الْمَلَخِ
أُفْلَبُ مَا أَبْقَتِ الْحَادِثَا ثُ مِنْهُ وَفِي الْعَيْنِ دَمْعٌ يَسُخُ^(١)
وَقَدْ قَدَحَ الْوَجْدُ مِنِّي بِهِ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ نَارِهِ مَا قَدَحُ
وَأَعْجَبُ مِنْ زَمَنِ مَسَانِحِ وَآخِرَ سَلْبُ تِلْكَ الْمَنَسِخِ
فَلَا تَبْعِدَنَّ فَكَمُ مِنْ حَشَى عَلَيْكَ كَلِيمٌ وَقَلْبٌ قَرِخُ^(٢)
سَيُفْهِرُ بَعْدَكَ رَسْمُ الْعُبُوقِ وَتُوحِشُ مِنْكَ مَغَانِي الصَّبْحِ^(٣)

[من طرائف الوصف]

لابن الرومي في وصف قدح

ومن أحسن ما قيل في وصف قدح، قول ابن الرومي يصف قدحاً أهدها إلى علي بن يحيى المنجم^(٤):

وَيَدِيعِ مِنَ الْبِدَائِعِ يَنْبِي كُلَّ عَقْلٍ، وَيَطْبِي كُلَّ طَرْفٍ^(٥)
رَقَّ فِي الْحُسْنِ وَالْمَلَاخَةِ حَتَّى مَا يُؤْفِيهِ وَأَصْفَ حَقَّ وَصْفٍ^(٦)
كَفَمِ الْحَبِّ فِي الْمَلَاخَةِ بَلْ أَشَدَّ هِيَ وَإِنْ كَانَ لَا يَنَاجِي بِحَرْفٍ^(٧)
تَنْفُذُ الْعَيْنُ فِيهِ حَتَّى تَرَاهَا أَخْطَأَتْهُ مِنْ رِقَّةِ الْمُشْتَشَفِّ^(٨)
كَهَوَاءٍ بِلَا هَبَاءٍ مَشُوبٍ بِضِيَاءٍ، أَرْقَى بِذَلِكَ وَأَصْفٍ

(١) سَحَّ الْمَاءِ وَالْدَمْعُ: سَالَ.

(٢) قَلْبٌ قَرِخٌ: مَجْرُوحٌ، حَزِينٌ.

(٣) الْعُبُوقُ: مَا يُشْرَبُ بِالْعُثْيِ.

(٤) ابْنُ الرَّومِيِّ، الدِّيَوَانُ: ١٩٩/٤.

(٥) يَطْبِي كُلَّ طَرْفٍ: يَسْتَهْوِي كُلَّ نَظَرٍ، يَرِيدُ أَنَّهُ يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْأَلْبَابِ وَالْأَبْصَارِ، كَأَنَّهُ يَسْحَرُهَا.

(٦) فِي الدِّيَوَانِ: «وُفِي الْحُسْنِ وَالْمَلَاخَةِ حَتَّى».

(٧) فِي الدِّيَوَانِ: «كَفَمِ الْحَبِّ فِي الْحَلَاوَةِ» وَ«لَا يَنَاجِي بِحَرْفٍ».

(٨) يَقُولُ: إِنَّهُ لَشَفَافِيَّتُهُ لَا يَكَادُ يَبِينُ.

صَيَغَ مِنْ جَوْهَرٍ مُصَفًّى طِبَاعاً
وَسَطُ الْقَدْرِ، لَمْ يُكَبَّرْ لَجَرَعٍ
لَا عَجُولٍ عَلَى الْعَقُولِ جَهُولٍ
فِيهِ نُورٌ مُعَقَّرَبٌ عَطَفْتُهُ
مِثْلَ عَطْفِ الْأَصْدَاغِ فِي وَجَنَاتِ
مَا رَأَى النَّاضِرُونَ قَدْأً وَشُكْلًا
لَا عِلَاجاً بِكَيْمِيَاءٍ مُصَصَّفٍ
مُسَوِّالٍ، وَلَمْ يَصْفُرْ لِرَشْفٍ^(١)
بَلْ حَلِيمٌ عَنْهُمْ فِي غَيْرِ ضَعْفٍ
حُكْمَاءُ الْقِيُونِ أَحْكَمَ عَطْفٍ^(٢)
مِنْ حَيِّبٍ يُزْهِى بِحُسْنٍ وَظَرْفٍ^(٣)
مِثْلَهُ فَارِساً عَلَى بَطْنٍ كَفٍّ

للتنوخي في وصف قدح أيضاً

وقال أبو القاسم التنوخي:

وَرَاحٍ مِنَ الشَّمْسِ مَخْلُوقَةٍ
هَوَاءً وَلَكِنَّهُ جَامِدٌ
إِذَا مَا تَأَمَّلْتَهَا وَهِيَ فِيهِ
فَهَذَا النِّهَايَةُ فِي الْإِيضَاضِ
وَمَا كَانَ فِي الْحَقِّ أَنْ يُقَرَّنَا
وَلَكِنْ تَجَاوَزَ شُكْلَاهُمَا
كَأَنَّ الْمَدِيرَ لَهَا بِالْيَمِينِ
تَدْرَعُ ثَوْباً مِنَ الْيَاسَمِينِ
بَدَتْ لَكَ فِي قَدَحٍ مِنْ نَهَارٍ
وَمَاءً وَلَكِنَّهُ غَيْرُ جَارٍ
تَسَاءَلْتِ نُوراً مُحِيطاً بِنَارٍ
وَهَذَا النِّهَايَةُ فِي الْإِحْمِرَانِ
لِقَرِطِ الشَّافِي وَبُعْدِ النَّقَارِ^(٤)
بَسِطَانٍ فَاتَّفَقَا فِي الْجَوَارِ
إِذَا قَامَ لِلسَّقْيِ أَوْ بِالْيَسَارِ
لَهُ فَرْدٌ كُفٍّ مِنَ الْجُلُنَارِ^(٥)

لكشاجم في رثاء منديل

وقال أبو الفتح كشاجم يرثي منديل كُفٍّ:

مَنْ يَبْكُ مِنْ وَجْدٍ عَلَى هَالِكٍ
فَإِنَّمَا أَبْكِي عَلَى دَسْتَجَةٍ^(٦)

(١) يقول: إنه متوسط الحجم، لا بالكبير ولا بالصغير.

(٢) القيون: الضئاع.

(٣) في الديوان: «من غزال».

(٤) النفار: الحران.

(٥) الجلنار: زهر الرمان.

(٦) الدَسْتَجَةُ: حُرْمَةٌ ونحوها، تجمع اثني عشر فرداً من كل نوع (معرب دسته).

جَاذِبْنِيهَا رَشَاءً أَغْيَدُ فَجَادَتْ النَفْسُ بِهَا مُخْرَجَةً^(١)
 بَدِيعَةً فِي نَسْجِهَا، مِثْلَهَا يَفْقَدُ مَنْ يُحْسِنُ أَنْ يَنْسُجَةَ
 كَأَنَّمَا رُقَّةٌ أَشْكَالِهَا مِنْ رُقَّةِ الْعُشْبَانِ مُسْتَخْرَجَةً
 كَأَنَّمَا مَقْتُولٌ أَهْدَاهَا أَيْدِي دَبَا فِي نَسَقِ مُزَوَّجَةٍ^(٢)
 كَأَنَّمَا تَفْرِيقُ أَعْلَامِهَا طَاوُسَةٌ تَخْتَالُ أَوْ دُرَّجَةً^(٣)
 لَيْسَتْ جَدَّدَهَا حُسْنُهَا لَا رُتَّةَ السَّلَكِ وَلَا مُنْهَجَةً^(٤)
 كَمْ رُقَّةٌ مِنْ عِنْدِ مَعْشُوقَةٍ تُرْسَلُ فِي أَثْنَائِهَا مُنْزَجَةً
 أَوْ مَسْحَةٍ مِنْ شَفَةِ عَذْبَةٍ تُبْرَدُ حَرَّ الْكَبِدِ الْمُضْجَجَةِ
 إِلَى تَحِيَّاتٍ لَطَافٍ بِهَا تُسَكِّنُ مِنِّي مُنْهَجَةً مُزْعَجَةً
 كَانَتْ لِمَسْحِ الْكَاسِ حَتَّى تَرَى مِنْهَا لَأَثَارِ الْقَذَى مُخْرَجَةً
 وَخَاتَمِي يُعْقَدُ فِيهَا إِذَا أَثَرْتُ مِنْ كَفْيٍ أَنْ أُخْرِجَةً
 وَأَنْقَسِي الْجَامَ بِهَا كُلَّمَا كَلَّلْتُ الْمَازِجَ أَوْ تَسَوَّجَةً^(٥)
 فَاسْتَأْثَرَ الذَّهْرُ بِهَا؛ إِنَّهُ ذُو هِمَّةٍ مُجْلِيَّةٍ مُرْهَجَةٍ^(٦)
 فَأَصْبَحَتْ فِي كَمْ مُخْتَالَةً مُلْجَمَةً فِي هَجْرِنَا مُسْرَجَةً

وله يصف سقوط الثلج

وقال أيضاً يصف سقوط الثلج :

الثلجُ يَسْقُطُ أَمْ لَجِينٌ يُنْبَكُّ أَمْ ذَا حَصَى الْكَافُورِ ظَلٌّ يُفَرِّكُ^(٧)

- (١) الرشاء: ولد الظية إذا قوي وتحرك ومشى مع أمه. والأغيد من الناس: الوسنان المائل العنق، والمُتَتْنِي في نعومة.
- (٢) الدُّبَا: صغار الجراد والنمل.
- (٣) الدُرَّجَةُ: طائر ظاهر جناحيه أغبر، وباطنهما أسود، يشبه القطا، إلا أنه ألطف منه.
- (٤) اللبليس: الذي أكثر لبسه. والمنهجة: الخلقة البالية.
- (٥) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها، وهي مؤنثة، وقد غلب استعمالها في قذح الشراب.
- (٦) مرهجة: يقال: أَرَهَجَ بَيْنَ الْقَوْمِ: أثار فتنة، والرَّهْوَجَةُ: ضرب من السير، ومشى رهوج: سهل لين، والرَّهَجُ: السَّهْبُ.
- (٧) اللجين: الفضة.

رَاحَتْ بِهِ الْأَرْضُ الْفَضَاءُ كَأَنَّهَا
شَابَتْ مَفَارِقُهَا فَيَتَن ضَحْكُهَا
أَرَى عَلَى خُضْرِ الْعُصُونِ فَأَصْبَحَتْ
وَتَرَدَّتِ الْأَشْجَارُ مِنْهُ مُسْلَاةٌ
كَانَتْ كَعُودِ الْهِنْدِ طُرِّي فَاثْكَفَى
وَالْجَوُّ مِنْ أَرْجِ الْهَوَاءِ كَأَنَّهُ
فَخَذِي مِنَ الْأَوْتَارِ حَظَّكَ إِنَّمَا
فَالْيَوْمُ يُوزَنُ بِالْمَلَاخَةِ، إِنَّهُ

فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ يَتَغَيَّرُ تَضَحُّكَ
طَوْرًا، وَعَهْدِي بِالْمَشِيبِ يُنْسِكُ
كَالدَّرِّ فِي قُضْبِ الزَّبْرِجَدِ يُسْلِكُ^(١)
عَمَّا قَلِيلٍ بِالرِّيحِ تَهْتِكُ^(٢)
فِي لَوْنٍ أَيْضَ وَهُوَ أَسْوَدُ أَحْلَكُ
خَلَعَ تَغْيِيرُ تَارَةٍ وَتُمَسِّكُ^(٣)
يَتَحَرَّكُ الْإِطْرَابُ حِينَ تَحَرَّكُ
سَيَطُلُ فِيهِ دَمُ الدَّنَانِ وَيُسْفَكُ^(٤)

ولكشاجم أيضاً

وقال أيضاً:

بَاكِرٌ فَهَذِي صَيِّحَةٌ قَرَّةٌ
تُلْجُ وَشَمْسٌ وَصَوْبٌ غَادِيَةٌ
بَاتَتْ وَقِيعَانُهَا زَكْرَجَدَةٌ
كَأَنَّهَا وَالثَّلُوجُ تَضْحِكُهَا
كَأَنَّ فِي الْجَوِّ أَيْدِيًا تَنَرَّتْ
شَابَتْ فَسُرَّتْ بِذَاكَ وَابْتَهَجَتْ
قَدْ جُلِيَتْ بِالْيَاضِ بَلَدَتْهَا

وَالْيَوْمُ يَوْمٌ سَمَاؤُهُ ثَرَّةٌ^(٥)
وَالْأَرْضُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ غُرَّةٌ
فَأَصْبَحَتْ قَدْ تَحَوَّلَتْ دُرَّةٌ
تُعَارُ مِمَّنْ أُجِبَّهِ ثَغْرَةٌ
دُرًّا عَلَيْنَا فَأُسْرَعَتْ ثَرَّةٌ
وَكَانَ عَهْدِي بِالْمَشِيبِ يُسْتَكْرَةٌ
فَاجُلُ عَلَيْنَا الْكُؤُوسَ بِالْحُمُرَةِ

للصنوبري في المعنى

وقال الصنوبري:

- (١) أرى: زاد ونما، وأريت الأرض: طابت.
- (٢) تَرَدَّتْ: لبست.
- (٣) الأرج: طيب الرائحة. والخَلَعُ: جمع خِلْعَةٍ، وهي ما تخلعه من الثياب يردحوها، ويقال: خلَعَ عليه خِلْعَةً: أعطاه أو ألبسه إياها.
- (٤) طَلَّ الدَّمُ طَلًّا وَطُلُوًّا: هدر، وَطَلَّ وَلَمْ يُثَارْ بِهِ وَلَمْ تُؤْخَذْ دَيْتُهُ، وَطَلَّ دَمُهُ طَلًّا: طَلَّ، وهذا أكثر استعمالاً من المبنى للمعلوم، فهو مظلول.
- (٥) صَيِّحَةٌ قَرَّةٌ: باردة. والثَّرَّةُ: الغزيرة.

ذَهَبَ كُؤُوسَكَ يَا غُلَا مُمْضًا ذَا يَوْمٍ مُمْضًا^(١)
 الْجَوُّ يُجَلِّي فِي الْبِيَا ضٍ وَفِي حُلَى الْكَافُورِ يُعْرِضُ
 أَزَعَمْتَ ذَا ثُلُوجٍ وَذَا وَرَدَّ عَلَى الْأَغْصَانِ يُنْقِضُ
 وَرَدَّ الْبَرَبِيعِ مُوَرَّدٌ وَالْوَرْدُ فِي تَشْرِيبِنَ أَبْيَضُ

للبيستي

وقال البيستي:

كَمْ نَظَمْنَا عُقُودَ لَهْوٍ وَأُنْسٍ وَجَعَلْنَا الزَّمَانَ لِلْهَوِ سِلْكََا
 وَفَقْنَا الدُّنْيَانَ فِي يَوْمِ ثُلُجٍ عَزَلِ الْكَاسُ فِيهِ رُشْدًا وَنُكَا^(٢)
 فَكَأَنَّ السَّمَاءَ تَحُلُّ كَافُورًا رَأَيْنَا، وَنَحْنُ نَفْتِقُ مِنْكََا

للميكالي يصف الجمد

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي يصف الجمد:

رُبَّ جَنِينٍ مِنْ حَبَا النَّمِيرِ مُهْتِكِ الْأَسْتَارِ وَالضَّمِيرِ^(٣)
 سَلَلْتُهُ مِنْ رَحِمِ الْغَدِيرِ كَأَنَّهَا صَحَائِفُ الْبَلُورِ
 أَوْ أَكْرُ تَجَسَّمَتْ مِنْ نُسُورِ أَوْ قَطَعَتْ مِنْ خَالِصِ الْكَافُورِ^(٤)
 لَوْ بَقِيََتْ سِلْكَاً عَلَى الدَّهْورِ لَعَطَلَسَتْ قَسَائِدَ الثُّجُورِ
 وَأَخْجَلَتْ جَوَاهِرَ الْبَحُورِ [وَسُمِّيَتْ ضَرَائِرَ الثُّغُورِ]
 يَا حُسْنَهُ فِي زَمَنِ الْحَرُورِ إِذْ قَبِظَتْهُ مِثْلَ حَشَى الْمَهْجُورِ^(٥)
 يَهْدِي إِلَى الْأَكْبَادِ وَالصَّدُورِ رَوْحاً يُجَلِّي نَفْثَةَ الْمَصْدُورِ
 وَيَجْلِبُ السُّرُورَ لِلْمَقْرُورِ^(٦)

(١) مُمْضًا: مُحَلَّى بِالْفَضَّةِ، أَوْ مَطْلَى بِهَا.

(٢) فَتَقِ الشَّيْءَ فَنَقَا: شَقَّقَهُ، وَفَتَقَ الْمِسْكَ: خَلَطَ بِهِ مَا يُدْكِيهِ.

(٣) النَّمِيرُ (مِنْ الْمَاءِ): الطَّبَقُ النَّاجِعُ فِي الرِّيِّ، وَيُقَالُ: لَهُ حَسْبُ نَمِيرٍ: زَالِكٌ.

(٤) أَكْرُ: جَمْعُ أَكْرَةٍ، وَهِيَ الْكَرَّةُ.

(٥) الْحُرُورُ: حَرُّ الشَّمْسِ، وَقِيلَ: الْحَرُّ الدَّائِمُ، وَالنَّارُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ،

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ (سُورَةُ فَاطِرٍ، آيَةُ ٢١).

(٦) الْمَقْرُورُ: الْمَصَابُ بِالْبَرْدِ.

ألفاظ لأهل العصر في وصف الثلج والبرد والأيام الشتوية

ألقى الشتاء كَلْكَلَهُ^(١)، وأحلّ بنا أثقاله. مد الشتاء رِواقه^(٢)، وألقى أوراقه، وحلّ نِطاقه. ضرب الشتاء بِجِرَانِهِ^(٣)، واستقل بأركانه، وأناخ بنوازله، وأرّسَى بكلاكله، وكلح بوجهه، وكثر عن أنياه. قد عادت [هامات] الجبال شَيْبًا، ولبست من الثلج بُردًا قَشِيًّا^(٤). شابت مفارق البروج، لتراكم الثلوج، ألّم الشيب بها وابتضت لَمَمَهَا^(٥). قد صار البرد حجابًا، والثلج حجازًا. برّد يغيّر الألوان، وينشف الأبدان. برد يَقتَضِضُ الأعضاء، وينفض الأحشاء. برد يُجمد الريق في الأشداق، والدمع في الآماق. برّد حال بين الكلب وهريره^(٦)، والأسد وزئيره، والطير وصفيّره، والماء وخريره. نحن بين لثق^(٧)، ورثق، وزلق يوم كأن الأرض شابت لهولُه. يوم فضي الجلباب، سَكَنِي النّقاب، عبوس قَمْطَرِير^(٨)، كثر عن ناب الزمهرير، وفرش الأرض بالقوارير. يوم أخذت الشمال زمامه، وكسا الصّر^(٩) ثيابه. يوم كأن الدنيا فيه كافورة، والسماء بلّورة. يوم أرضه كالقوارير اللامعة، وهوّاه كالزنابير اللاسعة. يوم أرضه كالزجاج، وسماءه كأطراف الرّجاج^(١٠). يوم ينفل فيه الخفيف إذا هجم، وينخف الثقيل إذا هجر، نحن فيه بين أطباق البرد فما نستغيث إلا بحرّ الراح، وسوّرَة الأقداح. ليس للبرد كالبرد، والخمّر، والجَمَر. إذا كلب الشتاء^(١١)، فترياق سمومه الصّلاء^(١٢)، ودرق سيوفه الطّلاء^(١٣).

(١) الكلكل: الصدر.

(٢) الرّواق: بيت كالقسطاط يحمل على عمود واحد طويل، ورواق البيت: مُقدّمه، ورواق الليل: مُقدّمه وجانبه.

(٣) الجِران: باطن العنق من البعير وغيره، ويقال: ألقى فلان على هذا الأمر جِرانه: وَطَن نفسه عليه، وضرب الإسلام بجِرانه: ثبت واستقر.

(٤) القشيب: الجديد أو التنظيف.

(٥) اللّمم: جمع لَمّة: شعر الرأس المجاوز لشحمة الأذن.

(٦) هَرّ الكلب هريراً: نبح وكثر عن أنياه، وهَرّ البرد الكلب: جعله يُصَوّت.

(٧) اللثق: ركود الريح وكثرة الندى.

(٨) القمطير: القمطير. وقد اقمطر اليوم: اشتد، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ (سورة الإنسان، آية ١٠).

(٩) الصّر: شدة البرد.

(١٠) الرّجاج: جمع رُج: الحديد في أسفل الرمح.

(١١) كلب الشتاء: اشتد وقسا.

(١٢) الترياق: دواء السموم. والصّلاء: الدفء.

(١٣) الدّرَق: ضرب من التّرمّة، الواحدة درقة، تُتَخَذ من الجلود، والدّرَق (بتسكين الراء): =

نقيض ذلك من كلامهم في وصف القيظ وشدة الحر

قوي سلطان الحرّ، وبُسطَ بساطُ الجَمَر. حرّ الصيف، كحدّ السيف. أوقدت الشمسُ نازها، وأذكت أوارها. حرٌّ يلفح حرّ الوجه. حرٌّ يشبه قلب الصبّ، ويؤذّب دماغ الضبّ. هاجرة كأنّها من قلوب العشاق، إذا اشتعلت فيها نارُ الفراق. هاجرة تحكي نارَ الهجر، وتذيب قلبَ الصخر. كأن البسيطة من وقدة الحر، بساط من الجمر. حرٌّ تهرب له الحِرباء من الشمس، قد صهرت الهاجرة الأبدان، وركبت الجنادبُ العيدان. حر يُضجُ الجلود، ويؤذّب الجلود. أيام كأيام الفرقة امتداداً، وحرٌّ كحر الوجد اشتداداً. حرٌّ لا يطيبُ معه عيش، ولا ينفع معه تلج ولا خيش. حمارة القيظ، تغلي كدم ذي الغيظ. آب آب يجيش مرّجله^(١)، ويثور قنطله. هاجرة كقلب المهجور، أو النور المسجور. هاجرة كالجحيم الجاحم، تجر أذيال السمائم.

[العجلة أم الندامة]

قال بعض الحكماء: إياك والعجلة فإنّ العرب كانت تكتفيها أمّ الندامة؛ لأنّ صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويقطع قبل أن يقدر، ويحمّد قبل أن يجرب، ويذمّ قبل أن يخبر، ولن يصحب هذه الصّفة أحدٌ إلّا صحب الندامة، واعتزل السّلامة.

[تأميل ورجاء]

ولما ولي المهدي سليمان بن وهب وزارته قام إليه رجلٌ من ذوي حرّمته، فقال: أعزّ الله الوزير؛ أنا خادمك المؤمّل لدولتك، السعيد بأيامك، المنطوي القلب على ودك، المنشور اللسان بمدحك، المرتهن بشكر نعمتك، وقد قال الشاعر:

وَفِيَتْ كُلَّ صَدِيقٍ وَدَّني ثَمناً إلّا المؤمّل دَوْلانسي وأيامي
فإنني ضامنٌ إلّا أكافئه إلّا يتسوّغه فضلي وإنعامي

= الصلب من كل شيء.

(١) آب: رجع، وآب: اسم شهر من شهور الصيف. يجيش: يغلي. والمرجل: القدر من الطين المطبوع أو من النحاس.

وإني لكما قال القيسي: ما زلتُ أَمْتَطِي النهارَ إليك، وأُستدِلُّ بفضلِكَ عليك، حق إذا جَنَّتِي الليلُ فغَضَّ البصرُ، ومحا الأثر، أقام بدني، وسافر أُملي، والاجتهاد عُذْرٌ، فإذا بلغتكَ فَقَدْ^(١). قال سليمان: لا عليك؛ فإني عارفٌ بوسيلتك، محتاجٌ إلى كفايتك واصطناعك، ولست أؤخر عن يومي هذا توليتك ما يَحْسُنُ عليك أثره، ويطيب لك خبره، إن شاء الله.

وكتب محمد بن عباد إلى أبي الفضل جعفر بن محمود الإسكافي وزير المعتمد بالله وكان المعتمد يختص به، ويتقرب إليه قبل الوزارة: ما زلت - أيدك الله تعالى - أذم الدهر بدمك إياه، وأنظر لنفسي ولك عَقْباه، وأتمنى زوال حال من لا ذَنْبُ له إلا عاقبة محمودة تكون لك بزوال حاله، وأترك الإعتذار^(٢) في الطلب على الاختلال الشديد؛ ضئلاً بالمعروف عندي إلا عن أهله، وحَبْساً لِشِعْري إلا عن مستحقه.

فوقع في كتابه: لم أؤخر ذكرك ناسياً لِحَقِّكَ، ولا مُهْملاً لواجبك، ولا مرجياً^(٣) لِمُهْمِّ أَمْرِكَ، ولكنني تَرَقَّبْتُ اتساعَ الحال، وانفساحَ الآمال؛ لأخصِّكَ بأسنانها خَطَرًا، وبأجلها قَدَرًا، وأَعُوذُهَا بِنَفْعِ عليك، وأوفرها رِزْقًا لك، وأقربها مسافةً منك؛ فإذا كنت ممن يَحْضِرُهُ الإعجال، ولا يَتَسَعُّ له الإمهال، فسأختار لك خير ما يشير إليه الوقت، وأنعم النظر فيه، وأجعل أول ما أمضيه، إن شاء الله.

ولما ولي سليمان بن وهب الوزارة كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

أَبَى دَهْرُنَا إِسْعَافَنَا فِي نَفْسِنَا وَأَسْعَفَنَّا فِيْمَنْ نُحِبُّ وَنُكْرِمُ^(٤)
فَقُلْتُ لَهُ: نَعْمَاكَ فِيهِمْ أَتَمُّهَا وَدَعْ أَمْرَنَا؛ إِنَّ الْمُهْمَّ الْمُقْسَدُ
فَعَجِبَ مِنْ لَطِيفِ شِكْوَاهِ فِي تَهْنِئَتِهِ، وَقَضَى حَوَائِجَهُ.

[ووقع عبيد الله في كتاب رجل اعتدَّ عنده بأثرٍ جميل: وقفت على ما ذكرته من شكايته، فوقع ذلك عندنا الموقع الذي أَرَدْتُهُ، وصَدَرَ جوابنا إليك بما شكرته، ولم تَعُدْ ظننا، وما قدرنا فيك، ثم اعتدت الاعتداد حتى كَأَنَّكَ لم تكاتبنا؛ فلا تفسد تالد إحسانك بطارف امتنانك، واقتصر من وصف سالفك على ذكر مستأنفك].

(١) فقد: أي فكفاني ذلك.

(٢) في نسخة: «وأترك الاعتذار».

(٣) مرجياً: مؤخراً، وأصله الهمز.

(٤) ساعف فلاناً وأسعفه: وآثاه، وقَرَّبَ منه في مصافاة ومعاونة، ويقال: أسعفه بحاجته: قضاه.

[من حسن التقسيم]

ووقع عبيد الله في أمر رجل خرج عن الطاعة: أنا قادرٌ على إخراج هذه النعرة من رأسه، والوحرة من نفسه^(١).

ونحو هذا التقسيم قولُ قتيبة بن مسلم بخراسان: من كان في يده شيء من مال عبد الله فلينبذه^(٢)، أو في فمه فليلفظه، أو في صدره فلينفثه.

وقال عبد الله بن علي، بعد قتلِه مَنْ قتل من بني أمية، لإسماعيل بن عمرو: أساءك ما فعلتُ بأصحابك؟ قال: كانوا يداً فقطعتها، [وعضداً ففتتها، ومرة فتقضتها]، ورُكناً فهَدَمْتُهُ، [وجبلًا فهَضَمْتُهُ]^(٣)، وجناحاً فَقَصَصْتُهُ، قال: إني لخليق بأن ألحقك بهم، قال: إني إذا لسعيد.

وقال المنصورُ لجريز بن عبد الله: إني لأعِدُّكَ لأمر كبير! قال: يا أمير المؤمنين قد أعدَّ الله لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، ويداً مبسوطة بطاعتك، وسيفاً مسلولاً على أعدائك.

وكتب الحسن بن وهب إلى القاسم بن الحسن بن سهل يعزّيه: مدَّ الله في عمرك موفوراً غير مُنتَقَصٍ، وممنوحاً غير مُمتَحَنٍ، ومُعْطَى غير مُسْتَلَبٍ.

ومن جيد التقسيم مع المطابقة قولُ بعض الكتاب: إنَّ أهل النصح والرأي لا يساويهم أهلُ الأُفْنِ^(٤) والغشِّ، وليس مَنْ جمع إلى الكفاية الأمانة كمن أضاف إلى العجزِ الخيانة.

وقالت هند بنت النعمان بن المنذر لرجل دَعَتْ له وقد أولاها يداً: شَكَرْتُكَ يَدُ نالِها خِصَاصَةٌ بعد ثروة، وأغناكَ الله عن يد نالِها ثروة بعد فاقة.

ومن بديع التقسيم في هذا النوع قولُ البحرني^(٥):

- (١) النعرة: الخيلاء والتعاضم. والوحرة: الحقد.
- (٢) نبذ الشيء: طرحه.
- (٣) هاض الشيء: كسره.
- (٤) الأُفْنُ: نقصان العقل، يقال: أَفَنَ الرجل أَفْناً وَأَفْناً: نقص عقله، فهو مأفون وأفين.
- (٥) البحرني: الديوان: ٢٣/٢. والبيتان من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن عبد الله المعروف بأبي مسلم الكشي، وكان يتولى ضياعاً بقرنين والعواصم.

كَأَنَّكَ السِّيفُ حَدَاهُ وَرَوْنُقُهُ وَالْغَيْثُ وَإِلَهُ الدَّانِي وَرَتْقُهُ^(١)
هَلْ الْمَكَارِمُ إِلَّا مَا تُجَمُّعُهُ أَوْ الْمَوَاهِبُ إِلَّا مَا تُفَرِّقُهُ

وقال الحسن بن سهل يوماً للمأمون: الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك؛ وسببي ما أعطاك؛ إذ قسم لك الخلافة، ووهب لك معها الحجة، ومكنك بالسلطان، وحلّاه لك بالعدل، وأيدك بالظفر، وشفّعه بك بالعفو، وأوجب لك السعادة، وقرّنها بالسياسة، فمن فُسخ له في مثل عطية الله لك؟ أم من ألبسه الله تعالى من زينة المواهب ما ألبسك؟ أم من ترادفت نعم الله تعالى عليه ترادفها عليك؟ أم من حاولها وارتبطها بمثل محاولتك؟ أم أي حاجة بقيت لرعيّتك لم يجدوها عندك؟ أم أي قيم للإسلام انتهى إلى غايتك ودرجتك؟ تعالى الله! ما أعظم ما خصّ القرن الذي أنت ناصره! وسبحان الله! أية نعمة طبقت الأرض بك إن أدّى شكرها إلى بارئها، والمنعم على العباد بها؟ إن الله تعالى خلق الشمس في فلكها ضياءً يستنير بها جميع الخلائق؛ فكل جوهر زها حسنه ونوره فهي ألبسته زيتته لما اتصل به من نورها؟ وكذلك كل ولي من أوليائك ساعد بأفعاله في دولتك، وحسنت صنائعه عند رعيّتك، فإنما نالها بما أيدته من رأيك وتديريك، وأسعدته من حسنك وتقويمك.

[بين قينة وأربعة من عشاقها]

قال بعض الظرفاء: اجتمع لِقَيْنَةُ^(٢) أربعة من عشاقها، وكلهم يُورّي^(٣) عن صاحبه أمره، ويخفي عنه خبره، ويؤمى^(٤) إليها بحاجبه، ويناجيها بلحظه؛ وكان أحدهم غائباً فقدم، والآخر مقيماً قد عزم على الشخوص، والثالث قد سلفت^(٥) أيامه، والرابع مستأنفة مودته؛ فضحكك إلى واحد، وبكت إلى آخر، وأقصت^(٦) آخر، وأطمعت آخر؛ واقترح كل واحد منهم ما يشاكل بثه وشأنه؛ فأجابته، فقال القادم: جُعِلت فِدَاكَ، أتحسنين: وَمَنْ يَنْأَى عَنْ دَارِ الْهَوَى يُكْثِرِ الْبُكَاءُ وَقَوْلٌ لَعَلِّي أَوْ عَسَى سَيَكُونُ

(١) رونق السيف: ماؤه وصفاءه وحسنه. الوابل: المطر الشديد القطر. ورَيِّق كل شيء: أفضله.

(٢) القينة: الجارية المغنية.

(٣) يُورّي: يستر، يخفي.

(٤) يؤمى: يُشير.

(٥) سلفت: مضت.

(٦) أقصت: أبعدت.

وَمَا اخْتَرْتُ نَأْيَ الدَّارِ عَنْكَ لِسَلْوَةٍ وَلَكِنْ مَقَادِيرَ لَهْنٍ شُؤُونُ
فَقَالَتْ: أَحْسِنُهُ، وَلَا أَقِيمُ لَحْنَهُ، وَلَكِنْ مُطَارَحَهُ لَتَسْتَغْنِي بِهِ عَنْهُ، لِقُرْبِهِ مِنْهُ، وَأَنَا بِهِ
أَحْذَقُ، ثُمَّ غَنَّتْ:

وَمَا زِلْتُ مُذْ شَطَطْتُ بِكَ الدَّارَ بَاكِياً أَوْمَلُ مِنْكَ الْعَطْفَ حِينَ تَوْوَبُ^(١)
فَأَضَعَفْتَ مَا بِي حِينَ أَبْتُ وَزِدْتَنِي عَذَاباً وَإِعْرَاضاً وَأَنْتَ قَرِيبُ
وَقَالَ الظَّاعِنُ: جُعِلَتْ فِدَاكَ، أَتَحْسِنِينَ:

أَزِفَ الْفِرَاقُ فَأَعْلَنِي جَزَعَا وَدَعِيَ الْعِتَابَ فَلِإِنَّا سَفَرُ^(٢)
إِنَّ الْمُحِبَّ يَصُدُّ مُقْتَرِباً فَإِذَا تَبَاعَدَ شَفَّهَ الذِّكْرُ^(٣)
قَالَتْ: نَعَمْ، وَأَحْسَنَ مِنْهُ وَمَنْ لِيَقَاعَهُ، ثُمَّ غَنَّتْ:

لَأُقِيمَنَّ مَا تَمَّا عَنْ قَرِيبٍ لَيْسَ بَعْدَ الْفِرَاقِ غَيْرُ النَّحِيبِ
رُبَّمَا أَوْجَعَ النَّوَى لِلْقُلُوبِ ثُمَّ لَا سِيَّما فِرَاقُ الْحَبِيبِ
ثُمَّ قَالَ السَّالِفُ: جُعِلَتْ فِدَاكَ، أَتَحْسِنِينَ:

كُنَّا نُعَاتِبُكُمْ لِيَالِي عُودِكُمْ حُلُّو الْمَسَاقِ وَفِيكُمْ مُسْتَعْتَبُ
فَالآنَ حِينَ بَسَدَا التَّكْثُرُ مِنْكُمْ ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَيْسَ عَنْكُمْ مَذْهَبُ
قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ أَحْسَنَ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ: ثُمَّ غَنَّتْ:

وَصَلْتُكَ لَمَّا كَانَ وَدُكَ خَالِصاً وَأَعْرَضْتُ لَمَّا صَارَ نَهْياً مُقَسِّماً
وَلَنْ يَلْبَثَ الْحَوْضُ الْجَدِيدُ بِنَاؤُهُ إِذَا كَثُرَ الْوَرَادُ أَنْ يَتَهَدَّمَ مَا
فَقَالَ الْمُسْتَأْنَفُ: أَتَحْسِنِينَ، جُعِلَتْ فِدَاكَ:

إِنِّي لِأَعْظِمُ أَنْ أَبُوحَ بِحَاجَتِي وَإِذَا قَرَأْتَ صَحِيفَتِي فَتَفْهَمِي
وَعَلَيْكَ عَهْدُ اللَّهِ إِنْ أَبْشَيْتِهِ أَحَدًا وَلَا آذَنْتَهُ بِتَكْلُمِي^(٤)

(١) شَطَطْتُ الدار: بعدت. تَوَوَّب: تَعُود، تَرْجِع.

(٢) أَزِفَ الْفِرَاقُ: دَنَا، قَرُب. وَالسَّفَرُ: الْمَسَافَرُونَ.

(٣) شَفَّهَ: أَنْحَلَهُ وَأَهْزَلَهُ.

(٤) بَشَّ الْخَيْرِ: أَذَاعَهُ وَنَشَرَهُ. وَفِي نَسْخَةٍ: «وَلَا أَبْدِيَتْهُ بِتَكْلَمِي».

فقالت: نعم، ومن غناء صاحبه^(١)؛ ثم غنت:

لَعَمْرُكَ مَا اسْتَوْدَعْتُ سِرِّي وَسِرَّهَا سِوَانَا، حِذَاراً أَنْ تَذِيعَ السَّرَائِرُ
وَلَا خَالَطْتُهَا مُقَلَّتَايَ بِنَظَرَةٍ فَتَعَلَّمُ نَجْوَانَا الْعِيُونَ النَّوَاطِرُ^(٢)
وَلَكِنْ جَعَلْتُ الْوَهْمَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا رَسُولاً فَأَدَى مَا تُجِنُّ الضَّمَائِرُ^(٣)
أَكَاثِمُ مَا فِي النَّفْسِ خَوْفاً مِنَ الْهَوَى مَخَافَةً أَنْ يُغَرَى بِذِكْرِكَ ذَاكِرُ
فتفرقوا وكلهم قد أوماً بحاجته، وأجابته بجوابه.

[بين ابن المعتز وقينة]

قال أبو العباس بن المعتز: كان لنا مجلس حظّ أرسلت بسببه خادمة إلى قينة فأجابت، فلما مرّت في الطريق وَجَدْتُ فِيهِ حَارِماً فَارْجَعْتُ، فَأَرْسَلْتُ أَعَاتِبَهَا فَكَتَبَتْ إِلَيَّ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنِ الْمَسِيرِ إِلَى سَيِّدِي فِي عَشِيَّتِي أَسْأَلُ لَأَرَى وَجْهَهُ الْمُبَارَكُ وَأُجِيبَ دَعَاءَهُ، إِلَّا لَعَلَّةَ قَدْ عَرَفْتُهَا فَلَانَةَ، ثُمَّ خِفْتُ أَنْ يَسْبِقَ إِلَى قَلْبِهِ الطَّاهِرُ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ بِغَيْرِ عَذْرِ؛ فَأَحْبَبْتُ أَنْ تَقْرَأَ عَذْرِي بِخَطِّي، وَوَاللَّهِ مَا أَقْدَرُ عَلَى الْحَرَكَةِ، وَلَا شَيْءٍ أَسْرَّ إِلَيَّ مِنْ رُؤْيَاكَ، وَالْجُلُوسِ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَنْتَ يَا مَوْلَايَ جَاهِي وَسَنْدِي، لَا فَقَدْتُ قُرْبَكَ، وَلَكِ رَأْيُكَ فِي بَسْطِ الْعُذْرِ مُوَفَّقاً.

وكتبت في أسفل الكتاب:

أَلَيْسَ مِنَ الْحَرَمَانِ حَظٌّ سُلْبَتُهُ وَأَخْوَجَنِي فِيهِ الْبَلَاءُ إِلَى الْعُذْرِ
فَصَبْرًا فَمَا هَذَا بِأَوَّلِ حَادِثٍ رَمَتْنِي بِهِ الْأَقْدَارُ مِنْ حَيْثُ لَا أَذْرِي

فأجبتها: كيف أَرَدْتُ عُذْرَ مَنْ لَا تَسْلُطُ التَّهْمَةُ عَلَيْهِ، وَلَا تَهْتَدِي الْمَوْجِدَةُ إِلَيْهِ^(٤)! وكيف أعلمه قِيُولَ الْمَعَاذِيرِ، وَلَسْتُ أَمْنُ بَعْضَ خَوَاطِرِهِ أَنْ تُشِيرَ إِلَى انْتِهَازِ فُرْصَةٍ فِيمَا دَعَا إِلَى الْفَرْقَةِ؛ وَإِنْ سَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ فَمَنْ يُجِيرُنِي مِنْ تَوَكُّلِهِ عَلَى تَقْدِيمِ الْعُذْرِ، وَوُقُوعِهِ مَوَاقِعَ

(١) في نسخة: «أحسن من غناء صاحبه».

(٢) النجوى: إسرار الحديث، وقد ناجاه مُنَاجَاةً وَنِجَاةً: سَارَهُ، ويقال: بات الهمُّ يَنَاجِيهِ: لازمه واستولى عليه.

(٣) تُجِنُّ: تخفي، تستر.

(٤) الموجدة: وَجَدَ عَلَيْهِ مَوْجِدَةً: غضب، ووجد به وَجْداً: أحبه.

التصديق في كل وقت، فَتَصِلْ أَيَّامُ الشَّغْلِ وَالْعِلَّةِ، وَتَنْقُضِي أَيَّامُ الْفَرَاغِ وَالصَّحَّةِ، فَتَطُولُ مَدَّةُ الْغِيَةِ، وَتُذَرُّسُ آثَارُ الْمَوَدَّةِ، وَكُتِبَتْ فِي آخِرِ الرِّقْعَةِ:

إِذَا غَبِثَ لَمْ تَعْرِفْ مَكَانِي لَذَّةً وَلَمْ يَلْقَ نَفْسِي لَهْوُهَا وَسُرُورُهَا
وَحَدَّثْتُ سَمْعاً وَاهِناً غَيْرَ مُمَسِّكٍ لِقَوْلِي، وَعَيْنَا لَا يَرَانِي ضَمِيرُهَا^(١)

[بين ابن المعتز وبعض الوزراء]

وكتب إلى بعض الوزراء: ما زال الحاسدُ لنا عليك أيها الوزير يَنْصِبُ الحَبَائِلَ، ويطلب الغوائل، حتى انتهز فرصته، وأبلغك تشنيعاً زَخَرَفُهُ، وكذباً زَوَّرَهُ، وكيف الاحتراس ممن يحضر وأغيب، ويقول وأمسك؟ مرتصداً لا يَغْفُلُ وَمَاكِراً لا يَفْتَرُ؛ وربما استنصح الغاش، وصدق الكاذب؛ والحظوة لا تُدْرِكُ بالحيلة، ولا يجري أكثرها على حسب السَّبَبِ والوسيلة.

فأجابه: حصول الثقة بك - أعزُّكَ اللهُ! - تُغْنِي عن حضورك، وصدق حالتك يحتاج عنك، وما تقرَّرَ عندنا من نيتك وطويتك يُغْنِي عن اعتذارك.

[من شعر ابن المعتز]

وقد قال ابن المعتز:

أَخْنَى عَلَيْكَ الدَّهْرُ مُقْتَدِراً مَا زِلْتَ تَلْقَى كُلَّ حَادِثَةٍ
فَالآنَ هَلْ لَكَ فِي مُقَارَبَةٍ لِلَّهِ إِخْوَانٌ فَقَدْ تَهُمُّ
أَيَّنَ السَّيْلُ إِلَى لِقَائِهِمْ كَمْ مُورِقٍ بِالْبُشْرِ مُبْتَسِمٍ
مَا زَالَ يُؤَلِّينِي خِلَافَتَهُ

وَالدَّهْرُ أَلَامٌ غَالِبٌ ظَفِيراً^(٢)
حَتَّى حَنَّاكَ وَيَّضُ الشَّعْراً^(٣)
فَلَقَدْ بَلَغْتَ الشَّيْبَ وَالْكِبَرَ
سَكُنُوا بَطُونِ الْأَرْضِ وَالْحَفَرَ
أَمْ مَنْ يُحَدِّثُ عَنْهُمْ خَبِيراً
لَا أَجْتَنِي مِنْ غَضَبِهِ ثَمَراً
وَصَبَرْتُ أَرْقُبُهُ وَمَا صَبَراً

(١) الواهن: الضعيف.

(٢) أخنى: أفسد.

(٣) حَنَّى الشيء: ثناه.

وَعَدُوٌّ غَيْبٍ طَالِبٍ لِدَمِي لَوْ يَسْتَطِيعُ لَجَاوَزَ الْقَدْرَا
يُورِي زَنَادِي كَيْ يُخَادِعَنِي وَيُطَيِّرُ فِي أَثْوَابِي الشَّرَارَا
وقال أيضاً^(١):

وَأَنِّي عَلَى إِشْفَاقٍ عَيْنِي مِنَ الْقَدَى لَتَجْمَحُ مِنِّي نَظْرَةٌ ثُمَّ أُطْرَقُ^(٢)
كَمَا حُلْتُ مِنْ بَرْدِ مَاءٍ طَرِيدَةٍ تَمُدُّ إِلَيْهِ جِيدَهَا وَهِيَ تَفَرِّقُ^(٣)
وقال^(٤):

وَمَا زِلْتُ مَذْشَدَّتْ يَدِي عِقْدَ مِثْرَي غِنَائِي لَغَيْرِي وَافْتِقَارِي عَلَى نَفْسِي^(٥)
وَدَلَّ عَلَيَّ الْحَمْدَ مَجْدِي وَعَفَّتِي كَمَا دَلَّ إِشْرَاقُ الصَّبَاحِ عَلَى الشَّمْسِ
وقال^(٦):

سَعَى إِلَى الدَّنِّ بِالْمِيزَالِ يَنْقُرُهُ سَاقٍ تَوَشَّحَ بِالْمِنْدِيلِ حِينَ وَثَبَ^(٧)
لَمَّا وَجَاهَا بَدَتْ صَفراءَ صَافِيَةً كَأَنَّمَا قَدْ سَيَّرَا مِنْ أَدِيمٍ ذَهَبَ^(٨)
وقال^(٩):

لَيْسَتْ صُنْفرةٌ فَكَمْ فَتَنَتْ مَنْ أَعْيُنَ قَدْ رَأَتْهَا وَعُقُولَ^(١٠)
مِثْلُ شَمْسِ الْغُرُوبِ تَسْحَبُ ذَيْلًا صَبَعَتْهُ بِزَعْفَرَانِ الْأَصِيلِ

(١) ابن المعتز، الديوان: ص ٥٢٨.

(٢) الإشفاق: الخوف. أطرق: أحنى رأسي.

(٣) حُلْتُ: مُنِعْتُ وَطُرِدْتُ. تفرق: تخاف.

(٤) ابن المعتز، الديوان: ص ٤١٨.

(٥) في الديوان:

وَمَا زَالَ مُذْ شَدَّتْ يَدِي عِقْدَ مِثْرَي غِنَائِي بِغَيْرِي وَافْتِقَارِي عَلَى نَفْسِي
يقول: ما زلت منذ بلغت الفتوة أفقر نفسي لأغني سواي.

(٦) ابن المعتز، الديوان: ص ١٠٣.

(٧) الميزال: أداة لقلب الدن.

(٨) وجاها: ثقبها. وفي الديوان: «كَأَنَّهُ قَدْ سَيَّرَا مِنْ مَيِّكِ ذَهَبَ».

(٩) ابن المعتز، الديوان: ص ٥٩٩.

(١٠) في الديوان: «أَعْيُنُ إِذْ رَأَتْهَا وَعُقُولُ».

والشمس عند طلوعها، وعند غروبها، تمكّن الناظر إليها فيمكن التشبيه بها؛ قال
قيس بن الخطيم^(١):

فَرَأَيْتُ مِثْلَ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا فِي الْحُسْنِ أَوْ كَدُنُوهَا لِعُرُوبِ

[جرير في المدينة يغري بشعر قيس بن الخطيم]

ولما قدم جرير بن الخطمي المدينة اجتمع إليه أهلها، وقالوا: يا أبا حَزْرَةَ! أنشدنا من
شعرك، قال: ما تصنعون به؟ وفيكم من يقول:

أَتَى سَرِنْتُ وَكُنْتُ غَيْرَ سَرُوبٍ وَتَقَرَّبُ الْأَحْلَامُ غَيْرَ قَرِيبٍ^(٢)
مَا تَمْنَعِي يَفْقُذُ نَوَلْتِهِ فِي النُّومِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوبٍ^(٣)
كَانَ الْمَنَى يُلْقِي بِهَا فَلَقِيَتْهَا فَلَهَوْتُ عَنْ لَهْوِ امْرِئٍ مَكْذُوبٍ
فَرَأَيْتُ مِثْلَ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا فِي الْحُسْنِ أَوْ كَدُنُوهَا لِعُرُوبِ
تَخْطُو عَلَى بَرْدِيَّتَيْنِ غَذاهُمَا غَدِقُ بِسَاحَةِ حَائِرٍ يَعْقُوبُ^(٤)

[يعقوب بن داود]

وَقَعَ يَزِيدُ بْنُ خَالِدٍ الْكُوفِيُّ رَقْعَةً إِلَى يَعْقُوبَ بْنِ دَاوُدَ ضَمْنَهَا:

قُلْ لَابْنِ دَاوُدَ وَالْأَبَاءِ سَانِرَةٌ: لَا يُحْزِرُ الْأَجْرَ إِلَّا مَنْ لَهُ عَمَلٌ

(١) هو أبو يزيد، قيس بن الخطيم بن عدي بن عمرو بن سواد بن ظفر الأوسي: شاعر مكثر مجيد،
حسن الديباجة، من أشعر أهل المدينة في الجاهلية. قُتل والده وجده وهو صغير، فأخذ على
نفسه أن يثأر لهما، فظفر بقاتل أبيه في يثرب، ويقاتل أبيه في ذي المجاز. وقيل: أدرك الإسلام
ولم يسلم، ولكن أسلمت زوجته حواء بنت زيد. توفي سنة ٢ ق. هـ/ ٦٢٠ م. (الأصفهاني،
الأغاني: ٣/٣؛ الآمدي، المؤلف والمختلف: ١٥٩).

(٢) سَرَبَ فُلَانٌ سُورِيًّا: خرج، وسرب في الأرض: ذهب على وجهه فيها، وسرب في حاجته:
مضى فيها.

(٣) الْمُصَرَّدُ: الْمُقَطَّعُ.

(٤) البردة: كساءٌ مُخَطَّطٌ يُلْتَحَفُ بِهِ. غَدِقُ: كثير الماء، وقد أغدق المطر: كثر قطره، وَغَدِقَتْ
الأرض: كثر فيها الماء. والحائر: المكان المطمئن الوسط، المرتفع الحروف، يكون فيه الماء،
وجمعه حُورَان. واليعوب: الطويل، أو الجدول الكثير الماء، الشديد الجزية، واليعوب:
الفرس الطويل السريع.

يا ذا الذي لَمْ تَزَلْ يُنْمَاهُ مَذْ خُلِقْتَ فيها لباعي نَدَاهُ الْعَلُّ وَالتَّهْلُ^(١)
 إِنْ كُنْتَ مُسَدِّي مَعْرُوفٍ إِلَى رَجُلٍ لِفَضْلِ شُكْرِ فَإِنِّي ذَلِكَ الرَّجُلُ
 فَاْمُنْ عَلَيَّ بِرٍّ مِنْكَ يَنْعَشُنِي فَإِنِّي شَاكِرُ الْمَعْرُوفِ مُحْتَمِلُ

قال يعقوب: قد جرتنا شكرك فوجدناه قد سبق برّنا، وقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم [تصلح حالك]، وليست آخر ما عندنا لك، فاستوفها حتى مات.

ولما سخط المهدي على يعقوب أحضره، فقال: يا يعقوب! قال: لبيك يا أمير المؤمنين تلبية مكروبٍ لِمَوْجِدَتِكَ^(٢)، شَرَقَ بِغُصَّتِكَ، قال: ألم أرفع قَدْرَكَ وَأَنْتَ خَامِلٌ، وَأَسِيرَ ذَكَرَكَ وَأَنْتَ هَامِلٌ، وَالْبَسْتُكَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَنِعْمِي مَا لَمْ أَجِدْ عِنْدَكَ طَاقَةً لِحَمَلِهِ، وَلَا قِيَامًا بِشُكْرِهِ؟ فكيف رأيت الله تعالى أظهر عليك، وَرَدَّ كَيْدَكَ إِلَيْكَ؟

قال: يا أسير المؤمنين؛ إِنْ كُنْتَ قُلْتَ هَذَا بَتَيِّنَ وَعِلْمَ فَإِنِّي مُعْتَرِفٌ، وَإِنْ كَانَ بِسَعَايَةِ الْبَاغِينَ، وَنَمَائِمِ الْمَعَانِدِينَ، فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِأَكْثَرِهَا؛ وَأَنَا عَائِدٌ بِكَرَمِكَ، وَعَمِيمٌ شَرَفِكَ.

فقال: لولا الحنث^(٣) فِي دَمِكَ لَأَلْبَسْتُكَ قَمِيصًا لَا تَشَدُّ عَلَيْهِ زُرًّا؛ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ إِلَى الْحَبْسِ، فَتَوَلَّى وَهُوَ يَقُولُ: الْوَفَاءُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَرَمٌ؛ وَالْمُودَةُ رَحِمٌ، وَمَا عَلَى الْعَفْوِ نَدَمٌ، وَأَنْتَ بِالْعَفْوِ جَدِيرٌ، وَبِالْمَحَاسَنِ خَلِيقٌ. فَأَقَامَ فِي السِّجْنِ إِلَى أَنْ أَخْرَجَهُ الرَّشِيدُ.



أخذ معنى قول المهدي: «لَأَلْبَسْتُكَ قَمِيصًا لَا تَشَدُّ عَلَيْهِ زُرًّا» أَبُو تَمَامٍ فَقَالَ^(٤):

طَوَّقْتُهُ بِالْحُسَامِ طَوَّقَ رَدَى أَغْنَاهُ عَنْ مَسِّ طَوَّقِهِ يَدِيْهِ

وقال ابن عمر في معنى قول الطائي:

طَوَّقْتُهُ بِحُسَامٍ طَوَّقَ دَاهِيَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ عَلَيْهِ شَدُّ أَرْزَارِ



(١) عَلٌّ عَلًّا وَعَلَلًا: شرب ثانية أو تَبَاعًا. وَنَهَلَ نَهْلًا وَمَنْهَلًا: شرب الشرب الأول.

(٢) الموجدة: الغضب.

(٣) حَنْثٌ فِي يَمِينِهِ حِنْثًا: لَمْ يَبْرَ فِيهَا وَأَثَمٌ، وَحَنْثُ فُلَانٍ: مَالٌ مِنْ حَقٍّ إِلَى بَاطِلٍ. وَالْحِنْثُ: الذَّنْبُ.

(٤) لَمْ يَرِدْ هَذَا الْبَيْتُ فِي دِيْوَانِهِ.

ولما قبض المهدي على يعقوب ورأى أبو الحسن النميري مَيْلَ الناس عليه، وكان مختلطاً به قال :

يَعْقُوبُ لَا تَبْعِدْ وَجُبَّتِ الرَّدَى فَلَأَبْكِيَنَّ كَمَا بَكَى الْغُصْنُ النَّدَى^(١)
لَوْ أَنَّ خَيْرَكَ كَانَ شَرًّا كُلُّهُ عِنْدَ الَّذِينَ عَدُّوا عَلَيْكَ لَمَّا عَدَا
أخذ هذا المعنى بعض المحدثين [في الغزل] فقال :

لَوْ أَنَّ هَجْرَكَ كَانَ وَصْلاً كُلُّهُ مِمَّا أَقَاسِي مِنْكَ كَانَ قَلِيلاً
[بين أحمد بن أبي دواد والواق]

قال أبو العيناء : قال لي أحمد بن أبي دُوداد : دخلت على الواقف فقال لي : ما زال اليوم قومٌ في ثَلَبِكَ^(٢) وَتَنْقُصُكَ ! فقال : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ له عذاب عظيم ، واللَّهُ وَلِيُّ جَزَائِهِ ؛ وعقابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ من ورائه ، وما ذَلَّ - يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - مَنْ كُنْتُ نَاصِرَهُ ، وما ضاق مَنْ كُنْتُ جَاراً لَهُ ، فما قلت لهم يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قال : قلت يا أبا عبد الله :

وَسَعَى إِلَيَّ بِصَرْمٍ عَزَّةٍ مَعْشَرٌ جَعَلَ إِلَهَهُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا^(٣)

قال الفتح بن خاقان : ما رأيت أطرف من ابن أبي دواد ؛ كنت يوماً أَلْعَبُ الْمُتَوَكِّلَ بِالرَّزْدِ ، فَاسْتُؤْذِنَ لَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنَّا هَمَمْتَ بَرَفْعِهَا ، فَمَنْعَنِي الْمُتَوَكِّلُ وَقَالَ : أَجَاهِرُ اللَّهَ وَأَسْأُتِرُهُ مِنْ عِبَادِهِ ؟ فَقَالَ لَهُ الْمُتَوَكِّلُ : لَمَّا دَخَلْتَ أَرَادَ الْفَتْحُ أَنْ يَرْفَعَ الرَّزْدَ ! قَالَ : خَافَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَعْلِمَ عَلَيْهِ ! فَاسْتَحْلَيْنَاهُ ، وَقَدْ كُنَّا تَجَهَّمُنَاهُ .

[من خطباء العرب شبيب بن شيبه وخالد بن صفوان]

قيل لبعض الأمراء : إن شبيب بن شيبه يتعمَّل الكلام ويستدعيه^(٤) ، فلو أمرته أَنْ يَصْعَدَ المنبر فجأةً لافتضح ؛ فأمر رسولاً فأخذ بيده فصعد به المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى

(١) في رواية : « فَلَأَبْكِيَنَّكَ مَا بَكَى الْغُصْنُ النَّدَى » .

(٢) ثَلَبُ الشَّيْءِ ثَلَبًا : ثَلَمَهُ ، وَثَلَبَ فَلَانًا : عَابَهُ وَتَنْقَصَهُ .

(٣) الْبَيْتُ لِكُثْبَرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، الْمَعْرُوفِ بِكَثِيرِ عَزَّةٍ .

(٤) يَتَعَمَّلُ الْكَلَامَ : يَتَكَلَّفُهُ .

على النبي ﷺ ثم قال: إِنَّ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَشْبَاهاً أَرْبَعَةً: الْأَسَدَ الْخَادِرَ^(١)، وَالْبَحْرَ الزَّاخِرَ، وَالْقَمَرَ الْبَاهِرَ، وَالرَّبِيعَ النَّاضِرَ، فَأَمَّا الْأَسَدُ الْخَادِرُ فَأَشْبَهَ صَوْلَتَهُ وَمَضَاءَهُ، وَأَمَّا الْبَحْرُ الزَّاخِرُ فَأَشْبَهَ جُودَهُ وَعِظَاءَهُ، وَأَمَّا الْقَمَرُ الْبَاهِرُ فَأَشْبَهَ نُورَهُ وَضِيَاءَهُ، وَأَمَّا الرَّبِيعُ النَّاضِرُ فَأَشْبَهَ حُسْنَهُ وَبَهَاءَهُ، ثُمَّ نَزَلَ.

وهذا الكلام يُنسَبُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُهُ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وكان شبيب بن شيبة من أفصح الناس وأخطبهم، وشبَّهه بخالد بن صفوان؛ غير أن خالداً كان أعلى منه قدراً في الخاصة والعامة. وذكر خالد شبيباً فقال: ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية. وكانت بينهما معارضة للنسب والجوار والصناعة، ولما قال الشاعر:

فَنَحَّ شَبِيباً عَنْ قِرَاعٍ كَثِيرَةٍ وَأَذَنَ شَبِيباً مِنْ كَلَامٍ مُلَفَّقٍ^(٢)
وكان لا ينظر إليه أحد وهو يخطب إلا تبين فيه الخجل.

وقال أبو تمام لعلي بن الجهم^(٣):

لَوْ كُنْتُ يَوْمًا بِالنَّجُومِ مُصَدِّقًا لَزَعَمْتُ أَنَّكَ نِلْتَ شَكْلَ عِطَارِدٍ^(٤)
أَوْ قَدَمْتُكَ السَّنُ خِلْتُ بِأَنَّهُ مِنْ لَفْظِكَ اشْتَقَّتْ بِلَاغَةُ خَالِدٍ^(٥)

وقالت له امرأة: إِنَّكَ لَجَمِيلٌ يَا أَبَا صَفْوَانَ. قال: كَيْفَ تَقُولِينَ هَذَا وَمَا فِيَّ عَمُودُ الْجَمَالِ وَلَا رِدَاؤُهُ، وَلَا بُرُسُ^(٦). عموده الطول، ولست بطويل، وريدأؤه البياض، ولست بأبيض، وبرُسُهُ سواد الشعر، وأنا أشمط! ولكن قلولي: إِنَّكَ لَمَلِيحٌ.

(١) خادر: اسم فاعل من خدر الأسد إذا لزم عرينه وأقام فيه.

(٢) القراع: المجالدة. والكتيبة: القطعة من الجيش. قال النابغة الذبياني:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ مُبُوقَهُمْ يَهِنُ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
(ديوانه: ص ١١). وَلَفَّقَ الْحَدِيثُ: زَخَرَفَهُ، وَزَيَّنَهُ، وَمَوَّهَهُ بِالْبَاطِلِ.

(٣) أبو تمام، الديوان: ٢٢٦/١.

(٤) في الديوان: «لَزَعَمْتُ أَنَّكَ أَنْتَ بِكَرُّ عِطَارِدٍ». وعطارِد: نجم يزعم المنجمون أنه يتولى الشعراء والكتّاب.

(٥) خالد: هو خالد بن صفوان التميمي.

(٦) البرُس: كل ثوب رأسه منه، ملتزق به، أو هو رداء ذو كُمَيْنِ يلبس بعد الاستحمام، أو قلنسوة طويلة، الجمع برانس.

وكان خالد حافظاً لأخبار الإسلام، وأيام الفتن، وأحاديث الخلفاء، ونوادر الرواة، وكل ما تصرف فيه أهل الأدب، وله يقول مكّي بن سودة:

عَلِيمٌ يَنْزِيلُ الْكِتَابِ مُلَقَّنٌ ذَكُورٌ لِمَا سَلَدَهُ أَوَّلَ أَوَّلًا
يَبْذُقَرِيعَ الْقَوْمِ فِي كُلِّ مَحْفَلٍ وَلَوْ كَانَ سُحْبَانَ الْخَطِيبِ وَدَغَفَلًا^(١)
تَرَى خُطَبَاءَ النَّاسِ يَوْمَ آرْتَجَالِهِ كَانَهُمُ الْكَرَوَانُ صَادَفَ أَجْدَلًا^(٢)

أما سُحْبَانَ الذي ذكره فهو خطيبُ العربِ بأسرها غير منازع ولا مدافع، وكان إذا خطب لم يُعَدِّ حرفاً، ولم يتوقف، ولم يتحسّس، ولم يفكر في استنباط، وكان يسيل غزياً، كأنه آذني بَحْرٍ^(٣).

ويقال: إن معاوية قدم عليه وفد من خراسان وجَّههم سعيد بن عثمان، وطلب سُحْبَانَ فلم يوجد عامة النهار، ثم اقْتَضَبَ من ناحية كان فيها اقتضاباً، فدخل عليه فقال: تكلم، فقال: انظروا لي عصاً تُقِيمُ من أودي، فقال له معاوية: ما تصنعُ بها؟ فقال: ما كان يَصْنَعُ موسى عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ وهو يخاطبُ رَبَّهُ وعصاه بيده، فجاءوه بعصا فلم يَرْضَهَا. فقال: جيئوني بعصاي، فأخذها، ثم قام فتكلم منذ صلاة الظهر إلى [أن فاتت] صلاة العصر، ما تَنْحَنِّحُ، ولا سَعَلَ، ولا توقف، ولا تحسّس، ولا ابتداء في معنى فخرج منه إلى غيره حتى أتمه ولم يبق منه شيء، ولا سأل عن أي جنس من الكلام يخطب فيه، فما زالت تلك حاله وكل عين في السماطين شاخصة إلى أن أشار له معاوية بيده أن اسكُت، فأشار سُحْبَانُ بيده أن دَعْنِي لا تَقْطَعْ عَلَيَّ كلامي، فقال له معاوية: [الصلاة، فقال: هي أمامك ونحن في صلاة يتبعها تحميد وتمجيد، وعظة وتنبيه وتذكير ووعد ووعد، فقال معاوية: إنك أخطبُ العرب، فقال سُحْبَانُ: والعجم، والجن، والإنس.

[عجلان بن سحبان]

وكان ابنه عجلان حُلُوَ اللسان، جيّدَ الكلام، مليح الإشارة، يجمعُ مع خطابته شعراً

(١) بَدَّهْ بَدَّ: غلبه، وفاقه، وسبقه.

(٢) الكروان: طائر طويل الرجلين أغبر، نحو الحمامة، حسن الصوت. والأجلد: الصقر، وهو من كواسر الطير.

(٣) الآذني: الموج.

جيداً، ويضرب الأمثال إذا خطب، ويتترع النادر من الشعر، والسائر من المثل، فَتَحْلُو خُطْبَتَهُ، وكان يَزُنُ كلامه وَزْنًا.

[دَغْفَلُ بن حَنْظَلَةَ النَّسَابَةِ]

وأما دَغْفَلُ الذي ذكره مكِّي بن سَوَادِهِ فهو دَغْفَلُ بن حَنْظَلَةَ بن يزيد أحد بني ذهل بن ثعلبة النسابة، وكان أعلم الناس بأنساب العرب، والآباء والأمهات، وأحفظهم لِمَثَالِهَا، وأشدهم تنقيراً وَيَحْثاً عن معائب العرب، ومثالب النسب.

قال له معاوية يوماً: والله لئن قلت في هذا البيت من قريش ما تجد في آل حَرْبٍ مقالاً؛ فتبسم دَغْفَلُ؛ فقال له معاوية: والله لتخبرني بتبسمك، وما انضمت عليه جوائحك، أو لأضربن عنقك، وما آمن أن تكذب أو تزيد.

فقال: يا أمير المؤمنين، أنتم من بني عبد مناف كَسَنَامِ كَوَءِ فَتَيْة^(١)، ذات مرعى خصيب، وماء عذب، وأكمة بارزة، فهل يوجد في سَنَامِ هذه مَدَبَ قُرَادٍ من عاهة^(٢)؟ فقال له معاوية: أَوَّلِي لك! لو قلت غير هذا؛ أما على ذلك لو رأيت هنداً وأباها، وزوجها، وأخاها، وعمها، وخالها، لرأيت رجالاً تحارُّ أبصاراً من رآهم فيهم، فلا تجاوزهم إلى غيرهم، جلالة وبهاء.

[وصف العصا لأعرابي بين يدي الحجاج]

وعلى ذكر العصا لقي الحجاج أعرابياً فقال: من أين أقبلت؟ قال: من البادية. قال: ما بيدك؟ قال: عصا أركزها^(٣) لِصَلَاتِي، وأُعِدُّهَا لِغَدَاتِي، وأسوقُ بها دابَّتِي، وأقوى بها على سَفَرِي، وأَعْتَمِدُ بها في مشيتي، لِتَسْعَ بها خَطْوِي، وأعبرُ بها النهر فتؤمنني؛ وألقي عليها كسائي فتسترنني من الحر، وتقيني من القُرْ^(٤)، وتُدْنِي ما بعد مني، وهي مَحْمَلُ سُفْرَتِي^(٥)، وعلاقة إداوتي^(٦)، ومَشْجَبُ ثيابي^(٧)، أَعْتَمِدُ بها عند الضراب، وأقرعُ بها الأبواب، وأتقي

(١) الكوماء: الناقة العظيمة السنم.

(٢) القُرَادُ: دُوبَة مُطْفَلَة ذات أرجل كثيرة، تعيش على الدواب والطيور، ومنها أجناس، الواحدة قُرَادَة.

(٣) ركز الشيء ركزاً: أمّره وأثبتته، ويقال: ركز السهم في الأرض: غرزه.

(٤) القُرْ: البرد.

(٥) السُّفْرَة: طعام يُصنع للمسافر، وما يُحْمَلُ فيه هذا الطعام، والمائدة وما عليها من الطعام.

(٦) الإداوة: إناء صغير يُحْمَلُ فيه الماء.

(٧) المَشْجَبُ: ما تُعَلَّقُ عليه الثياب ونحوها.

بها عَقُورُ الْكِلَابِ^(١)، تَتَوَبُّ عَنْ الرُّمَحِ فِي الطَّعَانِ، وَعَنِ الْحِرْزِ^(٢) عِنْدَ مَنَازِلَةِ الْأَقْرَانِ، وَرِثَتُهَا عَنْ أَبِي، وَأَوْرَثَهَا بَعْدِي ابْنِي، وَأَهْشْتُ بِهَا عَلَى غَنَمِي، وَلِي فِيهَا مَارِبٌ^(٣) أُخْرَى، كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى.

[عِزَّةُ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ]

قال النضر بن شميل: كتب سليمان بن علي إلى الخليل بن أحمد^(٤) يستدعيه الخروج إليه، ويعث إليه بمال كثير، فردّه وكتب إليه:

أَبْلَغُ سُلَيْمَانَ أَنِّي عَنْهُ فِي سَعَةٍ وَفِي غَنَى غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ ذَا مَالٍ
يَسْخُو بِنَفْسِي أَنِّي لَا أَرَى أَحَدًا يَمُوتُ هُزْلاً وَلَا يَبْقَى عَلَى حَالٍ
وَالْفَقْرُ فِي النَّفْسِ لَا فِي الْمَالِ نَعْرِفُهُ وَمِثْلُ ذَاكَ الْغَنَى فِي النَّفْسِ لَا الْمَالِ
وَالْمَالُ يَغْشَى أَنْسَاءً لَا خَلَاقَ لَهُمْ كَالسَّبِيلِ يَغْشَى أَصُولَ الدُّنْدَنِ الْبَالِي^(٥)
كُلُّ أَمْرٍ بِسَبِيلٍ الْمَوْتِ مُرْتَهَنٌ فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ، إِنِّي شَاغِلٌ بِالِي
أَخِذْ هَذَا الطَّائِي فَقَالَ^(٦):

لَا تُتَكِرِي عُظْلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغَنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي^(٧)

- (١) عقور: كثير العقر، وقد عقر الكلب الولد: عَضَّهُ.
- (٢) الحِرْزُ: الوعاء الحصين يُحْفَظُ فِيهِ الشَّيْءُ، وَالْمَكَانُ الْمُنْعِي ثُلْجاً إِلَيْهِ.
- (٣) أهش بها على غنمي: أي أضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقها فترعاه غنمه. والمَارِبُ: الحاجات، مفردها مَارِبٌ. وفي التزيل العزيز: «وَمَا تِلْكَ بِبَيْمِكَ يَا مُوسَى، قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا، وَأَهْشْتُ بِهَا عَلَى غَنَمِي، وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى» (سورة طه، آية ١٨).
- (٤) هو أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، الأزدي، اليحمدي، البصري: نحوي، لغوي، وأول من استخرج العروض، وحصّن به أشعار العرب. توفي بالبصرة سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦ م. من آثاره: «المروض» و«الشواهد» «اللفظ والشكل»، وغيرها. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ١١٢/٤).
- (٥) الدُّنْدِنُ: كل ما اسودّ من نبات أو شجر.
- (٦) أبو تمام، الديوان: ٣٧/٢. والبيت من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء وقبله قوله: عَادَتْ لَهُ أَبْسَاءُ مُنْوَدَّةٌ حَتَّى تَوَهَّمَتْ أَنَّهُنَّ لِيَالِي
- (٧) الْعُظْلُ: التجرد من الزينة، استعاره للغنى. يقول: لا تدهشي إذا رأيت كريماً فقيراً من المال، فالسبل يجتاح السهول، ولا يبلغ قمم الجبال.

وقال أيضاً يصف قوماً خُصُّوا بآبن أبي دؤاد^(١):

نَزَلُوا مَرْكَزَ اللَّدى وَذَرَاهُ وَعَدَّتْنَا مِنْ دُونِ ذَاكَ الْعَوَادِي^(٢)
غَيْرَ أَنَّ الرُّبَا إِلَى سُبُلِ الْأَنْدِ سَوَاءٍ أَذْنَى، وَالْحِطُّ حِطُّ الْوَهَادِ^(٣)

وهذا الشعر من أصلح شعر الخليل، وكان شعره قليلاً ضعيفاً، بالإضافة إليه وهو أستاذ النحو والغريب، وقد اخترع علم العروض من غير مثال تقدمه، وعنه أخذ سيويه، وسعيد بن مسعدة، وأئمة البصريين، وكان أوسع الناس فطنةً، وألطفهم ذهنًا. قال الطائي^(٤):

فَلَوْ نُشِرَ الْخَلِيلُ إِذَا لَعَفَّتْ رَزَايَاهُ عَلَى فِطْنِ الْخَلِيلِ^(٥)

[من رسائل الصابي]

للصابي يعزي عن طفل

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى محمد بن عباس يعزيه عن طفل:

الدنيا، أطال الله بقاء الرئيس، أقدارٌ تَرُدُّ في أوقاتها، وقضايا تَجْرِي إلى غاياتها، ولا بُرْدٌ منها شيءٌ عن مداه، ولا يصدُّ عن مطلبه ومَنَحَاهُ؛ فهي كالسهام التي تثبت في الأغراض، ولا ترجعُ بالاعتراض؛ ومن عرف ذلك معرفة الرئيس لم يغض من الزيادة، ولم يَقْطُ من النقيصة^(٦)، وأمن أن يستخف أحد الطرفين حلمه، ويستزل أحد الأمرين حزمه، ولم يدع أن يوطن نفسه على النازلة قبل نزولها، ويأخذ الأُهبّة للحادثة قبل حلولها، وأن

(١) أبو تمام، الديوان: ٢١٠/١. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد.

(٢) في الديوان:

لَزِمُوا مَرْكَزَ اللَّدى وَذَرَاهُ وَعَدَّتْنَا عَنْ مِثْلِ ذَاكَ الْعَوَادِي
ذراه: ملجأه. عدتنا: صرفتنا. العوادي: الشغل الذي يصرفك عن الشيء.

(٣) البَل: المطر النازل من السماء قبل أن يصل إلى الأرض. يقول: كانوا إليك أقرب، ولك ألزم، وقد خُصِّصْتُ بمعرفتك، كما أن الرُّبَى إلى المطر أقرب، وتقره الوهاد.

(٤) أبو تمام، الديوان: ٢٥٤/٢. والبيت من قصيدة يهجو بها عياش بن لهيعة.

(٥) في الديوان: «فلو نُشِرَ الْخَلِيلُ لَهُ لَعَفَّتْ».

(٦) القنوط: أشدُّ اليأس. والنَّقْصُ: والوقية أو الطعن في الناس، والخصلة الدنيئة. ساوره: مساورةً وسواراً: واثبه وصارعه.

يجاور الخير بالشكر، ويساور المِحنة بالصبر^(١)؛ فيتخير فائدة الأولى عاجلاً، ويستمرى عائدة الأخرى آجلاً.

وقد نفذ من قضاء الله تعالى في المولى الجليل قدرًا، الحديث سنًا، ما أَرْمَضَ، وأَوْمَضَ، وأَقْلَقَ، وأَقْضَ؛ ومسني من التألم له ما يحقُّ على مثلي ممن توافَّتْ أيادي الرئيس إليه، ووجبت مشاركته في الملم عليه، فإننا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله نحسبه غُصًّا ذَوِي، وشهابًا خَبًا، وفرعًا ذَلَّ على أصله، وَخَطِيًّا أَبْتَه^(٢) وَشِيجُهُ؛ وإياه أسأل أن يجعله للرئيس قَرطًا صالحًا، وذُخْرًا عتيْدًا، وَأَنْ يَنْفَعُهُ يوم الدين، حيث لا ينفع إلا مثله بين البنين، بعجوده ومَجْدِهِ.

ولئن كان المصاب عظيمًا، والحادث فيه جسيمًا، لقد أحسن الله إليه، وإلى الرئيس فيه؛ أمَّا إليه فإن الله نزهه بالاخترام^(٣)، عن اقتراف الآثام، وصانته بالاختصار، عن ملابسة الأوزار، فورد دُنْيَاهُ رشيدًا، وصدر عنها سعيدًا، نقي الصحيفة من سواد الذنوب، بري الساحة من دَرَن العيوب، لم تُدَنِّسه الجرائر^(٤)، ولم تعلق به الصغائر والكبائر، قد رفع الله عنه دقيق الحساب، وأسهم له الثواب مع أهل الصواب، وألحقه بالصديقين الفاضلين في المعاد، وبَوَّاه حيث أفضلهم من غير سَعْيٍ ولا اجتهد.

وأما الرئيس فإن الله عز وجل لما اختار ذلك له قبضه قبل رؤيته إياه على الحالة التي تكون معها الرقة، ومعانيته التي تتضاعف معها الحُرقة، وحَمَاهُ من فِتْنَةِ المرافقة، ليرفعه عن جزع المفارقة، [وكان هو المبقى] في دنياه، وهو الواحد الماضي الذخيرة لأخراه، وقد قيل: إن تسلم الجَلَّةُ فالتسلخ هدر^(٥)؛ وعزيز علي أن أقول قول المهوّن للأمر من بعده، وآلأ أوفي التوجع عليه واجب فَقْدِهِ، فهو له سُلالة، ومنه بَضْعَة، ولكن ذلك طريق التسلية، وسبيل التعزية، والمنهج المسلوك في مخاطبة مثله، ممن يقبل منفعة الذكرى وإن أغناه الاستبصار، ولا يأبى وُرُودَ الموعظة وإن كَفَاهُ الاعتبار، والله تعالى يقي الرئيس المصائب،

(١) الخَطِي: المنسوب إلى الخط، وهو موضع كانت تنسب إليه الرماح.

(٢) الوشيج: ما نبت من القنا والقصب مُلتصًا، الواحدة وشيجة.

(٣) الاخترام: الموت.

(٤) الجرائر: جمع جريرة: الجناية والذنب.

(٥) الجَلَّة: المسان من الإبل، أي الكبار منها، والسخل: ولد الشاة، الواحدة سخل.

ويعيده من النوائب، ويرعاه بعينه التي لا تنام، ويجعله في حِمَاهُ الذي لا يُرام، ويُبقيهِ موفوراً غير مُتَقَصٍّ، ويقدمنا إلى السوء أمامه، وإلى المحذور قدامه، ويبدأ بي من بينهم في هذه الدعوة، إذ كنت أراها من أسعد أحوالي، وأَعْدُّهَا من أبلغ أمانتي وآمالي.

من الصابي إلى بعض الرؤساء

وكتب إلى بعض الرؤساء:

قد جَرَتِ العادةُ - أطال الله بقاءَ الأمير! - بالتمهيد للحاجة قبل موردها، وإسلاف الظنون الداعية إلى نجاحها، وسالكُ هذه السبيل يسيء الظن بالمسؤول؛ فهو لا يلتزم فضله إلا جزاءً، ولا يستدعي طَوْلَهُ إلا قضاءً؛ والأميرُ بكرمه الغريب، ومذهبه البديع، يؤثر أن يكون السلفُ له، والابتداءُ منه، ويوجب للمهاجم برغبته عليه حقَّ الثقة به منه، والحمدُ لله الذي أفرده بالطرائق الشريفة، وتوَحَّدَه^(١) بالخلائق المُنيَفة، وجعله عَيْنَ زمانه البصيرة، وَلَمَعَتِهِ الثاقبة المنيرة.

[من رسائل البديع]

كتاب منه إلى بعض أصحابه

وكتب البديع في بابهِ إلى بعض أصحابه:

لك أعزُّكَ الله عادةً فضل، في كل فصل، ولنا شبهُ مَقَّتْ، في كل وقت؛ ولعمري إن ذا الحاجة مَقِيَّتُ الطَّلعة، ثقيل الوطأة، ولكن ليسوا سواء [؛ أولوا حاجة تحتاج إليهم الأموال، وأولو حاجة تحوِّجهم الأموال.

والأمير أبو تمام عبدُ السَّلام بن الفضل المطيعُ لله أمير المؤمنين - أيده الله - إن أحوجه الزمانُ فطالما خَدَمه، وإن أهانه فكثيراً ما أكرمه ونعمه. وقديماً أقله السرير، وعرفه الخورنق والسدير^(٢). وإن نقصه المال فالعِرضُ وافر، وإن جفاه الملك فالفضلُ ظاهر، وإن ابتلاه الله فَلْيَسْتَلِكْكُمْ به فينظر كيف تفعلون. وأن تقابلُ مورده عليك من الإعظام، بما يستحق من الإكرام، فلا تنظرون إلى ثوبٍ بال، فَتَحْتَهُ شرفٌ عال، ولا تقس على البرد، ما وراءه من

(١) توَحَّدَه وأوَحَّدَه: أفرده.

(٢) الخورنق: قصر كان للنعمان الأكبر بالعراق. والسدير: بناء ذو ثلاث شعب، أو قبة في ثلاثة قُبب متداخلة.

المجد، ولكن إن نظرت ففي شامخ أصله، وراسخ عقله، وشهادة القراسة له. ثم ليأت بعد هذه الآيات ما هو قضية المروءة معه، والأخوة معي، بِالْغَا فِي ذَلِكَ غاية جهده، والسَّيِّئُ لَا يرى في غَمِّه، والحمد لله حقَّ حَمْدِهِ.

كتاب منه إلى إبراهيم بن أحمد بن حمزة

وله إلى أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن حمزة:

لو كانت الدنيا - أطال الله بقاء الشيخ! - على مرادي تجري، لاخترت أن أضرب بهذه الحضرة أطناب عمري، وأنفق على هذه الخدمة أيام دهري، ولكن في أولاد الزنا كثرة. وَلَعَيْنَ الزمان نظرة، وقد كنتُ حَظِيْتُ من خدمة الشيخ المحسن بشرعة أُتِيَ نَعَصُهَا بعضُ الوشاة عليّ، وذكر أنني أقمت بطوس بعد استئذاني إلى مَرَوْ، وفي هذا ما يعلمه الشيخ، فإن رأى أن يحسن جَبْرِي بكتاب يطرز به مقدمي فعل إن شاء الله تعالى.

كتاب آخر إلى أبي نصر الميكالي

وله في هذا الباب إلى أبي نصر الميكالي:

الشيخ - أعزه الله - ملك من قلبي مكاناً فارغاً، فنزله غير منزل قَلْعَةٍ^(١)، ومن مودتي ثوباً سابغاً، فلبسه غير لبسة خلعة، ومن نصب تلك الشمائل شبكاً، وأرسل تلك الأخلاق شركاً، فَكَصَّ الأحرار فاستحقهم، وصادر الإخوان واسترقهم.

وتالله ما يُعَيِّنُ إِلَّا من اشترى عبداً وهو يجد حراً بأرخص من العبد ثمناً، وأقل في البيع غبناً، ثم لا يهتبل^(٢) غرة وجوده، وينتهاز فرصة امتلاكه بجموده، وأنا أنم للشيخ على مكرمة يتيمة، ونعمة وسيمة. فليعتزل من الرأي ما كان بهيماً، وليطلق من النشاط ما كان عقيماً، وليحلل حَبْوة التقصير، وليتجنب جانب التأخير، وليفتض عُدَّتَها، وينقض حجتها وعُمُرَها، برأي يجذب المجد باعه، ويعمر النشاط رباعه؛ وتلك حاجة سيدي أبي فلان وقد ورد من الشيخ بحراً، وعقد به جسراً، وما عَسَرَ وَعَدَّ هو مستنجزه، ولا بَعْدَ أمر هو منتهزه، ولا ضاعت نعمة أنا بريء شكرها، وعزيم نشرها، وولي أمرها؛ وهذا الفاضل قرارة مائها، وعماد بنائها؛ وقد شاهدت من ظُرفه، ما أعجز عن وصفه، وعرفت من باطنه ما لم يُدرَ

(١) منزل قلعة: لا يطول المقام فيه.

(٢) لا يهتبل: لا ينتهز.

بظاهره، ورأيتُ من أوله ما نَمَّ على آخره، ثم له البيت المرموق، والنسب الموموق، والأولية القديمة، والشيمة الكريمة؛ وقد جَمَعَتْنَا في الود حَلَقَةً، ونظَمَتْنَا في السفر رفقة، وعرفني بما أنهض له وفيه، فضمنت له عن الشيخ كَرَمًا لا يُغْلَقُ بابُه، وَغَدَقًا^(١) لا يُخْلَفُ سحابُه؛ فليخرجني الشيخ من عهدة هذه الثقة، زادها إليه تأكيدًا، وإن رأى أن أسأل الشيخ في معناه عرفني كيف المأثي له، وإنما أَطَلْتُ ليعلم صِدْقَ اهتمامي، وفَرَطَ تقليدي للمنة والتزامي.

جواب منه عن صنعة

وله جواب عن صنعة صاحب هذه العناية :

ورد فلان سيدي وهو عينُ بلدتنا وإنسانها، ومقلتها ولسانها؛ فأظهر آيات فضله، لا جرم أنه وصل إلى الصميم، من الإيجاب الكريم، وهو الآن مقيمٌ بين رَوْحٍ ورِيحانٍ وجنةٍ نعيم، تحيته فيها سلام، وآخر دعواه ذكرك وحسن الشاء عليك بما أنت أهله، وأنا أصدقُ دعواه، وأفتخر به افتخار الخصي بمتاع مولاه، وقد عرفته وَلَسَنَه، وكيف يَجُرُّ في البلاغة رَسَنَه، فما ظنك به؟ وقد ملكتها المجالس ولحظتها العيون، وسلَّ صارمًا من فيه، يُعيدُ شكرك ويُبديهِ، وينشر ذكرك ويطويه؛ والجماعة تمدحُ لمدحه، وتجرح بجرحه، فرأيك في تحفظ أخلاقك التي أثمرت هذا الشكر، وأنتجت هذه المآثر الغر، موفقًا إن شاء الله تعالى.

المقامة الأذربيجانية

ومن إنشائه في مقامات الإسكندري، قال :

حدَّثنا عيسى بن هشام، قال: لما نَطَقَنِي الغنى بفاضل ذَيْلِه، أَتَهَمْتُ بمال سَلْبُهُ، أو كثر أَصْبَتُهُ، فَخَفَرَنِي الليلُ، وَسَرَتْ بي الخيلُ. وَسَلَكْتُ في هربي مسالكَ لم يَرْضَها السيرُ، ولا اهتَدَتْ إليها الطيرُ، حتى طويْتُ أرضَ الرُّعْبِ وتجاوزْتُ حدَه، وصِرْتُ إلى حِمَى الأَمَنِ ووجدتُ بَرْدَه، وبلغتُ أَذربيجانَ وقد حَفَيْتِ الرواحِلُ، وأكلَتْها المراحل^(٢)، ولما بلغتْها:

نَزَلْنَا عَلَى أَنَّ الْمُقَامَ ثَلَاثَةٌ فَطَابَتْ لَنَا حَتَّى أَقْمَنَا بِهَا شَهْرًا

(١) الغَدَقُ: الماء الكثير.

(٢) الرواحل: جمع راحلة، وهي من الإبل ما صَلُحَ للأسفار والأحمال. والمراحل: جمع مرحلة، وهي المسافة يقطعها المسافر في نحو يوم.

فبينما أنا يوماً في بعض أسواقها إذ طلع رجل بِرُكُوةٍ قد اعتضدها^(١)، وعصا قد اعتمدها،
ودنية قد تَقَلَّسَهَا، وفوطه قد تَطَيَّلَسَهَا^(٢)؛ فرقع عقيرته وقال: اللَّهُمَّ يَا مُبْدِيَ الْأَشْيَاءِ وَمُعِيدَهَا،
ومحيي العظام وَمُبِيدَهَا، وخالق المصباح ومديره، وفالق الإصباح ومنيره، وموصل الآلاءِ
سابعة إلينا، ومُؤَمِّسِكَ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَيْنَا، ويأريء النَّسَمَ أَزْوَاجاً، وجاعلَ الشَّمْسِ سِرَاجاً،
والسَّمَاءِ سَقْفاً، والأَرْضِ فِرَاشاً، وجاعلَ اللَّيْلِ سَكَناً والنَّهَارِ مَعَاشاً، ومنشئ السحاب ثِقَالاً،
ومرسل الصواعق نَكَالاً، وعالم ما فوق النجوم، وما تحت التخوم. أسألك الصلاة على سيد
المرسلين محمد وآله الطاهرين، وأن تعينني على الغربة أثني حَبْلَهَا، وعلى العُسْرَةِ أعدو ظِلَّهَا،
وأن تُسَهِّلَ لِي عَلَى يَدَيَّ مَنْ فَطَرْتَهُ الْفِطْرَةَ، وأُطْلَعْتَهُ الطُّهْرَةَ، وَسَعَدَ بِالْذِّينِ الْمُتِينَ، وَلَمْ يَعَمْ
عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ، راحلة تَطْوِي هذا الطريق، وزاداً يسعني والرفيق.

قال عيسى بن هشام: فَنَاجَيْتُ نَفْسِي بِأَنْ هَذَا الرَّجُلُ أَفْصَحُ مِنْ إِسْكَندَرِيْنَا أَبِي الْفَتْحِ،
والتفتُ لَفْتَةً، فَإِذَا هُوَ أَبُو الْفَتْحِ. فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْفَتْحِ، بَلَغَ هَذِهِ الْأَرْضُ كَيْدُكَ، وَانْتَهَى إِلَى
هَذَا الشَّعْبِ صَيْدُكَ؟! فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

أَنَا جَوَّالَةُ الْبَلَا	دِ جَوَّابَةُ الْأُفْسُنِ
أَنَا حُذْرُوفَةُ السِّزْمَا	نِ وَعَمَّارَةُ الطُّرُقِ ^(٣)
لَا تَلْمِزْنِي لَكَ الرِّشَا	دُ عَلَى كُذِّبَتِي وَذُقْ ^(٤)

* * *

وقال الطرماح بن حكيم^(٥):

- (١) الركوة: وعاء يجمع فيه ما يُحَصِّلُهُ. وَالرُّكُوةُ (بكسر الراء): إناء صغير من جلد يُشْرَبُ بِهِ، والدلو الصغيرة. واعتضدها: جعلها في عضده.
- (٢) تطيلسها: لبسها.
- (٣) الخدروف: عَوِيْدٌ مَشْقُوقٌ فِي وَسْطِهِ يُشَدُّ بِخِيطٍ وَيُدَوَّرُ فَيَسْمَعُ لَهُ حَنِينٌ، وَيُشَبَّهُ بِهِ كُلُّ سَرِيعٍ فِي جَرِيهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُنْتَشِرٌ مِنْ شَيْءٍ.
- (٤) الكذبة: حرفة السائل المُلِحِّ، وقد أكدى فلان: أَلَحَّ فِي الْمَسْأَلَةِ.
- (٥) هو أبو نصر، وأبو ضبيته، الطرماح بن حكيم بن الحكم بن نفر بن قيس بن جحدر الطائي: شاعر إسلامي فحل، ولد ونشأ في الشام، وانتقل إلى الكوفة. ودرس فيها واعتنق مذهب الشيعة الأزارقة، وكان معاصراً للكُميت، صديقاً له، ولا يكادان يفترقان على ما بينهما من بعد في النسب والمذهب والبلاد. توفي نحو ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٤٨٩/٢).

وَمَا أَنْسَمَ الْأَشْيَاءُ لَا أَنْسَ بِيَعَةً مِنْ الدَّهْرِ إِذْ أَهْلُ الصَّفَاءِ جَمِيعُ
وَإِذْ دَهَرْنَا فِيهِ اغْتِزَارٌ، وَطِيرُنَا سَوَاكِنُ فِي أَوْكَسَارِهِنَّ وَقُوعُ
فَهَلْ لِّلْيَالِينَا بِنْعَفٍ مَلِيحَةٌ وَأَيَّامُهُنَّ الصَّالِحَاتُ رُجُوعُ^(١)؟
كَأَنَّ لَمْ يَرْعُكَ الظَّاعِنُونَ إِلَى بَلَى وَمِثْلُ فِرَاقِ الظَّاعِنِينَ يَرُوعُ]

[أيام الشباب وأيام المشيب]

لعلي العلوي

وقال علي بن محمد [بن الحسن] العلوي:

وَاهِبَا لِأَيَّامِ الشَّبَابِ بِ وَمَا لَيْسَنَ مِنَ الزَّخَارِفِ
وَذَهَابِهِنَّ بِمَا عَرَفُ نَ مِنَ الْمَنَآكِرِ وَالْمَعَارِفِ
أَيَّامِ ذِكْرِكَ فِي دَوَا وَبِالنَّصْبِ صَدْرَ الصَّحَائِفِ
وَاهِبَا لِأَيَّامِي وَأَيَّامِ م الشَّهِيَّاتِ الْمَرَّاشِفِ^(٢)
الْفَارِسَاتِ الْبَنَانِ قَضَبِ أَنَا عَلَى كُتُبِ السَّرَوَادِفِ
وَالْجَاعِلَاتِ الْبَلَدِ مَا يِّنَ الْحَوَاجِبِ وَالسَّوَالِفِ
أَيَّامِ يُظْهِرْنَ الْخِلَا فِ بَغْيَرِ نِيَّاتِ الْمَخَالِفِ
وَقِفْ النِّعَمُ عَلَى الصَّبَا وَزَلَلْتُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاقِفِ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز^(٣):

دَعَتْنِي إِلَى عَهْدِ الصَّبَا رَبَّةُ الْخَدْرِ وَأَلْقَتْ قِنَاعَ الْخَزْرِ عَنْ وَاضِحِ الثَّغْرِ
وَقَالَتْ وَمَاءُ الْعَيْنِ يَخْلُطُ كُحْلَهَا بِصُفْرَةِ مَاءِ الزَّعْفَرَانِ عَلَى الشَّحْرِ
لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا كُنْتَ قَابِضًا عَنْكَ عَنْ ذَاتِ الْوِشَاحِينَ وَالشُّذْرِ^(٤)

(١) النَّعْفُ مِنَ الْأَرْضِ: مَا انْحَدَرَ عَنِ السَّفْحِ وَعَلَّظَ وَكَانَ فِيهِ صَعُودٌ وَهَبُوطٌ، وَقِيلَ: هُوَ نَاحِيَةٌ مِنَ الْجَبَلِ أَوْ نَاحِيَةٌ مِنْ رَأْسِهِ، وَلَعَلَّهُ أَرَادَ بِ«نَعْفٍ» مَكَانًا بَعِيْنَهُ.

(٢) الْمَرَّاشِفُ: جَمْعُ مَرَّشَفٍ: مَوْضِعُ الرَّشْفِ (الثَّغْرِ).

(٣) لَمْ نَجِدْ هَذِهِ الْأَيَّامَ فِي دِيْوَانِهِ.

(٤) الشُّذْرُ: قِطْعُ الذَّهَبِ تَلْتَقِطُ مِنْ مَعْدَنِهِ، وَخَرَزُ يُفْصَلُ بِهِ بَيْنَ حَبَاتِ الْعَقْدِ وَنَحْوِهِ، وَاللُّؤْلُؤُ الصَّنَّارُ، الْوَاحِدَةُ شُذْرَةٌ، وَالْجَمْعُ شُذُورٌ.

أَرَاكَ جَعَلْتَ الشَّيْبَ لِلْهَجْرِ عَلَةً كَأَنَّ هِلَالَ الشَّهْرِ لَيْسَ مِنَ الشَّهْرِ

لأحمد بن أبي طاهر

وقال [أحمد بن أبي طاهر]:

يَا مَنْ كَلَفْتُ بِحُجَّتِهِ كَلَفِي بِكَاسَاتِ الْعُقَارِ^(١)
وَحَيَاةٍ مِمَّا فَسِي وَجَّتِي لَكَ مِنَ الشَّقَائِقِ وَالْبَهَارِ^(٢)
وَوُلُوعٍ رَذِفِكَ بِالْثَرَجِ رُجِّ تَحْتَ خَصْرِكَ فِي الْإِزَارِ
مَا إِنْ رَأَيْتُ لِحُسْنِ وَجْهِ هَيْكَ فِي الْبَرِيَّةِ مِنْ نِجَارِ^(٣)
لَمَّا رَأَيْتُ الشَّيْبَ مِنْ وَجْهِهِ بِمَا يَحْكِي الْخِمَارِ
[قَالَتْ غُبَارٌ قَدْ عَلَا لَكَ فَقُلْتُ ذَا غَيْرُ الْغُبَارِ
هَذَا الَّذِي تَقْلُ الْمُلُورِ لَكَ إِلَى الْقُبُورِ مِنَ الْبِدَارِ]
قَالَتْ ذَهَبْتَ بِحُجَّتِي عَنِّي بِحُسْنِ الْإِعْتِزَارِ
يَا هَذِهِ أَرَأَيْتَ لِي لَأَمْذُ خُلِقْتَ بِلَا نَهَارِ

لخالد الكاتب

وقال خالد الكاتب:

نَظَرْتُ إِلَيَّ بَعِينَ مَنْ لَمْ يَعْدِلِ لَمَّا تَمَكَّنَ طَرْفُهَا مِنْ مَقْتَلِي
لَمَّا رَأَتْ شَيْئاً أَلَمْ يَمْفُرْ قِي صَدَّتْ صُدُودُ مُفَارِقِ مُتَحَمِّلِ
وَزَلَلْتُ أَطْلُبُ وَضَلَهَا بِتَمَلُّقِي وَالشَّيْبُ يَغْمِزُهَا بِأَلَّا تَفْعَلِي

لابن الرومي

وقال ابن الرومي^(٤):

- (١) كَلَفَ الشَّيْءَ وَه: أَحَبُّهُ وَأُولِعَ بِهِ. وَالْعُقَار: الخمر.
- (٢) الْبَهَارُ: زهر طيب الريح، ينبت أيام الربيع، ويقال له: العَرَار.
- (٣) التَّجَار: الأصل والحَسَب.
- (٤) ابن الرومي، الديوان: ١١٢/٢. والأبيات من قصيدة يمدح بها صاعد بن مُخَلَّد.

كَفَى حَزَنًا أَنَّ الشَّبَابَ مُعْجَلٌ
وَعَزَاكَ عَنْ لَيْلِ الشَّبَابِ مَعَاشِرُ
فَقُلْتُ: نَهَارُ الْمَرْءِ أَهْدَى لِسَعِيهِ
مَحَارِ الْفَتَى شَيْخُوخَةً أَوْ مَنِيَّةً
وقال (٣):

قَصِيرُ اللَّيَالِي وَالْمَشِيبُ مُخْلَدٌ
فَقَالُوا: نَهَارُ الشَّيْبِ أَهْدَى وَأَرْشَدُ
وَلَكِنْ ظِلُّ اللَّيْلِ أُنْدَى وَأَبْرَدُ^(١)
وَمَرْجُوعٌ وَهَاجَ الْمَصَائِيحُ رَمْدُ^(٢)

كَانَ الشَّبَابُ وَقَلْبِي فِيهِ مُتَمَسِّسٌ
رَوْحٌ عَلَى النَّفْسِ مِنْهُ كَادَ يُرْدُّهَا
كَأَنَّ نَفْسِي كَانَتْ مِنْهُ سَارِحَةً
يَمْضِي الشَّبَابُ وَيَبْقَى مِنْ لُبَانَتِهِ
مَا كَانَ أَعْظَمَ عِنْدِي قَدْرٌ نِعْمَتِهِ
مَا كَانَ يُوزَنُ إِعْجَابُ النِّسَاءِ بِهِ
وقال (١٠):

فِي لَذَّةٍ لَسْتُ أَدْرِي مَا دَوَاعِيهَا^(٤)
بَرْدَ النَّسِيمِ وَلَا يَنْفَكُ يُحْيِيهَا^(٥)
فِي جَنَّةٍ بَاتَ سَاقِي الْمُزْنِ يَسْقِيهَا^(٦)
شَجَوُ عَلَى النَّفْسِ لَا يَنْفَكُ يُشْجِيهَا^(٧)
لِنَفْسِهِ لَا لِحَلِيمٍ كَانَ يُضْيِيهَا^(٨)
وَالنَّفْسُ أَوْجَبُ إِعْجَابٍ بِمَا فِيهَا^(٩)

إِذَا مَا رَأَيْتَكَ الْيِضُ صَدَّتْ، وَرُبَّمَا
غَدَوْتَ وَطَرَفُ الْبَيْضِ نَحْوَكَ أَصُورُ^(١١)

(١) في الديوان: «وكان نهار المرء أهدي لسعيه».

(٢) المحار: المرجع. والرمدد: الهالك، يقال: رماد أرمد ورمدد ورمدد ورمدد: كثير دقيق جداً، ورماد رمدد أي هالك، جعلوه صفة، وقيل: الرمدد: المتناهي في الاحتراق والدقة.

(٣) ابن الرومي، الديوان: ٣٨٢/٦. والأبيات من قصيدة قالها يتذكر الشباب وأيامه.

(٤) في الديوان: «في فرجة لست أدري ما دواعيها».

(٥) في الديوان: «كان يبردها».

(٦) في الديوان: «في روضة بات ساقى المزن ساقيا».

(٧) في الديوان:

يَمْضِي الشَّبَابُ وَيَبْقَى مِنْ لُبَانَتِهِ شَجَوُ عَلَى النَّفْسِ يَشْجُوها وَيُشْجِيها
(٨) في الديوان: «لِنَفْسِهِ لَا لِخَوْدٍ» «كان يضئها»، والخود: المرأة الشابة الناعمة.

(٩) في الديوان: «ما كان أكثر إعجاب النساء به».

(١٠) ابن الرومي، الديوان: ١٧٤/٣، وقيله:

كَبُرْتُ وَفِي خَمْسٍ وَخَمْسِينَ مَكْبَرُ وَشَبْتُ فَالْحَاطُ الْمَهَا مِنْكَ نُفْرُ
(١١) أصور: أكثر ميلاً.

وَمَا ظَلَمْتُكَ الْغَايَاتُ بِصِدِّهَا وَإِنْ كَانَ فِي أَحْكَامِهَا مَا يُجَوِّزُ^(١)
 أَعْرُ طَرَفَكَ الْمَرَاةَ وَأَنْظُرْ؛ فَإِنْ نَبَا بَعَيْنِكَ عَنْكَ الشَّيْبُ فَالْيَبِضُ أَعَزُّ
 إِذَا شَيْتَ عَيْنَ الْفَتَى شَيْبَ نَفْسِهِ فَعَيْنٌ مِوَاهٍ بِالسَّنَاءِ أَجْدَرُ^(٢)

لكشاجم

وقال كشاجم:

وَقَفَّتْ نِي مَا بَيْنَ حُزْنٍ وَيُوسٍ وَشَتَّ بَعْدَ ضِحْكَةٍ بِعُيُوسٍ
 إِذْ رَأَتْنِي مَشَطَّتْ عَاجاً بِعَاجٍ وَهِيَ الْآبَنُوسُ بِالْآبَنُوسِ^(٣)

لأبي نواس

وقال أبو نواس^(٤):

بَكَرَتْ تُبْصِرُنِي الرَّشَادَ كَأَنِّي لَا أَهْتَدِي لِمَ ذَاهِبِ الْآبِرَارِ
 وَتَقُولُ: وَيْحَكَ قَدْ كَبِرْتَ عَنِ الصَّبَا وَرَمَى الزَّمَانُ إِلَيْكَ بِالْأَعْدَارِ
 فَإِلَى مَتَى تَصْبُو وَأَنْتَ مُتَيْمٌ مُتَقَلِّبٌ فِي رَاحَةِ الْإِقْتَارِ
 فَأَجِبْتُهَا إِنِّي عَرَفْتُ مَذَاهِبِي فَصَرَفْتُ مَعْرِفَتِي إِلَى الْإِنْكَارِ

لأحمد بن زياد

وقال أحمد بن زياد الكاتب:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّيْبَ حَلَّ يَبَاضُهُ بِمَفَرِّقِ رَأْسِي قُلْتُ: أَهْلًا وَمَرْحَبًا
 وَلَوْ خِلْتُ أَنِّي إِنْ تَرَكْتُ تَحِيَّتِي تَكْكَبَ عَنِّي رُمْتُ أَنْ يَتَنَكَّبَا
 وَلَكِنْ إِذَا مَا حَلَّ كُرُهُ فَسَامَحْتُ بِهِ النَّفْسُ يَوْمًا كَسَانِ لِلْكَرْهِ أَذْهَبَا

(١) في الديوان: «من أحكامها».

(٢) في الديوان: «وَجَّهَ نَفْسَهُ». شَتَّ: بغضت وكرهت، والسَّناء: البغض والكره.

(٣) العلاج (الأولى): الشعر ليأضه، والعلاج (الثانية): المشط المصنوع من العاج وهو أبيض اللون. والآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند، وخشبه أسود اللون صلب، ويصنع منه بعض الأدوات والأواني والأثاث، وأراد به شعرها الأسود (كنية عن شبابها) ومشطها الأسود اللون.

(٤) لم نجد هذه الأبيات في ديوانه.

كَأَن هَذَا الْبَيْتَ يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَجِئْتُ إِلَى النَّفْسِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَرُدْتُ إِلَى مَعْرُوفِهَا فَاسْتَقَرَّتْ

للمتنبي

أبو الطيب^(١) :

أَنْكَرْتُ طَارِقَةَ الْحَوَادِثِ مَرَّةً ثُمَّ اعْتَرَفْتُ بِهَا فَصَارَتْ دَيْدَنًا^(٢)

لابن الرومي

ابن الرومي^(٣) :

لَا حَ شَيْئِي فَصِرْتُ أَمْرُحُ فِيهِ مَرَحَ الطَّرْفِ فِي الْعِذَارِ الْمُحَلَّى^(٤)
وَتَوَلَّى الشَّبَابُ فَازْدَدْتُ غَيَا فِي مَيَادِينِ بَاطِلِي إِذْ تَوَلَّى^(٥)
إِنَّ مَنْ سَاءَهُ الزَّمَانُ بِشَيْءٍ لِأَحَقُّ الْوَرَى بِأَنْ يَتَسَلَّى^(٦)

المتنبي^(٧) :

أَتَسْرَانِي أَسُوءُ نَفْسِي لَمَّا سَاءَنِي الدَّهْرُ؟ لَا، لَعْمَرِي، كَلَّا

للمتنبي

المتنبي^(٨) :

تَصَفُّو الْحَيَاةَ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ عَمَّا مَضَى فِيهَا وَمَا يَتَوَقَّعُ

(١) المتنبي، الديوان: ٢٩٣/١.

(٢) الديدن: العادة. يقول: لما طرقت حوادث الدهر أول مرة استغريها لعدم سبق عهده بها، فلما عاودته وكثر طروقها له، اعترف بألفتها، وصارت عادة لازمة له.

(٣) ابن الرومي، الديوان: ٨١/٥.

(٤) في الديوان: «فَرَحْتُ أَمْرُحُ فِيهِ».

(٥) في الديوان: «فازددت ركضاً».

(٦) في الديوان: «لاحق أمرىء بأن يتسلى».

(٧) لم نجد هذا البيت في ديوانه.

(٨) المتنبي، الديوان: ٣٠٨/٢. والبيتان من قصيدة يرثي بها أبا شجاع فأتك بعد خروجه من مصر.

وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ وَيَسْؤِمُهَا طَلَبَ الْمُحَالِ فَيَطْمَعُ^(١)

للبحري

البحري:

يَكْفِيكَ مِنْ حَقِّ تَخَيُّلٍ بَاطِلٍ تَسْرُدَى بِهِ نَفْسُ اللَّهِيفِ فَتَرْجِعُ

لأبي تمام الطائي

وقلما تصحُّ مغالطات أهل العقول، عند أهل التحصيل، وما أحسن ما قال الطائي^(٢):

لِعَبِّ الشَّيْبِ بِالْمَفَارِقِ، بَلْ جَدَّ فَأَبْكَى تُمَاضِرًا وَلَعُوبًا^(٣)
يَا نَسِيبَ الثَّغَامِ ذَبُّكَ أَبْقَسَ حَسَنَاتِي عِنْدَ الْحَسَنِ ذُنُوبًا^(٤)
لَوْ رَأَى اللَّهُ أَنَّ فِي الشَّيْبِ فَضْلًا جَاوَزَتْهُ الْأَبْرَارُ فِي الْخُلْدِ شَيْئًا^(٥)

لأبن الرومي

وقد جاء في التشاغل عن الدهر وأحداثه، ونكباته، ومصائبه، وفجعاته، والتسلي عن الهموم، بماء الكروم، شعرٌ كثير؛ فمما يتعلق منه بذكر الشيب قول ابن الرومي^(٦):

سَأَعْرِضُ عَمَّنْ أَعْرِضَ الدَّهْرُ دُونَهُ وَأَشْرِبُهُمَا صِرْفًا وَإِنْ لَمْ لَوْمْ^(٧)
فإني رأيت الكأسَ أكرمَ خُلَّةٍ وَفَتَّ لي ورأسي بالمشيب مُعَمِّمٌ
وَصَلَّيْتُ فَلَمْ تَبْخُلْ عَلَيَّ بِوَصْلِهَا وَقَدْ بَخِلْتُ بِالْوَصْلِ عَنِّي تَكْتُمُ^(٨)

(١) يسومها: يكلفها. وفي الديوان: «فَطْمَعُ».

(٢) أبو تمام، الديوان: ١/١٣٣. والأبيات من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرقي.

(٣) تماضر ولعوب: من أسماء النساء.

(٤) أراد بنسيم الثغام: الشيب، لأن الثغام نبت أبيض. الحسان: النساء الغنيات بحسنهن وجمالهن عن التزين.

(٥) فضلاً: وروى: «خيراً».

(٦) ابن الرومي، الديوان: ٥/٢٨٦. والأبيات من قصيدة طويلة يمدح بها عبيد الله بن عبد الله.

(٧) في الديوان: «سَأَعْرِضُ عَنَّا».

(٨) تكتُم: اسم امرأة.

وَمَنْ صَارَ اللَّذَاتِ إِنْ خَانَ بَعْضُهَا لِيُرْغَمَ دَهْرًا سَاءَهُ فَهُوَ أَرْغَمُ
أَمِنْ بَعْدِ مَثْوَى الْمَرْءِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِلَى ضَيْقِ مَثْوَاهُ مِنَ الْقَبْرِ يَنْلَمُ^(١)
وَلَمْ يَتَّقَ بَيْنَ الضَّيْقِ وَالضَّيْقِ فُرْجَةً أَبَى اللَّهُ! إِنَّ اللَّهَ بِالْعَبْدِ أَرْحَمُ^(٢)!

للعطوي

وقال العطوي:

أَعْجَبْتُنَّ إِنْ أَنَاخَ بَيْ الدَّهْرِ رُفَحَاكُمُتُهُ إِلَى الْأَقْدَاحِ
لَا تُرَدُّ الْهُمُومُ يُنْشِبُنَّ أَظْفَا رَأَى حِدَادًا بِشُرْبِ مَاءٍ قَرَّاحِ
أَحْمَدُ اللَّهَ، صَارَتْ الْكَأْسُ تَأْسُو دُونَ إِخْوََانِي الثَّقَاتِ جَرَّاحِي

لابن الرومي

وقال ابن الرومي [ونحله بشاراً]^(٣):

وَقَدْ كُنْتُ ذَا حَالٍ أَطِيلُ أَذْكَارَهَا وَإِرْعَاءَهَا قَلْبِي لَأَهْتَزَ مُعْجَبًا^(٤)
فَبَدَّلْتُ حَالًا غَيْرَ هَاتِيكَ، غَايَتِي تَنَاسِيَّ ذِكْرَهَا لَتَغْرُبَ مَغْرِبًا
وَكُنْتُ أَذِيرُ الْكَأْسَ مَلَأَى رَوِيَّةً لِأَجْنَلِ مَسْرُورًا بِهَا وَلَأَطْرِبًا^(٥)
وَكُنْتُ مَزِيدًا فِي سُرُورِي وَمُتَعَتِي فَأَضَحَّتْ مَفْرَأً مِنْ هُمُومِي وَمَهْرِبًا

وهذا كما قال في قِيَّتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذَا الْبَابِ^(٦):

شَاهَدْتُ فِي بَعْضِ مَا شَاهَدْتُ مُسَمِّعَةً كَأَنَّمَا يَوْمُهَا يَوْمَانِ فِي يَوْمِ
ظَلَلْتُ أَشْرَبُ بِسَالِطَالٍ، لَا طَرِبَا بِذَاكَ، بَلْ طَلِبَا لِلشُّكْرِ وَالنُّومِ

(١) في الديوان: «أمن ضيق مثنوى المرء في بطن أمه».

(٢) في الديوان:

وَلَمْ يَلَقَ بَيْنَ الضَّيْقِ وَالضَّيْقِ فُشْحَةً أَبَى ذَاكَ أَنَّ اللَّهَ بِالْعَبْدِ أَرْحَمُ

(٣) ابن الرومي، الديوان: ٤٠٨/١.

(٤) أذكراها: ذكرها. أهتز: أفرح.

(٥) الجدل والسرور والطرب بمعنى واحد.

(٦) ابن الرومي، الديوان: ٣٠١/٥.

ومن مליح شعره في الشيب^(١):

وَمِنْ نَكْدِ الدُّنْيَا إِذَا مَا تَنَكَّرْتُ أُمُورٌ - وَإِنْ عُذْتُ صِغَاراً - عَظَائِمُ
إِذَا رُمْتُ بِالسَّمَقَاشِ نَتَفَ أَشَاهِبِي أُتِيحَ لَهُ مِنْ بَيْنِهِنَّ الْأَدَاهِمُ^(٢)
يُرَوِّعُ مِثْقَاشِي نُجُومَ مَسَاحِي وَهُنَّ لِعَيْنِي طَالَعَاتُ نَرَاجِمُ^(٣)

لأبي الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم:

أَخِي قُمْ فَعَاوِنِّي عَلَى نَتَفِ شَيْبَةٍ فَإِنِّي مِنْهَا فِي عَذَابٍ وَفِي حَرْبٍ
إِذَا مَا مَضَى الْمُتَقَاشُ يَأْتِي بِهَا أَتَتْ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ دُونِهَا جَارَةَ الْجَنْبِ
كَجَانٍ عَلَى السُّلْطَانِ يُجْزَى بِذَنْبِهِ تَعَلَّقَ بِالسَّجِرَانِ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ

وقد وشحت هذا الكتاب بقطع مختارة في الشيب والشباب، وجئت ههنا بجُملة، وهذا النوع أعظم من أن نحيط به اختياراً، أو نبلغه اختصاراً.

شذور لأهل العصر، في وصف الشيب ومدحه وذمه

دَوَى غُصْنُ شِبَابِهِ. بَدَتْ فِي رَأْسِهِ طَلَائِعُ الْمَشِيبِ، [أخذ الشيب بِعَنَانِ شِبَابِهِ]، غَزَاهُ الشَّيْبُ بِجِيوشِهِ، طَرَزَ الشَّيْبُ شِبَابَهُ، أَقَمَرَ لَيْلُ شِبَابِهِ، أَلْجَمَهُ بِلِجَامِهِ، وَقَادَهُ بِرِمَامِهِ، عَلَاهُ غِبَارُ وَقَائِعِ الدَّهْرِ. وَزَنَ هَذَا لَابِنُ الْمَعْتَزِ: هَذَا غِبَارُ وَقَائِعِ الدَّهْرِ، بَيْنَا هُوَ رَاقِدٌ فِي لَيْلِ الشَّبَابِ، أَيْقَظُهُ صَبْحُ الْمَشِيبِ. طَوَى مَرَاحِلَ الشَّبَابِ، وَأَنْفَقَ عَمْرَهُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. جَاوَزَ مِنَ الشَّبَابِ مَرَاحِلَ، وَوَرَدَ مِنَ الشَّيْبِ مَنَاهِلَ. قَلَّ الدَّهْرُ شَبَابَهُ^(٤)، وَمَحَا مُحَاسِنَ رُؤَاثِهِ. قَضَى بَاكُورَةَ الشَّبَابِ، وَأَنْفَقَ نَضَارَةَ الزَّمَانِ. أَخْلَقَ بُرْدَةَ الصَّبَا، وَنَهَا النُّهَى عَنِ الْهَوَى. طَارَ غَرَابُ شِبَابِهِ. انْتَهَى شِبَابُهُ، وَشَابَ أَتْرَابُهُ. اسْتَبْدَلَ بِالْأَدْهَمِ الْأَبْلَقَ، وَبِالْغَرَابِ الْعَقَقَ^(٥).

(١) ابن الرومي، الديوان: ٣٠٢/٥.

(٢) المتقاش: الآلة التي يُنْقَشُ بها، والشبهة في ألوان الخيل: أن تشق معظم لونه شعرة أو شعرات بيض.

(٣) في الديوان: «يُرَوِّعُ مِثْقَاشِي».

(٤) قَلَّ السيفُ فَلَا: ثلمه وكسره في حَذِّهِ. وشبابة الشيء: حَذُّ طرفه.

(٥) الأدهم: الأسود. والأبلاق: الذي لونه البلقة، وهي سواد في بياض. والعقق: طائر لونه مختلط من سواد وبياض.

انتهى إلى أَشَدَّ الكهل، واستعاض من حَلَك الغراب بقادمة النَّسر. افتر عن نَابِ القارح^(١)، وقرع نَاجِدَ الحلم، وارتاضَ بِلجامِ الدَّهرِ، وأدرك عصر الحُنْكَة وأوان المسكة. جمع قوَّة الشباب إلى وَقَارِ المشيب. أسفر صبح المشيب، وعَلَّتْهُ أبهة الكبر. خرج عن حدِّ الحدائث، وارتفع عن غِرَّةِ الغرارة. نَفَضَ حَبْرَةَ الصبا، وَوَلَّى داعية الحجا. لما قام له الشيب مقام النصيح، عدل عن علائق الحدائث بتوبة نَصُوح. الشيب حَلِيَّة العقل وشِيمة الوقار. الشيب زبدة مَخْصَنَتِهَا الأيام، وَفِضَّة سبكتها التجارب. سرى في طريق الرُّشد بمصباح الشيب. عصى شياطين الشباب، وأطاع ملائكة الشيب. الشيخ يقول عن عِيَان، والشاب عن سَمَاع. في الشيب استحكام الوقَار وتناهي الجلال، وَمِيسَم التجربة^(٢)، وشاهد الحُنْكَة. الشيب مُقَدِّمَةُ الموت والهِرَم، والمؤذِنُ بالخَرَف، والقائد للموت. الشيبُ رسول المنية. الشيب عُتْوَان الفساد. والموتُ ساحل، والشيبُ سفينة تقرب من الساحل. صفا فلان على طول العمر، صفاء الثَّبَر على شغب الجمر. لقد تناهت به الأيام تهدياً وتحليماً، وتناهت به السَّنُّ تجريباً وتحنيكاً. قد وعظه الشيبُ بِوُخْطِهِ^(٣)، وَخَبَطَهُ السن بابنه وَسِبْطِهِ، قد تضاعفت عقود عمره، وأخذت الأيام من جسمه. وَجَدَ مَسَّ الكبر، ولحقه ضَعْفُ الشيخوخة، وأساء إليه أثر السن، واعتراض الوهن. هو من ذوي الأسنان العالية، والصحبة للأيام الخالية. هو هِمٌّ هَرَم، قد أخذ الزمانُ من عقله، كما أخذ من عمره. ثَلَمَ الدهر ثَلَمَ الإناء، وتركه كذبي الغارب المنكوب، والسَّامُ الم محبوب. رماه من قوسه الكبر. أُرِيق ماءُ شبابه، واستشَنَّ أديمه^(٤). كسر الزمانُ جناحه، ونقض مِرْنَه^(٥). طوى الدهر منه ما نشر، وقيد الكبر، يرسفُ رَسْفَانُ المقيّد، هو شيخ مجتثُ الجثة، واهي المُنَّة، مغلول القوة ومفلول الفتوة، ثَقَلَتْ عليه الحركة، واختلقت إليه رُسُلُ المنية. ما هو إلَّا شمسُ العصر، على القصر. أركانه قد وهَتْ، ومُدَّتْهُ قد تناهَتْ. هل بعد الغاية منزلة، أو بَعْدَ الشيب سوى الموت مرحلة؟ ما الذي يُرَجَى ممن كان مثله في تعاجز الخُطَا، وتخاذُلِ القُوَى، وتَدَانِي المدي،

(١) القارح من ذي الحافر: ما استتمَّ الخامسة وسقطت سنّه التي تلي الرباعية، ونبت مكانها نابه، الجمع قوارح.

(٢) المِيسَمُ: السَّمة، والعلامة، وأثر الحسن والجمال.

(٣) وَخَطَ الشيبُ فلاناً: فشا فيه، أو استوى سواده وبياضه، والوَخْطُ من الشيء: اللَّبْدُ منه.

(٤) استشَنَّ الجلد وتشَنَّن: بيس وتقلَّص.

(٥) المِرَّةُ: القُوَّة، وإحكام الفتل، والأصالة، ويقال: إِنَّهُ لَذُو مِرَّةٍ: عقل وأصالة وإحكام.

والتوجه إلى الدار الأخرى، أبعد دقة العظم، ورقّة الجلد، وضعف الحس، وتخاذل الأعضاء، وتفاوت الاعتدال، والقرب من الزوال. والذي بقي منه ذمّاء^(١)، يرقبه المئون بمرصد، وحشاشة هي هامة اليوم أو غد. قد خلق عمره، وانطوى عيشه، وبلغ ساحل الحياة، ووقف على ثنية الوداع، وأشرف على دار المقام، فلم يبق إلا أنفاس معدودة، وحركات محصورة. نضب غدیر شبابه.

فقر لغير واحد في المشيب

قيس بن عاصم: الشيب خطام المنية. أكرم بن صيفي: المشيب عنوان الموت. الحجاج بن يوسف: الشيب نذير الآخرة. غيره: الشيب نوم الموت. العتيبي: الشيب مجمع الأمراض. العتايبي: الشيب نذير المنية. محمود الوراق: الشيب أحد الميتتين. ابن المعتز: الشيب أول مواعد الفناء. وقال: عظم الكبير فإنه عرف الله قبلك، وارحم الصغير فإنه أغر بالدنيا منك. غيره: الشيب قناع الموت. الشيب غمام قطره الغيوم. الشيب قذى عين الشباب.

نظر سليمان بن وهب في المرأة فرأى الشيب، فقال: عيب لا عدمناء!

وقيل لأبي العيناء: كيف أصبحت؟ فقال: في داء يتمناه الناس!

ابن المعتز^(٢):

أَنْكَرْتُ شَرَّ مَشِيي وَوَلْتُ
إِنْ شَيْبَ الرَّأْسِ نَوْرُ الْهَمُومِ^(٣)
اعذري يا شرّ شَيْبِي بِهِمْ
إِنْ شَيْبَ الرَّأْسِ نَوْرُ الْهَمُومِ^(٤)

مسلم بن الوليد:

الشَّيْبُ كُرْهٌ، وَكُرْهٌ أَنْ أَفَارِقَهُ
يَمْضِي الشَّبَابُ فَيَأْتِي بَعْدَهُ بَدَلٌ
أَعْجَبْتُ لَشَيْءٍ عَلَى الْبَغْضَاءِ مَوْدُودٍ
وَالشَّيْبُ يَذْهَبُ مَفْقُوداً بِمَقْشُودٍ

(١) الذمّاء: بقية النفس.

(٢) ابن المعتز، الديوان: ص ٦٤٢.

(٣) في الديوان:

أَنْكَرْتُ هُنْدُ مَشِيي وَدَلْتُ
بِذُمُوعٍ فِي الرَّدَاءِ تَحُومُ

(٤) في الديوان: «فاعذري يا هند شَيْبِي بِهِمِّي».

وقال آخر:

لو أن عُمَرَ الفتى حَبَابٌ كانَ لَهُ شَيْئُهُ فَذَالِكُ^(١)

وقال بعضهم:

وَلِي صَاحِبٌ مَا كُنْتُ أَهْوَى اقْتِرَابَهُ فَلَمَّا التَقِينَا كَانَ أَكْرَمَ صَاحِبٍ
عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ يُفَارِقَ بَعْدَمَا تَمَيَّيْتُ دَهْرًا أَنْ يَكُونَ مُجَانِبِي

يعني الشيب، يقول: لم أكن أشتهي اقترابه، فلما حل كان أكرم صاحب، عزيز عليّ مجانبته؛ لأنه لا يجانب إلا بالموت.

أبو إسحاق الصابي:

وَالْعُمَرُ مِثْلُ الْكَاسِ يَرَى سُبُّ فِي أَوَاحِرِهَا الْقَذَى

أبو الفضل الميكالي:

أَمْتَعُ شَبَابِكَ مِنْ لَهْوٍ وَمِنْ طَرَبٍ وَلَا تُصِخْ لِإِلَامٍ سَمْعَ مُكْتَرِثٍ
فَخَيْرُ عُمَرِ الْفَتَى رِيْعَانُ جِدَّتِهِ وَالْعُمَرُ مِنْ فَضَّةٍ وَالشَّيْبُ مِنْ خَبَثٍ

[بعض ما قالوه في الخضاب]

في ذكر الخضاب: الخضاب أحد الشباين.

عبدان الأصبهاني:

فِي مَشِييِ شَمَاتَةٍ لِعُدَاتِي وَهُوَ نَاعٍ مُنْغَصِّرٌ لِسِي حَيَاتِي
وَيَعِيبُ الْخِضَابَ قَوْمٌ، وَفِيهِ لِسِي أَنْسٌ إِلَى حُضُورِ وَفَاتِي
لَا وَمَنْ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ إِنْسِي مَا تَطَلَّبْتُ خُلَّةَ الْغَايِبَاتِ^(٢)
إِنَّمَا رُمْتُ أَنْ يُغَيِّبَ عَنِّي مَا تُرِينِيهِ كُلَّ يَوْمٍ مَرَاتِي^(٣)
وَهُوَ نَاعٍ إِلَيَّ نَفْسِي، وَمَنْ ذَا نَرَهُ أَنْ يَرَى وَجُوهَ النَّعَاةِ؟

(١) الفذالك: جمع فذلكة، وهي جملة الحساب.

(٢) الخُلَّة: الخصلة.

(٣) مراتي: مراتي.

ابن المعتز^(١):

رَأَتْ شَيْبَةً قَدْ كُنْتُ أَغْفَلْتُ قَصَّهَا وَلَمْ تَتَعَهَّدْهَا أَكْفَ الْخَوَاضِبِ^(٢)
فَقَالَتْ: أَشَيْبٌ مَا أَرَى؟ قُلْتُ: شَامَةٌ فَقَالَتْ: لَقَدْ شَاتَتْكَ عِنْدَ الْحَبَائِبِ^(٣)

الأمير أبو الفضل الميكالي:

قَدْ أَبَى لِي خِضَابَ شَيْبِي فَوَادَّ فِيهِ وَجَدْتُ بِكُنْهٍ سِرِّي وَلَوْ
خَافَ أَنْ يُحْدِثَ الْخِضَابُ نُضُولًا وَنُضُولُ الْخِضَابِ شَيْءٌ بَدِيعٌ

وقالوا: الخضاب من شهود الزور، والخضاب حداد المشيب، [إن خضب الشعر]
فكيف يخضب الكبر. الخضاب كفن الشيب.

ابن الرومي^(٤):

لَيْسَ تُغْنِي شَهَادَةُ الشَّعْرِ الْأَسَدُ سَوْدٌ شَيْئًا إِذَا اسْتَشَنَّ الْأَدِيمُ^(٥)
أَفِرْجُو مُسَوِّدٌ أَنْ يُسْرَكَ شَاهِدُ الْخَضِبِ؟ أَيْنَ ضَلَّ الْحَلِيمُ^(٦)!
لَا لَعْمَرِي مَا لِلْخِضَابِ لَدَى الْأَبِ صَارَ إِلَّا التَّكْذِيبُ وَالتَّائِمُ^(٧)
يَدَّعِي لِلْكَيْسِ شَرْخَ شَبَابٍ قَدْ تَوَلَّى بِهِ الشَّبَابُ الْقَدِيمُ^(٨)
وَالسَّوَادُ الدَّعْيُ أَوْجَبُ تَكْذِيبٍ بَاءً إِذَا كُذِّبَ السَّوَادُ الصَّمِيمُ^(٩)

(١) ابن المعتز، الديوان: ص ١٠١.

(٢) في الديوان:

رَأْتُ طَالِعًا لِلشَّيْبِ أَغْفَلْتُ أَمْرَهُ وَلَمْ تَتَعَهَّدْهُ أَكْفَ الْخَوَاضِبِ

(٣) شاتتك: خذلتك وأظهرت عيوبك.

(٤) ابن الرومي، الديوان: ١٧٠/٦.

(٥) في الديوان: «ليس تغني الشعر الأسود شيئاً». واستشَنَّ الأديم: تفضن عند الهرم، ييس وتقبض.

(٦) في الديوان: «شاهدُ الخطر».

(٧) أي: أن الخضاب لا يجلب لصاحبه إلاَّ التكذيب والتأيم.

(٨) في الديوان: «قد تولى به الزمان البهيم».

(٩) في الديوان: «والسواد المخضوب أوجب تكديماً».

وله أيضاً في هذا المعنى^(١):

كَمَا لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُحِيلَ شَابِنَا
كَذَلِكَ يُعْنِينَا إِحَالَةُ شَيْبِنَا
أَبَى اللَّهُ تَدْيِيرَ ابْنِ آدَمَ نَفْسَهُ
وقال^(٤):

قُلْ لِلْمَسُودِ حِينَ شَيْبَ: هَكَذَا
كَذَبَ الْغَوَانِي فِي سَوَادِ عَذَارِهِ
هِيَ هَاتِ غَرِّكَ أَنْ يُقَالَ غَرَائِرُ
لَا تَحْسَبَنَّ خَدَعَتُهُنَّ بِحِيلَةٍ
وقال أبو الطيب المتنبي^(٧):

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمُوهَةً
وَمِنْ هَوَى الصَّدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادَتِهِ
لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعَتَنِي الَّذِي أَخَذْتُ
تَرَكْتُ لَوْنٌ مَشِييَ غَيْرَ مَخْضُوبٍ^(٨)
رَغِبْتُ عَنْ شَعْرِ فِي الْوَجْهِ مَكْذُوبٍ^(٩)
مَنْ بَحْلَمِي الَّذِي أُعْطَتْ وَتَجْرِيبي^(١٠)

(١) ابن الرومي، الديوان: ٢٠٥/٣.

(٢) في الديوان: «ولم يأن المшиб».

(٣) في الديوان: «كذلك نُعِينَا إِحَالَةَ شَيْبِنَا».

(٤) ابن الرومي، الديوان: ٣٩/٥.

(٥) في الديوان: «أَيُّ النَّهَاءِ كَدَّهَيْتَهُ دَهَاكَ».

(٦) في الديوان: «لَا تَحْسَبَنَّكَ خَدَعَتَهُنَّ بِخُدْعَةٍ».

(٧) المتنبي، الديوان: ٢٥٣/٢. والأبيات من قصيدة قالها في مدح كافور الإخشيدي بمصر.

(٨) التمويه في الأصل: الطلي بماء الذهب أو الفضة، ثم استعمل بمعنى التزوير والتزيين. يقول: لأجل حي كل امرأة لا تموه حسنها تركت بياض شبي بغير خضاب، لأن الخضاب تمويه أيضاً.

(٩) في الديوان: «رغبت عن شعر في الرأس مكذوب».

(١٠) الحلم: العقل والأناة. يريد أن الحوادث أخذت شيا به وأعطته الحلم والتجربة، ثم يتمنى لو باعته الذي أخلعت بالذي أعطت، أي لو ردت عليه الشباب واستردت الحلم.

فَمَا الْحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانَعَةٍ قَدْ يُوجَدُ الْحِلْمُ فِي الشَّبَابِ وَالشَّيْبِ^(١)
غيره:

يَا خَاضِبَ الشَّيْبِ بِالْحَنَاءِ يَنْتُرُهُ سَلِّ إِلَٰهَ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ
وقد سلك أبو القاسم مسلكاً طريفاً في قوله:

أَفَدِي الْمُغَاضِبَةَ الَّتِي أَنْبَعَتْهَا نَفْسًا يُشْبِعُ عَيْسَهَا إِذَا أَبَا^(٢)
وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ يُسَفِّهَنِي الصَّبَا وَيَقُولَ بَعْضُ الْقَائِلِينَ تَصَابِي
لَكَسَرْتُ دُمْلَجَهَا لِضَيْقِ عَنَاقِهِ وَلَثَمْتُ مِنْ فِيهَا الْبَرُودِ رُضَابَا^(٣)
بِنْتُكُمْ فَلَوْلَا أَنْ أُغَيِّرَ لِمَتِّي عَتَبًا وَأَلْقَاكُمْ عَلَيَّ غَضَابَا
لَخَضِبْتُ شَيْبًا فِي عِذَارِي كَامِنًا وَمَحَوْتُ مَحْوَ النَّفْسِ مِنْهُ شَبَابَا^(٤)
وَحَلَعْتُهُ خَلْعَ النِّجَادِ مُذْمَمًا وَاعْتَضْتُ مِنْ جِلْبَابِهِ جِلْبَابَا^(٥)
وَلَبَسْتُ مُبَيِّضَ الْجِدَادِ عَلَيْكُمْ لَوْ أَنَّي أَجِدُ الْبِيَاضَ خِضَابَا
وَإِذَا أُرِدْتُ إِلَى الْمَشِيبِ وَفَادَةً فَاجْعَلْ إِلَيْهِ مَطِيكَ الْأَحْقَابَا^(٦)
فَلَتَأْخُذَنَّ مِنَ الزَّمَانِ حَمَامَةً وَلَتُدْفَعَنَّ إِلَى الزَّمَانِ غُرَابَا
مَاذَا أَقُولُ لِرَيْبٍ دَهْرٍ خَائِنٍ جَمَعَ الْعِدَّةَ وَفَرَّقَ الْأَحْبَابَا

[الوليد بن يزيد وقد غلبت عليه لذاته]

وقيل للوليد بن يزيد بن عبد الملك لما غلبت عليه لذاته، وملكته شهواته: يا أمير المؤمنين؛ إن الرعية ضاعت بتضييعك أمرها، وتركك ما يجب عليك من مصلحتها. فقال:

(١) يقول: حداثة السن لا تمنع من وجود الحلم، فإن المرء قد يكون حليماً في الشباب، كما يكون حليماً في المشيب.

(٢) العيس: جمع أعيس، وهو من الإبل: الذي يخالط بياضه شقرة، وقيل: هو الكريم منها.

(٣) الدملج والمُلُوج: سوار يحيط بالعضد. والرضاب: ماء الفم، الريق.

(٤) النَّفْسُ: المِدَادُ يُكْتَبُ بِهِ.

(٥) النَّجَادُ: حمائل السيف.

(٦) الْأَحْقَابُ: جمع حَقْب، وهي المدة الطويلة من الدهر لا وقت لها. والأحقاب: جمع حَقَب: الحزام الذي يلي حَقْوَ البعير.

ما الذي أغفلناه من واجب حقها، وأسقطناه من مفروض ذمامها؟ أمّا كرمنا دائم، ومعروفنا شامل، وسلطاننا قائم؛ وإنما لنا ما نحن فيه، بسط لنا في النعمة، ومكّن لنا في المكّمة، وأذلت لنا الأمة، ومُدّ لنا في الحرّمة، فإن تركت ما به وسع، وامتنعت عما به أنعم، كنت أنا المزيل لنعمتي بما لا ينال الرعية ضرره، ولا يؤودهم ثقله^(١). يا حاجب لا تأذن لأحد في الكلام.

وقال عمرو بن عتبة للوليد بن يزيد، وكان خاصاً به: يا أمير المؤمنين؛ أنطقني بالأنس، وأنا أسكت بالهيبة، وأراك تأمرنا بأشياء أنا أخافها عليك، أفأسكت مطيعاً أم أقول مشفقاً؟ قال: كلّ مقبول منك، معلوم فيه ثقتك؛ والله فينا علمٌ غيب نحن صائرون إليه! وتعود فتقول. فقتل الوليد بعد ذلك بشهر.

[بين الحجاج وأهل العراق]

وقال عبد الملك بن مروان للحجاج: إني استعملتك على العراق، فاخرج إليها كميّش الإزار^(٢)، شديد الغرار، قليل العثار، منطوي الخصلة، قليل الشميلة^(٣)، غرار النوم، طويل اليوم، واضغط الكوفة ضغطة تحبّق منها البصرة.

وشكا الحجاج يوماً سوء طاعة أهل العراق، وسقم مذهبهم، وسخط طريقتهم، فقال له جامع المحاربي: أمّا إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنّهم ما شئوك لبلدك، ولا لذات يدك، إلّا لِمَا نَقَمُوهُ من أفعالك؛ فدع ما يُبعدهم عنك إلى ما يُدنيه منك، والتمس العافية ممن دونك تُعطها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعْدك ثلاثاً.

فقال له الحجاج: والله ما أرى أن أردّ بني اللّخناء^(٤) إلى طاعتي إلّا بالسيف. فقال جامع: أيها الأمير؛ إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار. قال الحجاج: الخيار يومئذ لله. قال جامع: أجل، ولكن لا ندري لمن يجعله الله. فغضب الحجاج وقال: يا هتاه؛ إنك من محارب، فقال جامع:

(١) لا يؤودهم: لا يثقلهم ولا يعجزهم.

(٢) كميّش الإزار: مُشَمَّرًا، وهو كناية عن الجَد.

(٣) الخصلة: كل لحمه فيها عصب، يقال: ارتعدت فرائضه واضطربت خصائله، يريدون: اشتد خوفه. والشميلة: بقية الطعام في البطن.

(٤) اللّخناء: يقال لخن الرجل ولخت المرأة: أنتنت أرفاغهما، والأرفاغ: المواطن التي يجتمع فيها الوسخ من البدن. وألخن الرجل: قَبَحَ كلامه، فهو ألخن، وهي لخناء.

وَلِلْحَرْبِ سُمَيْنَا وَكُنَّا مُحَارِبًا إِذَا مَا الْقَنَا أَمْسَى مِنَ الطَّغْنِ أَحْمَرَا
فقال له الحجاج: والله لقد هَمِمْتُ أَنْ أَخْلَعُ لِسَانَكَ، فَأَضْرِبَ بِهِ وَجْهَكَ. فقال
جامع: إِنْ صَدَقْنَاكَ أَغْضَبْنَاكَ، وَإِنْ كَذَبْنَاكَ أَغْضَبْنَا اللَّهَ. فقال الحجاج: أَجَل، وَسَكُن
سلطانه، وشغل ببعض الأمر، وخرج جامع وانسلَّ من صفوف الناس، وانحاز إلى جبل
العراق.

[جامع المحاربي]

وكان جامع لَسِنًا مُفَوِّهًا، وهو الذي يقول للحجاج حين بنى واسطاً: بَنَيْتَهَا فِي غَيْرِ
بَلَدِكَ، وَأَوْرَثْتُهَا غَيْرَ وَلَدِكَ.

وكان الحجاجُ من الفصحاء البلغاء، ويقال: مَا رُئِيَ حَضَرِي أَفْضَحَ مِنَ الْحِجَاجِ وَمِنَ
الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ. وكان يحبُّ أهل الجهارة والبلاغة، ويؤثرهم ويقربهم.

[أيوب بن القرية]

ولما دخل أيوب بن القرية على الحجاج - وكان فيمن أُسر من أصحاب
عبد الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسِ الْكِنْدِيِّ - قال له: مَا أَعَدَدْتَ لِهَذَا الْمَوْقِفِ؟ قال: ثَلَاثَةٌ
حُرُوفٌ، كَانَتْهَا رَكْبٌ وَقُوفٌ: دُنْيَا، وَآخِرَةٌ، وَمَعْرُوفٌ.

فقال له الحجاج: بِسْمَا مَنِيَّتَ بِهِ نَفْسُكَ يَا بَنَ الْقَرْيَةِ، أَتُرَانِي مِمَّنْ تَخْدَعُهُ بِكَلَامِكَ
وَحُطْبِكَ؟ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى الْآخِرَةِ مِنْ مَوْضِعِ نَعْلِي هَذَا.

قال: أَقْلَنِي عَشْرَتِي، وَأَسْغِنِي رِيقِي، فَإِنَّهُ لَا بَدَّ لِلْمُجَوَادِ مِنْ كِبَوَةٍ، وَالسَّيْفِ مِنْ نَبَوَةٍ،
وَالْحَلِيمِ مِنْ صَبَوَةٍ.

قال: أَنْتَ إِلَى الْقَبْرِ أَقْرَبُ مِنْكَ إِلَى الْعَفْوِ، أَلَسْتَ الْقَاتِلَ وَأَنْتَ تَحَرَّضُ حِزْبَ
الشَّيْطَانِ، وَعَدَوُ الرَّحْمَنِ: تَغْدُوا بِالْحِجَاجِ قَبْلَ أَنْ يَتَعَشَّى بِكُمْ! وَقَدْ رُوِيَ هَذِهِ اللَّفْظَةُ
لِلْغَضْبَانِ بْنِ الْقُبَعْرِثِيِّ. ثُمَّ قَدَمَهُ فَضْرَبَ عُنُقَهُ.

قال الْخُرَيْمِيُّ لِأَبِي دَلْفٍ وَأَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الْقَرْيَةِ:

لَهُ كَلِمٌ فِيكَ مَعْقُولَةٌ إِزَاءَ الْقُلُوبِ كَرَكِبٍ وَقُوفٍ

[كثير بن أبي كثير]

وبعث الحجاج إلى عامله بالبصرة: اختر لي عشرة من عندك، فاختار رجالاً فيهم
كثير بن أبي كثير، وكان عريباً فصيحاً، فقال كثير: ما أراني أفلت من يد الحجاج إلا
باللحن، فلما دخلنا عليه دعاني فقال: ما اسمك؟ فقلت: كثير. قال: ابن من؟ فقلت في
نفسي: إن قلت ابن أبي كثير لم آمن أن يتجاوزها، قلت: ابن أبا كثير، فقال: اعزب^(١)
لعنك الله ولعن من بعث معك!!

[من قولهم في المديح]

وقال النابغة الذبياني يمدح آل جفنة^(٢):

وَلله عَيْنَا مَنْ رَأَى أَهْلَ قُبَّةٍ أَضْرَّ بِمَنْ عَادَى وَأَكْثَرَ نَافِعَا
وَأَعْظَمَ أَحْلَاماً وَأَكْثَرَ سِيْدَاً وَأَفْضَلَ مَشْفُوعاً إِلَيْهِ وَشَافِعَا
مَتَى تَلَقَّهُمْ لَا تَلَقَ لِلْيَتِ عَوْرَةً فَلَا الضِّيفَ مَمْنُوعَا وَلَا الْجَارَ ضَائِعَا^(٣)
وَأُنْشَدَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ الْجَمْعِيَّ^(٤) لِلنَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ^(٥):

فَتَى كَمَلَتْ أَحْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُتْقَى مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا^(٦)
فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يُسُوُّ الْأَعَادِيَا

(١) عَزَبَ الشَّيْءُ غُزُوباً: بَعُدَ وَخَفِيَ.

(٢) لم نجد البيتين الأول والثاني في ديوانه، وورد البيت الثالث مفرداً.

(٣) في الديوان: (١٢٩): «وَلَا الْجَارَ مُحْرُوماً وَلَا الْأَمْرَ ضَائِعَا». والعورة: كل ما يُسْتَحْيَا منه.

(٤) هو أبو عبد الله، محمد بن سلام بن عُبيد الله بن سالم البصري، الجمحي: أديب، لغوي، أخباري، راوية، حافظ. قدم بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته سنة ٢٣١ هـ/٨٤٦ م. من آثاره: «طبقات الشعراء» و«بيوتات العرب»، و«غريب القرآن». (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣٢٧/٥؛ كحالة، معجم المؤلفين: ٤١/١٠).

(٥) هو أبو ليلى، قيس بن عبد الله، وقيل: حسان بن قيس بن عبد الله، من جعدة بن كعب بن ربيعة، والنايعة لقب اشتهر به: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم وشهد فتح فارس، وحارب مع علي يوم صفين، وكان مُغَلِّباً إذا هوجي غلب. توفي نحو ٥٠ هـ/ نحو ٦٧٠ م (ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء: ١٢٣؛ الآمدي، المؤلف والمختلف: ٢٩٣؛ المرزباني، معجم الشعراء: ١٩٥). والأبيات في ديوانه: ص ١٨٨.

(٦) وفي رواية: «فتى كملت خيراته».

[أَشْمَ طَوِيلُ السَّاعِدِينَ شَمْرَدَلٌ إِذَا لَمْ يَرْجُ لِلْمَجْدِ أَصْبَحَ غَادِيًا] ^(١)
ومن حُرِّ المدح وجِدِّ الشعر قول الحطيئة:

تَزُورُ أَمْرًا يُعْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ وَمَنْ يُعْطِ أَمَانَ الْمُحَامِدِ يُحْمَدُ ^(٢)
يَرَى الْبُخْلَ لَا يُبْقِي عَلَى الْمَرْءِ مَالَهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخْلَدٍ
كَثُوبٌ وَمِثْلُ مَا سَأَلْتَهُ تَهَلَّلْ وَاهْتَزَّ اهْتَزَّازَ الْمُهَنَّدِ ^(٣)
مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ ^(٤)
وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه هذا البيت فقال: ذاك رسول الله ﷺ، وقوله:

يَسُوسُونَ أَحْلَامًا بَعِيدًا أَنَاتُهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِظَةُ وَالْجَدُّ ^(٥)
أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَيْكُمُ مِنْ اللُّومِ أَوْ شُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا
أَوْلَسْكَ قَوْمٌ إِنْ بَكُوا أَحْسَنُوا الْبِنَا وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفُوا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وَإِنْ كَانَتْ النِّعْمَاءُ فِيهِمْ جَزَوْا بِهَا وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا كَدُّوا
مَطَاعِينَ فِي الْهَيْجَا مَكَاشِيفُ لِلدُّجَى بَنَى لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَبَنَى الْجَدُّ
وَتَعَذَّلَنِي أَبْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمْتُ سَعْدُ

لمنصور النمري

وقال منصور النمري:

تَرَى الْخَيْلَ يَوْمَ الْحَرْبِ يَظْمَأْنَ تَحْتَهُ وَيَرَوِي الْقَنَا فِي كَفِّهِ وَالْمَنَاصِلُ ^(٦)
حَالًا لِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ نَحْرُهُ حَرَامٌ عَلَيْهَا مِنْهُ مَتْنٌ وَكَاهِلُ ^(٧)

(١) الشمردل: الفتى الجلد، ومنه: جمل شمردل، وناقة شمردلة، لقوة سيرها، وفي الديوان: «أشم طويل الساعدين سميدع».

(٢) في (العمدة: ١٣٧/٢) «تزور فتى» و«ومن يعط أمان المكارم يُحمد».

(٣) أُلْف ماله: أفناه إسرافاً. والمهند: السيف المصنوع في الهند.

(٤) عشا النار وإليها عشوا وعشوا: رآها ليلاً فقصدتها مستضيئاً بها.

(٥) الأناة: الحلم والوقار.

(٦) المناصل: جمع مُنْصَل، وهو السيف.

(٧) يريد أنه لا يقر فينال خصمه ظهره.

وقال آخر:

فَتَى دَهْرُهُ شَطْرَانِ فِيمَا يَنْتُوبُهُ فَفِي بَأْسِهِ شَطْرٌ وَفِي جُودِهِ شَطْرٌ
فَلَا مِنْ بُغَاةِ الْخَيْرِ فِي عَيْنِهِ قَذَى وَلَا مِنْ زَيْرِ الْحَرْبِ فِي أُذُنِهِ وَقَرٌ

[الشراب وخطره]

وقال بعضُ الظرفاء: الشرابُ أولُ الخراب، ومِفْتَاحُ كُلِّ باب، يَمْحَقُ الأموال^(١)،
ويُذْهِبُ الجمال، ويُهْدِمُ المروءة، ويُوهِنُ القوة^(٢)، وَيَضَعُ الشريف، ويُهينُ الظريف، ويُدِلُّ
العزیز، ويفلسُ التجار، ويَهْتِكُ الأستار، ويورثُ الشنار^(٣).
وقال يزيد بن محمد المهلي^(٤):

لَعَمْرُكَ مَا يُحْصَى عَلَى الْكَأْسِ شَرُّهَا وَإِنْ كَانَ فِيهَا لَذَّةٌ وَرَخَاءٌ
مِرَاراً تُرِيكَ الْغَيَّ رُشْداً، وَتَارَةً تَخَيَّلُ أَنَّ الْمُحْسِنِينَ أَسَاءُوا
وَأَنَّ الصَّدِيقَ الْمَاحِضَ الْوَدَّ مُبْغِضٌ وَأَنَّ مَدِيحَ الْمَادِحِينَ هِجَاءٌ
وَجَرَّبْتُ إِخْوَانَ النَّيِّدِ فَقَلَّمَا يَسُدُّونَ لِإِخْوَانِ النَّيِّدِ إِخَاءٌ

[من اعتلال الطفيليين، وحيلهم]

عُوتِبَ طفيلي على التطفيل فقال: واللَّهِ مَا بُيِّتَ الْمَنَازِلُ إِلَّا لِتُدْخَلَ، وَلَا نَصِبَتْ
الْمَوَائِدُ إِلَّا لِتُؤْكَلَ، وَإِنِّي لِأَجْمَعَ فِيهَا خِلَافاً؛ أَدْخَلَ مُجَالِسَاءً، وَأَقْعَدَ مُؤَانِسَاءً، وَأَنْبَسَطَ وَإِنْ
كَانَ رَبُّ الدَّارِ عَابِساً؛ وَلَا أَتَكَلَّفُ مَعْرَماً، وَلَا أَتُنْفِقُ دِرْهَمًا، وَلَا أَتَعْبُ خَادِمًا.
وقال ابن الدراج الطفيلي لأصحابه: لَا يَهْوِلُنَّكُمْ إِغْلَاقُ الْبَابِ، وَلَا شِدَّةُ الْحِجَابِ،
وَسُوءُ الْجَوَابِ، وَعَبُوسُ الْبَوَابِ، وَلَا تَحْذِيرُ الْغَرَابِ، وَلَا مَنَابِذَةُ الْأَلْقَابِ^(٥)؛ فَإِنَّ ذَلِكَ

(١) يمحَقُ الأموال: يفتنيها.

(٢) يوهن القوة: يضعفها.

(٣) الشنار: العار الشديد.

(٤) هو أبو خالد، يزيد بن محمد بن المهلب بن المغيرة، من بني المهلب بن أبي صفرة: شاعر، راجز،
نديم، راوية، من أهل البصرة. قدم بغداد، ونادم المتوكل العباسي، ومدحه، ورثاه بعد موته، وكان
فيه اعتزاز وترفع، وتوفي ببغداد سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م. (الهماري، الشعر والشعراء: ص ٢٧٩).

(٥) منابذة الألقاب، كذا وردت، والصواب منابذة الألقاب (بالزاي)، من تنازع القوم بالألقاب:
تعايروا وتداووا بها.

صائر بكم إلى محمود النوال، ومُعْنٍ لَكُمْ عَنْ ذُلِّ السُّؤَالِ، واحتملوا اللَّكْزَةَ الْمُوهِنَةَ^(١)،
وَاللَّطْمَةَ الْمَزْمَنَةَ، فِي جَنْبِ الظَّفَرِ بِالْبُعْيَةِ، والدَّرَكِ لِلأُمْنِيَةِ، والزَّمُوا الطَّوْزَجَةَ لِلْمَعَاشِرِينَ،
وَالخِفَةَ لِلوَارِدِينَ وَالصَّادِرِينَ، وَالتَّمَلَّقَ لِلْمُتَلَهِّينَ وَالْمَطْرِبِينَ، والبَشَاشَةَ لِلخَادِمِينَ وَالْمُوكَلِّينَ؛
فَإِذَا وَصَلْتُمْ إِلَى مُرَادِكُمْ فَكَلُّوا مُحْتَكَرِينَ، وَادَّخَرُوا لَعْدَكُمْ مُجْتَهِدِينَ؛ فَإِنَّكُمْ أَحَقُّ بِالطَّعَامِ
مِمَّنْ دُعِيَ إِلَيْهِ، وَأَوَّلَى بِهِ لِمَنْ وُضِعَ لَهُ، فَكُونُوا لَوْقَتِهِ حَافِظِينَ، وَفِي طَلَبِهِ مُشْمَرِينَ،
وَادْكُرُوا قَوْلَ أَبِي نَوَاسٍ^(٢):

لِنَتَخُمَسَ مَالَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ وَذِي بَطْنَةٍ لِلطَّيِّبَاتِ أَكُولٍ^(٣)

* * *

هذا يقوله أبو نواس في أبيات تُسْتَنْدَرُ كُلُّهَا، وَيَسْتَظَرَفُ جُلُّهَا، وَهِيَ:

وَحَيْمَةَ نَاطُورٍ بِرَأْسِ مُنِيفَةٍ	تَهْمُ يَدًا مِنْ رَامَهَا بِزَكِيلٍ ^(٤)
إِذَا عَارَضَتْهَا الشَّمْسُ فَاءَتْ ظِلَالُهَا	وَإِنْ وَاجَهَتْهَا أَذْنَتْ بِدُخُولٍ ^(٥)
حَظَطْنَا بِهَا الْأَثْقَالَ فَلَّ هَجِيرَةٍ	عُبُورِيَّةٍ تُذَكِّي بِغَيْرِ قَتِيلٍ ^(٦)
تَأْتَتْ قَلِيلًا ثُمَّ فَاءَتْ بِمَذْقَةٍ	مِنَ الظِّلِّ فِي رَثِّ الْإِنَاءِ ضَيْلٍ ^(٧)
كَأَنَّهَا لَدَيْهَا بَيْنَ عِطْفَيْ نَعَامَةٍ	جَفَا زَوْرُهَا عَنْ مَبْرَكٍ وَمَقِيلٍ ^(٨)
حَلَبْتُ لِأَصْحَابِي بِهَا دِرَّةَ الصَّبَا	يَصْفَرَاءُ مِنْ مَاءِ الْكُرُومِ شُمُولٍ ^(٩)

(١) اللكزة: الضربة. والموهنة: المضعفة.

(٢) أبو نواس، الديوان: ص ١٦.

(٣) لِنَتَخُمَسَ مَالَ اللَّهِ: لِنَأْخُذَ خُمُسَهُ. والبطنة: ابتلاء البطن.

(٤) الناطور: حارس الزرع. المنيفة: العالية. والزليل: الانزلاق.

(٥) عارضتها الشمس: جاءت من عرض، وواجهتها: جاءت من أمام.

(٦) فلَّ هجيرة: يقال: قوم فلَّ: منهزمون، والمراد أنهم مجهدون من حرِّ الهجيرة. عبورية: نسبة إلى الشعري العبور، وطلوعها أشد الحر.

(٧) في الديوان: «تأتى قليلاً»، وتأيت: تأنت. وفي الديوان: «في رث الأباء ضيل» ورث الأباء: بالي القصب، وهو كل نبات ذي أنابيب. والمذقة: القطعة.

(٨) عطفًا النعامة: جانبها. الزَّوْرُ: وسط الصدر، أو ما ارتفع منه إلى الكتفين. والمبرك: مكان البروك. والمقيل: اسم مكان من القيلولة، وهي نصف النهار.

(٩) درة الصُّبَا: الدرَّة: اللبن، كأنه يريد أن يقول: إن الخمر لبن الشباب وشرابه، وعليها غذاؤه، وبها حياته كاللبن للرضيع.

- إذا مَا أَتَتْ دُونَ اللَّهَاءِ مِنَ الْفَتَى
فَلَمَّا تَوَافَى اللَّيْلُ جُنْحًا مِنَ الدُّجَى
وَأَعْطَيْتُ مَنْ أَهْوَى الْحَدِيثَ كَمَا بَدَا
فَغَنَّى وَقَدْ وَسَدْتُ يُسْرَايَ خَدَّهُ
فَأَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِحَقْوِي مُسَاعِدِي
فَأَصْبَحْتُ الْخَى السَّكْرَ وَالسَّكْرُ مُحْصِنٌ
كَفَى حَزَنًا أَنْ الْجَوَادَ مُقْتَرٌ
سَأْبَغِي الْغَنَى إِمَّا وَزِيرَ خَلِيفَةٍ
بِكُلِّ فَتَى لَا يُسْتَطَارُ فَوَادُهُ
لِنَحْمِسَ مَالَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ عَوْنٌ عَلَى التَّقَى
- دَعَا هُمُّهُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَجِيلٍ^(١)
تَصَائِيْتُ وَاسْتَجَمَلْتُ غَيْرَ جَمِيلٍ^(٢)
وَذَلَّلْتُ صَعْبًا كَانَ غَيْرَ ذَلُولٍ^(٣)
أَلَا رُبَّمَا طَالِبْتُ غَيْرَ مُبِيلٍ^(٤)
وَإِنْ كَانَ أَدْنَى صَاحِبٍ وَخَلِيلٍ^(٥)
أَلَا رَبُّ إِحْسَانٍ عَلَيْكَ ثَقِيلٍ^(٦)
عَلَيْهِ، وَلَا مَعْرُوفَ عِنْدَ بَخِيلٍ^(٧)
يَقُومُ سُوءًا أَوْ مُخِيفَ سَبِيلٍ^(٨)
إِذَا نَوَّهَ الرَّحْفَانِ بِاسْمِ قَتِيلٍ^(٩)
وَذِي بَطْنَةٍ لِلطَّيِّبَاتِ أَكُولٍ
وَلَيْسَ جَوَادٌ مُعْدِمٌ كَبَخِيلٍ^(١٠)

ألفاظ لأهل العصر في صفة الطفيليين والأكلة وغيرهم

شيطان معدته رَجِيم، وسلطانها ظُلُوم. هو آكلٌ من النار، وأشربٌ من الرمل. لو أكل

- (١) اللهاة: لحمة مشرفة على الحلق من آخر اللسان. يقول: إِنْ هُمُّهُ أَنْ يَرْحَلَ قَبْلَ أَنْ تَصَلَ الْخَمْرُ إِلَى لَهَاةِهِ.
- (٢) في الديوان: «تَوَفَّى اللَّيْلُ» أي استوفى. الجنج من الدجى: الطائفة منه.
- (٣) في الديوان: «وَأَعْطَيْتُ»، و«كَانَ غَيْرَ ذَلِيلٍ». وعاطيت: ناولت، من المعاطاة: المناولة. كما بدا: أي من غير تنميق ولا إعداد.
- (٤) وَسَدْتُ يُسْرَايَ خَدَّهُ: جعلتها وسادة له.
- (٥) حقوي: مثني حقو، وهو الكشح ومعقد الإزار. أدنى: أقرب. والدخيل: الصديق الذي يداخلك في أمورك، ويطلع على بواطنك.
- (٦) الْحَن: أَلُومٌ، أَدَمٌ، أَفْبَحٌ.
- (٧) لم يرد، هذا البيت في رواية الديوان.
- (٨) في الديوان: «إِمَّا نَدِيمَ خَلِيفَةٍ». سَابَغِي: سَأَطَلَبُ. سواء: عدلاً ووسطاً. مخيف سبيل: قاطع طريق.
- (٩) في الديوان: «لَا يَسْتَطَارُ جَنَانُهُ». الجنان: القلب، ولا يستطار جنانة: لَا يُدْعَرُ قَلْبُهُ. نَوَّه: دعا.
- (١٠) عون: معين. معدم: فقير. وقد أخذ الشريف الرضي هذا المعنى فقال:
- قَدْ يَبْلُغُ الرَّجُلُ الْجَبَانَ بِمَالِهِ مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ الشُّجَاعُ الْمُعْدِمُ

الفيل ما كَفَاهُ، ولو شرب النيلَ ما أَرْوَاهُ، يجوبُ البلادَ، حتى يقع على جَفَنَةِ جَوَادٍ. يرى ركوبَ البريد، في حضور الثريد^(١). أصابعه ألزم للشَّوَاءِ، من سَقُودِ الشَّوَاءِ^(٢)، وأنامله كالشبكة، في صيد السمكة. هو أَجْوَعُ من ذئب مُعْتَسٍ بين أعارب. العيون قد ثَقَلَتْ، والأكباد قد تلهيت، والأفواه قد تحلبت. امتدت إلى الخوان الأعناق، [واحتدت نحوه الأُحْدَاق]، وتحلبت له الأشداق.

[وصف طائر]

سأل المهدي صباح بن خاقان عن طائر له جاء من آفاق الغابة فقال:

يا أمير المؤمنين، لو لم يَنْ بِحَسَنِ الصِّفَةِ لَبَانَ بِحَسَنِ الصُّورَةِ. قال: صِفْهُ لِي. قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قَدْ قَدَّ الْجَلَمُ^(٣)، وَقَوِّمَ تَقْوِيمَ الْقَلَمِ، ينظر من جَمْرَتَيْنِ، ويلفظ بِلَرَّتَيْنِ، ويمشي على عقيقتين، تكفيه الحبة، وترويه الغبّة^(٤)، إن كان في قفص فلَّقه، أو تحت ثوب خرَّقه، إذا أقبل فدَيْنَاهُ، وإذا أدبر حميناه.

[أحظى النساء عند المهدي]

ودخل عبدُ الله بن مصعب الزيري على المهدي، فقال: ويحك يا زيري؛ دَخَلْتُ على الخيزران، فلما قامت لِتُصْلِحَ من شأنها نظرتُ إلى حُسْنِهَا! فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أدركك في ذلك ما أدرك المخزومي حيث قال:

يَنِمَّا نَحْنُ بِالْبَلَاكِثِ بِالْقَا عِ سِرَاعَا وَالْعَيْسُ تَهْوِي هُويَا
خَطَرْتُ خَطَرَةً عَلَى الْقَلْبِ مِنْ ذِكْ رَاكَ وَهْنًا فَمَا اسْتَطَعْتُ مُضِيَا^(٥)
قُلْتُ: لِيكَ إِذْ دَعَانِي لَكَ الشُّو ق وَلِلْحَادِيَيْنِ كُرًّا الْمَطِيَا
فَأَمْرٌ فَرَفَعَتِ السُّتُورَ عَنْ حُسْنِهِ.

(١) الثريد: ما يُتْرَدُ من الخبز، وقد ثرد الخبز: فَتَهُ ثُمَّ بَلَّهُ بِمَرَقٍ.

(٢) السَّقُودُ: عود من حديد ينظم فيه اللحم لِئَسْوَى.

(٣) الْجَلَمُ: المَقْصَصُ.

(٤) الْغُبَّةُ: الْبُلْغَةُ مِنَ الْعَيْشِ، وقد غَبَّتِ الماشية في الْوَرْدِ: شربت يوماً وتركت يوماً.

(٥) الْوَهْنُ: نحو نصف الليل، أو بعد ساعة منه، وقيل: الضعف وذبول الحيوية.

ثم قال لي: يا زيري، واسواتاه من الخيزران! ثم انشئ راجعاً إليها فقلت: يا أمير المؤمنين، أدركك في هذا ما أدرك جميلاً^(١) حيث يقول:

وَأَتَيْتِ الَّتِي حَبَبَتْ شُعْباً إِلَى بَدَأِ إِلَيَّ وَأُوطَانِي بِلَادَ سِوَاهُمَا^(٢)
حَلَلْتُ بِهِذَا حَلَّةً ثُمَّ حَلَّةً بِهِذَا فُطَابَ الْوَادِيَانِ كِلَاهُمَا
فدخل على الخيزران، فما لبث أن خرج؛ قال الزيري: فدخلت، فقال أنشدني
فأنشدته لصخر بن الجعد^(٣):

هَنِيئاً لِكَأْسِ جَذِّهَا الْحَبْلَ بَعْدَمَا عَقَدْنَا لِكَأْسِ مَوْثِقاً لَا نَحُونُهَا^(٤)
وَأَشْمَاتُهَا الْأَعْدَاءَ لِمَا تَأَلَّبُوا حَوَالِيَّ وَاشْتَدَّتْ عَلَيَّ ضُغُونُهَا^(٥)
فَإِنْ تُصْبِحِي وَكَلَّتِ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ وَأَشْمَتَ أَعْدَائِي فَقَرَّتْ عِيُونُهَا
فَإِنْ حَرَاماً أَنَّ أَخْوَنَكَ مَا دَعَا يَلِيلَ قُمْرِي الْحَمَامِ وَجُونُهَا^(٦)
وَمَا طَرَدَ اللَّيْلُ النَّهَارَ، وَمَا دَعَتْ عَلَى فَنَنِ وَرَقَاءُ شَاكِ رَيْنُهَا^(٧)
فأمر لي على كل بيت بألف دينار، وكانت الخيزران وحسنة أحظى النساء عند المهدي.

[وصف غلام]

ووصف اليوسفي غلاماً فقال: كان يعرف المراد باللحظ، كما يعرفه باللفظ، ويُعَافِي

- (١) أراد جميل بن معمر العذري المعروف بجميل بثينة، ويروى البيتان لكثير بن عبد الرحمن المعروف بكثير عزة.
- (٢) الشَّعْبُ: الجلبة والخصام، وتهيج الشر والفتن.
- (٣) هو صخر بن الجعد الحُضْرِيُّ المُحَارِبِيُّ: شاعر فصيح، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، ويعرف بحبه لكأس بنت بجير بن جندب. توفي نحو ١٤٠ هـ/ نحو ٧٥٧ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٣٨/٢٢ - ٤٩).
- (٤) الحبل هنا: حبل المودة. والموثق والميثاق: العهد. والجذُّ: القطع. وفي الأغاني: «قَطَعَهَا الْحَبْلُ».
- (٥) تَأَلَّبَ الْأَعْدَاءُ: تضافروا وتناصروا. والضغون: الأحقاد.
- (٦) ليل: اسم موضع. القُمْرِيُّ: طائر يشبه الحمام القمر البيض، والقمرية: ضرب من الحمام والجون: الأسود.
- (٧) الفتن: الغصن.

في الناظر، ما يجري في الخاطر، أقرب إلى داعيه، من يد مُعَاطِيهِ؛ حديدُ الذهن، ثاقِبُ
الفهم، خفيفُ الجسم، يُغْنِيكَ عن الملامة، ولا يحوجك إلى استراحة.
وقال أبو نواس:

وَمُنْتَظَرٍ رَجَعَ الْحَدِيثُ بِطَرْفِهِ إِذَا مَا اتَّشَى مِنْ لَيْنِهِ فَضَحَ الْغُصْنَا
إِذَا جَعَلَ اللَّحْظَ الْخَفِيَّ كَلَامَهُ جَعَلْتُ لَهُ عَيْنِي لِتَفْهَمَهُ أَذْنَا
وقال:

وَإِنِّي لَطَرْفِ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَاجِرٌ فَقَدْ كِدْتُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ ضَمِيرٌ
وقد طرق هذا المعنى وإن لم يكن منه [من قال]:

بَلَوْتُ أَخِلَاءَ هَذَا الزَّمَانِ فَأَقْلَلْتُ بِالْهَجْرِ مِنْهُمْ نَصِييَ
وَكُلُّهُمْ إِنْ تَصَفَّحْتَهُ صَدِيقُ الْعِيَانِ عَدُوُّ الْمَغِيبِ
تَفَقَّدَ مَاقِطَ لَحْظِ الْمُرِيبِ فَإِنَّ الْعُيُونَ وَجُوهَ الْقُلُوبِ
وهو كقول المهدي:

وَمَطْلَعٍ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَسْرُهُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّحْظِ الْخَفِيِّ دَلِيلُ
إِذَا الْقَلْبُ لَمْ يُبْدِ الَّذِي فِي ضَمِيرِهِ فَقِي اللَّحْظُ وَالْأَلْفَاظُ مِنْهُ رَسُولُ

[ابن خالد بن صفوان وعلي بن الجهم]

ودخل خالد بن صفوان على علي بن الجهم بن أبي حذيفة فألفاه يريد الركوب فقرب
إليه حمار ليركبه، فقال خالد: أما علمت أن العير^(١) عار، والحمار شنار، مُنْكَرُ الصَّوْتِ،
قبيح الفؤت، مُتَزَلِّجٌ فِي الضَّحَلِ^(٢)، مرتطم في الوحل، ليس بركوبة فحل، ولا بمطية
رَحْلٍ، راكبه مقرف^(٣)، ومسايره مشرف.

فاستوحش ابن أبي حذيفة من ركوب الحمار ونزل عنه، وركب فرساً ودفع الحمار

(١) العير: الحمار.

(٢) الضحل: الماء القليل على الأرض لا عمق فيه.

(٣) مقرف: مُعَرَّضٌ لِلتَّهْمَةِ.

إلى خالد فركبه، فقال له: ويحك يا خالد! أنتهى عن شيء وتأتي مثله؟ فقال: أصلحك الله! عيّر من بنات الكُرَبال^(١)، واضح السربال، مختلج القوائم، يحمل الرّجْلة^(٢)، ويبلغ العقبة، ويمعني أن أكون جباراً عنيداً، إن لم أعترف بمكاني فقد ضللت إذاً وما أنا من المهتمدين.

[كُرُ الحَدَثَانِ]

قال ابن دأب: خرجت مع بعض الأمراء في سفر إلى الشام، فمرّ بي رجل كنت أعرفه حسنَ الحال من أصحاب الأموال الظاهرة في حال رثّة، فسلم عليّ فقلت: ما الذي غيرَ حالك؟ فقال: تنقلُ الزمان، وكُرُ الحَدَثَانِ؛ فأثرت الضرب في البُلْدَانِ، والبُعْد عن المعارف والخُلَانِ، وقد كان الأمير الذي أنت معه صديقاً لي فاخترت البُعْد من الأشكال، حين حصّني الإقلال^(٣)، واستعملت قول الشاعر:

سَأَعْمِلُ نَصْرَ الْعِيسِ حَتَّى يَكْفِنِي غِنَى الْمَالِ يَوْمًا أَوْ غِنَى الْحَدَثَانِ^(٤)
فَلَلَمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ يُرَى لَهَا عَلَى الْمَرْءِ ذِي الْعِلْيَاءِ مَسُّ هَوَانٍ
مَتَى يَتَكَلَّمُ يُلْغِ حُكْمُ كَلَامِهِ وَإِنْ لَمْ يَقُلْ قَالُوا عَدِيمُ بَيَانٍ
كَأَنَّ الْفَتَى فِي أَهْلِهِ بُورِكَ الْفَتَى بِغَيْرِ لِسَانٍ نَاطِقٍ بِلِسَانٍ

قال ابن دأب: فلما اجتمعْتُ مع الأمير في المنزل وصفت له الرجل، فقال لي: ويحك! اطلبه حتى أصلح من حاله، فطلبته فأعوزني.

[من قولهم في الرثاء]

لأبي الشيص

وقال أبو الشيص^(٥) يرثي [قتيلاً]:

- (١) الكُرَبَالُ: كورة من كور فارس.
- (٢) الرّجْلة والرّجَالُ: جمع رَجُل.
- (٣) حصّني: قصّ جناحي. والإقلال: الفقر.
- (٤) النَّصْرُ من الشيء: منتهاه، ومبلغ أقصاه، ويقال: بلغنا من الأمر نَصّه: شدّته. وقد نصّ الدابة: استحثّها شديداً، أي سيرّها أكثر ما تستطيع من السير.
- (٥) هو أبو جعفر، محمد بن عبد الله بن رزين بن سليمان بن تميم الخزاعي، ويلقب بأبي الشيص: شاعر مطبوع، سريع الخاطر، رقيق الألفاظ، وهو ابن عم دعلج الخزاعي الشاعر المشهور. قتله =

حَتَلَّتْهُ الْمَنُونُ بَعْدَ اخْتِيَالِ يَيْنَ صَفَيْنِ مِنْ قَنَاءٍ وَنَصَالِ^(١)
فِي رِداءٍ مِنَ الصَّفِيحِ صَقِيلِ وَقَمِيصٍ مِنَ الْحَصِيدِ مُذَالِ^(٢)

لحارثة بن بدر الغداني

وقال حارثة بن بدر الغداني يرثي زياداً^(٣):

صَلَّى إِلَهُهُ عَلَى قَبْرِ وَطْهَرَهُ عِنْدَ الثُّوَيَّةِ يَسْفِي فَوْقَهُ الْمُورُ^(٤)
تَهْدِي إِلَيْهِ قَرِيضٌ نَعَشٌ سَيْدَهَا فَتَمَّ حَلَّ النَّدَى وَالْعَرْزُ وَالْخَيْرُ^(٥)
أَبَا الْمَغِيرَةِ وَالنَّدَى مُفْجَعَةٌ وَإِنْ مَنْ غَرَّتِ الدَّنْيَا لَمَغْرُورُ
قَدْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْمَعْرُوفِ عَارِفَةٌ وَكَانَ عِنْدَكَ لِلتُّكْرَاءِ تَنْكِيرُ
وَكُنْتَ تُغْشَى فَتُعْطَى الْمَالُ مِنْ مَعَةٍ فَالآنَ بِأَبْكَ أَمْسَى وَهُوَ مَهْجُورُ
وَلَا تَلِينَ إِذَا عُوشِرْتَ مُعْتَبِرًا وَكَانَ أَمْرُكَ مَا يُوسِرْتَ مَيُّسُورُ
لَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ مَذْغِيَّتَ فِتْيَتِهِمْ وَلَمْ يُجَلِّ ظِلَاماً عَنْهُمْ نُورُ
فَالنَّاسُ بَعْدَكَ قَدْ خَفَّتْ حُلُومُهُمْ كَأَنَّمَا نَفَخَتْ فِيهَا الْأَعْصِيرُ

أخذ هذا البيت من قول مهلهل بن ربيعة في أخيه كليب، وكان إذا انتدى^(٦) لم تحلَّ
حَبَوْتُهُ^(٧)، ولم ينطق أحد إلا مجيئاً له، إجلالاً ومهابة:

أُنْبِئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدَتْ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلِيبُ الْمَجْلِسُ
وَتَحَدَّثُوا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ لَوْ كُنْتُ حَاضِرًا أَمْرَهُمْ لَمْ يَنْبَسُوا

= بعض غلمانه وهو سكران سنة ١٩٦ هـ/ ٨١١ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٧٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٢٤٩/١٠).

- (١) حتلته: خدعته عن غفلة.
- (٢) رداء من الصفيح: أراد السيف، وقميص من الحديد: أراد الدرع. ومذال: طويل.
- (٣) يريد أبا المغيرة زياد بن أبيه والي العراق في عهد معاوية بن أبي سفيان.
- (٤) يسفى: يثور. المور: التراب. والثوية: موضع من الكوفة.
- (٥) الخير: الشرف والكرم.
- (٦) انتدى: جلس في النادي، وهو مجتمع القوم للسمر والمشورة.
- (٧) الحبوة: الاحتباء، يقال: حلَّ فلان حبوته، والحبوة: ما يحتبى به من ثوب وغيره، وقد احتبى بالثوب: أداره على ساقيه وظهره وهو جالس ليستند.

من أخبار حارثة بن بدر

وكان حارثة ذا بيان وجَهارة [وأدب]، وكان شاعراً عالمياً بالأخبار [والأنساب]، وكان قد غلب على زياد، وكان حارثة منهوماً في الشراب، فعُوتِبَ زيادُ في الاستئثار به، فقال: كيف أطرح رجلاً يُسائرني مذ دخلت العراق، ولم يَصُكُّكَ ركبُهُ رَكابي، ولا تَقْدَمَني فنظرت إلى قَفَاه، ولا تأخر عني فلويت عنقي إليه، ولا أخذ عليَّ الشمس في شتاء قط، ولا الرُّوح في صيف، ولا سألتُه عن باب في العلم إلَّا قَدَرْتُ أنه لا يحسن غيره.

وقال له زياد: من أخطب؟ أنا أم أنت؟ فقال: الأمير أخطب إذا تَوَعَّد أو وعد، وبرق ورعد، وأنا أخطبُ في الوفاة، والثناء، والتجبير، وأنا أكذب إذا خطبت، وأحشو كلامي بزيادات [مليحة] شهية، والأمير يَقْصِدُ إلى الحق، وميزان العدل، ولا يزيدُ في كلامه، ولا ينقص منه.

فقال له زياد: [قاتلك الله!] لقد أجدتَ تخليص صفتي وصفتك.

ولما مات زياد جفاه عبيدُ الله [ابنه]، فقال [له حارثة: أيها الأمير، ما هذا الجفاء مع معرفتك بالحال عند أبي المغيرة؟ فقال له عبيد الله]: إن أبا المغيرة بلغ مبلغاً لا يلحقه فيه عيب، وأنا أنسب إلى من يغلبُ عليّ، وأنت تُدِيمُ الشراب، وأنا حديثُ السن؛ فمتى قَرَّبْتَكَ فظهرت منك رائحة الشراب لم آمنُ أن يُظَنَّ بي [ذلك]، فدَعَ الشراب وكن أول داخل وآخر خارج.

فقال له حارثة: أنا لا أدعه لمن يملك ضُرِّي ونَفْعِي، أَدْعُهُ للحال عندك؟ ولكن صَرَفَني في بعض أعمالك. فَوَلَّاه سُرُقَ من بلاد الأهواز.

لأبي الأسود في حارثة بن بدر

وقال أبو الأسود الدؤلي، وكان صديقاً لحارثة:

أَحَارِ بْنِ بَدْرِ قَدْ وَلَيْتَ وَلايَةً	فَكُنْ جُرْذًا فِيهَا تَخُونُ وَتَسْرِقُ
وَلَا تَدْعَنَّ لِلنَّاسِ شَيْئاً تُصِيهُ	فَحَظُّكَ مِنْ مُلْكِ الْعِرَاقَيْنِ سُرْقُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا قَائِلٌ فَمَكْذَبٌ	يَقُولُ بِمَا يَهْوَى وَإِذَا مُصَلِّقُ
يَقُولُونَ أَقْوَالاً بَظُنٍّ وَتُهْمَةٍ	فَإِنْ قِيلَ هَاتُوا حَقَّقُوا لَمْ يُحَقِّقُوا

جواب حارثة بن بدر

فقال له حارثة:

جَزَاكَ إِلَهُ الْعَرْشِ خَيْرَ جَزَائِهِ فَقَدْ قُلْتَ مَعْرُوفاً وَأَوْصَيْتَ كَافِياً
أَمَرْتُ بِشَيْءٍ لَوْ أَمَرْتُ بِغَيْرِهِ لَأَلْفَتَنِي فِيهِ لِأَمْرِكَ عَاصِياً

[وصف امرأة]

قال الأصمعي: سمعت امرأة من العرب تصف امرأة وهي تقول: سَطْعَاءُ بَضَّةٌ^(١)،
بيضاء غَضَّةٌ^(٢)، دَرْمَاءٌ رَخْصَةٌ^(٣)، قَبَاءٌ طَفْلَةٌ^(٤)، تنظر بعيني شادن ظَمَانٍ، وتبسم عن مُنَوَّرِ
الأفحوان، في غب التَهْتَانِ، وتشير بأساريع الكُثْبَانِ^(٥)، خلقتها عميم، وكَلَامُهَا رَخِيمٌ، فهي
كما قال الشاعر:

كَأَنَّهَا فِي الْقُمُصِ الرِّقَاقِ مُحْخَةُ سَاقٍ بَيْنَ كَفَّيْ سَاقٍ^(٦)
أَعَجَّلَهَا الشَّوَاوِي عَنِ الْإِحْرَاقِ

ووصف أعرابي امرأة يحبها فقال: هي زينة [في] الحُضُورِ، وباب من أبواب السُرُورِ،
وَلَذِكْرُهَا فِي الْمَغِيبِ، والبعد من الرقيب، أشهى إلينا من كل ولد ونسب، وبها عرفت فضل
الحدود العين، واشتقتُ بها إليهنَّ يوم الدين.

[من كلام الأعراب]

وسئل أعرابي عن سفر أكدى فيه^(٧)، فقال: ما غنمنا إلّا ما قَصَرْنَا من صلاتنا، فأَمَّا ما
أَكَلْتُهُ مِنَ الْهَوَاجِرِ، وَلَقِيْتُهُ مِنَ الْأَبَاعِرِ، فَأَمْرٌ اسْتَخَفَّنَاهُ، لَمَّا أَمَلْنَاهُ.

- (١) سَطْعَاءُ: طويلة العنق. بَضَّةٌ: ممثلة نضرة.
- (٢) غَضَّةٌ: طرية، رقيقة الجلد، يقال: غَضَّتِ الْمَرْأَةُ غَضَاضَةً، وَغَضُوضَةً: رِقًّا جِلْدَهَا وَظَهَرَ دِمَاحُهَا.
- (٣) دَرْمَاءٌ: تمشي مشية الأرنب، أي تقارب الخطو في عجلة. ويقال: درم الكعب والعظم: غطاه الشحم واللحم حتى لم يبق له حجم. والرخصة: الناعمة اللينة.
- (٤) قَبَاءٌ: دقيقة الخصر، ضامرة البطن. وَالطَّفْلَةُ: الرخصة الناعمة الرقيقة.
- (٥) الْأَسَارِيعُ: ما يخرج من القضبَانِ فِي أَصْلِ الْكِرْمِ، ودودٌ بيض حمر الرؤوس، تُشَبَّهُ بِهَا أَصَابِعُ النِّسَاءِ، وَمِفْرَدُهَا أُسْرُوعٌ.
- (٦) سَاقٍ (الأولى): ما بين الركبة والقدم، وسَاقٍ (الثانية): الذي يطوف بالشراب.
- (٧) أكدى الرجل: خاب ولم يظفر.

وقال عبد قيس بن خُفَّاف البرُّجمي^(١) لحاتم الطائي، وقد وَفَدَ عليه في دماء حملها، قام ببعضها وعجز عن بعض: إني حملت دماء عَرَلْتُ فيها على مالي وآمالي، فأما مالي فَقَدَّمْتُه، وكنت أكبر آمالي، فإن تَحَمَّلَهَا فكم من حق قضيت، وهم كفيت، وإن حال دون ذلك حائل لم أذم يومك، ولم آيس من غدك.

وقيل لأعرابي: لم لا تَضْرِبُ في البلاد^(٢)؟ فقال: يمنعني من ذلك طفل بارك، ولِصٌّ سافك، ثم إني لست مع ذلك وأثاقاً بِنُجْحِ طَلِيتي، ولا معتقداً بقضاء حاجتي، ولا راجياً عطف قرابتي؛ لأنني أقدم على قوم أطغاهم الشيطان، واستمالهم السلطان، وساعدهم الزمان، وأسكرتهم حداثة الأسنان.

وخرج المهدي بعد هذاة من الليل يطوفُ بالبيت، فسمع أعرابية من جانب المسجد تقول: قوم متظلمون، نَبَتْ عنهم العيون، وَفَدَحَتْهُمْ الدُّيُونُ؛ وَعَضَّتْهُمْ السنون، بَادَ رجالهم، وزهبت أموالهم، وكثر عِيَالُهم، أبناءٌ سبيل، وأنثَاءٌ طريق^(٣)، وصية الله، ووصية رسول الله، فهل أمرٌ بخير، كَلَاهُ الله في سَفَرِهِ، وخلفه في أهله. فأمر نصرأ الخادم، فدفن إليها خمسمائة درهم.

[من مقامات البديع]

المقامة الأزادية

ومن إنشاء البديع في مقامات أبي الفتح الإسكندري: حدَّثني عيسى بن هشام قال: كنت ببغداد، في وقت الأَزَادِ^(٤)؛ فخرجتُ إلى السوق أَعْتَامُ^(٥) من أنواعه، لابتياحه، فسرْتُ غير بعيد إلى رجل قد أخذ أنواع الفواكه وصفَّها، وجمع أنواع الرُّطْبِ وصنَّفها؛ فقبضتُ من كل شيء أحسنه، وقرضتُ من كل نوع أجوده؛ وحين جمعتُ حواشي الإزار، على

(١) هو أبو جُبَيْل، عبد قيس بن خُفَّاف البرُّجمي التميمي: شاعر جاهلي، عاصر حاتم الطائي ومدحه، وهجا أبا قابوس النعمان بن المنذر ملك الحيرة، ونحل هجاءه للناطقة الذبياني ليستعدي الملك عليه. (الأيوبي، معجم الشعراء: ص ٢٢٤).

(٢) لا تضرب في البلاد: لا تسافر.

(٣) أنثاء: جمع نَضُو (بكسر النون): المهزول.

(٤) الأَزَاد: ضرب من التمر.

(٥) أَعْتَام: أختار.

تلك الأوزار، أخذت عيناى رجلاً قد لفَّ رأسه [ببرقع] حياءً، ونصب جسده، ووسط يده، واحتضنَ عياله، وتأبط أطفاله، وهو يقول بصوت يَدْفَعُ الضعف في صدره، والحرص في ظهره:

وَيْلِي عَلَى كَفَيْنِ مِنْ سَوِيْقٍ أَوْ شَحْمَةٍ تُضْرِبُ بِالذَّقِيقِ
أَوْ قَصْعَةٍ تُمَلَأُ مِنْ خِرْدِيقِ تَفْشَأُ عَنَّا سَطَوَاتِ الرِّيقِ^(١)
تُقِيمُنَا عَنْ مَنَهْجِ الطَّرِيقِ يَا رَازِقَ الشَّرْوَةِ بَعْدَ الضِيقِ
سَهْلٌ عَلَى كَفٍ فَكَيْ لِيَقِ ذِي حَسَبٍ فِي مَجْدِهِ عَسْرِيقِ
يُهْدِي إِلَيْنَا قَدَمَ التَّوْفِيقِ يُنْقِذُ عَيْشِي مِنْ يَدِ التَّرْنِيقِ^(٢)

قال عيسى بن هشام: فأخذتُ من فاضل الكيس أخذَةً وأثلته إياها، فقال:

يَا مَنْ حَبَانِي بِجَمِيلِ بَرِّهِ أَفْضَى إِلَى اللَّهِ بِحُسْنِ سِرِّهِ^(٣)
وَاسْتَحْفَظَ اللَّئِمَةَ جَمِيلَ سَتْرِهِ إِنْ كَانَ لَا طَاقَةَ لِي بِشُكْرِهِ
فَاللَّهُ رَبِّي مِنْ وَرَاءِ أَمْرِهِ

قال عيسى بن هشام: فقلت: إِنْ فِي الْكِيسِ فَضْلًا، فَأَبْرُزْ لِي عَنْ بَاطِنِكَ أَخْرَجْ لَكَ عَنْ آخِرِهِ، فَأَمَاطْ لِيَامَهُ، فَإِذَا شِخْنَا أَبُو الْفَتْحِ السَّكَنْدَرِي، فقلت: وَيْحَكَ! أَيُّ دَاهِيَةٍ أَنْتَ؟ فقال:

نُقْضَى الْعُمُرُ تَشْبِيهًا عَلَى النَّاسِ وَتَمْسُوِيهَا^(٤)
أَرَى الْأَيَّامَ لَا تَبْقَى عَلَى حَالٍ فَأَحْكِيهَا
فَيَوْمًا شَرُّهَا فِي وَيَوْمًا شَرِّتِي فِيهَا^(٥)

(١) القصعة: وعاء يُؤْكَلُ فِيهِ وَيُتْرَدُ، وَكَانَ يُتَّخَذُ مِنَ الْخَشَبِ غَالِبًا. وَالْخَرْدِيقُ: الْمَرْقَةُ بِاللَّحْمِ. فَتَأَ:

الْحَارَ: كَسَرَ سَخُونَتَهُ بِالتَّبْرِيدِ، وَفَتَأَ غَضَبَهُ: كَسَرَ حِدَّتَهُ، وَفَتَأَ الْبَارِدَ: كَسَرَ يَرُودَتَهُ بِالتَّسْحِينِ.

(٢) الترنيق: يقال: رَنَقَ فُلَانٌ: تَحَيَّرَ، وَرَنَقَتْ عَيْنُهُ: انْكَسَرَتْ طَرَفُهَا مِنْ جُوعٍ وَنَحْوِهِ، وَرَنَقَ الْقَوْمُ بِالْمَكَانِ: أَقَامُوا وَاحْتَبَسُوا.

(٣) حبانى: أَعْطَانِي، وَيُقَالُ: حَبَاهُ مَحَابَاةً وَحِبَاءً: اخْتَصَمَهُ وَمَالَ إِلَيْهِ. وَالْبَرُّ: الْخَيْرُ.

(٤) التمسويه: الزخرفة، ومزج الحق بالباطل، ويقال: مَوَّهَ عَلَيْهِ الْخَيْرُ: أَخْبَرَهُ بِخِلَافِ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ.

(٥) الشَّرُّ: الْحِدَّةُ، يُقَالُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ الْغَضَبِ، وَالشَّرُّ: النِّشَاطُ، وَيُقَالُ: لِلشَّبَابِ شَرٌّ.

[من رسائل بديع الزمان]

وسأل البديع أبا نصر بن المرزبان - عارية - بعض ما يتجمل به، فأمسك عن إجابته؛ فأعاد الكتاب إليه بما نسخه:

لا أزال - أطال الله تعالى بقاء مولانا الشيخ! - لسوء الانتقاد، وحسن الاعتقاد، أُمسَحُ جبين الخجل، وأمدُ يمين العَجَل، ولضعف الحاسة، في الفِراسة، أَحسِبُ الْوَرَمَ شَحْمًا^(١)، والسَّرَابَ شَرَابًا، حتى إذا تجشمت موارده، لأشرب بآرده، لم أجِدْ شيئًا.

وما حسبت الشيخ سيدي ممن تعنيه هذه الجملة حتى عرضت على النار عودَه، ونشرت بالسؤال جودَه، وكاتبته أستعيره حلية جمال، سحابة يوم أو شطرَه، بل مسافة ميل أو قدرَه، فغاص في الفِطْنة غوصاً عميقاً، ونَظَرَ فِي الْكَيْسِ نَظْرًا دَقِيقًا، وقال: هذا رجل مشحوذ المذبة، في أبواب الكُذْبَةِ^(٢)، قد جعل استعارة الأَعْلَاقِ طريقَ افتراسها، وسبب احتباسها، وقد مَنَى ضِرْسَه، وحَدَّثَ بِالمَحَالِ نفسه، ولا لطيفة في هذا الباب، أحسن من التغافل عن الجواب، فَضَّلَا عن الإيجاب، وكلا فما في أبواب الردِّ أفتح مما قرع، ولا في شرائع البخل أوشح مما شرع؛ ثم العُدْرُ له من جهني مبسوط إن بسطه الفضل، ومقبول إن قبله المجد، وإنما كاتبته لأعيد الحال القديمة، وأشروط له على نفسي أن أريحه من سَومِ الحاجات من بعد، فمن لم يَسْتَحْيَ مِنْ «أَعْطَيْتِي»، لم يُسْتَحْيَ له من «أَعْفَيْتِي»؛ وعلى حسب جوابه أجرى المودة فيما بعد، فإن رأى أن يجيب فعل إن شاء الله.

كتاب منه إلى سهل بن محمّد

وله إلى سهل بن محمّد بن سليمان:

أنا إذا طويت عن خِدْمَةِ مولاي - أطال الله بقاءه - يوماً لم أرفع له بصري، ولم أعدّه من عمري، وكأني بالشيخ - أعزّه الله - إذا أغفلت مفروض خِدْمَتِهِ، من قَصْدِ حضرته، والمثول في حاشيته، وجملة غاشيته^(٣)، يقول: إن هذا الجائع لَمَّا شَبِعَ تَضَلَّعَ، واكسى ونلّغ^(٤)،

(١) هو من قول المتنبي لسيف الدولة الحمداني:

أَعْيِذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحَسَبَ الشَّخْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمٌ

(٢) المَذْبَةُ: السَّكِين. والكُذْبَةُ: السُّؤَالُ والشَّحَاذَةُ (حرفة السائل المَلِغ).

(٣) الغاشية: السُّؤَالُ يَأْتُونَكَ مُسْتَجِدِّينَ، والزُّوَارُ والأصدقاء يتأبئونك.

(٤) نلّغ فلان بالشوب والرفع: اشتمل به حتى يُجَلِّلَ جسده.

وتجَلَّلَ وتَبَرَّقَعَ، وترَبَّعَ وترَفَّعَ، فما يطوفُ بهذا الجَنَابِ، ولا يَظْهَرُ بهذا الباب؛ وأنا الرجل الذي آواه من قَفَرٍ، وأغناه من قَفَرٍ، وأمنه من خَوْفٍ، إذ لا حَرَّ بوادي عَوْفٍ^(١)؛ حتى إذا وردت عليه رُقعتي هذه، وأعارها طَرْفَ كرمه، وطَرْفَ شِيمِهِ، ونَظَرَ في عنوانها اسْمِي قال: بُعْدًا وسَحَقًا، [وسبًا وتبًا] وحتًا ونحتًا^(٢)، وطَعْنًا ولَعْنًا، فما أكذب سَرَابَ أخلاقه، وأكثر أسْرَابَ نفاقه، فالآن انحَلَّ من عقدته، واتَّبه من رَقْدَتِهِ. وكاتبني يستعيدني، كلاً لا أَرْوُّجُهُ الرِّضَا ولا قَلَامَهُ^(٣)، ولا أَمْنَحُهُ المُنَى ولا كرامة، بل أدعُهُ يركب رأسه، ويقاسي أنفاسه، فستأتيني به الليالي، والكيس الخالي، ثم أُرِيهِ ميزانَ قَلْبِهِ، وأُذِيقُهُ وبالَ أمره، حتى إذا بلغ موضع الحاجة من الرقعة قال: مَأْرِيَّةٌ لا حَفَاوَةَ، وَوَطْرٌ سَاقَةٌ، لا نِزَاعٌ شَاقَهُ^(٤)، فهذا بِذَا، ولا أبعد من تلك الهمم العالية، والأخلاق السامية أن يقول: مرحباً بالرقعة وكاتبها، وأهلاً بالمخاطبة وصاحبها [وقضاء الحاجة بإنحائها، وإبرازها، وهي الرقعة التي سالت إلى من التمسته، كما اقترحت بما طالبته، فَرَأْيُهُ فِيهِ مَوْفُقٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى].

كتاب منه إلى بعض الرؤساء

وله أيضاً إلى بعض الرؤساء يسأله إطلاق محبوس [بسيه]:

الشيخ - أطل الله بقاءه - إذا وصل يدي بيده لم ألمس الجَوَازَ إلا قاعداً، وقد نَاطَها مِنَّةٌ في عُنُقِ الدهر، وصاغها إكليلاً لجبين الشكر. وما أَقْصَرَ يَدِي عن الجزاء، ولساني عن الثناء. وهذا الجاهلُ قد عرف نفسه، وقلع ضرسه، ورأى ميزانَ قَدْرِهِ، وذاق وبالَ أمره، وجهز إليّ كتيبة عجائز عاجزات؛ فأَطلَقْنِ العويل والأليل^(٥)، وبعثنني شفيعاً إليّ، واستعنَّ

(١) «لا حَرَّ بوادي عوف»: مثل قيل في عوف بن مُحَلِّم بن ذهل بن شيبان، وذلك أن عمرو بن هند ملك الحيرة طلب منه رجلاً، وهو مروان بن القَرْظِ، وكان قد أجاره، فمَنَعَهُ عوف وأبى أن يسلمه، فقال الملك: لا حَرَّ بوادي عوف، أي أنه يقهر من حلَّ بواديه، فكل من فيه كالعبد له لطاعته إياه. (الميداني، مجمع الأمثال: ٢/٢٣٦).

(٢) حَتَّ الشَّيْءِ: حَطَّه، وَحَتَّ الشَّيْءَ عَنِ الثَّوْبِ وغيره: فَرَكَّهُ وَأَزَالَهُ.

(٣) القَلَامَةُ: ما قُطِعَ من طرف الظفر أو الحافر أو العود، وقلامه الظفر: مثل في القلة والحقارة، يقال: لم يُعْنِ عَنِي قلامه ظفر.

(٤) نزاع: أراد به نزوع القلب إليه، وشاقه: أعجبه، والمراد أنه إنما بعثه على الكتابة الحاجة إليه لا المحبة.

(٥) الأليل: الشُّكْلُ، والأنين.

بي عليّ، وتوسّلن بكلمة الاستسلام، ولحمة الإسلام، في فكّ هذا الغلام؛ فإن أحبّ الشيخ أن يجمع في الطّول^(١) بين الحوض والكوثر، وينظم في الفضل ما بين الروض والمطر، شفع في إطلاقه مكارمه، وشرف بذلك خادمه، وأنجزنا بالإفراج عنه، مؤقّفاً إن شاء الله تعالى.

[عفو عن ذي جريرة]

المأمون

وقال رجل لإبراهيم بن المهدي: اشفع لي إلى أمير المؤمنين في فكّ أخي من حبسه، وكان محبوساً في عِدَادِ العُصاة، فقال المأمون: ليس للعاصي بعد القُدرة عليه ذنب، وليس للمصاب بعد الملك عذر. فقال: صدقت؛ فما طَلَيْتِكَ؟ قال: فلان هَبْه لي. قال: هو لك.

أحمد بن أبي خالد

وسأل أبو عبادة أحمد بن أبي خالد أن يطلق له أسارى، ففعل، فقال له: قد فككنا أسراك. فقال: لا فكّ الله رِقَابَ الأحرار من أياديك!

ألفاظ لأهل العصر في التهنة بالإطلاق من الأسر

الحَمْدُ لله حَمْدَ الإخلاص، على حسن الخِلاص، الذي أَفْضَى بك من ذِلَّةٍ رِقٍّ، إلى عِزَّةٍ عِثْقٍ، ومن تَصَلُّبٍ جَحِيمٍ، إلى جَنَّةٍ نَعِيمٍ. خَرَجَ من العِقَالِ، خروجَ السيفِ من الصِّقالِ. خرج من إيساره، خروجَ البئرِ من سِراره. الحمدُ لله الذي فكّ أسراً، وجعل من بعد العُسْرِ يُسْراً. خرج من البلاء، خروجَ السيفِ من الجلاء. قد جعل الله لك من مَصَائِقِ الأمور مَخْرَجاً نَجِيحاً، ومن مغالِقِ الأهوال مَسْرَحاً فسيحاً^(٢).

[أبو نواس يمدح الأمين]

مدح أبو نواس الأمين محمداً في [أول] خلافته بقصيدته التي يقول فيها^(٣):

أقول والعيسُ تَعَرَّوْري الفَلَاةَ بِنَا صُغْرُ الأُرْمَةِ مِنْ مَشْنَى وَوُحْدَانِ^(٤)

(١) الطّول: الفضل والغنى واليسر.

(٢) المسرح: مكان السراح، وهو الانطلاق والفاك.

(٣) أبو نواس، الديوان: ص ٤٢٠.

(٤) العيس: الإبل الكريمة، أو التي يخالط بياضها شقرة، والواحد أعيس، والأنثى عيساء. =

يَا نَاقَ لَا تَسْأَمِي أَوْ تَبْلُغِي مَلِكًا تَقِيلُ رَاحَتَهُ وَالرُّكْنَ سَيَانٍ^(١)
مُقَابِلًا بَيْنَ أَمْلَاكِ تَفْضِلُهُ وَلَا دَتَانِ مِنَ الْمَنْصُورِ شَتَانٍ^(٢)
مَتَى تَحْطِي إِلَيْهِ الرَّحْلَ سَالِمَةً تَسْتَجْمِعِي الْخُلُقَ فِي تَمَثَالِ إِنْسَانٍ

قال [الحسن]: هذا لأن محمداً ولده المنصور مرتين من قبل أن أباه هارون الرشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور، ومن قبل أن أمه أمة العزيز بنت جعفر بن [أبي جعفر] المنصور، وكان المنصور دخل عليها وهي طفلة تلعب، فقال: ما أنت إلا زبيدة، فغلب عليها هذا اللقب، ولم يَلِ الخلافة من أبواه هاشميان غير علي بن أبي طالب وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وابنه الحسن، وزوجه فاطمة بنت النبي ﷺ، والأمين محمد بن الرشيد.

رجع القول - فلما أنشده القصيدة قال: ما ينبغي أن يُسمع مدحك بعد قولك في الخصب بن عبد الحميد^(٣):

إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الْخَصْبِ رِكَابُنَا فَأَيُّ فَتَى بَعْدَ الْخَصْبِ تَزُورُ؟
فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ السَّدَائِرَ تَدُورُ
فَمَا فَاتَهُ جُودٌ، وَلَا حَلَّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَسِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَسِيرُ^(٤)

فقال: يا أمير المؤمنين، كلُّ مدح في الخصب وغيره فَمَدْحٌ فيك؛ لأنني أقول، ثم ارتجل^(٥):

= أعروى: سار في الأرض وحده. صعر الأزمة: إثبات الصعر للأزمة مجاز، والصعر: ميل في الوجه أو في أحد الشقين، أو داء في البعير يلوي عنقه منه، أو قد يكون من سير مُصْعَر: أي شديد.

(١) الركن: أي ركن الكعبة.

(٢) في الديوان: «مقابل بين أملاك».

(٣) أبو نواس، الديوان: ص ٤٨١.

(٤) في الديوان:

فَمَا جَاَزَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ

وجازته: تخطاه. والمعنى من قول الشاعر يمدح عبد الله بن الحشرج:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةِ ضُرَيْتٍ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ

(٥) أبو النواس، الديوان: ص ٤١٥.

مَلَكَتْ عَلَى طَيْرِ السَّعَادَةِ وَالْيُمْنِ
بِمَحِيَا وَجُودِ الْبُذَيْنِ تَحِيَا مُهْنًا
لَقَدْ طَابَتْ الدُّنْيَا بِطَيْبِ ثَنَائِهِ
لَقَدْ فَكَّ أَرْقَابَ الْعُقَاةِ مُحَمَّدًا
إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحِ
وَأِنْ جَرَّتِ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمُدْحَةٍ
وَجَاءَتْ لَكَ الْعِلْيَاءُ مُقْتَبِلَ السَّنِ^(١)
بِحُسْنٍ وَإِحْسَانٍ مَعَ الْيُمْنِ وَالْأَمْنِ^(٢)
وَزَادَتْ بِهِ الْأَيَّامُ حُسْنًا إِلَى حُسْنِ^(٣)
وَأَسْكَنَ أَهْلَ الْخَوْفِ فِي كَنْفِ الْأَمْنِ^(٤)
فَأَنْتَ كَمَا تُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي تُثْنِي
لِغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي^(٥)

قال: صدقت، مدح عهدي مدح لي؛ وَوَصَلَهُ وَقَرَّيْهِ.

وأما قول أبي نواس:

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحِ

فمن قول الخنساء^(٦):

فَمَا بَلَغَ الْمُهْدُونَ لِلنَّاسِ مِدْحَةً
وَمَا بَلَغَتْ كَفُّ امْرِئٍ مُتَنَاوَلًا
وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا الَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ
مِنَ الْمَجْدِ إِلَّا وَالسَّيِّئِ نَلَتْ أَطْوَلُ

[بين الأخطل ومعاوية]

وفد الأخطل على معاوية، فقال: إني قد امتدحتك بأبيات فاسمعهما، فقال: إن كنت شَبَّهْتَنِي بِالْحَيَةِ، أَوِ الْأَسَدِ، أَوِ الصَّقْرِ، فَلَا حَاجَةَ لِي بِهِمَا، وَإِنْ كُنْتُ [قُلْتُ] كَمَا قَالَتِ الْخَنَسَاءُ، وَأَنْشَدَ الْبَيْتَيْنِ، فَقُلْ. فقال الأخطل: وَاللَّهِ لَقَدْ أَحْسَنْتَ، وَقَدْ قُلْتَ فِيكَ بَيْتَيْنِ مَا هُمَا بِدُونَهُمَا، ثُمَّ أَنْشَدَ:

(١) في الديوان: «وَحُزَّتْ إِلَيْكَ الْمُلْكُ مُقْتَبِلَ السَّنِ».

(٢) لا وجود لهذا البيت في رواية الديوان.

(٣) في الديوان: «وَزِيدَتْ بِهِ الْأَيَّامُ».

(٤) في الديوان: «لَقَدْ فَكَّ أَعْلَالَ الْعَنَاءِ مُحَمَّدًا» و«أَنْزَلَ أَهْلَ الْخَوْفِ». والعُقَاة: طالبو المعروف.

(٥) في الديوان: «مِنَّا بِمُدْحَةٍ».

(٦) الخنساء، الديوان: ص ١٠٧. وفيه:

وَلَا بَلَغَ الْمُهْدُونَ فِي الْقَوْلِ مِدْحَةً
وَلَا صَدَّقُوا إِلَّا الَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

إِذَا مُتَّ مَاتَ الْعُرْفُ وَانْقَطَعَ النَّدَى فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مِنْ قَلِيلٍ مُصَرَّدٌ^(١)
وَرُدَّتْ أَكْفُ السَّائِلِينَ وَأَمْسَكُوا عَنِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِحُزْنٍ مُجَدَّدٍ

وقول أبي نواس:

وإن جَرَّتْ الألفاظُ يوماً بِمِذْحَةٍ

من قول كثير في عبد العزيز بن مروان:

مَتَى مَا أَقْلُ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ مِذْحَةٌ فَمَا هِيَ إِلَّا لِابْنِ لَيْلَى الْمُعْظَمِ
وقال الفرزدق^(٢):

وَمَا أَمَرْتَنِي النَّفْسُ فِي رِحْلَةٍ لَهَا إِلَى أَحَدٍ إِلَّا إِلَيْكَ ضَمِيرُهَا^(٣)
ولما أنشد أبو تمام أحمد بن أبي دُوَادٍ قصيدته^(٤):

سَقَى عَهْدَ الْحِمَى صَوْبُ الْعَهَادِ

وانتهى إلى قوله:

وَمَا سَافَرْتُ فِي الْآفَاقِ إِلَّا وَمِنْ جَدُّوكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي
مُقِيمُ الظَّنِّ عِنْدَكَ وَالْأَمَانِي وَإِنْ قَلَقْتُ رِكَابِي فِي الْبِلَادِ
قال له ابن أبي دُوَادٍ: هذا المعنى لك أو أخذته؟ قال: هو لي، وقد أَلَمْتُ فيه بقول أبي نواس:

وإن جَرَّتْ الألفاظُ يوماً بِمِذْحَةٍ لِعَيْرِكَ إِنْسَاناً فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي
وأخذه المتنبي فقال^(٥):

(١) العُرفُ: المعروف. المُصَرَّدُ: المُقَطَّعُ.

(٢) الفرزدق، الديوان: ٢٤٦/١. والبيت من قصيدة يمدح بها أيوب بن سليمان بن عبد الملك.

(٣) في الديوان: «فَأَمَرْتَنِي إِلَّا إِلَيْكَ ضَمِيرُهَا».

(٤) أبو تمام، الديوان: ٢١٣/١، والبيت بتمامه:

سَقَى عَهْدَ الْحِمَى سَبْلُ الْعَهَادِ وَرَوْضَ حَافِرٍ مِنْهُ وَبَادِي

(٥) المتنبي، الديوان: ٢١٢/١، والبيتان من قصيدة يمدح بها عليّاً بن إبراهيم التوخي.

أَشْرَتْ أَبَا الْحُسَيْنِ بِمَدْحِ قَوْمٍ نَزَلْتُ بِهِمْ فَرُحْتُ بِغَيْرِ زَادٍ^(١)
وَوَظَّئُونِي مَدَحْتُهُمْ قَدِيمًا وَأَنْتَ بِمَا مَدَحْتَهُمْ مُرَادِي^(٢)

وأما قول أبي تمام: «وما سافرت في الآفاق - البيت» فمن قول المثقب العبدي^(٣)،
[وذكر ناقته^(٤)]:

إِلَى عَمْرٍو بْنِ حَمْدَانَ أَبِينِي أَخِي التَّجَدَّاتِ وَالْمَجْدِ الرِّصِينِ^(٥)

* * *

وأما قول أبي نواس: فما فاته جود ولا حلّ دونه، البيت، فمن قول الشمردل بن
شريك [اليربوعي]^(٦):

مَا قَصَرَ الْمَجْدُ عَنْكُمْ يَا بَنِي حَكَمٍ وَلَا تَجَاوَزَكُمْ يَا آلَ مَسْعُودٍ

(١) في الديوان: «أَشْرَتْ» بكسر الشين وضم التاء، من الأشر، وهو الفرح بالشيء والاعتزاز به، كأنه
يقول: إني اغتررت بمدحهم فلم أتل منهم شيئاً، ورحلت عنهم بغير زاد. والرواية بفتح الشين
والتاء «أَشْرَتْ» من الإشارة كأن الممدوح أشار على الشاعر بمدح هؤلاء القوم.
(٢) يقول: ظنوا أن مدحي كان لهم، وإنما كنت أمدحهم وأعنيك بذلك المدح، لأنك تستحقه
دونهم، وهو معنى غير مُستحسن.

(٣) هو أبو عمرو، العائد بن محصن بن ثعلبة، من بني نكرة بن عبد القيس، من ربيعة: شاعر
جاهلي مجيد، غريب الألفاظ، متين التركيب. أقام في البحرين، واتصل بالملك عمرو بن هند
ومدحه، ومدح النعمان بن المنذر، وهو أقدم من النابغة الذبياني. توفي نحو ٣٥ ق. هـ/
٥٨٨ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٣١١/١؛ المربزاني، معجم الشعراء: ١٦٧؛ شيخو،
شعراء النصرانية: ٤٠٠/١).

(٤) البيت من قصيدة طويلة يمدح بها عمرو بن هند ملك الحيرة، ومطلعها:
أَفَاطَمَ قَبْلَ يَزِيدٍ وَدَعِينِي وَمَنْعُكَ مَا سَأَلْتُكَ أَنْ تَبِينِي
والقصيدة من مَثَوِيَّاتِ العرب السبع (شيخو، شعراء النصرانية: ٤٠٥/١).

(٥) في شعراء النصرانية: «إِلَى عَمْرٍو وَبَيْنَ عَمْرٍو أَتَنِي».

(٦) هو الشمرذل بن شريك بن عبد الملك، من بني ثعلبة بن يربوع، من تميم: شاعر أموي هجاء،
يجيد القصيد والرجز. عاصر الفرزدق وجريز، وله مع الفرزدق أخبار طريفة. أشهر فنونه الرثاء
في أخوته الثلاثة. والشعراء المعروفون باسم «الشمردل» خمسة هذا أشهرهم. توفي نحو ٨٠ هـ/
٧٠٠ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٣٥١/١٣؛ الأملدي، المؤلف والمختلف: ٢٠٥).

يَحُلُّ حَيْثُ حَلَلْتُمْ لَا يَرِيْمُكُمْ مَا عَاقَبَ الذَّهْرَ بَيْنَ الْبَيْضِ وَالسُّودِ^(١)
 إِنْ يَشْهَدُوا يُوجَدُ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ خِذْنَا وَلَيْسَ إِذَا غَابُوا بِمَوْجُودِ
 وَقَدْ قَالَ الْكُمَيْتُ الْأَسَدِيُّ^(٢):

يَسِيرُ أَبَانُ قَرِيْعِ السَّمَاءِ ح وَالْمَكْرُمَاتِ مَعَا حَيْثُ سَارَا



وقول أبي نواس أيضاً:

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ

مأخوذ من قول الراعي:

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ إِذَا مَا اشْتَرَى الْمَخْزَاةَ بِالْمَجْدِ يَهْسُ

[بين السفاح وأبي نخيلة]

دخل أبو نُخَيْلَةَ^(٣) على أبي العباس السفاح، فاستأذنه في الإنشاد، فقال: لعنك الله!
 أَلَسْتُ الْقَاتِلَ لِمُسْلِمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ:

أَمْسَلِمَةُ يَا نَجْلَ خَيْرِ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَا وَيَا جَبَلَ الْأَرْضِ
 شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ جَبَلٌ مِنَ الثُّقَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي
 وَأَلْقَيْتَ لِمَا أَنْ أَيْتُكَ زَائِراً عَلَيَّ لِحَافاً سَابِغَ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ
 وَنَبَّهْتَ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلاً وَلَكِنْ بَعْضُ الذِّكْرِ أَتَبَهُ مِنْ بَعْضِ^(٤)

(١) لا يريمكم: لا يفارقكم. البيض: الأيام، والسود: الليالي.

(٢) هو أبو المستهل، الكُمَيْتُ بن زيد بن الأخنس الأسدي: شاعر مقدم، وخطيب مفوه، وفارس شجاع، وعالم بلغات العرب وخير أيامها وأنسابها. عاش في أيام بني أمية، وكان يتشبع لبني هاشم، وقصائده الهاشميات من أجود شعره. توفي سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م. (البغدادى، خزنة الأدب: ١/ ١٤٤؛ حاجي خليفة، كشف الظنون: ٨٠٨؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٢٤٢).

(٣) هو يعمر، من بني حَمَانَ بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ويكنى أبا نخيلة لأن أمه ولدته إلى جنب نخلة. وهو شاعر راجز، أدرك الدولتين الأموية والعباسية، وكان جشعاً للمال، سيط اللسان، عاقاً لأبيه. توفي سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م. «ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٦٣».

(٤) في العمدة لابن رشيق: «وَأُحْيِيَتْ مِنْ ذِكْرِي».

ثم أمره بأن ينشد، فأنشده أرجوزة يقول فيها:

كُنَّا أَنَسَاءَ نَرْهَبُ الْهَلَاكَ وَنَرْكَبُ الْأَعْجَازَ وَالْأَوْرَاكَ
وَكُلَّ مَا قَدْ مَسَرَ فِي سَوَاكَ زُورٌ، وَقَدْ كَفَّرَ هَذَا ذَاكَ

واسم أبي نخيلة الجنيدي بن الجون^(١)، [وهو مولى لبني حماد]، كان مقصداً راجزاً.

قيل للخنساء: لئن مدحت أخاك لقد هجوت أباك! فقالت^(٢):

جَارِي أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مِثْلَ مَلَأَةِ الْحُضْرِ^(٣)
حَتَّى إِذَا جَدَّ الْجِرَاءُ وَقَدْ سَاوَى هُنَاكَ الْقَدْرَ بِالْقَدْرِ^(٤)
وَعَلَا صِيَاحُ النَّاسِ: أَيُّهُمَا؟ قَالَ الْمَجِيبُ هُنَاكَ: لَا أُدْرِي^(٥)
بَرَقَتْ صَحِيفَةٌ وَجْهِهِ وَالِدِهِ وَمَضَى عَلَى غُلُوءَاتِهِ يَجْرِي^(٦)
أَوَّلَى فَأَوَّلَى أَنْ يُسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السَّنِّ وَالْكِبَرِ
وَهُمَا كَانَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَّطَا عَلَى وَكْرِ

وقيل لأبي عبيدة: ليس هذا في شعر الخنساء. فقال: العامة أسقط من أن يجاد عليها بمثل هذا.

* * *

وقد أحسن البحترى في نحو هذا؛ إذ يقول في يوسف بن أبي سعيد، [ومحمد] بن يوسف الطائي^(٧):

(١) وزعم الأصفهاني في الأغاني أن اسمه أبو نخيلة، وكنيته أبو الجنيدي.
(٢) الخنساء، الديوان: ص ٧٦.
(٣) الحُضْرُ (بالضم): شدة عدو الفرس. وفي الديوان: «ملاءة الفخر».
(٤) الجراء: جري الفرس، وفي الديوان:
حَتَّى إِذَا نَزَتْ الْقُلُوبُ وَقَدْ لَزَّتْ هُنَاكَ الْعُذْرُ بِالْعُذْرِ
ونزت: وثبت.

(٥) في الديوان: «وعلا هتاف الناس».
(٦) في الديوان: «برزت صحيفة وجه والده». والغُلُوءُ: نشاط الشباب وأوله.
(٧) البحترى، الديوان: ٣١٣/٢.

جَدُّ كَجِدِ أَبِي سَعِيدٍ إِنَّهُ تَرَكَ السَّمَاءَ كَأَنَّهُ لَمْ يُشْرِفِ
قَاسَمَتُهُ أَخْلَاقَهُ وَهِيَ الرَّدَى لِلْمُعْتَدِي وَهِيَ اللَّذَى لِلْمُعْتَقِي^(١)
وَإِذَا جَرَى فِي غَايَةٍ وَجَرَيْتَ فِي أُخْرَى التَّقَى شَأْوَكَمَا فِي الْمَنْصَفِ^(٢)



قول الخنساء:

يَتَعَاوَرَانِ مُلَاءَةَ الْحُضْرِ

أربع استعارة، وأنصع عبارة، وقد قال عدي بن الرقاع^(٣):

يَتَعَاوَرَانِ مِنَ الْغُبَارِ مُلَاءَةً غَبْرَاءَ مُحْكَمَةً هُمَا نَسَجَاهَا^(٤)
تُطَوَّى إِذَا وَرَدَا مَكَانًا جَاسِبًا فَلِذَا السَّنَابِكُ أَشْهَلَتْ نَشْرَاهَا^(٥)
وإلى هذا أشار الطائي في قوله^(٦):

تَثِيرُ عَجَاجَةً فِي كُلِّ ثَغْرِ يَهِيمُ بِهَا عَدِيُّ بْنُ الرَّقَاعِ^(٧)

وأول من نظر إلى هذا المعنى شاعر جاهلي من بني عقيل^(٨) فقال:

- (١) الْمُعْتَقِي: طالب المعروف.
- (٢) الشَّأْوُ: الأمد والغاية. والمنصف: النصف، يريد نصف الطريق. وفي الديوان: «إِذَا جَرَى مِنْ غَايَةٍ وَجَرَيْتَ مِنْ».
- (٣) هو أبو داود، عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع بن عاملة، ونسبه الناس إلى «الرقاع» جدَّ جدَّه لشهرته: شاعر مقدم عند بني أمية. عاصر جريراً، وتعرَّضَ له، ولم يجرؤ جرير على هجائه خوفاً من الوليد بن عبد الملك الذي كان يُقرِّبه ويحسن إليه. توفي سنة ٩٥ هـ / ٧١٤ م. (زيدان، تاريخ آداب اللغة: ٢٦٤؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٥٦٧/١).
- (٤) يتعاوران: يتداولان.
- (٥) مكان جاسٍ: غليظ، يابس، خثين، صلب. السنابك: جمع سنبك، وهو طرف الحافر. والسنبك من كل شيء: أوَّلُه.
- (٦) أبو تمام، الديوان: ٤٠٤/١، والبيت من قصيدة يمدح بها مَهْدِيَّ بن أَصْرَم.
- (٧) العجاجة: الغبار. وفي الديوان: «يَهِيمُ بِهِ».
- (٨) من الناس من ينسب هذا الشعر لابن أحمر (ت نحو ٦٥ هـ / ٦٨٥ م)، ومنهم من ينسب لابن مقبل (ت بعد ٣٧ هـ / ٦٥٧ م).

أَلَا يَا دِيَارَ الْحَيِّ بِالسَّبْعَانِ عَفَّتْ حِجْباً بَعْدِي وَهْنٌ ثَمَانِ
فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ نُؤْيٍ مُهَدَّمٍ وَغَيْرُ أَثَافٍ كَالرُّكْبِيِّ رِعَانِ^(١)
وَآيَاتِ هَابٍ أَوْ رِقِ اللُّوْنِ سَافَرَتْ بِهِ الرِّيحُ وَالْأَمْطَارُ كُلِّ مَكَانِ^(٢)
قَفَّارٌ مَرُورَةٌ تَحَارُّ بِهَا الْقَطَا وَتُمْسِي بِهَا الْجَابَانُ تَقْتَرِبَانِ^(٣)
يُثِيرَانِ مِنْ نَسْجِ الْغُبَارِ عَلَيْهِمَا قَمِصَيْنِ أَسْمَالاً وَيَرْتَدِيَانِ^(٤)

ومن مستحسن رثاء الخنساء وليلى وغيرهما من النساء

من رثاء الخنساء

قال أبو العباس أحمد بن يحيى النحوي: أنشد أبو السائب المخزومي قول الخنساء^(٥):
وَأَنَّ صَخْرًا لَمَوْلَانَا وَسَيِّدُنَا وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتَسُو لَنَحَّارِ^(٦)
وَأَنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَسَ فِي رَأْسِهِ نَارِ^(٧)
فقال: الطلاق لي لازم إن لم تكن قالت هذا وهي تتبخر في مشيها، وتنظر في عطفها.

من بديع رثاء الخنساء

ومن مستحسن رثاء الخنساء قولها ترثي أخاها صخرًا^(٨):

أَذْهَبَ فَلَا يُعِيدُنكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ مَنَّا ضَيْمٌ وَطَلَابٌ لِأَوْتَارِ^(٩)

- (١) النؤي: مجرى بحفر حول الخيمة أو الخباء يقيها السيل. والأثافي: حجارة الموقد، الواحدة أثفية. والرُّكْبِيُّ: جمع رَكْبَةٍ، وهي البئر لم تَطْو. ورعان: جمع رَعْن: أنف الجبل الشاخص البارز، وجبل أرعن: ذو رعانٍ طوال، أي أنوفٍ عظام شاخصة.
- (٢) هاب: اسم فاعل من هبا الغبار هَبُوا وَهَبُوا: ثار وارتفع، والهابي من التراب: ما ارتفع ودق منه، وموضع هابي التراب: ترابه دقيق مثل الهباء.
- (٣) المَرُورَةُ: الأرض أو المفاضة التي لا شيء فيها، والجمع: مَرُورَى، ومَرُورِيَّاتٌ، ومَرَارِي.
- (٤) أسمال: جمع سَمَل، وثوب سَمَلٌ: خَلَقٌ بِال.
- (٥) الخنساء، الديوان: ٤٨.
- (٦) في الديوان: «وَأَنَّ صَخْرًا لَوَالَيْنَا وَسَيِّدُنَا». تمتدحه بالجود، أي ينحر للناس إذا نزل بهم ضيق الشتاء.
- (٧) تأثم به: تهتدي. الهداة: جمع هَادٍ، وهو المرشد، المتقدم. والعلم: الجبل.
- (٨) الخنساء، الديوان: ٥٨.
- (٩) الضيم: الظلم. الأوتار: جمع وتر، وهو الثأر، أو الذحل، أو الظلم فيه.

قَدْ كُنْتُ فِينَا صَرِيحاً غَيْرَ مُؤْتَشَبٍ مُرْكَباً فِي نَصَابٍ غَيْرِ خَوَارٍ^(١)
 فَسَوْفَ أَبْكِيكَ مَا نَاحَتْ مُطَوَّقَةُ وَمَا أَضَاءَتْ نُجُومُ اللَّيْلِ لِلسَّارِي
 أَبْكِي فَتَى الْحَيِّ نَالَتُهُ مَيِّتُهُ وَكُلَّ نَفْسٍ إِلَى وَفَيْتٍ بِمِقْدَارٍ
 وقولها [تعنيه]^(٢):

شَهَادُ أَنْجِيَةٍ شَدَادُ أَوْهِيَةٍ قَطَاعُ أَوْدِيَةٍ لِلسُّوْتِرِ طَلَابَا^(٣)
 سُمِّ الْعُنَاةِ وَفَكَأُكُ الْعُنَاةِ إِذَا لَاقَى الْوَعْيَ لَمْ يَكُنْ لِلْمَوْتِ هَيَّابَا^(٤)
 يَهْدِي الرَّعِيلَ إِذَا جَارَ السَّبِيلُ بِهِمْ نَهْدَ التَّلْبِلِ لِزَرْقِ الثَّمَرِ رَكَّابَا^(٥)

[من ترجمة الخنساء، وليلى الأخيلية]

من أخبار الخنساء

والخنساء اسمها تماضر بنت عمرو [بن الحارث] بن الشريد بن رياح بن يقظة بن
 عَصِيَّة بن خُفَاف [بن امرئ القيس، وتكنى أم عمرو، ومُصَدِّقُ ذَلِكَ قَوْلُ أَخِيهَا [صخر]:
 أَرَى أُمَّ عَمْرُو لَا تَمَلُّ عِيَادَتِي وَمَلَّتْ مُلَيَّمِي مَضْجَعِي وَمَكَانِي
 سليمى: امرأته، وإنما لقبت الخنساء كناية عن الظبية، وكذلك [تسميتهم] الذلفاء.

- (١) المؤتشب: المختلط، من أشب القوم إذا تجمعوا واختلطوا، وقد أَشَبَ فلاناً بكذا أشباً: عابه.
 والخَوَار من الرماح: ما ليس بصلب، يقال: خَوَّرَ الرجل وخار: ضعف وانكسر. وفي الديوان:
 «قَدْ كُنْتُ نَحْمَلُ قَلْباً غَيْرَ مُهْتَضَمٍ».
- (٢) الخنساء، الديوان: ص ٨.
- (٣) أنجية: جمع نجى، وهو المناجي، يقال: فلان نجى فلان، والنجى: الرُّ. والأوهية: جمع
 وَهْي، وهو الشق في الشيء. والأوهية: ما بين أعلى الجبل إلى مستقر الوادي. وفي الديوان:
 حَمَّالُ الْوَيْةِ قَطَاعُ أَوْدِيَةٍ شَهَادُ أَنْجِيَةٍ، لِلسُّوْتِرِ طَلَابَا
 والأكلية: الرايات. وقيل: الأنجية: المجالس.
- (٤) العُنَاة: الأسرى، مفردها عَانٍ. والوعى: الحرب.
- (٥) الرعيل: الجماعة القليلة من الخيل أو الرجال، أو التي تتقدم غيرها، يقال: فلان من الرعيل
 الأول: من السابقين. والنَّهْدُ: الكريم ينهض إلى معالي الأمور، والقوي الضخم، يقال: شاب
 نهْد، وفرس نهْد. والنهد أيضاً: الشيء المرتفع. والتلبيل: العتق، ونهد التلبيل: مُرْتَبَعُهُ. وفي
 الديوان: «إِذَا ضَاقَ السَّبِيلُ بِهِمْ» و«لِصَنَبِ الْأَمْرِ رَقَّابَا».

والذلف: قصر في الأنف؛ وإنما يريدون به أيضاً أن ذلك من صفات الظباء، وهي أشعر نساء العرب عند كثير من الرواة.

نسب لىلى

وكان الأصمعي يقدم لىلى الأخيلية، وهي لىلى بنت عبد الله بن كعب بن ذي الرحالة ابن معاوية بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وقيل لها الأخيلية لقول جدها كعب:

نَحْنُ الْأَخَائِلُ مَا يَزَالُ غُلَامُنَا حَتَّى يَدِبَّ عَلَى الْعَصَا مَذْكُورَا

موازنة بينهما

قال أبو زيد: [هذا البيت لها فَسُمِّيتَ به، ولىلى أغزر بحراً]، وأكثر تصرفاً، وأقوى لفظاً؛ والخنساء أنهب في عمود الرثاء.

قال المبرد: كانت الخنساء ولىلى الأخيلية في أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول، وقلما رأيت امرأة تُتَقَدَّمُ في صناعة، وإن قل ذلك، فالجملة ما قال الله تعالى: ﴿أَوْمَنُ يُكْشَوْنَ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(١).

ومن أحسن المراثي ما خلط فيه مدحٌ بتفجع على المراثي، فإذا وقع ذلك بكلام صحيح، ولهجة معربة، ونظام غير متفاوت، فهو الغاية من كلام المخلوقين.

واعلم أن من أجل الكلام قول الخنساء^(٢):

يَا صَخْرُ وَرَادَ مَاءٍ قَدْ تَنَازَرَهُ أَهْلُ الْمِيَاهِ فَمَا فِي وَرْدِهِ عَارُ^(٣)
مَشَى السَّبْتَى إِلَى هَيْجَاءٍ مُغْضَلَةٍ لَهَا سِلَاحَانِ أَنْيَابٍ وَأَظْفَارُ^(٤)

(١) سورة الزخرف، آية (١٨).

(٢) الخنساء، الديوان: ص ٤٨.

(٣) قولها: وَرَادَ مَاءٍ، تعني الموت، لإقدامه على الحرب. تنازره: أندر بعضهم بعضاً هَوَلَةً وصعوبة. وأهل الموارد: أهل المياه. وقولها: ما في ورده عار: أي ليس يُعَيَّرُ أحدٌ إن عجز عنه من صعوبة رده.

(٤) السبتى: الجريء، المقدام، النمر.

وَمَا عَجُولٌ عَلَى تَوْطِيفٍ بِهِ
لَهَا جَنِينَانِ إِعْلَانٌ وَإِسْرَارٌ^(١)
تَرْتَعُ فِي غَفْلَةٍ حَتَّى إِذَا أَذْكَرْتُ
فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ^(٢)
يَوْمًا بِأَوْجَعِ مَنِي حِينَ فَارَقْنِي
صَخْرٌ، وَلِلْعَيْشِ إِحْلَاءٌ وَإِمْرَارٌ^(٣)
لَسْمَ تَرَهُ جَارَةً يَمْشِي بِسَاحَتِهَا
لِسْرِيَةٍ حِينَ يُخْلِي بَيْتَهُ الْجَارُ
قال: ومن كامل قولها^(٤):

فَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي
عَلَى إِخْسَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَكُونُ مِثْلَ أَحْيٍ، وَلَكِنْ
أُسْلِيَ النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي^(٥)
يُذَكِّرُنِي طُلُوعَ الشَّمْسِ صَخْرًا
وَأَذْكَرَهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ^(٦)
يعني أنها تذكره أول النهار للغارة، ووقت المغيب للأضياف.



لابن الرومي

وقد قال ابن الرومي فيما يتعلق بِطَرْفٍ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى^(٧):

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَجْرَحُ ثُمَّ يَأْسُو
وَيُوسِي أَوْ يُعَوِّضُ أَوْ يُنْسِي^(٨)
أَبْتُ نَفْسِي الْهَلَاعَ لِرُزْءٍ شَيْءٍ
كَفَى شَجْوًا لِنَفْسِي رُزْءُ نَفْسِي^(٩)

- (١) العجول: الثكلى من النساء الواله التي فقدت ولدها، سميت بذلك لعجلتها في مجيئها وذهابها جزعاً. البؤ: أن ينحر ولد الناقة فيؤخذ جلده ويحشى ويُدنَى من أمه فترأى.
- (٢) في الديوان: «ترتع مارتعت حتى إذا أذكرت». وقولها: إقبال وإدبار، أي لا تفك تقبل وتدبر.
- (٣) في الديوان:
- (٤) يَوْمًا بِأَوْجَعِ مَنِي يَوْمَ فَارَقْنِي صَخْرٌ وَلِلدَّهْرِ إِحْلَاءٌ وَإِمْرَارٌ
بأوجد: بأشد وجداً: حزناً.
- (٥) الخنساء، الديوان: ص ٨٤.
- (٦) في الديوان: «أعزّي النفس».
- (٧) أي أنها تذكره في ذهابه إلى الغزوات صباحاً، وفي عودته مساءً بالغنائم وقراه للضيوف.
- (٨) ابن الرومي، الديوان: ٢٥٢/٣، والأبيات من قصيدة قالها في سليمان بن عبد الله بن طاهر.
- (٩) في الديوان: «يُوسِي أَوْ يُعَوِّضُ».
- (٩) الهَلَاعُ: المجن عند اللقاء. الرزء: المصيبة.

أَتَجَزُّعٌ وَحَشَّةٌ لِفِرَاقِ الْإِلْفِ وَقَدْ وَطَّئَهَا لِحُلُولِ رَمْسٍ
وقد أنكروا على من تعلل بالتأسي بما قال غيره، فقال في ذلك^(١):

خَلِيلِي قَدْ عَلَّمْتَانِي بِالْأَسَى فَأَنْعَمْتُمَا لَوْ أَنْتَيَا أَنْتَعَلُ
اللَّئِيسَ آثَارِي، وَالْأَفْأَمَا الْأَسَى وَعَيْشُكُمَا إِلَّا ضَلَالٌ مُضَلُّ
وَمَا رَاحَةُ الْمَرْزُوءِ فِي رُزْءٍ غَيْرِهِ أَيَحْمِلُ عَنْهُ بَعْضَ مَا يَحْمِلُ
كِلَا حَامِلِي عِبَاءِ الرِّزْيَةِ مُثْقَلُ وَلَيْسَ مُعِينًا مُثْقَلُ الظَّهِيرِ مُثْقَلُ^(٢)
وَضَرَبْتُ مِنَ الظُّلْمِ الْخَفِيِّ مَكَانَهُ تَعَزَّيْتُكَ بِالْمَرْزُوءِ حِينَ تَأْمَلُ
لَأَنَّكَ يَا سُوءَكَ الَّذِي هُوَ كَلِمَةُ بِلَا بَصَرٍ لَوْ أَنَّ جَوْرَكَ يَعْدِلُ^(٣)

للخنساء

وقالت الخنساء^(٤):

وَقَائِلَةٌ وَالنَّعْشُ قَدْ فَاتَ خَطْوَهَا لِتُذْرِكُهُ يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى صَخْرٍ
أَلَا ثَكَلْتُ أُمُّ الَّذِينَ غَدَوْا بِهِ إِلَى الْقَبْرِ! مَاذَا يَحْمِلُونَ إِلَى الْقَبْرِ^(٥)؟
وَمَا يُوَارِي الْقَبْرُ تَحْتَ تُرَابِهِ مِنَ الْجُودِ يَا بُؤْسَ الْحَوَادِثِ وَالْدَهْرِ^(٦)
فَشَأْنُ الْمَنَايَا إِذْ أَصَابَكَ رَيْبُهَا لَتَغْدُ عَلَى الْفَتْيَانِ بَعْدَكَ أَوْ تَشْرِي

وهذا المعنى كثير قد مرّت منه قطعة جيدة، ولم تزل الخنساء تبكي على أخويها صخر ومعاوية، حتى أدركت الإسلام؛ فأقبل بها بنو عمتها وهي عجوز كبيرة إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين! هذه الخنساء، وقد قرّحت آفاقها من البكاء في الجاهلية والإسلام، فلو نهيتهم لرجونا أن تنتهي، فقال لها عمر رضي الله عنه: اتقي الله وأيقني بالموت، قالت: أبكي أبي وخير بني مضر صخرًا ومعاوية، وإني لمؤقنة بالموت، قال: أتبكين

(١) ابن الرومي، الديوان: ١١٤/٥.

(٢) في الديوان: «كِلَا حَامِلِي أَوْقِ الرِّزْيَةِ».

(٣) في الديوان: «بِلَا جُرْمٍ لَوْ أَنَّ جَوْرَكَ يَعْدِلُ».

(٤) الخنساء، الديوان: ص ٥٢.

(٥) في الديوان: «الَّذِينَ مَشَّوْا بِهِ».

(٦) في الديوان: «مِنَ الْخَيْرِ، يَا بُؤْسَ الْحَوَادِثِ وَالْدَهْرِ».

عليهم وقد صاروا جَمْرَةً في النار؟ قالت: ذلك أشدّ لبكائي عليهم! فرَّق لها عمر وقال: خلّوا عن عجوزكم لا أبا لكم! فكل امرئ يبكي شَجْوَهُ، ونام الخَلِيُّ عن بكاء الشجي.

عمرو بن الشريد وابناه

وكان عمرو بن الشريد يأخذ بيد ابنه معاوية وصخر في الموسم، ويقول: أنا أبو خَيْرِي مضر، فمن أنكر فليغير، فلا يغير ذلك عليه أحد، وكان يقول: من أتى بمثلهما أخوين من قبل فله حكمه، فتقرّر له العرب بذلك.

وكان النبي ﷺ يقول: أنا ابن الفواطم من قريش، والعواتك^(١) من سليم، وفي سليم شرف كثير.

وكان يقال لمعاوية: فارس الجَوْن، والجَوْن من الأضداد، يقال للأسود والأبيض، وقتلته بنو مرة، قتله هاشم بن حَرَمَلَة، فطلبه دُرَيْد بن الصَّمَّة حتى قتله، وأمّا صخر فغزا أسد بن خزيمه فأصاب فيهم، وطعنه ثور بن ربيعة الأسدي، فأدخل في جوفه حلقة من الدرع فاندمل عليه، فتأت قطعاً من جنبه مثل اليد، فمرض لها حولاً، ثم أشير عليه بقطعها، فأحموا له شفرة ثم قطعوها، فما عاش إلا قليلاً.

من رثاء ليلي الأخيلية

ومن جيد شعر ليلي الأخيلية ترثي تَوْبَةَ بن الحَمِير الخفاجي^(٢)، وكان لها محباً، وله فيها شعرٌ كثير، وقتله بنو عوف بن عَقِيل، قتله عبد الله بن سالم:

نَظَرْتُ وَرُكُنٌ مِنْ عَمَايَةِ دُونَنَا وَأَرْكَانُ جَنْمِي أَيُّ نَظَرَةٍ نَاطِرٍ^(٣)

(١) العواتك: جمع عاتكة: الكريمة، أو التي تكثر من الطيب حتى تحمر بشرتها.

(٢) هو أبو حرب، توبة بن الحمير بن حزم بن كعب بن خفاجة العقيلي العامري: شاعر رقيق غزل، من عشاق العرب المشهورين. أحب ليلي الأخيلية وخطبها، فردّه أبوها، وزوجها غيره، فانطلق يقول الشعر مُشْتَبِهاً بها، واشتهر أمره، فأهْدِر دمه. قُتِل في إحدى غزواته سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٣٥٦/١؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٤٩/١؛ الأمدى، المؤلف والمختلف: ٩١).

(٣) عماية: جبل في بلاد نجد، من بلاد بني كعب وقشير وعقيل. وفي الأغاني (٢١٢/١١):

نَظَرْتُ وَرُكُنٌ مِنْ دِقَاتَيْنِ دُونَهُ مَفَاوِزُ حَوْضِي أَيُّ نَظَرَةٍ نَاطِرٍ

دقان: اسم جبل، وهما جبلان أحدهما لبني عمرو بن كلاب، والآخر لبني أبي بكر بن كلاب.

- فَأَنسَتْ خَيْلًا بِالرَّقِي مُغِيرَةً سَوَابِقُهَا مِثْلُ الْقَطَا الْمُتَوَاتِرِ^(١)
 فَإِنْ تَكُنِ الْقَتْلَى بِوَاءٍ فَإِنَّكُمْ فَتَى مَا قَتَلْتُمْ آلَ عَوْفٍ بَنِ عَامِرٍ^(٢)
 فَلَا يُعِدُّكَ اللَّهُ بِأَتَوْبٍ إِنَّمَا لِقَاءُ الْمَنَايَا دَارِعًا مِثْلُ حَاسِرٍ^(٣)
 أَتْنَهُ الْمَنَايَا بَيْنَ دِرْعٍ حَصِينَةٍ وَأَسْمَرَ خَطِيٍّ وَجَرْدَاءٍ ضَامِرٍ^(٤)
 كَأَنَّ فَتَى الْفَتِيَانِ تَوْبَةٌ لَمْ يُنْخَ فَلَانَصَ يَفْحَضُنَ الْحَصَى بِالْكَرَاكِزِ^(٥)
 وَلَمْ يُدْعَ يَوْمًا لِلْحِفَاطِ وَلِلْثَهَى وَلِلْحَرْبِ تَرْمِي نَارَهَا بِالشَّرَائِرِ^(٦)
 وَلِلْبَازِلِ الْكُومَاءَ يَرْغُو حُورَاهَا وَلِلخَيْلِ تَعْدُو بِالْكَمَاسَةِ الْمَاعِرِ^(٧)
 فَتَى لَا تَخْطَاهُ الرِّفَاقُ، وَلَا يَرَى لِقِنْدَرٍ عِيَالًا دُونَ جَارٍ مُجَاوِرِ
 فَتَى كَانَ أَحْيَا مِنْ فَتَاةٍ حَيَّةٍ وَأَشْجَعَ مِنْ لَيْثٍ بِخَفَّانٍ خَادِرِ^(٨)

(١) الرقي: اسم موضع. سوابقها: أوائلها. المتواتر: المتتابع.

(٢) يواء: متكافئين متماثلين.

(٣) تقول: إن الموت واحد، سواء لقيه المرء دارعاً أم حاسراً.

(٤) خطي: أي رمح خطي، منسوب إلى الخط (موضع اشتهر بصناعة الرماح أو باستيرادها).

والجرداء: القصيرة الشعر. والضامر: الهضم البطن، والمراد الفرس. وفي الأغاني:

أَتْنَهُ الْمَنَايَا دُونَ زَعْفٍ حَصِينَةٍ وَأَسْمَرَ خَطِيٍّ وَخَوْصَاءَ ضَامِرٍ

والزعف: الدرع المحكمة. وخوصت الدابة: اسودت إحدى عينيها وايضت الأخرى مع بياض في سائر الجسد.

(٥) القلائص: جمع قلوص، وهي الناقة الفتية. والكرaker: جمع كركرة، وهي رحي زور البعير أو صدره.

(٦) في الأغاني: «للحفاظ وللندي»، و«للحرب يرمي ناراها». والحفاظ: المحافظة على ما تجب المحافظة عليه.

(٧) البازل: الناقة التي انشق نايها؛ وهي ما استكملت السنة الثامنة وطعنت في التاسعة. وهذا اللفظ مما يستوي فيه المذكر والمؤنث: يقال: ناقة بازلٌ وجملٌ بازلٌ. والكوماء: الناقة العظيمة السنام. والحوار: ولد الناقة من حين يوضع إلى أن يُقَطَّم. والكماسة: جمع كمي، وهو الفارس المتكفي في سلاحه، أي المُسْتَبَرَّ فيه. والماسعر: جمع مسعر، وهو الذي يشعل نار الحرب ويوقدها.

(٨) في الأغاني:

وَتَوْبَةٌ أَحْيَا مِنْ فَتَاةٍ حَيَّةٍ وَأَجْرًا مِنْ لَيْثٍ بِخَفَّانٍ خَادِرِ
 والليث: الأسد، وخفان: موضع قرب الكوفة، وهو مأسدة. وخادر: مقيم.

فَنَسَى لَا تَرَاهُ النَّابُ إِلْفًا لِسَقِيهَا إِذَا اخْتَلَجَتْ بِالنَّاسِ إِحْدَى الْكِبَائِرِ^(١)
وَكُنْتَ إِذَا مَوْلَاهُ خَافَ ظُلَامَةً أَتَاكَ فَلَمْ يَقْنَعْ سِوَاكَ بِنَاصِرِ^(٢)
وَقَدْ كُنْتَ مَرْهُوبَ السَّنَانِ وَبَيْنَ الدُّ لِسَانَ وَمِذْلَاجِ السُّرَى غَيْرَ فَاتِرِ^(٣)
وَلَا تَأْخُذُ الْكُومُ الْجِلَادُ سَلَا حَهَا لِتُوبَةٍ فِي حَدِّ الشَّاءِ الصَّنَابِرِ^(٤)

وفود ليلي على معاوية

وقال بعض الرواة: بينا معاوية يسير إذ رأى راكباً، فقال لبعض شُرطته: اتنني به وإياك أن ترّوعه. فأتاه فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال: إياه أردت، فلما دنا الراكب حذر لثامه فإذا ليلي الأخيلية، فأنشأت تقول:

مُعَاوِي لَمْ أَكْذُ أَتَيْكَ تَهْوي بِرَحْلِي نَحْوَ سَاحَتِكَ الرِّكَابُ
تَجُوبُ الْأَرْضَ نَحْوَكَ مَا تَأْنِي إِذَا مَا الْأَكْمُ قَنَعَهَا الْمَرَابُ
وَكُنْتَ الْمُتَرَجِّى وَبِكَ اسْتَعَاثَ لِتَتَّعِشَهَا إِذَا بَخِلَ السَّحَابُ

قال: فقال: ما حاجتك؟ قالت: ليس مثلي يَطْلُبُ إلى مثلك حاجة، فتخير أنت! فأعطاهما خمسين من الإبل؛ ثم قال: أخبريني عن مُضَرٍّ، قالت: فاحِرٌ بمضَرٍّ، وحَارِبٌ بَقِيسٍ، وكَاثِرٌ بتميمٍ، وناظرٌ بأسدٍ، فقال: ويحك يا ليلي! أكما يقول الناس كان توبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين، ليس كل الناس يقول حقاً، الناسُ شجرةٌ بَغْيٌ، يحسدون النعم حيث كانت، وعلى مَنْ كانت؟ كَانَ يا أمير المؤمنين سَبَطُ البنان، حديدُ اللسان، شَجَى الأقران، كريمُ المَخْبَرِ، عفيفُ المِرْزِز، جميلُ المنظر، وكان كما قلت، ولم أتعَدِ الحق فيه:

(١) السُّقْبُ: ولد الناقة الذكر ساعة يُولد.

(٢) في الأغاني:

وَكُنْتَ إِذَا مَوْلَاكَ خَافَ ظُلَامَةً دَعَاكَ وَلَمْ يَقْنَعْ سِوَاكَ بِنَاصِرِ

(٣) في الأغاني:

وَقَدْ كَانَ طَلَّاعَ التُّجَادِ وَبَيْنَ الدُّ سَانَ وَمِذْلَاجِ السُّرَى غَيْرَ فَاتِرِ

(٤) في الأغاني:

وَلَا تَأْخُذُ الْكُومُ الْجِلَادُ رِمَاحَهَا لِتُوبَةٍ فِي نَحْسِ الشَّاءِ الصَّنَابِرِ

الكوم: جمع كوماء وهي العظيمة السنام من الإبل. والجلاد من الإبل: الغزيرات اللبن، كالمجاليد أو ما لا لبن لها ولا نتاج. ونحس الشتاء: ريحه الباردة. وصنابر الشتاء: شدة برده.

بَعِيدُ الثَّرَى لَا يَبْلُغُ الْقَوْمُ قَعْرَهُ أَلَدٌ مُلِدٌّ يَغْلِبُ الْحَقَّ بَاطِلُهُ^(١)
فقال معاوية: ويحك يا لبلى! يزعم الناس أنه كان عاهراً خارباً، فقالت من ساعتها
مرتجلة:

مَعَاذُ إِلَهِي كَانَ وَاللَّهِ تَوْبَةً جَوَاداً عَلَى الْعِلَّاتِ جَمًّا نَوَافِلُهُ^(٢)
أَغْرَّ خَفَاجِيًّا يَرَى الْبُخْلَ سُبَّةً تُحَالِفُ كَفَاهُ النَّدَى وَأَنَامِلُهُ^(٣)
عَفِيفاً بَعِيدَ الْهَمِّ صُلْباً قَنَاتَهُ جَمِيلاً مُحْيَاهُ قَلِيلاً غَوَائِلُهُ^(٤)
وَكَانَ إِذَا مَا الضَّيْفُ أَرْغَى بَعِيرَهُ لَدَيْهِ أَتَاهُ نَيْلُهُ وَقَوَاضِلُهُ^(٥)
وَقَدْ عَلِمَ الْجَوْعُ الَّذِي كَانَ سَارِيًّا عَلَى الضَّيْفِ وَالْجِيرَانِ أَنَّكَ قَاتِلُهُ^(٦)
وَأَنَّكَ رَحْبُ الْبَاعِ يَا تَوْبُ بِالْقَرَى إِذَا مَا لَيْمُ الْقَوْمِ ضَاقَتْ مَنَازِلُهُ^(٧)
يَبِيتُ قَرِيرَ الْعَيْنِ مَنْ كَانَ جَارَهُ وَيُضْحِي بِخَيْرِ ضَيْفِهِ وَمُنَازِلُهُ^(٨)

فقال لها معاوية: ويحك يا لبلى! لقد جُزِبَتْ بتوبة قَدْرَهُ، فقالت: يا أمير المؤمنين.
والله لو رأيته وخبرته لعلمت أنني مقصرة في نَعْتِهِ، لا أبلغ كنه ما هو له أهل. فقال لها
معاوية: في أي سن كان؟ فقالت: يا أمير المؤمنين:

أَتَشُّهُ الْمَنَايَا حِينَ نَمَّ تَمَامُهُ وَأَقْصَرَ عَنْهُ كُلُّ قَرْنٍ يُنَاضِلُهُ^(٩)
وَصَارَ كَلَيْثِ الْغَابِ يَحْمِي عَرِينَهُ فَتَرْضَى بِهِ أَشْبَالَهُ وَحَلَائِلُهُ^(١٠)

- (١) الألد: الكثير الجدل والخصومة، الشحيح الذي لا يزيغ إلى الحق، وملد: وصف من ألدت بفلان إذا عسرت عليه في الخصومة.
- (٢) جمًّا: كثيراً. والنوافل: جمع نافلة، وهي العطية. على العِلَّات: أي على كلِّ حالٍ من عسره ويسره. وفي الأغاني: «مَعَاذُ إِلَهِي كَانَ وَاللَّهِ سَيِّدًا».
- (٣) خفاجي: منسوب إلى خفاجة وهو من آباء توبة. وفي الأغاني: «تَحَلَّبُ كَفَاهُ».
- (٤) الغوائل: جمع غائلة، وهي الداهية، أو الفساد والشر.
- (٥) رغا البعير ونحوه رغوًا ورُغَاءً: صَوْتُ وَضَجٍّ، وأرغى البعير: حمّله على الرغاء.
- (٦) في الأغاني: «الذي بات ساريًا».
- (٧) في الأغاني: «من بات جاره».
- (٨) في الأغاني: «كُلُّ قَرْنٍ يُطَاوِلُهُ». والقِرْن: المثل في الشجاعة والقتال.
- (٩) في الأغاني: «وَكَانَ كَلَيْثِ الْغَابِ».

عَطُوفٌ حَلِيمٌ حِينَ يُطْلَبُ جِلْمُهُ وَسُمْ دُعَا فٍ لَا تُصَابُ مَقَاتِلُهُ^(١)

فأمر لها بجائزة، وقال: أي ما قلت فيه أشعر؟ قالت: يا أمير المؤمنين، ما قلت شيئاً إلا والذي فيه من خصال الخير أكثر، ولقد أجذت حيث أقول:

جَزَى اللَّهُ خَيْراً وَالْجَزَاءُ بِكَفِّهِ فَتَى مِنْ عُقِيلٍ سَادَ غَيْرَ مُكَلَّفِ

فتى كانت الدنيا تهون بأسرها عليه فلم ينفك جم التصرّف^(٢)

يَنَالُ عِلِّيَّاتِ الْأُمُورِ بِهَوْنَةٍ إِذَا هِيَ أَعْيَتْ كُلَّ خِرْقٍ مُسَوِّفٍ^(٣)

هُوَ الْمَلِكُ بِالْأَرِي الضَّحَاكِي شَبَّهَ بِدِرْيَاقَةٍ مِنْ خَمَرٍ بَيَّانٍ قَرْقَفٍ^(٤)

وفود ليلي على مروان بن الحكم

ويقال: إنها دخلت على مروان بن الحكم فقال: ويحك يا ليلي! أكما نعتت توبة كان؟ قالت: أصلح الله الأمير! والله ما قلت إلا حقاً، ولقد قصرت، وما رأيت رجلاً قط كان أربط على الموت جأشاً، ولا أقل أنحياشاً^(٥) حين تستخدم بركاء الحرب^(٦)، ويحمي الوطيس^(٧) بالطعن والضرب، كان والله كما قلت:

فَتَى لَمْ يَزَلْ يَزْدَادُ خَيْراً لَدُنْ نَشَا إِلَى أَنْ عَلَاهُ الشَّيْبُ فَوْقَ الْمَسَايِحِ

تَرَاهُ إِذَا مَا الْمَوْتُ حَلَّ بِوَرْدِهِ ضَرُوباً عَلَى أَقْرَانِهِ بِالصَّفَائِحِ^(٨)

شُجَاعٌ لَدَى الْهَيْجَاءِ ثَبَّتَ مُسَابِحُ إِذَا انْحَاَزَ عَنْ أَقْرَانِهِ كُلِّ سَابِحٍ^(٩)

(١) السُّمُّ الدُّعَا: القتال لساعته.

(٢) فِي الْأَغَانِي: «وَلَا يَنْفَكُ».

(٣) فِي الْأَغَانِي: «كُلُّ خِرْقٍ مُسَوِّفٍ». الْهَوْنَةُ: السَّهُولَةُ وَالرَّفْقُ وَاللِّينُ. وَأَعْيَاهُ الشَّيْءُ: أَكَلَهُ وَأَعْجَزَهُ. وَالْخِرْقُ: الْأَحْمَقُ، وَقِيلَ: السَّخِيُّ أَوْ الظَّرِيفُ فِي سَخَاوَةٍ، أَوْ الْفَتَى الْحَسَنُ الْكَرِيمُ الْخَلِيقَةُ. وَالْمُسَوِّفُ: اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ سَوَّاهُ فَلَانِ إِذَا مَطَلَ، أَوْ صَبَرَ.

(٤) فِي الْأَغَانِي: «هُوَ الدُّوبُ بَلَّ أَرَى الْخَلَايَا شَبَّهَهُ». الدُّوبُ وَالْأَرِي: الْعِلُّ. وَشَبَّهَ: خَلَطَهُ. الدِّرْيَاقَةُ: الْخَمْرُ. بَيْسَانُ: بَلَدَةٌ فِي الشَّامِ مَشْهُورَةٌ بِالْخَمْرِ. وَالْقَرْقَفُ: الْخَمْرُ يَرْعَدُ عَنْهَا صَاحِبُهَا.

(٥) انْحَاشَ عَنْهُ وَمَنْعَهُ: ابْتَعَدَ.

(٦) الْبِرَاكَاءُ: سَاحَةُ الْحَرْبِ، وَالنَّبَاتُ وَالْجَدُّ فِي الْحَرْبِ.

(٧) الْوَطِيسُ: الْمَعْرَكَةُ، وَحَمِي الْوَطِيسِ: جَدَّتْ الْحَرْبُ وَاشْتَدَّتْ.

(٨) الصَّفَائِحُ هُنَا: السِّيفُ.

(٩) الْمُسَابِحُ: الْغَيُورُ الْحَذِيرُ، وَقَدْ شَاحَ فِي الْأَمْرِ: جَدَّ.

فَعَاشَ حَمِيداً لَا ذَمِيماً فَعَالَهُ وَصُولاً يُقْرِبَاهُ يُرَى غَيْرَ كَالْحِ
فَقَالَ لَهَا مِرْوَانُ: كَيْفَ يَكُونُ تَوْبَةُ عَلَى مَا تَقُولِينَ وَكَانَ خَارِباً؟ «وَالْخَارِبُ سَارِقُ الْإِبِلِ
خَاصَّةً»، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا كَانَ خَارِباً، وَلَا لِلْمَوْتِ هَائِباً، وَلَكِنَّهُ كَانَ فَتًى لَهُ جَاهِلِيَّةٌ، وَلَوْ
طَالَ عَمْرُهُ وَأَنْسَأَهُ الْمَوْتُ لَأَزَعَوَى قَلْبُهُ، وَلَقَضَى فِي حُبِّ اللَّهِ نَحْبَهُ، وَأَقْصَرَ عَنْ لَهْوِهِ، وَلَكِنَّهُ
كَمَا قَالَ ابْنُ عَمِّهِ مُسْلِمَةُ بْنُ زَيْدٍ:

فَلَيْلِهِ قَسُومٌ غَادِرُوا ابْنَ حُمَيْرٍ قَتِيلًا صَرِيعًا لِلْسَيْفِ الْبَوَاتِرِ^(١)
لَقَدْ غَادَرُوا حَزْماً وَعِزْماً وَنَائِلًا وَصَبْرًا عَلَى الْيَوْمِ الْعَبُوسِ الْقِمَاطِرِ^(٢)
إِذَا هَابَ وَرَدَ الْمَوْتِ كُلُّ غَضَنَفَرٍ عَظِيمِ الْحَوَاسِ لُبُّهُ غَيْرُ حَاضِرِ^(٣)
مَضَى قُدَمًا حَتَّى يُلَاقِي وَرْدَهُ وَجَادَ بَيْنَ فِي السَّنِينَ الْقَوَاشِرِ^(٤)

فَقَالَ لَهَا مِرْوَانُ: يَا لَيْلَى، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ دُرْكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشِمَاتَةِ
الْأَعْدَاءِ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ مَاتَ تَوْبَةً، وَإِنْ كَانَ مِنْ فِتْيَانِ الْعَرَبِ وَأَشَدِّائِهِمْ، وَلَكِنَّهُ أَدْرَكَهُ الشَّقَاءُ،
فَهَلْكَ عَلَى أَحْوَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَتَرَكَ لِقَوْمِهِ عِدَاوَةً.

ثُمَّ بَعَثَ إِلَى نَاسٍ مِنْ عَقِيلٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَنْ بُلَغْنِي عَنْكُمْ أَمْرٌ أَكْرَهُهُ مِنْ جَهَةِ تَوْبَةٍ
لَأَصْلِبَنَّكُمْ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ، إِيَّاكُمْ وَدَعَوَى الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَاءَ بِالْإِسْلَامِ، وَهَدَمَ
ذَلِكَ كُلَّهُ.

قدوم ليلى على الحجاج

وَرَوَى أَبُو عِيْدَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِمْرَانَ الْمَرْزِبَانِيِّ قَالَ: قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ
الشَّيْبَانِيُّ: قَدِمَتْ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةُ عَلَى الْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ وَعِنْدَهُ وَجُوهٌ أَصْحَابُهُ وَأَشْرَافُهُمْ، فَبَيْنَا
هُوَ جَالِسٌ مَعَهُمْ إِذْ أَقْبَلَتْ جَارِيَةٌ فَأَشَارَ إِلَيْهَا وَأَشَارَتْ إِلَيْهِ؛ فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ جَاءَتْ جَارِيَةٌ مِنْ
أَجْمَلِ النِّسَاءِ وَأَكْمَلَهُنَّ، وَأَتَمَّهُنَّ خَلْقًا، وَأَحْسَنَهُنَّ مُحَاوَرَةً؛ فَلَمَّا دَنَتْ مِنْهُ سَلَّمَتْ ثُمَّ قَالَتْ:
أَتَأْذَنُ أَيُّهَا الْأَسِيرُ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَنْشَدَتْ^(٥):

- (١) بَوَاتِر: قَوَاطِعُ.
- (٢) الْقِمَاطِرُ: الشَّدِيدُ، أَوْ الْمُتَجَمِّعُ الْمُتَقَبِّضُ.
- (٣) الْغَضَنَفَرُ: الْأَسَدُ، وَرَجُلٌ غَضَنَفَرٌ: غَلِيظُ الْجَنَّةِ.
- (٤) الْقَوَاشِرُ: جَمْعُ قَاشِرَةٍ، كَأَنَّهَا تَقْشُرُ الْجِلْدَ مِنْ جَدْبِهَا.
- (٥) الْآيَاتُ فِي الْأَغَانِي: ٢٣٢/١١.

أَحْجَّاجُ إِنْ اللَّهَ أَعْطَاكَ غَايَةَ بُقِصَّ عَنْهَا مَنْ أَرَادَ مَدَاهَا
أَحْجَّاجُ لَا يُقَلِّلُ سِلَاحُكَ إِنَّمَا الْ مِنْهَا بِكَفِّ اللَّهِ حَيْثُ يَرَاهَا ^(١)
إِذَا وَرَدَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً تَتَبَّعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا ^(٢)
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعَيَاءِ الَّذِي بِهَا غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ ثَنَاهَا ^(٣)
إِذَا سَمِعَ الْحَجَّاجُ صَوْتَ كَتِيبةٍ أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ التَّزْوِلِ قِرَاهَا ^(٤)
أَعَدَّ لَهَا مَصْفُورَةً فَارِسِيَّةً بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَاهَا ^(٥)

حتى أتت على آخرها. فقال الحجاج لِمَنْ عنده: أنعرفون مَنْ هذه؟ قالوا: ما نعرفها، ولكن ما رأينا امرأة أطلقت لساناً منها، ولا أجمل وجهاً، ولا أحسن لفظاً، فَمَنْ هِيَ أَصْلَحَ اللَّهُ الأمير؟ قال: هي ليلي الأخيلية صاحبة توبة بن الحمير التي يقول فيها:

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَيَّ وَدُونِي جَنْدَلٌ وَصَفَائِحُ ^(٦)
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ ^(٧)

ثم قال لها: يا ليلي، أنشدنا بعض ما قاله فيك توبة، فأنشدته:

نَأْتِكَ بَلِيلَى دَارَهَا لَا تَزُورُهَا وَشَطَطَتْ نَوَاهَا وَاسْتَمَرَّ مَسِيرُهَا ^(٨)
وَكَُنْتُ إِذَا مَا زُرْتُ لَيْلَى تَبَرَّقَعَتْ وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْهَا الْغَدَاةَ سُفُورُهَا ^(٩)

- (١) في الأغاني: «حيث تراها».
- (٢) في الأغاني: «إذا هبط الحجاج».
- (٣) في الأغاني: «من الداء العضال»، و«إذا هزَّ القناة سقاها».
- (٤) في الأغاني: «رِزٌّ كَتِيبة»، والرِّزُّ: الصوت تسمعه من بعيد.
- (٥) مصقولة فارسية: أراد السيف. الصُّرَى في الأصل: بقية اللبن في الضرع، والمراد أنهم يأتون بآخر ما يمكن من الضرب بها.
- (٦) في الأغاني: «تَرْبِيَّةٌ وَصَفَائِحُ».
- (٧) زقا: صباح. والصدى هنا: طائر كالبومة كانت العرب تزعم أنه يخرج من رأس القنبل ويصيح اسقوني اسقوني حتى يؤخذ بثأره.
- (٨) يقال: نَاهَ ونَأَى عنه إذا بعد عنه. وشططت: بعدت. والنوى هنا: الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد، ومثله النية. واستمر: استحكم. والمرير هنا: العزيمة، ومثله المريرة. يقال: استمرت مريرة فلان على كذا إذا استحكم أمره عليه وقويت شكيمته فيه وألفه واعتاده.
- (٩) تبرقعت المرأة: غطت وجهها بالبرقع، وهو قناع المرأة، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها.

عَلَيَّ دِمَاءُ الْبُذْنِ إِنْ كَانَ زَوْجُهَا
وَأَتَيْ إِذَا مَا زُرْتُهَا قُلْتُ: يَا أَسْلَمِي
حَمَامَةٌ بَطْنِ الْوَادِيَيْنِ تَرْتَمِي
أَيْنِي لَنَا لَا زَالَ رِيْشُكَ نَاعِمًا
وَقَدْ تَذَهَبُ الْحَاجَاتُ يَطْلُبُهَا الْفَتَى
أَيْذَهَبُ رَيْعَانُ الشَّبَابِ وَلَمْ أَزُرْ
وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى فِي ذَرَى مُمَنِّعٍ
يَقِرَّ بَعِينِي أَنْ أَرَى الْعَيْسَ تَرْتَمِي
وَأَشْرِفُ بِالْغُورِ الْيَفَاعِ لَعَلَّنِي
أَرْنَا حِمَامَ الْمَوْتِ لَيْلَى، وَرَأَقْنَا

يَرَى لِي ذَنْبًا غَيْرَ أَتَيْ أَزُورُهَا^(١)
فَهَلْ كَانَ فِي قَوْلِ اسْلَمِي مَا يَضِيرُهَا^(٢)
سَقَاكَ مِنَ الْغُرِّ الْغَوَادِي مَطِيرُهَا
وَلَا زِلْتِ فِي خَضِرَاءَ دَانَ بَرِيرُهَا^(٣)
شِعَاعًا وَتَخْشَى النَّفْسُ مَا لَا يَضِيرُهَا^(٤)
عَرَائِرَ مِنْ هَمْدَانَ بِيضًا تُحَوِّرُهَا
يَنْجِرَانِ لَا لَقِيتُ عَلَيَّ قُصُورُهَا
بَنَا نَحْوَ لَيْلَى وَهِيَ تَجْرِي صُقُورُهَا
أَرَى نَارَ لَيْلَى أَوْ يَرَانِي بَصِيرُهَا^(٥)
عُيُونُ نَفَيَّاتِ الْحَوَاشِي تُدِيرُهَا

حتى أتت على آخرها. فقال: يا ليلي، ما رآه من سفورك؟ فقالت: أيها الأمير؛ ما رأيي
قط إلا متبرقة، فأرسل إليّ رسولاً إنه ملّم بنا، فنظر أهل الحيّ رسوله فأعدّوا له وكمّوا؛
فَقَطِنْتُ لذلك من أمرهم، فلما جاء أَلْقَيْتُ بُرْقَعِي وَسَقَرْتُ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ، فما زاد على التسليم
وانصرف راجعاً. فقال لها الحجاج: لله درك! فهل كانت بينكما رية قط؟ قالت: لا والذي
أسأله صلاحك، إلاّ أنّي رأيت أنه قال قولاً فظننت أنه خضع لبعض الأمر، فقلت:

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ: لَا تَبْخُ بِهَا
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَتَّبِعُنِي أَنْ نَحُونَهُ

فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَّتْ سَبِيلُ
وَأَنْتَ لِأُخْرَى صَاحِبٌ وَخَلِيلُ^(٦)

فما كلمني بشيء بعد ذلك حتى فرّق الموت بيني وبينه. فقال لها: حاجتك! قالت:

- (١) البُذْنُ: جمع بُذْنَةٍ، وهي الناقة أو البقرة تُسَمَّنُ وَتُدْبَحُ بمكة. وفي الأغاني: «إِنْ كَانَ بَعْلُهَا».
- (٢) في الأغاني: «وما كان في قولي اسلمي ما يضرها».
- (٣) البرير: ثمر الأراك.
- (٤) الشَّعَاعُ: المتفرق المتشتر. يقال: دَمَّ شِعَاعٌ، وذهبت نفسه أو قلبه شعاعاً تفرقت هممها وآراؤها
فلا تَنْجُو لَأَمْرٍ جَزَمَ.
- (٥) أشرف: أطلّ أو أنظر من مكان عال. وفي الأغاني: «وأشرف بالقوز اليفاع». والقوز: الكتيب
من الرمل. واليفاع: المثرف.
- (٦) في الأغاني: «وأنت لأخرى فارغ وحليل».

أن تحملني إلى قتيبة بن مسلم على البريد إلى خراسان، فحملها فاستظرفها قتيبة وَوَصَلَهَا، ثم رجعت فماتت بساوة^(١)، وَقَبَرَهَا هناك.

وروى المبرد أنها لما أنشدته الأبيات «أحجاج إن الله أعطاك». . إلى قولها «غلام إذا هز القناة ثناها» قال لها: لا تقولي غلام، ولكن قولي: همام، ثم قال لها: أي نسائي أحب إليك أن أنزلك عندها؟ قالت: ومن نساؤك أيها الأمير؟ قال: أم الجلاس بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفزارية، وهند بنت المهلب بن أبي صفرة العنكية. قالت: هذه أحب إلي. فلما كان الغد دخلت إليه فقال: يا غلام أعطها خمسمائة قالت: أيها الأمير، اجعلها أداماً^(٢). قيل لها: إنما أمر لك بشاء، فقلت: الأمير أكرم من ذلك؛ فجعلها إبلاً أداماً استحياء؛ وإنما كان أمر لها بشاء [أولاً، والأدم أكرمها].

وأول هذا الحديث عن رجل من بني عامر بن صعصعة يقال له وَرْقَاء قال: كنت عند الحجاج فدخل الآذن^(٣) فقال: أصلح الله الأمير! بالباب امرأة تهدير كما يهدير البعير الناذ^(٤). قال: أدخلها، فلما دخلت نسبها فانتسبت له. فقال: ما أتى بك يا ليلي؟ قالت: إخلافُ النجوم، وقلةُ الغيوم، وكلبُ البرد^(٥)، وشدةُ الجهد، وكنت لنا بعد الله الرَّفْد.

قال لها: أخبريني عن الأرض. قالت: الأرض مُعْبَرَةٌ، والفِجَاجُ مَشْعَرَةٌ^(٦)، وأصابتنا سنون مُجْحِفَةٌ مُظْلِمَةٌ^(٧)، لم تدع لنا هُبَماً ولا رُبْعاً، ولا عَافِطَةً ولا نَافِطَةً^(٨) أهلكت الرجال، ومزقت العيال، وأفسدت الأموال، وأنشدت الأبيات التي مضت آنفاً؛ فالتفت الحجاج [إلى أصحابه]. وقال: هل تعرفون هذه؟ قالوا: لا، قال: هذه ليلي الأخيلية التي تقول:

(١) روى صاحب الأغاني أنها توفيت بالري.

(٢) الأدم: جمع أدماء، وهي السمراء اللون.

(٣) الآذن: الذي ينقل الإذن بالدخول، شبه الحاجب اليوم.

(٤) البعير الناذ: الشُرود.

(٥) كلبُ البرد: شدته وجِدته.

(٦) اقشعرار الأرض: تقبضها من المحل. والفجج: جمع فج، وهو كل سعة بين نشازين.

(٧) السنون هنا: القحوط. مجحفة: قاشرة تجترف المال وتذهب به.

(٨) الهُبُّ: ابن الناقة الذي ينتج آخر فصل التاج. والريع: الذي ينتج في وقت الربيع. والعافطة: الضائنة. والنافطة: الماعزة.

نَحْنُ الْأَخَايِلُ لَا يَزَالُ غَلَامُنَا حَتَّى يَدِبَّ عَلَى الْعَصَا مَذْكُورًا^(١)
تَبْكِي الرِّمَاحُ إِذَا فَقَذَنَّا أَكْفُنَا حُزْنًا وَتَلَقَّانَا الرَّفَاقُ بُحُورًا^(٢)

وفي آخر حديثها قال لها: أنشدنا بعض شعرك، فأشدته:

لَعَمْرُكَ مَا بِالمَوْتِ عَارٌ عَلَى الفَتَى إِذَا لَمْ تُصِبهُ فِي الحَيَاةِ المَعَايِرُ
وَمَنْ كَانَ مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ جَازِعًا فَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ يُرَى وَهَوَ صَابِرُ
فَلَا يُعِيدُنكَ اللهُ يَا تَوْبَ هَالِكَا لَدَى الحَرْبِ إِنْ دَارَتْ عَلَيْكَ المَقَادِرُ^(٣)
فَكُلَّ جَدِيدٍ أَوْ شَبَابٍ إِلَى بَلَى وَكُلَّ امْرَأَةٍ يَوْمًا إِلَى اللّهِ صَائِرُ^(٤)
وَكُلَّ قَرِينَةٍ أَلْفَةٍ لِنَفَرٍ شَتَاتٍ وَإِنْ ضَنَا وَطَالَ التَّعَاشِرُ
فَأَقْسَمْتُ أَبْكِي بَعْدَ تَوْبَةٍ هَالِكَا وَأَحْفَلُ مَنْ دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوَائِرُ^(٥)

فقال الحجاج لصاحب له: اذهب فاقطع عني لسانها، فدعا لها بالحجام ليقطع لسانها. فقالت له: ويحك! إنما قال لك الأمير: اقطع لساني بالعطاء، فارجع إليه فاسأله، فسأله فاستشاط غيظاً، وهمّ بقطع لسانه، [ثم أمر بها فأدخلت] فقالت: أيها الأمير، كاد يقطع مقولي، وأنشدته:

حَجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالْمُسْتَعْفَرُ الصَّامِدُ
حَجَّاجُ أَنْتَ شِهَابُ الحَرْبِ إِنْ لَقِيتُ وَأَنْتَ لِلنَّاسِ نُورٌ فِي الدُّجَا يَقْدُ^(٦)

* * *

احتذى الحجاج في قوله: «اقطع لسانها» قولَ النبي ﷺ لما أعطى المؤلفة قلوبهم يوم حنين مائة من الإبل، وأعطى العباس بن مرداس أربعين فسخطها وقال:

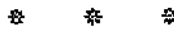
- (١) في الأغاني: «على العصا مشهوراً».
 - (٢) في الأغاني: «جزعاً وتعرقنا الرقاق بحورا».
 - (٣) في الأغاني: «أخا الحرب».
 - (٤) في الأغاني: «إلى الموت صائر».
 - (٥) أي أقسمت لا أبكي... ولا أحفل. وفي الأغاني: «فأقسمت أرثي».
 - (٦) في الأغاني:
- حَجَّاجُ أَنْتَ سِنَانُ الحَرْبِ إِنْ نُهَجْتُ وَأَنْتَ لِلنَّاسِ فِي الدُّجَا لَنَا يَقْدُ

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْيَ الْعُبَيْدِ يِين عَيْنَةً وَالْأَقْرَعَ^(١)
وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي مَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ إِلَّا أَمْرًا مِنْهُمْ وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ^(٢)

العُبيد: اسم فرسه، وحصن [الذي ذكره] هو أبو عَيْنَةَ بن حِصْن بن حذيفة بن بَدْر
سيد فزارة، وحابس: أبو الأقرع بن حابس، وقد تقدم نسبه - فأمر النبي ﷺ بإحضاره،
فقال: أنت القاتل:

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْيَ الْعُبَيْدِ بَيْنَ الْأَقْرَعَ وَعَيْنَةَ

وكان النبي عليه الصَّلَاة والسلام كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي
لَهُ﴾^(٣). فقال: قم يا علي فاقطع لسانه. قال العباس: فقلت: يا علي؛ وإنك لَقَاطِعٌ
لساني؟ قال: إني مُضْضٌ فيك ما أمرت، فمضى بي حتى أدخلني الحظائر، فقال: اعتد ما
بين الأربعين إلى مائة، قلت: بأبي أنت وأمي! ما أحلمكم وأعلمكم وأعدلكم وأكرمكم!
فقال: إن رسول الله ﷺ أعطاك أربعين، وجعلك من المهاجرين [فإن شئت] فخذها، وإن
شئت فخذ مائة، وكن من المؤلفة قلوبهم. فقلت: أشر علي. فقال: إني آمرُك أن تأخذ ما
أعطاك. فأخذتها.



وكانت ليلي الأخيلية قد حاجت النابغة الجعدي فأفحمتها^(٤).

ودخلت على عبد الملك بن مروان وقد أسنت فقال: ما رأى تَوْبَةً فيك حتى أحبك؟
قالت: رأى في ما رأى الناسُ فيك حين ولوك! فضحك عبدُ الملك حتى بدت له سن سوداء
كان يُخْفِيهَا.

(١) في الأغاني: «فأصبح نهبي».

(٢) في الأغاني: «وما كنتُ دُونَ امرئٍ مِنْهُمَا».

(٣) سورة يس، آية (٦٩).

(٤) في العمدة في محاسن الشعر (١/١٠٦): أن موت النابغة الجعدي كان بسبب ليلي الأخيلية؛ فرَّ
من بين يديها فمات في الطريق مسافراً، وقيل: هي التي ماتت في طلبه.

[عود إلى رثاء شواعر العرب]

لهند بنت أسد ترثي أخاها

وقالت هند بنت أسد الضبابية:

لقد ماتَ بالبيضاءِ من جانبِ الحمى فتى كانَ زِيناً للمواكبِ والشَّرِبِ
يُكودُ به الجاني مَخافةَ ما جَنَى كما لاذتِ العَصماءُ بالشاهقِ الصَّعْبِ
تَظَلُّ بَناتُ العمِّ والخالِ حَوْلَهُ صَوادِي لا يَرَوْنَ بالبارِدِ العَذْبِ

لأم خالد النميرية

وقالت أم خالد النميرية [تشبب بأثال الكلابي^(١)]:

إذا ما أتننا الرِّيحُ من نحوِ أرضِهِ أتننا بِرِئاءِ فَطابَ هُبُوبُهَا^(٢)
أتننا بِمِسكِ خالطِ المِسكِ عَنبرُ وريحِ خُزامى باكَرَتَها جُوبُهَا
أَحِنُّ لِدُكْرَاهِ إذا ما ذَكَرْتُهُ وَتَنهَلُ عِبراتُ تَفِيضُ غُرُوبُهَا^(٣)
حِينَ أَسِيرَ نَسَاحِ شُدَّ قَيْدُهُ وإِعوَالِ نَفْسِ غابَ عنها حَيِّهَا^(٤)

وأُنشدنا أبو العباس أحمد بن يحيى [ثعلب]، لأم الضحاك المحاربية وكانت تحب رجلاً من الضُّباب حباً شديداً:

يسأئها الرَّاكِبُ الغادِي لِطَيْتِهِ عَرَّجَ أَبْثُكَ عن بَعْضِ الَّذي أَجْدُ^(٥)
ما عَالَجَ النَّاسُ من وَجْدٍ تَضَمَّنْهُمْ إلَّا وَجَدْتُ به فَوْقَ الَّذي وَجَدُوا
حَسْبِي رِضاهُ وَأُنِّي في مَسَرَّتِهِ ووُدَّهِ آخِرَ الأَيَّامِ أَجْهَدُ

وقالت:

(١) كذا ورد، والسياق يقضي بأن يكون هذا الشعر رثاء لا تشبيهاً.

(٢) الرِّيا: الرائحة الطيبة.

(٣) عِبرات: جمع عبرة: الدمعة. غُرُوبٌ: جمع غَرْب، وهو الدمع، أو مسيله.

(٤) الإِعوَال: من عَوَّلَ الرجل إذا رفع صوته بالبكاء والصياح.

(٥) الطَّيَّة: الجهة أو الناحية البعيدة، والنيَّة، والحاجة.

هَلْ الْقَلْبُ إِنْ لَأَقَى الضَّبَابِيَّ خَالِيَا لَدَى الرُّكْنِ أَوْ عِنْدَ الصَّفَا يَتَحَرَّجُ
وَأَزْعَجْنَا قُرْبُ الْفِرَاقِ، وَبَيْنَنَا حَدِيثٌ كَتَفَيْسَ الْمَرِيضِينَ مُزْعَجُ
حَدِيثٌ لَوْ أَنَّ اللَّحْمَ يُشْوَى بِحَرِّهِ غَرِيضاً أَتَى أَصْحَابَهُ وَهُوَ مُنْضَجُ^(١)

لحليمة الخضرية

وأنشد الزبير بن بكار لحليمة الخضرية، وقد أنشدها المبرد لبهان العبشمي^(٢) وهو أشبه^(٣):

يَقْرُ بَعِينِي أَنْ أَرَى مَنْ مَكَائِهِ ذُرَى عَقِيدَاتِ الْأَجْرِ الْمُتَّاعِدِ^(٤)
وَأَنْ أَرَدَ الْمَاءَ الَّذِي شَرِبْتُ بِهِ سُلَيْمَى وَإِنْ مَلَ السُّرَى كُلُّ وَاحِدِ
وَالصِّقَ أَحْشَائِي بِرَدِّ تَرَابِهِ وَإِنْ كَانَ مَخْلُوطاً بِسُمِّ الْأَسَاوِدِ^(٥)

للفارعة بنت شداد

وقالت الفارعة بنت شداد ترثي أخاها مسعوداً:

يَا عَيْنُ بَكِّي لِمَنْعُودِ بْنِ شَدَادٍ بُكَاءَ ذِي عَبْرَاتٍ شَجُوهُ بَادِي
مَنْ لَا يَذَابُ لَهُ شَحْمُ السَّدِيفِ وَلَا يَجْفُو الْعِيَالِ إِذَا مَا ضَنَّ بِالزَادِ^(٦)
وَلَا يَحِلُّ إِذَا مَا حَلَّ مُتَّيِّدَا يَخْشَى الرِّزْيَةَ بَيْنَ الْمَالِ وَالنَّادِي^(٧)
قَوَالُ مُحْكَمَةٍ، نَقَاضُ مُبْرَمَةٍ فَتَاحُ مُبْهَمَةٍ، حَبَّاسُ أَوْرَادِ^(٨)

(١) الغريض: اللحم الطري.

(٢) العبشمي: نسبة إلى عبد شمس، وقالوا في النسبة: عبدري، وعبقي، نسبة إلى عبد الدار وعبد القيس.

(٣) يتضح من سياق الأبيات أن قائلها رجل وليس امرأة، خصوصاً ما ورد في البيت الثاني من ذكر امرأة (سليمي) يتشوق إليها رجل، مما يرجع لدينا أن الشعر للعبشمي وليس لحليمة الخضرية.

(٤) الأجرع: الأرض ذات الحزونة، تشاكل الرمل.

(٥) الأساود: جمع أسود، وهو العظيم من الحيات، وقيل: هو أخبثها وأنكأها.

(٦) السديف: لحم السنام.

(٧) انتبذ فلان: اعتزل ناحية، وانتبذ عن القوم: تنحى.

(٨) المبرمة: المحكمة. المبهمة: ما يصعب على الحاسة إدراكه إن كان محسوساً، وعلى الفهم إن كان معقولاً. والأوراد: جمع وزد: الماء الذي يُورَد.

قَتَّالُ مَسْعَبَةٍ، وَثَّابُ مَرْقَبَةٍ
حَلَّالُ مُمْرِعَةٍ، فَرَاجُ مُفْطَعَةٍ
حَمَّالُ الْوَيْعَةِ، شَهَادُ أَنْدِيَةِ
جَمَّاعُ كُلِّ خِصَالٍ خَيْرٍ قَدْ عِلِمُوا
أَبَا زُرَّارَةَ لَا تَبْعُدُ فَكُلُّ فَتَى
هَلَّا سَقَيْتُمْ، بَنِي جَرِّمٍ، أَسِيرُكُمْ
نِعَمَ الْفَتَى، وَيَمِينُ اللَّهِ، قَدْ عِلِمُوا
هُوَ الْفَتَى يَحْمَدُ الْجِرَانَ مُشْهَدُهُ
الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءُ يَتَّبِعُهَا
وَالسَّابِيءُ الرِّقُّ لِلْأَصْيَافِ إِنْ نَزَلُوا

مَتَّاعٌ مَغْلَبَةٍ، فَكَالُ أَقْبَادِ^(١)
حَمَّالُ مُضْلِعَةٍ، طَلَّاعُ أَنْجَادِ^(٢)
شَدَّادُ أَوْهِيَةِ، فَسَرَّاجُ أَسْدَادِ^(٣)
زَيْنُ الْقَرِينِ وَنِكَلُ الظَّالِمِ الْعَادِي^(٤)
يَوْمًا رَهْمِنْ صَفِيحَاتٍ وَأَعْوَادِ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي كَرْبَةٍ صَادِي
يَخْلُو بِهِ الْحَيُّ أَوْ يَغْدُو بِهِ الْغَادِي
عِنْدَ الشَّاءِ وَقَدْ هَمُّوا بِإِخْمَادِ
مُتَعَنِّجَرًا بَعْدَ مَا تَغْلِي بِإِزْدَادِ^(٥)
إِلَى ذَرَاهُ وَغَيْثُ الْمُحْجُوجِ الْغَادِي^(٦)

والمحسنات من النساء كثير، وقد تفرق لهن في أضعاف هذا الكتاب ما اختير.

[عَبَرَاتُ الْمُحِبِّينَ]

مِمَّا أَنْشَدَهُ ثَعْلَبُ

وَأَنشَدَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبُ:

وَمُسْتَنَجِدٍ بِالْحُزْنِ دَمْعًا كَأَنَّهُ
إِذَا دِيمَةً مِنْهُ اسْتَقَلَّتْ تَهَلَّلَتْ

عَلَى الْخَدِّ مِمَّا لَيْسَ يَرْقَأُ حَائِرٌ^(٧)
أَوَائِلُ أُخْرَى مَا لَهُنَّ أَوَاخِرُ

(١) الْمَسْعَبَةُ: المجاعة، قال تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ﴾ (سورة البلد، آية ١٤). المرقبة: موضع المراقبة.

(٢) الْمُمْرِعَةُ: الْمُخْصِبَةُ. والأنجاد: المرتفعات.

(٣) الْأَوْيَةُ: الرايات. الْأَنْدِيَةُ: مجالس القوم. الْأَوْهِيَةُ: جمع وهي، وهو الشق في الشيء. والأسداد: جمع سد، وهو الحاجز بين الشيئين، والبناء في مجرى الماء ليحجزه.

(٤) النِّكَلُ: الفيد، ويقال: رجل نِكَلٌ: يغلب أقرانه، وهو نِكَلٌ شَرٌّ: قوي عليه.

(٥) طعنة نجلاء: واسعة. المتعنجر: السائل من الماء والدمع.

(٦) سبأ الخمر: اشتراها ليشربها.

(٧) رَقَأَ الدَّمْعَ: سكن. «وما» في قوله: «مما ليس يرقأ» مصدرية، وتقدير الكلام: كأنه - من عدم سكونه - طائر.

مَلَا مُقْلَتِيهِ الدَّمْعُ حَتَّى كَانَتْهُ لَمَّا انْهَلَّ مِنْ عَيْنَيْهِ فِي الْمَاءِ نَاطِرٌ^(١)
وَيَنْظُرُ مَنْ يَبِينِ الدَّمْسُوعِ بِمُقْلَةٍ رَمَى الشَّوْقُ فِي إِنْسَانِهَا فَهَوَّ سَاهِرٌ^(٢)

مما ينسب إلى قيس بن الملوح

وقال آخر - ورُوِيَ قيس بن الملوح :

نَظَرْتُ كَأَنِّي مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَةٍ إِلَى الدَّارِ مِنْ مَاءِ الصَّبَابَةِ أَنْظُرُ
فَعَيْنَايَ طَوْرًا يَغْرِقَانِ مِنَ الْبُكَاءِ فَأَعْشَى، وَطَوْرًا تَحْصِرَانِ فَأُبْصِرُ^(٣)

لذي الرمة

وقال غيلان^(٤) :

وَمَا شَتَا خَرَقَاءَ وَاهِيَةَ الْكُلَى سَقَى بِهِمَا سَاقٍ وَلَمَّا تَبَلَّلا^(٥)
بِأَضْيَعٍ مِنْ عَيْنِكَ لِلدَّمْعِ كُلَّمَا تَوَهَّمْتَ رَبْعًا أَوْ تَوَسَّمتَ مَنْزِلًا

وقال آخر :

وَمِمَّا شَجَانِي أَنَّهُ يَوْمٌ وَدَعْتُ تَوَلَّتْ وَمَاءُ الْجَفْنِ فِي الْعَيْنِ حَائِرٌ^(٦)
فَلَمَّا أَعَادَتْ مِنْ بَعِيدٍ يَنْظُرَةَ إِلَيَّ التَّفَاتَا أَسْلَمَتْهُ الْمَحَاجِرُ^(٧)

(١) ملا: أصله ملا، مُحَقَّف.

(٢) إنسان العين: ناظرها، سوادها.

(٣) يعشى: يضعفُ بصره.

(٤) هو أبو الحارث، غيلان بن عقبة بن بهشى بن مسعود بن عمرو بن ربيعة، من بني عدي، وسُمِّيَ ذا الرمة بقوله في الوند: «أشعث باقي رمة التقليد». وهو من عشاق العرب المشهورين، وصاحبته مئة بنت بن فلان بن طلبة بن عاصم. ولد ونشأ في البادية، وكان يذهب في شعره مذاهب الجاهليين، وقال أبو عمرو بن العلاء: خُتِمَ الشعر بذِي الرمة. توفي سنة ١١٧ هـ/ ٧٣٥ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٤٣٧/٢؛ الأصفهاني، الأغاني: ٣٠٦/١٧).

(٥) الشَّتَا والشَّنُّ: القُرْبَةُ الْخَلْقُ الصَّغِيرَةُ، يكون الماء فيها أبرد من غيرها. والكُلَى: جمع كُليَّة، وهي من المَزَادَةِ أو الرَاوِيَةِ: جُلَيْدَةٌ مُسْتَدِيرَةٌ مُشْدُودَةُ الْعُرْوَةِ قَدْ خُرَزَتْ مَعَ الْأَدِيمِ تَحْتَ عُرْوَةِ الْمَزَادَةِ، وَكَلِيَّةُ الْإِدَاوَةِ: الرِّقْعَةُ الَّتِي تَحْتَ عُرْوَتِهَا، وَكَلِيَّةُ السَّحَابَةِ: أَسْفَلُهَا.

(٦) شجاني: أحزنني.

(٧) أسلمته المحاجر: كناية عن إهمال الدمع.

للبحثري

أبو عبادة البحثري^(١):

وَقَفَنْسَا وَالْمَيُونُ مُشْغَلَاتُ يُغَالِبُ طَرْفَهَا نَظَرٌ كَلِيلُ^(٢)
 نَهْتُهُ رِفْبَةُ السَّوَاهِينِ حَتَّى تَعْلَسُقَ لَا يَغِيضُ وَلَا يَيْبِلُ

مما أنشده لحظة

وأنشد أبو الحسن [لحظة]:

وَمِنْ طَاعَتِي إِيَاهُ أَمْطَرَ نَاضِرِي إِذَا هُوَ أَبْسَدَى مِنْ ثَنَائِيهِ لِي بَرْقَا
 كَأَنَّ دُمُوعِي تُبْصِرُ الْوَصْلَ هَارِبَا فَمِنْ أَجْلِهِ تَجْرِي لِتُسَدِّكَ سَبَا

للمتنبّي

أخذ البيت الأول المتنبّي فقال^(٣):

يَبْتَلُ خَدَيَّ كَلِمَا ابْتَسَمْتُ مِنْ مَطَرٍ بَرَقُهُ ثَنَائِيهَا^(٤)

لأبي الشيص

وقال أبو الشيص^(٥)، واسمه محمد بن عبيد الله، وهو ابن عم دعلج:

وَقَائِلَةٍ وَقَدْ بَصُرْتُ بِذَمِّع عَلَى الْخَدَّيْنِ مُنْخَدِرٍ سَكُوبِ
 أَتَكْذِبُ فِي الْبِكَايِ وَأَنْتَ جَلْدُ قَدِيمًا مَا جَسَرْتُ عَلَى الذَّنُوبِ^(٦)
 قَمِيضُكَ وَالْدُمُوعُ تَجُولُ فِيهِ وَقَلْبُكَ لَيْسَ بِالْقَلْبِ الْكَثِيبِ

(١) البحثري، الديوان: ٣٣٩/١. والبيتان من قصيدة يمدح بها أبا عيسى بن صاعد.

(٢) في الديوان: «يغالب دمعها».

(٣) المتنبّي، الديوان: ٣٦٧/٢. والبيت من قصيدة يمدح بها عضد الدولة البويهّي عند قدومه عليه بشيراز.

(٤) في الديوان: «تكلّ خدّي». والثنايا: جمع ثنية، وهي السنّ في مقدم الفم. يقول: كلما ابتسمت فلمعت ثناياها كالبرق، بكيت فجرى دمعي كالمطر، فكان هذا المطر عن ذلك البرق.

(٥) وردت ترجمته في مكان سابق.

(٦) الجلد: القوي، الصابر على المكروه، وجَسَرَ: شَجَعَ، أو مضى ونفذ.

كَمَلِ قَمِيصِ يُوسُفَ حِينَ جَاءُوا عَلَيْهِ عَشِيَّةً بِدَمٍ كَذُوبٍ
[فَقُلْتُ لَهَا: فِذَاكَ أَبِي وَأُمِّي رَجَمْتَ بِسُوءِ ظَنِّكَ فِي الْغُيُوبِ]
أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ فَتَشَتِ قَلْبِي لَسَرَّكَ بِالْعَوِيلِ وَالنَّحِيبِ
دُمُوعُ الْعَاشِقِينَ إِذَا تَلَاقَوْا بَظَهْرِ الْغَيْبِ أَلْسِنَةُ الْقَلُوبِ

[من أخبار العباس بن الأحنف]

وقال بشار بن برد: ما زال فتى من بني حنيفة يُدْخِلُ نَفْسَهُ فِينَا وَيُخْرِجُهَا مِنَّا حَتَّى قَالَ:
نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرَ عَيْنًا لِيَعِيرَكَ دَمْعُهَا مِذْرَارُ^(١)
مَنْ ذَا يُعِيرَكَ عَيْنُهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلْبُكَاءِ تُعَارُ؟!

قال: وهذا الذي عناه بشار هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن طلحة بن هارون بن كلدة بن خزيم بن شهاب [بن سالم] بن حبة بن كليب بن عدي بن عبد الله بن حنيفة، وكان كما قال بعض مَنْ وصفه: كان أَحْسَنَ خُلُقٍ إِذَا حَدَّثَ اللَّهُ إِذَا حَدَّثَ حَدِيثًا، وَأَحْسَنَهُمْ إِذَا حَدَّثَ اسْتِمَاعًا، وَأَمْسَكُهُمْ عَنْ مُلَاحَاةٍ إِذَا خُولِفَ، وَكَانَ مُلُوكِي الْمَذْهَبِ، ظَاهِرَ النُّعْمَةِ، حَسَنَ الْهَيْئَةِ، وَكَانَتْ فِيهِ آلاَتُ الظَّرْفِ، كَانَ جَمِيلَ الْوَجْهِ، فَارَهُ الْمَرْكَبَ، نَظِيفَ الثُّوبِ، حَسَنَ الْأَلْفَاظِ، كَثِيرَ النُّوَادِرِ، رَطِيبَ الْحَدِيثِ، بَاقِيًا عَلَى الشَّرَابِ، كَثِيرَ الْمُسَاعَدَةِ، شَدِيدَ الْإِحْتِمَالِ، وَلَمْ يَكُنْ هَجَاءً، وَلَا مَذَاحًا، كَانَ يَتَنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَيُسَبِّهُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِعَمْرِ بْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ.

وسُئِلَ أَبُو نَوَاسٍ عَنِ الْعَبَّاسِ وَقَدْ ضَمَّهُمَا مَجْلِسَ فَقَالَ: هُوَ أَرْقُ مِنَ الْوَهْمِ، وَأَحْسَنُ مِنَ الْفَهْمِ.

وكان أبو الهذيل العلاف المعتزلي^(٢) إذا ذكره لَعَنَهُ وَزَنَّاهُ لِأَجْلِ قَوْلِهِ:

وَضَعْتُ خَلْدِي لِأَذْنَى مَنْ يُطِيفُ بِكُمْ حَتَّى احْتُمِرْتُ وَمَا مِثْلِي بِمُحْتَقَرٍ^(٣)

(١) نَزَفَ الدَّمْعَ وَالْمَاءَ أَوْ نَحْوَهُمَا: أَفْنَاهُ، يُقَالُ: بَكَى حَتَّى نَزَفَ دَمْعُهُ، أَيْ نَفَذَ وَفَنِيَ، وَالْمِدْرَارُ: الْكَثِيرُ الدَّرَرُ، يُقَالُ سَحَابٌ مِدْرَارٌ: كَثِيرُ السَّحَابِ، وَعَيْنٌ مِدْرَارٌ: كَثِيرَةُ الدَّمْعِ.

(٢) هو أبو الهذيل، حمدان بن الهذيل العلاف، مولى عبد القيس، وشيخ أهل البصرة من المعتزلة. أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل، عن واصل بن عطاء، ولقب بالعلاف لأن داره كانت في العلافين. توفي سنة ٢٢٦ هـ/ ٨٤١ م. (الشهرستاني، الملل والنحل: ٦٣/١).

(٣) وضعت خدِّي: كناية عن الخضوع. وأدنى: أقل. ويطيف بكم: أراد من هو من خدمهم وحشمهم.

إِذَا أَرَدْتُ أَنْتَصَاراً كَانَ نَاصِرَكُمْ قَلْبِي، وَمَا أَنَا مِنْ قَلْبِي بِمُنْتَصِرٍ
فَأَكْثِرُوا أَوْ أَقَلُّوا مِنْ مَلَائِكُمْ فَكُلُّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْقَدْرِ
وقوله في البيت الأوسط كقوله:

قَلْبِي إِلَى مَا ضَرَّنِي دَاعِي لَقَلَّمَا أَبْقَى عَلَى مَا أَرَى
يُخْشِرُ أَشْقَامِي وَأَوْجَاعِي يُوشِكُ أَنْ يَتَعَانِيَ النَّاعِي
كَيْفَ احْتِرَاسِي مِنْ عَدُوِّي إِذَا كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلَاعِي

وقيل [للعنان] جارية الناطفي: من أشعر الناس؟ قالت: الذي يقول:

وَأَهْجُرْكُمْ حَتَّى يَقُولُوا: لَقَدْ سَلَا وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُحِبُّ عَلَى الَّذِي
وَلَسْتُ بِسَالٍ عَنْ هَوَاكِ إِلَى الْحُشْرِ^(١) يُحِبُّ شَفِيقاً نَازِعَ النَّاسِ بِالْهَجْرِ
وقال [العباس]:

جَرَى السَّيْلُ فَاسْتَبَكَنِي السَّيْلُ إِذْ جَرَى وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ تَقْنَسْتُ أَنَّهُ
وَفَاضَتْ لَهُ مِنْ ثِقَلَتِي غُرُوبٌ يَكُونُ أَجَاجاً دُونَكُمْ فَإِذَا انْتَهَى
يَمُرُّ بِوَادٍ أَنْتَ مِنْهُ قَرِيبٌ إِلَى سَاكِنِي شَرْقِيٍّ دَجَلَةٌ كُلُّكُمْ
إِلَيْكُمْ تَلْقَى طَيْغُكُمْ فَيَطِيبُ^(٢) إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ حَبِيبٌ

موازنة بين العتابي والعباس

وقال الصولي: ناظر أبو أحمد علي بن يحيى المنجم رجلاً يُعْرَفُ بالمتفقه الموصلي في العباس بن الأحنف والعتابي، فعمل علي في ذلك رسالة أنفذها لعلي بن عيسى؛ لأن الكلام في مجلسه جرى. وكان مما خاطبه به أن قال: ما أَهْلُ نَفْسِهِ قَطُّ الْعَتَابِي لتقديمها على العباس في الشعر، ولو خاطبه مخاطبٌ لَدَفَعَهُ وَأَنْكَرَهُ؛ لأنه كان عالماً لا يُؤْتَى من قلة معرفة بالشعر، ولم أرَ أحداً من العلماء بالشعر مثل العتابي والعباس، فضلاً عن تقديم العتابي عليه لتباينهما [في ذلك]، وإن العتابي متكلف، والعباس يتدفق طبعاً؛ وكلام هذا سهلٌ عَذْبٌ، وكلامُ ذاك متعقدٌ كَرَّ^(٣)، وفي شعر هذا رقةٌ وحلاوة، وفي شعر ذاك غِلَظٌ

(١) سلاه، وسلاعه سُلوًا، وسَلُوًا، وَسَلُونَا: نَبِيَّةٌ وطابت نفسه بعد فراقه.

(٢) الأجاج: ما يلذع الفم بمرارته وملوحته.

(٣) الكَرُّ: القبيح.

وَجَسَاوَةٌ^(١)، وَشِعْرُهُ هَذَا فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْغَزَلُ؛ وَأَكْثَرُ فِيهِ وَأَحْسَنُ، وَقَدْ افْتَنَّ الْعَتَابِيُّ فَلَمْ يَخْرُجْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ عَمَّا وَصَفْنَاهُ.

وإن من أحسن شعر العتابي قصيدته التي مدح بها الرشيد وأولها:

يَا لَيْلَةَ لِي فِي حُزْرَانٍ سَاهِرَةً حَتَّى تَكَلَّمَ فِي الصَّبْحِ الْعَصَافِيرُ
وقال فيها:

أَفِي الْأَمَاقِ انْتِبَاضٌ عَنْ جُفُونِهِمَا أُمُّ فِي الْجَفُونِ عَنِ الْأَمَاقِ تَقْصِيرُ
وهذا البيت أخذه من قول بشار الذي أحسن فيه كل الإحسان وهو قوله^(٢):

جَفْتُ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيزِ حَتَّى كَأَنَّ جُفُونَهَا عَنْهَا قِصَارُ^(٣)
فمسخه العتابي، على أن بشاراً أخذه من قول جميل^(٤):

كَأَنَّ الْمُحِبَّ لِطَوْلِ الشَّهَادِ قَصِيرُ الْجَفُونِ وَلَمْ تَقْصُرِ
إلا أن بشاراً أحسن فيه؛ فنازعهما إياه فأساء، وإنَّ حَقَّ من أخذ معنى قد سبق إليه أن يصنعه أجود من صنعة السابق إليه، أو يزيد عليه، حتى يستحقه، وأما إذا قصر عنه فهو مسيءٌ معيبٌ بالسرقة، مذمومٌ على التقصير.

ولقد هاجى أبا قابوس النصراني^(٥) فغلب عليه في كثير مما جرى بينهما على ضعف مُنَّةِ أَبِي قَابُوسٍ فِي الشَّعْرِ، ثُمَّ قَالَ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ:

مَاذَا عَسَى مَادِحٌ يُثْنِي عَلَيْكَ وَقَدْ نَادَاكَ بِالْوَحْيِ تَقْدِيرٌ وَتَطْهِيرُ

(١) الجساوة: الخشونة والصلابة.

(٢) بشار بن برد، الديوان: ٢١٧/٣. والبيت من قصيدة يفتخر فيها بمضر، وانتصارهم لخلفاء بني أمية، وذلك قبل قيام الدولة العباسية.

(٣) جفت: بعدت. التغميز: إطباق الجفون، النوم.

(٤) لم نجد هذا البيت في ديوانه (دار صادر).

(٥) هو أبو قابوس، عمرو بن سليمان: شاعر نصراني من أهل الحيرة. عاش في زمن هارون الرشيد، ولم يرد لمولده ووفاته تاريخ. كان منقطعاً إلى البرامكة، وبهم تقرب إلى الرشيد. وعاصر أبو قابوس الشاعرين كلثوم بن عمرو العتابي وأبا العتاهية وهما. (المرزباني، معجم الشعراء: ٣١؛ شيخو، شعراء النصرانية: ٢/٢٤١).

فَتَّ الْمَمَادَحَ إِلَّا أَنَّ السَّنَنَا مُسْتَعْلَنَاتٌ بِمَا تُخْفِي الضَّمَائِرُ^(١)

فختم البيت فيها بأثقل لفظة لو وقعت في البحر لكدرته، وهي صحيحة، وما شيء أملك بالشعر بعد صحة المعنى من حُسْنِ صِحَّةِ اللفظ، وهذا عمل التكلف، وسوء الطبع.

وللعباس بن الأحنف إحسان كثير، ولو لم يكن إلا قوله:

أَنْكَرَ النَّاسُ سَاطِعَ الْمِسْكَ مِنْ دَجْدٍ لَمَّةٌ قَدْ أَوْسَعَ الْمَشَارِعَ طِيَا
فَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَمَا يَدُ رُونَ أَنَّ قَدْ حَلَلْتُ مِنْهُ قَرِيبَا
قَاسِمِي هَذَا الْبَلَاءِ، وَإِلَّا فَاجْعَلِي لِي مِنَ التَّعْزِي نَصِيَا
إِنْ بَغَضَ الْعِتَابُ يَدْعُو إِلَى الْعَتَا بٍ، وَوُؤِذِي بِهِ الْمُحِبُّ الْحَيَا
وَإِذَا مَا الْقُلُوبُ لَمْ تَضْمِرِ الْعَطَا ف فَلَنْ يَعْطِفَ الْعِتَابُ الْقُلُوبَا^(٢)

وقوله:

قَالَتْ مَرِضْتُ فَعُدْتُهَا فَتَبَرَّمْتُ وَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَالْمَرِيضُ الْعَائِدُ^(٣)
تَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَا رَقَّ لِلْوَلَدِ الصَّغِيرِ الْوَالِدُ
إِنْ كَانَ ذَنْبِي فِي الزِّيَارَةِ فَاغْلَمِي إِنِّي عَلَى كَسْبِ الذُّنُوبِ لَجَاهِدُ^(٤)
أَلْقَيْتَ بَيْنَ جُفُونِ عَيْنِي فُرْقَةً فإِلَى مَتَى أَنَا سَاهِرٌ يَا رَاقِدُ
يَقَعُ الْبَلَاءُ وَيَنْقُضِي عَنْ أَهْلِهِ وَبَلَاءُ حُبِّكَ كُلَّ يَوْمٍ زَائِدُ
مَمَّاكَ لِي نَاسٌ وَقَالُوا: إِنَّهَا لَهِيَ الَّتِي تَشْقَى بِهَا وَتُكَابِدُ
فَجَحَدْتُهُمْ لِيَكُونَ غَيْرِكَ ظَنَّهُمْ إِنِّي لِيُعْجِبَنِي الْمُحِبُّ الْجَاهِدُ^(٥)

وقوله:

(١) الضمائر: أصله الضمائر، فأشبع كسرة الهمزة فتولدت ياء، وقد وقع مثله في قول الفرزدق يصف ناقه:

تَنْفِي يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْيِ الدَّرَاهِمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ
(٢) لن يعطف العتاب القلوب: لن يملها.

(٣) العائد: الزائر في المرض.

(٤) وردت «إن» مكسورة الهمزة، والذي سَوَّغَ ذلك وجعله لازماً وَقُوعُ اللَّامِ فِي خَبَرِهَا.

(٥) جحد الأمر وبه جحداً، وجُحوداً: أنكره مع علمه به.

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَصَاتِ بِبِي الدَّ
أَسْتَمِيعُ اللَّهَ بِالرَّجَاءِ وَإِنْ
يَوْمَ لَرَّاجٍ لِلْعَطْفِ مِنْكَ غَدًا
لَمْ أَرِ مِنْكُمْ مَا أُرْتَجِي أَبَدًا
وله :

أَهْدَى لَهُ أَحِبَّاءَهُ أَتْرُجَّةً
مُتَطَيِّرًا مِنْهَا أَتْنَهُ وَجَنَمُهَا
فَبَكَى وَأَشْفَقَ مِنْ عَيْافَةِ زَاجِرٍ^(١)
لَوْنَانٍ بَاطِنُهَا خِلَافُ الظَّاهِرِ

ولئن وفقى أبو أحمد العباس حقه، لقد ظلم العتابي ما كان مستحقه، من سر الكلام، وجودة رصف النظام. قال الصولي في نسب العباس - وكان من خوئلته - : هو العباس بن الأحنف بن الأسود بن قدامة بن هيمان من بني [هفان بن الحارث بن] ذهل بن [الدليل بن] حنيفة. وله يقول الصريح^(٢) يهجو:

بَنُو حَنِيفَةَ لَا يَرْضَى الدَّعِيُّ بِهِمْ
أَذْهَبَ إِلَى عَرَبٍ تَرْضَى بِنَسَبِهِمْ
فَأَتْرُكُ حَنِيفَةَ وَأَطْلُبُ غَيْرَهَا نَسَبًا^(٣)
إِنِّي أَرَى لَكَ لَوْنًا يُشْبِهُ الْعَرَبَا
وقال [أبو أحمد: قال] العباس :

حُرِّ دَعَاؤُ الْهَوَى سِرًّا فَلَبَّاهُ
فَشَاهَدْتُ بِالَّذِي يُخْفِي لَوَاحِظُهُ
جَازِيَنِي إِذْ رَعَيْتُ الْوَدَّ بَعْدَكَ أَنْ
اللَّهُ يَشْهَدُ أَنِّي لَمْ أَخُنْكَ هَوَى
وقال :

يَا مَنْ يُكَائِمُنِي تَغْيِيرَ قَلْبِهِ
وَأَصْدُ عَنْكَ وَفِي يَدَيَّ بَقِيَّةٌ
يَا لِلرَّجَالِ لِعَاشِقَيْنِ تَوَاقَفَا
حَتَّى إِذَا خَافَا الْعَيُونَ وَأَشْفَقَا
سَأَكْفُ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ تَبْرَمَا
مِنْ حَبْلِ وَدَّكَ قَبْلَ أَنْ يَتَصَرَّمَا
وَتَخَاطَبَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَا
جَعَلَا الْإِشَارَةَ بِالْأَنَامِلِ سُلَّمَا

(١) العيافة: زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وقيل: هي الظن والحدس.

(٢) هو الشاعر مسلم بن الوليد الملقب بصريح الغواني، وقد تقدمت ترجمته.

(٣) الدعي: المتهم في نسبه، أو المنسوب إلى غير أبيه.

وقال:

الله يعلم ما أردت بهجركم إلا مسانرة العدو الكاشح^(١)
وعلمت أن تسؤري وتباعدي أبقي لوصليك من دنو فاضح

وقال:

يهم بحرّان الجزيرة قلبه وفيها غزال فائر الطرف ساجره
يؤازره قلبي عليّ وليس لي يذان بمن قلبي عليّ يؤازره

[العين والقلب]

وقد قال سهل بن هارون:

أعان طرفي على قلبي وأعضائي بنظرة وقفت جيمي على دائي
وكننت غراً بما يُجنّي على بدني لا علم لي أن بعضي بعض أعدائي

وقال النظام^(٢):

إن العيون على القلوب إذا جنت كانت يلائها على الأجساد

البحري^(٣):

ولست أعجب من عصيان قلبك لي حقاً إذا كان قلبي فيك يعصيني^(٤)

وقال الأصمعي: سمعت الرشيد يقول: قلب العاشق عليه مع مشوقه. فقلت: هذا والله يا أمير المؤمنين أحسن من قول عروة بن حزام^(٥) لعفراء في أبياته التي أنشدتها:

(١) الكاشح: المُبغض.

(٢) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن سيار بن هانيء البصري المعتزلي، المعروف بالنظام، وقد وردت ترجمته في مكان سابق.

(٣) البحري، الديوان: ٢٥/٢، والبيت من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله بن حمدون ويعاتبه.

(٤) في الديوان: «عمداً إذا كان قلبي فيك يعصيني».

(٥) هو عروة بن حزام بن مهاصر، أحد بني ضبة بن عبد من بني عذرة: شاعر إسلامي يتم من أبيه باكراً فعاش في كفالة عمه مالك، وهو من عشاق العرب المشهورين، أحب ابنة عمه عفراء، لكن أهلها زوجها من غيره، فمات من أجلها كمداً نحو سنة ٣٠ هـ / ٦٥٠ م. (فروخ، تاريخ =

وَإِنِّي لَتَغْفِرُونِي لِذِكْرِكِ رَوْعَةً لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَيْبٌ
وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً فَأُبْهَتَ حَتَّى لَا أَكَادُ أُجِيبُ^(١)
وَأُصْرَفُ عَنْ دَائِي الَّذِي كُنْتُ أَرْتَبِي وَيَقْرُبُ مِنِّي ذِكْرُهُ وَيَغِيبُ^(٢)
وَيُضْمِرُ قَلْبِي غَدْرَهَا وَيُعِينَهَا عَلَيَّ، وَمَا لِي فِي الْفَوَادِ نَصِيبُ^(٣)

فقال الرشيد: من قال ذلك وهما، فقد قلته علماً.

[من مآثور الحكم]

قال علي بن عبيدة الرياحي: أَحْمِ وَدَكْ فَإِنَّهُ عَرَضُكَ، وَصُنِ الْأَنْسَ بِكَ فَإِنَّهُ يُغْزِرُ حَظَّكَ، وَلَا تَسْتَكْثِرْ مِنَ الطَّمَأْنِينَةِ إِلَّا بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الثَّقَةِ؛ فَإِنَّ الْأَنْسَ سَرِيرَةُ الْعَقْلِ، وَالطَّمَأْنِينَةُ بَذْلَةُ الْمُتَحَاتِينَ، وَلَيْسَ لَكَ بَعْدَهُمَا تَخَفٌ تَمْنَحُهَا صَاحِبَكَ، وَلَا حِبَاءٌ تُوجِبُ بِهِ الشُّكْرَ عَلَى مَنْ اصْطَفَيْتَ.

وقال: ما أنصف مَنْ عَاتَبَ أَخَاهُ بِالْإِعْرَاضِ عَلَى ذَنْبٍ كَانَ مِنْهُ، أَوْ هَجَرَهُ لْخِلَافٍ بِمَا يَكْرَهُ عِنْدَهُ، إِذَا كَانَ لَا يَعْتَدُّ فِي سَالِفِ أَيَّامِ الْعَشْرَةِ إِلَّا بِالرِّضَا عَنْهُ، وَمَشَاكِلَتِهِ فِيمَا يُؤْنِسُهُ مِنْهُ. فَإِنْ كَانَ الْعَاتِبُ شَكَا جَمِيعَ مَا سَرَّهُ مِنْ أَخِيهِ أَوَّلًا، فَلَقَدْ تَمَّتْ الْمَوَافَقَةُ حَظًّا الْإِغْتِفَارِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَفَى لَهُ بِكُلِّ مَا اسْتَحَقَّ مِنْهُ فَلْيَقْتَصِرْ مِمَّا وَجَبَ مِنْهُ عَلَيْهِ لِأَخِيهِ بِقَدْرِ ذَنْبِهِ، ثُمَّ الْعُودَةُ إِلَى الْأَلْفَةِ أَوْلَى مِنْ تَشْتِيتِ الشَّمْلِ، وَأَشْبَهُ بِأَهْلِ التَّصَافِي، وَأَكْرَمُ فِي الْأَحْدُوثةِ عِنْدَ النَّاسِ.

وقال: الْحَيَاءُ لِبَاسٌ سَابِغٌ، وَحِجَابٌ وَاقٍ، وَسِتْرٌ مِنَ الْمَسَاوِي، وَأَخُو الْعَفَافِ، وَخَلِيفُ الدِّينِ، وَمُصَاحِبُ الصَّنْعِ، وَرَقِيبٌ مِنَ الْعِصْمَةِ وَعَيْنُ كَالِثَةٍ^(٤) تَذُودُ عَنِ الْفُسَادِ، وَتَنْتَهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْأَدْنَاسِ^(٥).

= الأدب العربي: ٢٩٨/١؛ الأصفهاني، الأغاني: ٢٣/٣٠٠.

(١) في الأغاني: «فَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً» و«مَا أَكَادُ».

(٢) في الأغاني: «وَأُصْدِفْتُ عَنْ رَأْيِي» و«أَنْسَى الَّذِي أَرْمَعْتُ حِينَ يَغِيبُ».

(٣) في الأغاني: «وَيُظْهِرُ قَلْبِي غَدْرَهَا وَيُعِينَهَا».

(٤) كَالِثَةٌ: حَافِظَةٌ، اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ كَلَاةٍ: حَفَظَهُ وَرَعَاهُ.

(٥) تَذُودُ: تَمْنَعُ وَتُدْفَعُ. وَالْأَدْنَاسُ: جَمْعُ دَنْسٍ، وَهُوَ الْوَسْخُ.

وقال: لا يخلو أحد من صَبَوَةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ جَاسِيَةَ الْخِلْقَةِ^(١)، منقوص البنية، أو على خلاف تركيب الاعتدال.

[الهوى]

ورأى سعيد بن سلم بن قتيبة ابناً له قد شرع في رقيق الشعر وروايته، فأنكر عليه، فقيل له: إنه قد عشق، فقال: دَعُوهُ فَإِنَّهُ يَلْطَفُ، وَيَنْظِفُ، وَيَطْرَفُ.

وقال الفضل بن أحمد بن أبي طاهر، واسم أبي طاهر طيفور: وَصَفَ الهوى قَوْمٌ وقالوا: إنه فضيلة، وإنه ينتج الحيلة، ويشجع قَلْبَ الجبان، ويسخِّي قَلْبَ البخيل، ويصفِّي ذهن الغبي، ويطلق بالشَّعر لسانَ الْمُفْحَم، ويبعث حَزْمَ العاجز الضعيف، وإنه عزيز تذلل له عِزَّةُ الملوك، وتَضَرُّعُ فيه صَوْلَةُ الشجاع، وتَنَقُّادُ له طاعةُ كل ممتنع، ويذل كل مُستصعب، ويُبرز كل محتجب، وهو داعية الأدب، وأوَّلُ باب تُفْتَقُّ به الأذهان والفطن، وتستخرج به دقائق المكاييد والحيل، وإليه تستريح الهِمَم، وتسكن نوافِرُ الأخلاق والشِّيم^(٢)، يُمتنع جليسه، ويؤنس أليفه، وله سرورٌ يجول في النفس، وفرحٌ مستكن في القلب، وبه يتعاطف أهلُ المودة، ويتَّصل أهلُ الألفة، وعليه تتألف الأشكال، وله صَوْلَاتٌ على القدر، ومكاييد تُبْطِلُ لطائف الحيل، وظَرْفٌ يظهرُ في الأخلاق والخلق، وأرواح تُسَطِّعُ من أهلها، وتَعْبِقُ من ذوبها.

وقال اليماني بن عمرو مولى ذي الرياستين: كان ذو الرياستين يَبْعَثُ بي وبأحداثٍ من أهله إلى شيخ بخراسان ويقول: تَعَلَّمُوا مِنْهُ الْحِكْمَةَ؛ فَكُنَّا نَأْتِيهِ، وإذا انصرفنا من عنده اعترضنا ذو الرياستين يسألنا عما أفادنا فنخبره؛ فَمَرَرْنَا إِلَى الشَّيْخِ يَوْمًا فَقَالَ لَنَا: أَنْتُمْ أَدْبَاءٌ، وَقَدْ سَمِعْتُمْ الْحِكْمَةَ، وَفِيكُمْ أَحْدَاثٌ، وَلَكُمْ نَعَمٌ، فَهَلْ فِيكُمْ عَاشِقٌ؟ قُلْنَا: لَا، قَالَ: اعشِقُوا؛ فَإِنَّ الْعَشْقَ يُطْلِقُ الْغَيْبَ، وَيَقْتَحُ جَبَلَةَ الْبَلِيدِ^(٣)، وَيُسَخِّي كَفَّ الْبُخِيلِ، وَيَبْعَثُ عَلَى النِّظَافَةِ وَحُسْنِ الْهَيْئَةِ، وَيَدْعُو إِلَى الْحَرَكَةِ وَالذِّكَاةِ، وَشَرَفِ الْهَمَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْحَرَامَ.

قال: فانصرفنا، فسألنا عما أفادنا في يومنا؛ فَهَيَّنَاهُ أَنْ نَخْبِرَهُ، فَعَزَمَ عَلَيْنَا. فقلنا له:

(١) جاسي الخلقه: جافاً غليظاً.

(٢) الشِّيم: جمع شيمة، وهي الخصلة والخلة والسجية.

(٣) الجبله: الخلقه.

أمرنا بكذا وكذا، قال: صدق، أتعلمون من أين أخذ هذا الأدب؟ قلنا: لا. قال: إن بهرام جور كان له ابنٌ رشَّحه للملك من بعده، فنشأ ساقطَ الهمة، حامل المروءة، ذنبي النفس، سيئ الأدب، كليل القريحة، كهَّام الفكر^(١)؛ فغمَّه ذلك، ووكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء مَنْ يُلازمه ويُعلِّمه، وكان يسألهم فيحكُّون له ما يسوءه، إلى أن قال له بعض مؤدبيه: قد كنا نخافُ سوءَ أدبه فحدث من أمره ما صرنا إلى اليأس منه، قال: وما ذلك؟ قال: رأى ابنة فلان المرزبان فَعَشَقَهَا فغلبَتْ عليه، فهو لا يهْدِي إلَّا بأمرها، ولا يتشاغلُ إلَّا بِذِكْرِهَا، فقال بهرام جور: الآن رَجَوْتُ صلاحه.

ثم دعا بأبي الجارية فقال: إني مُسرٌّ لك سرًّا فلا يَعدُوْكَ^(٢). فضمن له ستره فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن يُنكِحها إياه، وأمره أن يأخذها بإطماعه بنفسها، ومراسلته من غير أن يراها، أو تَقَعَ عَيْنُهُ عليها؛ فإذا استحکم طَمَعُهُ فيها تجنَّت عليه، وهجرته، فإذا استعبتها أعلمته أنها لا تصلحُ إلَّا لملك، أو مَنْ هِمَّتْهُ همةُ ملك، وأن ذلك يمنعها من مُواصلته، ثم ليعلمه خبرَها وخبرَه، ولا يُطلِعها على ما أسرَّ إليه، فقبل ذلك أبوها منه.

ثم قال للمؤدب: خَوْفُهُ بي، وشجَّعُهُ على مراسلة الجارية، ففعل ذلك، وفعلت الجارية ما أمرها به أبوها؛ فلما انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته من أجله أخذ في الأدب، وطلب الحكمة، والعلم، والفروسية، ولعب الصَّوَالِجَة، والرماية، حتى مَهَرَ في ذلك، ورُفِعَ إلى أبيه أنه يحتاجُ من المطاعم والآلات والدواب والملابس والوزراء فوق الذي كان له؛ فَسَّرَ الْمَلِكُ بذلك، وأمر له بما أراد، ودعا بمؤدِّيه، فقال: إنَّ الموضوع الذي وضع ابني نفسه فيه بحبِّ هذه المرأة لا يُزِرِّي به^(٣)؛ فتقدَّم إليه أن يرفع أمرها إليَّ ويسألني أن أزوجه إياها، ففعل، فزوجهها منه، وأمر بتعجيل نقلها إليه، وقال له: إذا اجتمعت أنت وهي فلا تُحدث شيئاً حتى أُصير إليك. فلما اجتمعا صار إليه فقال: يا بني، لا يضمنُ منها عندك مراسلتها إِيَّاكَ، وليست في حبالِكَ، فأنا أمرتها بذلك، وهي من أعظم الناس مَنَّةً عليك، بما دَعَتْكَ إليه من طلب الحكمة، والتخلُّق بأخلاق الملوك، حتى بَلَغَتْ الحدَّ الذي تصلحُ معه للمُلْكِ بعدي؛ فزدها في التشريف والإكرام بِقَدْرِ ما تستحقُّ منك.

(١) كهام الفكر: ضيعفه متبلده.

(٢) لا يعدوئك: لا يتجاوزذك إلى غيرك، يأمره بكتمان السر.

(٣) لا يزري به: لا يعيبه، ولا ينقصه، ولا يضع من قدره.

ففعّل الفتى ذلك، وعاش مسروراً بالجارية، وأبوه مسروراً به، وزاد في إكرام المرزبان، ورفّع مرتبته وشرفه بصيانيته لِسَرِّه وطاعته، وأحسن جائزته وجائزة المؤدّب بامتثاله أمره، وعقّد لابنه الملك من بعده. قال اليماني: وكان الشيخ الحسن بن مصعب.

ثم قال ذو الرياستين: قال علي بن بلال:

سَيَهْلِكُ فِي الدُّنْيَا شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ إِذَا غَالَهُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ غَائِلُهُ^(١)
وَيُخْفِي لَكُمْ حُبًّا شَدِيدًا وَرَهْبَةً وَلِلنَّاسِ أَشْغَالٌ، وَحُبُّكَ شَاغِلُهُ
كَرِيمٌ يُبَيِّتُ السَّرَّ حَتَّى كَأَنَّهُ، إِذَا اسْتَخْبَرُوهُ عَنْ حَدِيثِكَ، جَاهِلُهُ
يَوَدُّ بَأْنَ يُنْسِي عَلَيَّهَا لَعْلَهَا إِذَا سَمِعَتْ عَنْهُ بِشَكْوَى تُرَاسِلُهُ
وَيَرْتَاحُ لِلْمَعْرُوفِ فِي طَلَبِ الْعُلَا لِيُحْمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلَى شَمَائِلُهُ^(٢)

وذكر أعرابي الهوى فقال: هو أعظمُ مَسْلَكًا فِي الْقَلْبِ مِنَ الرُّوحِ فِي الْجِسْمِ، وأملكُ بالنفسِ مِنَ النَّفْسِ، يَظْهَرُ وَيَبْطُنُ، وَيَكْهَفُ وَيَلْطَفُ، فامتنعَ عن وَصْفِهِ اللِّسَانُ، وَعَيَّى عَنْهُ الْبَيَانُ! فهو بين السَّخَرِ وَالْجَفَوْنَ، لطيفُ الْمَسْلَكِ وَالْكُمُونِ^(٣). وأنشد:

يَقُولُونَ لَوْ دَبَّرْتَ بِالْعَقْلِ حُبَّهَا وَلَا خَيْرَ فِي حُبِّ يُدَبِّرُ بِالْعَقْلِ

[من رسائل الميكالي]

فصل للأمير أبي الفضل الميكالي:

لا زالت الأيامُ تَزِيدُ رُتَبَتَهُ ارْتِفَاعًا، وَبَاعَهُ اتِّسَاعًا، وَعِزَّتَهُ غَلَبَةً وَأَمْتِنَاعًا، فلا يبقى مجدٌ إِلَّا شَيْدَتُهُ معاليه ومكاريمه، ولا ملكٌ إِلَّا افْتَرَعَتْهُ صَرَائِمُهُ وَصَوَارِمُهُ^(٤).

وله فصل: لا زالت حياة الأحرار بفضلِهِ مُتَّسِمَةً، ووجوه المكارم بِغُرْرِ أَيْامِهِ مَبْتَسِمَةً، وأهواء الصُّدُورِ بِخِدْمَةِ وَدَّهِ مُرْتَسِمَةً، [وغنائم الشكر بين محاسن قوله وفعله مقتسمة].

(١) غَالَهُ غَوْلًا: أهلكه، أو أخذه من حيث لا يدري فأهلكه.

(٢) الشَّمَائِلُ: جمع شمال، وهي الخصلة.

(٣) الْكُمُونُ: يقال: كَمَنَ فِي الْمَكَانِ كُمُونًا: تَوَارَى، وَكَمَنَ لَهُ: اسْتَخْفَى فِي مَكْمَلٍ لَا يُفْطَنُ لَهُ.

(٤) الصَّرَائِمُ: جمع صريمة، وهي العزيمة، وإحكام الأمر. والصَّوَارِمُ: جمع صارم، وهو السيف القاطع.

وله: والله يُديم راية الأمير الجليل محفوفةً بالفلج والنصر، مكنوفة^(١) بالغلبة والقهر، حتى لا يزاوُل خطباً إلا تذلت به صِعباً، ولا يُمارَس أمراً إلا تيسرت أسبابه، ولا يروم حالاً إلا أدعن لهيته وسلطانته^(٢)، وخضع لسيفه وسنانه، وذلك لمعقد لوائه، ومُشّتي عنانه، إلى أن ينال من آماله أقاصيها، ويملك من مَبَاغِيهِ أَرْمَتَهَا ونواصيها [ويُسَامِي الشريا بعلو همته ويناصيها].

وله فصل: إنما أشكو إليك زماناً سلب ضِعْفَ ما وَهَب، وفجع بِأَكْثَر مما أُمْتَنع، وأوحش فوق ما آنس، وعنف في نزع ما ألبس؛ فإنه لم يُدْفِنَا حلاوة الاجتماع، حتى جَرَّعَنَا مرارة الفراق، ولم يمتعنا بأنس الالتقاء، حتى غادرنا رَهْنَ التلهُّف والاشتياق، والحمد لله تعالى على كل حال يُسيء ويسر، ويحلُو ويمرّر، ولا أَيْأس من رَوْحِ الله في إباحة صُنْع يجعل رَيْعَهُ مُنَاخِي^(٣)، وَيَقْصُر مدة البِعاد والتراخي، فألاحظ الزمانَ بعين راضٍ، وَيُقْبِلُ إليّ حَظِي بعد إعراض، وأستأنف بعزته عيشاً سابغ الذبول والأعطاف، رقيق المعاني والأوصاف، عَذِب الموارِد والمناهل، مأمون الآفات والغوائل^(٤).

وله فصل: أنا أسأل الله تعالى أن يردّ علي بردَ العيش الذي فَقَدْتُهُ، وفسحة السرور الذي عَهَدْتُهُ؛ فَيَقْصُر من الفراق أمدّه، ويعلو للالتقاء حكمه ويُدْهِ، ويرجع ذلك العهد الذي رَقَّتْ غلائله^(٥)، وَصَفَتْ من الأَفْدَاءِ مَنَاهِلُهُ^(٦)، فلم أُنْهَئْا بعده بأنس مقيم، ولا تعلقت يوماً إلا بعيش بهيم^(٧).

فَلَوْ تَسَرَّجُ الأَيْسَامُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بِذِي الأَثَلِ صَيْفاً مِثْلَ صَيْفِي وَمَرْبَعِي^(٨)
أَشْدُّ بِأَعْنَاقِ النُّوَى بَعْدَ هَذِهِ مَرَاتِرُ إِنْ جَاذَبَتْهَا لَمْ تَقْطَعْ^(٩)

- (١) الفلج: الظفر. مكنوفة: محوطة.
- (٢) لا يروم: لا يطلب. وأدعن: خضع وذلك.
- (٣) المناخ: موضع الإناخة، وأصلها برك الإبل، وأراد بها الإقامة.
- (٤) الغوائل: جمع غائلة، وهي الداهية، أو الفساد والشر.
- (٥) الغلائل: جمع غلالة، وهي الستر الرقيق.
- (٦) الأفداء: جمع قذى، مفردة قذاة: ما وقع في العين والشراب والماء من تراب وغيره. والمناهل: جمع منهل، وهو المورد، أي الموضع الذي فيه المَشْرَب.
- (٧) البهيم: الأسود، وليل بهيم: لا ضوء فيه إلى الصباح.
- (٨) ذو الأثل: موضع.
- (٩) المراتر: جمع مريرة، وهي طاقة الحبل، والعزيمة.

وما على الله بعزیز أن يُقَرَّبَ بعيداً، ويَهَبَ طالعاً سعيداً، ويُسهِّلَ عسيراً، ويفكَّ من رِقِّ الاشتياق أسيراً.

وله فصل من كتاب إلى أبي منصور عبد الملك الثعالبي:

قرأتُ خبرَ سلامته، فسَرَى السرورُ في الجوانح، واهتَزَّتْ النفسُ له اهتزازَ الغُصْنِ تحت البارح^(١):

أَلَيْسَ لِأَخْبَارِ الْأَحْبَةِ فَرَحَةٌ وَلَا فَرَحَةَ الْعِطْشَانِ فَاجَاءَهُ الْقَطَرُ
يَقُولُونَ: قَدْ أَوفَى لَوْفَتِ كِتَابِهِ فَتَنَتَّشَرُّ الْبُشْرَى وَيَنْشَرِحُ الصَّدْرُ
ثم سألت الله تعالى أن يحرسَ علينا سلامته سابعةَ الملابس والمطارف، موصولة التاليد بالمطارف.

وله فصل من كتاب تعزية عن أبي العباس بن الإمام أبي الطيب:

لئن كانت الرزية مُمِضَّةً^(٢) مؤلمة، وطُرُقُ العزاء والسلوة مُبْهِمة، لقد حَلَّتْ بساحةٍ من لا تَنْتَقِضُ بأمثالها مَرَائِرُهُ، ولا تَضَعُفُ عن احتمالها بَصَائِرُهُ، قد يَتَلَقَّاهَا بِصَدْرٍ فسيح، يحمي أن يبيح الحزنَ جنبه، وَصَبْرٍ مشيح^(٣)، يحمي أن يُجِبِّطَ الجزعَ أجره وثوابه؛ كيف لا وأدبُ الدين من عنده تُلْتَمَسُ، وأحكامُ الشرع من لسانه ويده تُستَفَادُ وَتُقْتَبَسُ، والعيون تَرُمُقُه في هذه الحالِ لِتَجْرِيَ على سَنَنِهِ، وتأخذ بأدابه وسُنَنِهِ؛ فإن تعزَّتْ القلوبُ فَيَحْسِبِ تماسكه عزاًوُها، وإن حسنت الأفعال فإلى حميد أفعاله ومذاهبه اعتزاًوُها.

[من شعر الميكالي]

جملة من شعره في تحسين القوافي والغزل.

قال:

عَذِيرِي مِنْ جُفُونِ رَامِيَاتٍ بِسَهْمِ السَّحَرِ مِنْ عَيْنِي غَزَالِ

(١) بارح: اسم فاعل من برح المكان: زال عنه وغادره. والبارح: الريح الحارة في الصيف.

(٢) مُمِضَّةٌ: مؤلمة، من مَضَّ مَضًّا، وَمَضِيضًا: ألمه.

(٣) مُشِيح: يقال: شاح في الأمر شِيحًا: جَدَّ، وأشاح وجهه أو بوجهه عنه: أَعْرَضَ مُبْدِيًا كُرْهًا أو ازدراءً.

غَزَانِي طَرْفُهُ حَتَّى سَبَانِي
لَأَنْتَصِرَنَّ مِنْهُ بِمَنْ غَزَالِي
وله أيضاً:

أَمَّا حَانَ أَنْ يَشْتَقِي الْمُسْتَهَامُ
يُجْمَعُ عَنْ سُؤْلِهِ هَيْبَةً
وَقَالَ أَيْضاً:

شَكَوْتُ إِلَيْهِ مَا الْآقِي فَقَالَ لِي:
فَلَوْ كَانَ حَقًّا مَا أَدْعَيْتَ مِنَ الْجَوَى
وَقَالَ أَيْضاً:

تَفَرَّقَ قَلْبِي فِي هَوَاهُ فَعِنْدَهُ
إِذَا ظَمِئْتُ نَفْسِي أَقُولُ لَهَا: أَسْقِنِي
وَقَالَ أَيْضاً:

شَافَهُ كَفِّي رَشَاءً
فَقُلْتُ إِذْ قَبَلَهَا
يَقْبُلَانِي مَا شَفَتِ
يَا لَيْتَ كَفِّي شَفَتِي

وقال:

يَا شَادِئاً غَابَ نَجْمُ الْحُنَنِ لَوْلَاهُ
وَلَاهُ رَقِّي ظَرْفٌ فِي شِمَائِلِهِ
أَرْحَمُ فَتَى مُذْنَقاً مَا إِنْ يُخْلَصُهُ
فَذُكَّانُ يُوسُفُ لِمَا مَاتَ وَلَاهُ
فَاشْتَطَّ فِي الْحَكَمِ لَوْلَا أَنْ تَوَلَاهُ
مِنْ غَمْرَةِ الْوَجْدِ إِلَّا أَنْتَ وَاللَّهِ^(٤)

[الاهتزاز لقضاء حوائج الناس]

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: حدثني أبو الهيثم بن السندي بن شاهك قال:

- (١) المستهام: المُحِبُّ المُشْتَاق. والزورة: الزيارة.
- (٢) جَمَعَمَ فلانٌ: لم يُبَيِّنْ كلامه. وَجَمَعَمَ الشَّيْءَ فِي صدره: أخفاه.
- (٣) الريق هنا: ماء الفم.
- (٤) الْمُذْنَقُ: الذي يراه الحب وأضناه.

قلت في أيام ولايتي الكوفة لرجل من أهلها لا يجفُّ قلمه ولا تستريح يده، ولا تسكن حركته في طلب حوائج الناس، وإدخال المنافع على الضعفاء، وكان رجلاً مُفَوَّهاً: أخبرني عن الشيء الذي هوّن عليك النَّصَب، وقوّاك على التَّعب، ما هو؟ قال: قد، والله، سمعتُ تغريدَ الأطيار بالأشجار على أفنان الأشجار، وسمعت [خَفَق] أوتار العيdan، وترجيع أصوات القيان، فما طرِبْتُ من صوت قطّ طرِبِي من ثناء حسن، على رجلٍ قد أحسن، ومن شاكر مُنعم، ومن شفاعية شفيح محتسب لطالب ذاكر.

فقال أبو الهيثم: فقلت له: لله أبوك! لقد حُشيتَ كرمًا فبأي شيء سهّلتَ عليك المُعاوَدَةُ والطلب؟ قال: لا أبلغ المجهود، ولا أسأل إلا ما يجوز، وليس صدقُ العذرِ بأكره إليّ من إنجاز الوعد، ولست لإكراه السائل بأكره مني لإجحاف المسؤول، ولا أرى الراغب أوجبَ حقاً عليّ للذي قدم من حُسن ظنه من المرغوب إليه للذي احتمل من كله. قال إبراهيم: ما سمعتُ كلاماً قط أشدّ مؤالفة لموضعه، ولا أليق بمكانه، من هذا الكلام.

[بين عميلة الفزاري وأسيد بن عتقاء]

وروى أبو بكر بن شقير النحوي عن أحمد بن عبيد قال:

كان أُسيد بن عتقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه وأشدّهم عارضة^(١) ولساناً، وطال عمره، ونكبّه دهره؛ فاختلت حاله، فخرج يتقل^(٢) لأهله؛ فمرّ عليه عميلة الفزاري، فسلم عليه، وقال: يا عم؛ ما أصاركَ إلى ما أرى؟ قال: بُخُلُ مثلك بماله، وصَوْنُ وجهي عن مسألة الناس. قال: أما والله لئن بقيتُ إلى غدٍ لأغيرنَّ من حالك ما أرى، فرجع ابن عتقاء إلى أهله فأخبرهم بما قال عميلة، فقالوا له: غرَّكَ كلامٌ غلام جُنَحَ ظلام فكأنما ألقموا فاهُ حجراً؛ فباتَ مُتَمَلِّماً بين رجاء ويأس، فلما كان السَّحر سَمِعَ رُغاء الإبل، وثُغاء الشاء، وصهيل الخيل، وَلَجِبَ الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا: عميلة قد ساق إليك ماله، فخرج ابن عتقاء له، فقسم ماله شطرين، وساهم عليه، فأنشأ ابن عتقاء يقول:

رَأَيْتُ عَلَى مَا بِي عُمِيلَةً فَاشْتَكَيْتُ إِلَى مَالِهِ حَالِسِي، أَسْرَ كَمَا جَهَرَ

(١) العارض: صفحة الخد، والثنية من الأسنان، ويقال: هو قوي العارضة: ذو جَلَدٍ وصرامةٍ وقُدرةٍ على الكلام، وذو بديهةٍ ورأيٍ جيّد.

(٢) يَتَقَلُّ لأهله: يطلب لهم البَقْل.

دَعَانِي فَوَاسَانِي، وَلَوْ ضَنَّ لَمْ يَلَمْ
فَقُلْتُ لَهُ خَيْرًا، وَأَثَبْتُ فِعْلَهُ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدَ اسْتَعِيرْتُ ثِيَابَهُ
غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحَسَنِ يَافِعًا
كَأَنَّ الثَّرِيَا عُلَّقَتْ فِي جَبِينِهِ
إِذَا قِيلَتِ الْعَوْرَاءُ أَغْضَى كَأَنَّهُ
عَلَى حِينٍ لَا بَدْوُ يُرَجَّى وَلَا حَضَرُ
وَأَوْفَاكَ مَا أُولِيتَ مَنْ ذَمٍّ أَوْ شُكْرُ
تَرَدَّى بِثَوْبٍ سَابِغِ الذِّلِّ وَاتَزَرَ^(١)
لَهُ سِيمِيَاءٌ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ^(٢)
وَفِي أَنْفِهِ الشَّعْرَى وَفِي خَدِّهِ الْقَمَرُ
ذَلِيلٌ بِلَا ذُلٍّ، وَلَوْ شَاءَ لَا تَنْصَرُ^(٣)

[من غرر المدائح]

وأنشد أبو حاتم عن أبي عبيدة للعَرَنَدَس أحد بني بكر بن كلاب يمدح بني عمرو الغنويين، وكان الأصمعي يقول: هذا من المحال، كلابي يمدح غَنَوِيًّا

هَيُّنُونَ لَيُّنُونَ أَيْسَارُ ذَوُو كَرَمٍ
إِنْ يَسْأَلُوا الْعُرْفَ يُعْطَوْهُ، وَإِنْ خُبِرُوا
لَا يَطْفَوْنَ عَنِ الْأَهْوَاءِ إِنْ نَطَقُوا
مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقَلُّ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ
مِنْهُمْ وَفِيهِمْ يُعَدُّ الْخَيْرُ مُتْلَدًا
سُؤَاسٌ مَكْرُمَةٌ أَبْنَاءُ أَيْسَارٍ
فِي الْجَهْدِ أُدْرِكُ مِنْهُمْ طَيْبُ أَخْبَارِ^(٤)
وَلَا يُمَارُونَ إِنْ مَارَوْا بِإِكْشَارِ^(٥)
مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي
وَلَا يُعَدُّ ثَنَا خَزْيٍ وَلَا عَارِ^(٦)

[ضُرُوفُ الدَّهْرِ]

فصل لبعض الكتاب - ما تعجبك مما لقيت من الْحَيْفِ^(٧) ! هل ضمن الدهرُ أن يُنْصَفَ ولا يَحِيفَ^(٨)، أو يُبْرَمَ فلا يَنْقُضَ، أو يُعَافِيَ فلا يُمْرِضَ، أو يصفو فلا يكدر، أو يقي فلا

(١) تردى بالثوب: لبسه.

(٢) سيمياء: سيما: علامة.

(٣) العوراء: الكلمة القبيحة.

(٤) العُرف: المعروف.

(٥) ماراه مرأه، ومُماراة: ناظره وجادله، ومارى فلاناً: خالفه وتلوى عليه، وتمارى في الشيء: شك فيه.

(٦) ثنا خزى: يقال: نث الخبر ثناً: أفشاه وحقه أن يكتم، وثنا الحديث: بثه.

(٧) الحيف: الظلم.

(٨) يحيف: يجور ويظلم.

يَغْدِر؟ قَدَّرَ أَنْ تَغْدِبَ لِي مَشَارِبُهُ، وَتَكِلَنَ لِي جَوَانِبُهُ، فَحُكِّمُ الدُّنْيَا لَا تَتْرَكَ حَامِداً لَهَا إِلَّا أَسْكَنَتْهُ، وَلَا ضَاحِكاً إِلَّا أَبْكَيْتَهُ، أَقْوَى مَا كَانَ بِهَا ثِقَةٌ، وَأَشَدُّ مَا كَانَ لَهَا مِقَّةٌ^(١)، وَأَوْكَدُ مَا كَانَ رُكُوناً إِلَيْهَا، وَأَعْظَمُ مَا كَانَ حِرْصاً عَلَيْهَا.

[مَنْ لَا يُوفِّي النِّعَمَ حَقَّهَا]

وقال بعض الكتاب يصف رجلاً بالذم:

مَا ظَنَنْتُكَ بِمَنْ يَعْنِفُ بِالنِّعَمِ عَنَفَ مَنْ سَاءَتْهُ مَجَاوِرَتُهَا، وَيَسْتَخْفِ بِحَقِّهَا اسْتِخْفَافَ مَنْ ثَقُلَ عَلَيْهِ حَمْلُهَا، وَيَطْرَحُ الشُّكْرَ عَلَيْهَا أَطْرَاحَ مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّ الشُّكْرَ يَرْتَبِطُهَا.



[عَوْدُ إِلَى غُرْرِ الْمَدَائِحِ]

لَأَبِي الشَّيْصِ

وقال أبو الشيص^(٢):

يَا مَنْ تَمَنَّى عَلَى الدُّنْيَا مَبَالِغَهَا هَمِيلاً سَأَلْتَ أَبَا بَشِيرٍ فَتُعْطَاهَا
مَا هَبَّتِ الرِّيحُ إِلَّا هَبَّ نَائِلُهُ وَلَا ارْتَقَى غَسَايَةَ إِلَّا تَخْطَاهَا
غيره:

طِلَابُ الْعُلَا إِلَّا عَلَيْكَ يَسِيرُ وَبَاعُ الْأَعَادِي عَنْ مَمْدَاكَ قَصِيرُ
إِذَا عُدَّ أَهْلُ الْفَضْلِ كُنْتَ الَّذِي لَهُ وَلِلْفَضْلِ فِيهِ أَوَّلٌ وَأَخِيرُ

لَأَبِي الْحَجَنَاءِ

وقال أبو الحجناء الأصغر نصيب^(٣) يصف إسحاق بن صباح:

(١) المِقَّةُ: الْحُبُّ أَوْ أَشَدُّهُ.

(٢) هو أبو جعفر، محمد بن عبد الله بن رزين بن سليمان بن تميم الخزاعي، ويلقب بأبي الشيص: شاعر مطبوع، سريع الخاطر، رقيق الالفاظ، وهو ابن عم دعل الخزاعي الشاعر المشهور. اتصل بالرشيد ومدحه، وقتله بعض غلمانه وهو سكران سنة ١٩٦ هـ/٨١١ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٧٢١/٢؛ ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٧٢؛ البغدادي، تاريخ بغداد: ٤٠١/٥).

(٣) هو أبو الحجناء، نصيب الأصغر، مولى المهدي: عبد نشأ بالجماعة، واشترى للمهدي في حياة =

كَأَنَّ ابْنَ صَبَاحٍ، وَكِنْدَةَ حَوْلَهُ إِذَا مَا بَدَأَ، بَذَرَ تَوَسَّطَ أَنْجُمَا
عَلَى أَنَّ فِي الْبَدْرِ الْمَحَاقَ، وَإِنْ ذَا تَمَامٌ فَمَا يَزْدَادُ إِلَّا تَتَمُّمَا^(١)
تَرَى الْمُنْبَرِ الْغَرْبِيِّ يَهْتَزُّ تَحْتَهُ إِذَا مَا عَلَا أَعْوَادُهُ وَتَكَلَّمَا
فَأَنْتَ ابْنُ خَيْرِ النَّاسِ إِلَّا نُبُوَّةٌ وَمِنْ قَبْلِهَا كُنْتَ السَّنَامُ الْمُقَدَّمَا

لنصيب في البرامكة

وَنُصِيبُ هُوَ الْقَائِلُ فِي الْبِرَامِكَةِ، وَكَانَ مُنْقَطِعاً إِلَيْهِمْ:

عِنْدَ الْمَلُوكِ مَضَرَّةٌ وَمَنَافِعُ وَأَرَى الْبِرَامِيكَ لَا تَضُرُّ وَتَنْفَعُ
إِنَّ الْعُرُوقَ إِذَا اسْتَسَرَّ بِهَا الثَّرَى أَثَّ النَّبَاتُ بِهَا وَطَابَ الْمَرْزَعُ^(٢)
فَإِذَا جَهَلْتَ مِنْ أَمْرِيءِ أَغْرَاقَهُ وَقَدِيمَهُ فَانْظُرْ إِلَى مَا يَصْنَعُ^(٣)
أَخِذْ هَذَا مِنْ قَوْلِ سَلَمِ الْخَاسِرِ:

لَا تَسْأَلِ الْمَرْءَ عَنْ خِلَاقِهِ فِي وَجْهِهِ شَاهِدٌ مِنَ الْخَبَرِ

لنصيب في بني سليمان بن علي

وَقَالَ نُصِيبُ فِي بَنِي سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ:

بَنِي سُلَيْمَانَ حُزْتُمْ كُلُّ مَكْرُمَةٍ وَلَيْسَ فَوْفُكُمْ فَخْرٌ لِمُقْتَحِرِ
لَا تَسْأَلِ الْمَرْءَ يَوْمًا عَنْ خِلَاقِهِ فِي وَجْهِهِ شَاهِدٌ يُبَيِّنُكَ عَنْ خَبَرِ
حَسْبُ أَمْرِيءِ شَرَفًا أَنْ سَادَ أُسْرَتَهُ وَأَنْتَ سُدَّتَ جَمِيعَ الْجَنِّ وَالْبَشَرِ

= المنصور، فلما سمع شعره قال: والله ما هو بدون نصيب مولى بني مروان، فأعتمقه، وزوجه جارية له يقال لها: جعفره، وكناه أبا الحجناء، وأقطعه ضيعة بالسواد، وعُمِّر بعده. (الأصفهاني، الأغاني: ٤٠٠/٢٢).

(١) المحاق ما يرى في القمر من نقص في جرمه وضوئه بعد انتهاء ليالي اكتماله.

(٢) أثَّ النبات: كثر والنفث. وفي الأغاني (٤٢٧/٢٢): «أَشْرَ النَّبَاتُ».

(٣) في الأغاني: «فإذا نكرت». وقيل: إن أبا محمد إسحاق بن إبراهيم أنشد الفضل بن يحيى هذه الأبيات، فقال: كأني والله لم أسمع هذه الأبيات إلا الساعة، وماله عندي إلا أني لم أكافئه عليها، فقال أبو محمد: وكيف ذلك أصلحك الله، وقد وهبت له ثلاثين ألف درهم؟ فقال: لا والله، ما ثلاثون ألف دينار بمكافأة له، فكيف ثلاثون ألف درهم؟

سَأَلَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ رَجُلًا حَاجَةً، فَلَمْ يَقْضِهَا، وَسَأَلَ آخَرَ، فَقَضَاهَا، فَقَالَ لِلأَوَّلِ:

دُمِيتَ وَلَمْ تُحْمَدْ، وَأَبُتْ بِحَاجَةٍ تَوَلَّى سِوَاكُمْ شُكْرَهَا وَاضْطِنَاعَهَا
أَبَى لَكَ فِعْلَ الْخَيْرِ رَأْيِي مُقَصَّرٌ وَنَفْسٌ أَضَاقَ اللَّهُ بِالْبَخْلِ بِأَعْمَارِهَا^(١)
إِذَا مَا أَرَادَتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً عَصَاهَا، وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ أَطَاعَهَا

[فَعَلَاتُ الْأَجْوَادِ]

هشام بن عبد الملك

قال رجلٌ لهشام بن عبد الملك: قد افتقرتُ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى ظَهْوَرِ حُسْنِ رَأْيِكَ، فَإِنْ رَأَيْتَ إِظْهَارَهُ بِسُرورِ الصَّدِيقِ، وَرَغَمِ الْعَدُوِّ، فَعَلْتَ، قَالَ هِشَامُ: أَوْجِزْتَ وَمَلَحْتَ فِيمَا سَأَلْتُ؛ فَلَا تَرُدُّ لَكَ طَلِيَّةً، فَمَا سَأَلَهُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ أَكْثَرَ مِنْهُ.

عمرو بن مسعدة

قال حميد بن بلال: وُلِيَ عَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ فَارِسَ وَكِرْمَانَ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، لَوْ كَانَ الْحَيَاءُ يُظْهِرُ سُؤَالَكَ لِدَعَاكَ حَيَاثِي مِنْ كَرَمِكَ فِي جَمِيعِ أَهْلِكَ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَيَّ بِمَا يَكْثُرُ بِهِ حَسَدُ عَدُوِّي، دُونَ أَنْ أَسْأَلَكَ، فَقَالَ عَمْرُو: لَا تَتَّبِعْ ذَلِكَ بِإِبْتِدَالِكَ مَاءَ وَجْهِكَ، وَنَحْنُ نُغْنِيكَ عَنْ إِرَاقَتِهِ فِي خَوْضِ السُّؤَالِ، فَارْفَعْ مَا تَرِيدُهُ فِي رُقْعَةٍ يَصِلُ إِلَيْكَ مِرًّا، فَفَعَلَ.

مُحَمَّدُ بْنُ طَيْفُورٍ

وقال رجل من أهل فارس قدم على مُحَمَّدِ بْنِ طَيْفُورٍ، وَهُوَ عَامِلٌ عَلَى بِلَادِ أَصْبَهَانَ لِبَعْضِ أَهْلِهَا: كَمْ تَقْدَرُونَ صَلَاتِ مُحَمَّدٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ لِلشُّعْرَاءِ وَالْمَتَوَسِّلِينَ؟ قَالُوا: مِائَةُ أَلْفٍ دِينَارٍ، سِوَى الْخِلْعِ وَالْحِمْلَانِ.

وورد عليه يوماً كتابٌ من بعض إخوانه في شأن رجل استماحه له في دَرَجِهِ^(٢): أَنْتَ

(١) الباع: مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يميناً وشمالاً، ويقال: فلان طويل الباع: طويل الجسم، وطويل الباع في كذا: بلغ الغاية فيه.

(٢) الدَّرَجُ: يقال: نحن دَرَجُ يديك: طوع يديك، وأنفدته في درج كتابي: في طَيِّهِ. والدَّرَجُ: الورق الذي يُكْتَبُ فيه. واستماحه: سأله أن يعطيه أو يشفع له.

أَعَزَّكَ اللهُ تَعَالَى أَجَلَ مَنْ أَنْ يُتَوَسَّلَ بِغَيْرِكَ إِلَيْكَ، وَأَنْ يُسْتَمَاحَ جُودُكَ إِلَّا بِكَ، غَيْرَ أَنِّي أَذْكُرُ بِكِتَابِي فِي أَمْرِ حَامِلِهِ، مَا شَرَعَ كَرْمُكَ [مِنَ الشُّكْرِ] وَزَرَعَ إِحْسَانَكَ مِنَ الْأَجْرِ، قَبْلَ الصَّادِرِينَ وَالْوَارِدِينَ؛ فَهَئَاكَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ، وَلَا زَالَتْ يَدُ اللهِ بِجَمِيلِ إِحْسَانِهِ وَنِعْمَتِهِ مُتَوَاتِرَةً عَلَيْكَ.

فَقَالَ مُحَمَّدٌ لِلرَّجُلِ: احْتَكَمْ لَكَ وَلَهُ؛ فَأَخَذَ مِنْهُ أَلْفَ دِينَارٍ، وَلَمْ يَنْ كُتِبْ لَهُ مِثْلُهَا.

إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ

وَقَالَ رَجُلٌ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ: قَدْ أَوْحَشَنِي مِنْكَ تَرَدُّدُ غَلِيلٍ فِي صَدْرِي أَهَابُكَ عَنْ إِظْهَارِهِ، وَأَجَلَّكَ عَنْ كَشْفِهِ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: لَكِنِّي أَكْشَفُ لَكَ مَعْرُوفِي، وَأُظْهِرُ إِحْسَانِي؛ فَإِنْ يَكُنْ غَيْرُ هَذَيْنِ فِي خَلْدِكَ، فَاكْتُبْ رَقْعَةً يَخْرُجُ تَوْقِيعِي سِرًّا لِتَقِفَ عَلَى مَا تَحِبُّ، فَبَلَغَ كَلَامُهُ الْمَهْدِيَّ فَقَالَ: هَذَا وَاللهُ غَايَةَ الْكَرَمِ.

مُحَمَّدُ بْنُ طَيْفُورٍ

وَكُتِبَ مُحَمَّدُ بْنُ طَيْفُورٍ لِبَعْضِ خَاصَّتِهِ بِمَالٍ كَثِيرٍ وَصَلَهُ بِهِ، فَكُتِبَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ: قَدْ اسْتَغْرَقَتْ نِعْمَتُكَ وَجُوهَ الشُّكْرِ لَكَ، وَغَرَزَ الْحَمْدُ فِيمَا سَلَفَ مِنْكَ، وَلَوْلَا قَرُطُ عَجْزِي عَنْ تَلْقَائِي مَا يَجِبُ لَكَ مِنَ الْحَمْدِ لَقَبِلْتُ مَا أَنْفَذْتَهُ.

فَكُتِبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ: قَدْ صَغُرَ شُكْرُكَ لَنَا مَا أَسْلَفْنَاهُ إِلَيْكَ؛ فَخُذْ مَا أَنْفَذْنَاهُ ثَوَابًا عَنْ مَعْرِفَتِكَ بِشُكْرِ الثَّافَةِ عِنْدِي، وَإِلَّا سَمَحَ شُكْرُكَ بِمَا رَأَيْنَاكَ لَهُ أَهْلًا إِلَى أَنْ يَتَسَعَ قَبُولُ مِثْلِكَ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ جَمِيلَ الدُّعَاءِ، وَجَزِيلَ الثَّنَاءِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

[مِنْ نَوَادِرِ الرِّثَاءِ]

قُرْدُ زُبَيْدَةَ بِنْتِ جَعْفَرٍ

وَلَمَّا مَاتَ قُرْدُ زُبَيْدَةَ بِنْتِ جَعْفَرٍ سَاءَهَا ذَلِكَ، وَنَالَهَا مِنَ الْغَمِّ مَا عَرَفَهُ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ مِنْ خَاصَّتِهَا، فَكُتِبَ إِلَيْهَا أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ:

أَيُّهَا السَّيِّدَةُ الْخَطِيرَةُ؛ إِنَّ مَوْعَ الْخَطْبِ بِذَهَابِ الصَّغِيرِ الْمَعْجَبِ كَمَوْعِ السَّرُورِ بِتَيْلِ الْكَثِيرِ الْمُفْرِحِ، وَمَنْ جَهِلَ قَدْرَ التَّعْزِيَةِ عَنِ الثَّافَةِ الْخَفِيِّ، عَمِيَ عَنِ التَّهْتَةِ بِالْجَلِيلِ السَّنِيِّ، فَلَا نَقْصَكَ اللهُ الزَّائِدَ فِي سُرُورِكَ، وَلَا حَرَمَكَ أَجَرَ الْذَاهِبِ مِنْ صَغِيرِكَ.

فَأَمَرَتْ لَهُ بِجَائِزَةٍ.

ثور ابن قريعة

وكتب أبو إسحاق الصايبي عن ابن بنية في أيام وزارته إلى أبي بكر بن قريعة يُعزِّيه عن ثور أبيض بقوله، وجلس للعزاء عنه تَرَأُّعاً وتَحَامُقاً:

التعزيةُ على المفقود أطال الله بقاء القاضي إنما تكون بحسب محلّه من فاقده، من غير أن تُرَاعَى قيمتهُ ولا قدرُهُ، ولا دَاتهُ ولا عَيْتهُ؛ إذ كان الغرض فيها تبريدَ الغلّة، وإخْصَادَ اللّوْعَةِ، وتسكين الزَّفَرَةِ، وتَنفِيسِ الكُرْبَةِ، فَرُبَّ وَلَدٍ عاق، وشقيق مُشاقٍّ^(١)، وذو رحم أصبح لها قاطعاً، [ولأهله فاجعاً]، وقريب قوم قد قلّدهم عاراً، وناطَ بهم شَنَاراً، فلا لَوْمَ على ترك التعزية عنه، وأخر بها أن تستحيل تهنةً بالراحة منه؛ وربّ مالٍ صامتٍ غير ناطقٍ، قد كان صاحبه به مستظهِراً، وله مُسْتَشْمِرٌ، فالفجعةُ به إذا فقد موضوعةً موضعها، والتعزيةُ عنه واقعةٌ منه موقعها. وقد بلغني أن القاضي أصيب بثور كان له، فجلس للعزاء عنه شاكياً، وأجْهَشَ عليه باكياً، والندم عليه وَالِهَا^(٢)، وحُكيت عنه حكاياتٌ في التآيين له، وإقامة التذبة عليه، وتعميد ما كان فيه من فضائل البقر التي تفرقت في غيره، واجتمعت فيه وَحْدَهُ؛ فصار كما قال أبو نواس، في مثله من الناس^(٣):

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ^(٤)

لأنه يَكْرُبُ الأرض مغمورة^(٥)، ويُمِيرُها مزروعة، ويرقص في الدواليب ساقياً وفي الأرحاء طاحناً^(٦)، ويحملُ الغلّاتِ مستقلاً، والأثقالَ مستخفاً؛ فلا يُوْودُهُ^(٧) عظيم، ولا يُعْجِزُهُ جسيم، ولا يجري في الحائط^(٨) مع شقيقه، ولا في الطريق مع رفيقه، إلّا كان جَلْدًا لا يُسْبِقُ، ومبرّزاً لا يُلْحَقُ، وفائتاً لا يُنَالُ شأوه وغايته، ولا يبلغ مداه ونهايته. ويشهدُ الله

(١) شقيق مُشاقٍّ: مُخَالَفٌ، مُعَادٍ، وشأفه: خالفه وعاداه.

(٢) التدم الرجل: اضطرب، والتدمت المرأة: ضربت صدرها ووجهها. الواله: الشديد الحزن.

(٣) أبو نواس، الديوان: ص ٤٥٤.

(٤) في الديوان: «وَلَيْسَ لَهِ بِمُسْتَنْكَرٍ».

(٥) يكرّب الأرض: يُمِيرُها للزراع.

(٦) الأرحاء، والرّحِي، والأَرْحِيَّةُ: جمع الرّحَا: الأداة التي يُطْحَنُ بها، وهي حجران مستديران،

يوضع أحدهما على الآخر، ويُدَارُ الأعلى على قطب.

(٧) يُوْودُهُ: يُثْقِلُهُ ويجهده.

(٨) الحائط هنا: البستان.

أَنْ مَا سَاءَ سَاءَنِي، وَمَا آَلَمَ آَلَمِي، وَلَمْ يَجْزْ عِنْدِي فِي حَقِّ وَدِّهِ اسْتِصْغَارُ خَطْبٍ جَلٍّ عِنْدَهُ، فَارْقُهُ وَأَمْضُهُ وَأَقْلِقُهُ، وَلَا تَهْوِينُ صَعْبٍ بَلَغَ مِنْهُ وَأَرْمَضُهُ، وَشَقَّ وَأَمْرَضُهُ؛ فَكَتَبْتُ هَذِهِ الرِّقْعَةَ، قَاضِيًا بِهَا مِنَ الْحَقِّ فِي مَصَابِهِ هَذَا بِقَدْرِ مَا أَظْهَرَ مِنْ إِكْبَارِهِ إِيَّاهُ، وَأَبَانَ مِنْ إِعْظَامِهِ لَهُ؛ وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَخْصَّهُ مِنَ الْمَعْضُومَةِ بِأَفْضَلِ مَا خَصَّ بِهِ الْبَشَرَ، عَنِ الْبَقْرِ، وَأَنْ يُقَرِّدَ هَذِهِ الْبَهِيمَةَ الْعِجْمَاءَ بِأَثَرَةٍ مِنَ الثَّوَابِ، يَضِيفُهَا إِلَى الْمَكْلُوفِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَلْبَابِ^(١)؛ فَإِنَّهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ، فَقَدْ اسْتَحَقَّتْ أَلَّا تُفْرَدَ عَنْهُمْ، بَأَنْ مَسَّ الْقَاضِي سَبِيحُهَا، وَصَارَ إِلَيْهِ مُتَسَبِّحُهَا، حَتَّى إِذَا أَنْجَزَ اللَّهُ مَا وَعَدَ بِهِ [عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ] مِنْ تَمْحِصِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَتَضْعِيفِ حَسَنَاتِهِمْ، وَالْإِفْضَاءِ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي رَضِيَهَا لَهُمْ دَارًا، وَجَعَلَهَا لِحِمَايَتِهِمْ قَرَارًا؛ وَأُورِدَ الْقَاضِي - أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى - مَوَارِدَ أَهْلِ النَّعِيمِ، مَعَ أَهْلِ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، جَاءَ وَثُورُهُ هَذَا مَجْنُوبٌ مَعَهُ، مَسْمُوحٌ لَهُ بِهِ؛ وَكَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا الْخَبْثُ، وَلَا يَكُونُ مِنْ أَهْلِهَا الْحَدِثُ، وَلَكِنَّهُ عَرَقٌ يَجْرِي مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ ثُورَ الْقَاضِي مَرْكَبًا مِنَ الْعَبِيرِ الشَّخْرِيِّ، وَمَاءِ الْوَرْدِ الْجُورِيِّ؛ [فَيَصِيرُ ثُورًا لَهُ طَوْرًا؛ وَجُودَةً عَطِرًا]^(٢) لَهُ طَوْرًا] وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُسْتَبْعَدٍ وَلَا مُسْتَكْرٍ، وَلَا مُسْتَصْعَبٍ وَلَا مُتَعَدَّرٍ؛ إِذْ كَانَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ مُحِيطَةً، وَمَوَاعِيدُهُ لِأَمثَالِهِ ضَامِنَةً، بِمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ لِعِبَادِهِ الصَّادِقِينَ، وَأَوْلِيَائِهِ الصَّالِحِينَ؛ وَمِنْ شَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ وَمَلَذَّاتِ أَعْيُنِهِمْ، وَمَا هُوَ سَبْحَانَهُ مَعَ غَامِرِ فَضْلِهِ وَفَائِضِ كَرَمِهِ، بِمَنْعِهِ ذَلِكَ مَعَ صَالِحِ مَسَاعِيهِ، وَمَحْمُودِ شَيْمِهِ؛ وَقَلْبِي مُتَعَلِّقٌ بِمَعْرِفَةِ خَبْرِهِ، أَدَامَ اللَّهُ عَزَّهِ فِيمَا أَقْرَعَهُ مِنْ شُعَارِ الصَّبْرِ، وَاحْتَفَظَ بِهِ مِنْ إِثَارِ الْأَجْرِ، وَرَفَعَ إِلَيْهِ مِنَ السَّكُونِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الَّذِي طَرَقَهُ، وَالشُّكْرَ لَهُ فِيمَا أَرْعَجَهُ وَأَقْلَقَهُ، فَلْيَعْرِفْنِي الْقَاضِي مِنْ ذَلِكَ مَا أَكُونُ ضَارِبًا مَعَهُ بِسَهْمِ الْمُسَاعَدَةِ عَلَيْهِ، وَآخِذًا بِقِسْطِ الْمَشَارَكَةِ فِيهَا.

فصل من جواب أبي بكر: وصل توقيع سيدنا الوزير أطلال الله بقاه، وأدام تأييده ونعمائه، وأكمل رفعتة وعلاؤه، وخرس مُهْجَتَهُ وَوَقَاهُ، بِالْتَّعْزِيَةِ عَنِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ، الَّذِي كَانَ لِلْحَرِثِ مَثِيرًا، وَلِلدَّوَالِبِ مُدِيرًا، وَبِالسَّبْقِ إِلَى سَائِرِ الْمَنَافِعِ شَهِيرًا، وَعَلَى شِدَائِدِ الزَّمَانِ مُسَاعِدًا وَظَهِيرًا^(٣). لَعَمْرُكَ لَقَدْ كَانَ يَعْمَلُهُ نَاهِضًا، وَلِحِمَاقَاتِ الْبَقْرِ رَافِضًا، وَأَتَى لَنَا بِمِثْلِهِ وَشَرَّوَاهُ^(٤)، وَلَا شَرَّوَى لَهُ؛ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَعْيَانِ الْبَقْرِ، وَأَنْفَعِ أَجْنَاسِهِ لِلْبَشَرِ، مُضَافٌ ذَلِكَ إِلَى

(١) الألباب: العقول، واحدها لب.

(٢) الجونة: سلة صغيرة تُغْشَى بِالْجِلْدِ، تَكُونُ مَعَ الْعَطَارِينَ.

(٣) الظَّهِيرُ: الْمُعِينُ.

(٤) الشَّرَّوَى: الْمِثْلُ وَالنَّظِيرُ.

خَلَّاتٍ لَوْ لَا خَوْفِي مِنْ تَجَدُّدِ الْحَزْنِ عَلَيْهِ، وَتَهْيِيجِ الْجَزَعِ وَانْصِرَافِهِ إِلَيْهِ لَعَدَدْتُهَا؛ لِيَعْلَمَ - أَدَامَ اللَّهُ عَزَّهُ - أَنَّ الْحَزِينَ عَلَيْهِ غَيْرُ مَلُومٍ. وَكَيْفَ يُلَامُ امْرُؤٌ فَقَدَ مِنْ مَالِهِ قِطْعَةً يَجِبُ فِي مِثْلِهَا الزَّكَاةُ، وَمَنْ خَدَمَ مَعِيشَتَهُ بِهَيْمَةِ تُعِينُ عَلَى الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، وَقَدْ احْتَذَيْتُ مَا مِثْلُهُ الْوَزِيرُ مِنْ جَمِيلِ الْإِحْتِسَابِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمُصَابِ؛ فَقُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ قَوْلَ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ أَمْلَكَ لِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئاً دُونَهُ؛ إِذْ كَانَ جَلًّا ثَنَاؤُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، هُوَ الْمَلِكُ الْوَهَّابُ، الْمُرْتَجِعُ مَا ارْتَجَعَ مِمَّا يَعُوضُ عَلَيْهِ نَفِيسَ الثَّوَابِ. وَقَدْ وَجَدْتُ - أَيْدُ اللَّهِ الْوَزِيرَ - لِلْبَقْرِ خَاصَّةً فَضِيلَةً عَلَى سَائِرِ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، تَشْهَدُ بِهَا الْعُقُولُ وَالْأَفْهَامُ، وَذَكَرَ جُمْلَةً مِنْ فَضَائِلِهَا.

* * *

وَكَأَنَّ أَبَا نَوَاسٍ فِي قَوْلِهِ:

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنَّ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ
نَظَرَ فِي هَذَا الْمَعْنَى إِلَى قَوْلِ جَرِيرٍ^(١):
إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَبِطَتِ النَّاسَ كُلُّهُمْ غَضَابَا

[عَوْدٌ إِلَى الْمَخْتَارِ مِنَ الرِّثَاءِ]

لَامْرَأَةِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ

وَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْعَرَبِ، يَقَالُ: إِنَّهَا امْرَأَةُ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ، تَرْتِي بَنِيهَا^(٢):

رَعَوْا مِنَ الْمَجْدِ أَكْنَافاً إِلَى أَجْلِ حَتَّى إِذَا كَمَلْتُ أَظْمَأُوهُمْ وَرَدُّوا
مَيِّتٌ بِمَصْرٍ، وَمَيِّتٌ بِالْعِرَاقِ، وَمَيِّتٌ سِتٌّ بِالْحِجَازِ، مَنَآيَا بَيْنَهُمْ بَدَدٌ^(٣)
كَانَتْ لَهُمْ هِمَمٌ فَرَّقْنَ بَيْنَهُمْ إِذَا الْقَعَادِيدُ عَنْ أَمْثَالِهِمْ قَعَدُوا^(٤)
بَثَّ الْجَمِيلِ، وَتَفَرَّجُ الْجَلِيلِ، وَإِعْدُ طَاءَ الْجَزِيلِ الَّذِي لَمْ يُعْطِهِ أَحَدٌ^(٥)

- (١) جرير، الديوان: ص ٦٤. والبيت من قصيدة يهجو بها الراعي النميري.
- (٢) وتنسب هذه الأبيات أيضاً إلى فاطمة بنت الأحجم الخزاعية.
- (٣) بدد: يقال: بدد الشيء فرقه، وتبدد القوم الشيء: اقتسموه حصصاً.
- (٤) القعايد: جمع قعد، وهو الجبان، والخامل يقعد عن المكارم.
- (٥) ويروى هذا البيت لأم معدان الأعرابية (العمدة: ٢١٥/١)، وفيه: «فعل الجميل وتفريج الجليل...».

وقال عبدة بن الطبيب^(١) بن قيس بن عاصم:

عَلَيْكَ سَلامُ اللَّهِ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا
تَحِيَّةَ مَنْ أَلْبَسَتْهُ مِنْكَ نِعْمَةً إِذَا زَارَ عَنْ شَحْطِ بِلَادِكَ سَلَمًا^(٢)
فَمَا كَانَ قَيْسٌ هَلُكُهُ هَلُكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بَيَّانُ قَوْمٍ تَهْدَمَا^(٣)
وقيس بن عاصم هو القائل:

إِنِّي أَمْرٌ لَا يَغْتَرِي حَسَبِي دَلَسٌ يُغَيِّرُهُ وَلَا أَفْنُ^(٤)
مِنْ مَنَقَرٍ فِي بَيْتٍ مَكْرُمَةٍ وَالْأَصْلُ يَنْبِتُ حَوْلَهُ الْغُضُنُ
خُطْبَاءَ حِينَ يَقُولُ قَائِلُهُمْ يَبْضُ الْوُجُوهُ أَعْفَى لُسْنُ
لَا يَقْطِنُونَ لِعَيْبِ جَارِهِمْ وَهُمْ لِحُسْنِ جَوَارِهِ فُطُنُ

لأخت الوليد بن طريف

وقالت أخت الوليد بن طريف الشيباني ترثيه:

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ
فَتَى لَا يَعُدُّ الزَادَ إِلَّا مِنَ النَّقَى وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنَاءٍ وَسُيُوفٍ
عَلَيْكَ سَلامُ اللَّهِ وَقَفَا؛ لَأَتْنِي أَرَى الْمَوْتَ وَقَاعًا بِكُلِّ شَرِيفٍ
فَقَدْ نَاكَ فَقْدَانُ الرِّيعِ، وَلَيْتَنَا قَدَيْتَاكَ مِنْ فِتْنَانَا بِأَلُوفٍ

لبكر بن النطاح

وخرج الوليد في أيام الرشيد، فقتله يزيد بن مزيّد، وفي ذلك يقول بكر بن النطاح الحنفي^(٥):

(١) هو عبدة بن يزيد (الطبيب) بن عمرو بن وعلة بن أنس بن عبد الله، من تميم: شاعر فحل، مجيد، غير مكثّر. أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم، ويقال: إنه ترفع عن الهجاء، وترك اللجوء إليه، لما في تركه من مروءة وشرف. توفي نحو ٢٥ هـ / ٦٤٥ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٦١٣/٢؛ الأصفهاني، الأغاني: ٢٨/٢١).

(٢) عن شحط: عن بُعْد.

(٣) الأبيات الثلاثة في العمدة: ١٥٣/٢. ويقال: إِنَّ قَوْلَهُ: «فَمَا كَانَ قَيْسٌ هَلُكُهُ...». هو أرثى بيت قالته العرب.

(٤) الْأَفْنُ: نقصان العقل.

(٥) هو أبو وائل، بكر بن النطاح بن أبي حمار الحنفي: شاعر بصري غزل، نزل بغداد في زمن =

يَا بَنِي تَغْلِبَ لَقَدْ فَجَعْتُكُمْ مِنْ يَزِيدٍ سُوفُهُ بِالْوَلِيدِ
لَوْ سِوْفٌ سِوَى سُوفِ يَزِيدٍ قَارَعَتْهُ لَأَقَتْ خِلَافَ السُّعُودِ^(١)
وَأَتَرَ بَعْضُهَا يُقْتَلُ بَعْضًا لَا يَقُلُّ الْحَدِيدُ غَيْرَ الْحَدِيدِ^(٢)

* * *

[من شعر بكر بن النطاح]

وكان بكر كثير التعصب لربيعة والمدح فيهم، وهو القائل^(٣):

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعْشِ بِحُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلِ
وَنَحْنُ وَصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِشِدَّةِ بَأْسٍ فِي الْكِتَابِ الْمُتَزَّلِ^(٤)
وَإِنَّا لَنَلْهُو بِالسُّيُوفِ كَمَا لَهَتْ فَتَاةٌ بِعَقْدٍ أَوْ سَخَابٍ قَرَنُفَلِ^(٥)

يريد قول الله عز وجل: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾^(٦). جاء في بعض التفاسير أنهم بنو حنيفة قوم مُسلمة الكذاب.

ويكر القائل أيضاً في أبي دلف:

يَا عِصْمَةَ الْعُرَبِ الَّذِي لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا لَقَدْ كَانَتْ بِغَيْرِ عِمَادِ
إِنَّ الْعَيُونَ إِذَا رَأَتْكَ حِدَادُهَا رَجَعَتْ مِنَ الْإِجْلَالِ غَيْرَ حِدَادِ
وَإِذَا رَمَيْتَ الثَّغَرَ مِنْكَ بِعِزْمَةٍ فَتَحَّتْ مِنْهُ مَوَاضِعَ الْأَسْدَادِ^(٧)

= هارون الرشيد، واتصل بأبي دلف العجلي، فجعل له رزقاً سلطانياً عاش به وكفَّ عن الصلقة وقطع الطرق. توفي سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م. (الخطيب التبريزي، شرح الحماسة: ١٤٠/٣؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٩٠/٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٢١٦/١٠).

(١) قارعته: ضارته.

(٢) فلَّ الحديد أو السيف: ثلمه وكسره في حده.

(٣) الأبيات في العمدة: ١٤٥/٢، وفيه أن الرشيد بسبب هذه الآيات وأشباهاها قد طلب بكَرَّابِين

النطاح أشدَّ الطلب، وقال: يفتخر على مضر ومنهم رسول الله ﷺ خير البشر؟

(٤) في العمدة: «بِأَسْ شَدِيدٍ فِي الْكِتَابِ الْمُتَزَّلِ».

(٥) السَّخَابُ: قلادة تتخذ من قرنفل وسُكَّ ومَحَلَّب، ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء.

(٦) سورة الفتح، آية (١٦).

(٧) الأسداد: الحواجز، والأقفال.

فَكَأَنَّ رُمَحَكَ مُنْقَعٌ فِي عَضْفُورٍ وَكَأَنَّ سَيْفَكَ سُلٍّ مِنْ فِرْصَادٍ^(١)
لَوْ صَالَ مِنْ غَضَبٍ أَبُو دَلْفٍ عَلَى يَبِضِ السَّيُوفِ لَذُبُنْ فِي الْأَغْمَادِ
أَذْكَى وَأَوْقَدَ لِلْعَادَاةِ وَالْقَرَى نَارَيْنِ نَارَ وَغَى وَنَارَ زِنَادِ

نسب أبي دلف العجلي

وأبو دلف هو القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شنج بن معاوية بن خزاعي بن عبد العزى بن دلف بن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لجيم.

* * *

وقد رُوِيَت الأبيات التي مرّت لأخت الوليد بن طريف لعبد الملك بن بجرة النميري.

لدعبل الخزاعي

وقال أبو هفان واسمه منصور بن بجرة، قال: أنشدني دعبل لنفسه:

وَدَاعُكَ مِثْلُ وَدَاعِ الرَّيِّعِ وَفَقْدُكَ مِثْلُ افْتِقَادِ الدَّيِّمِ^(٢)
عَلَيْكَ الْمَلَامُ فَكَمْ مِنْ وَفَاءٍ أَفَارِقُ مِنْكَ وَكَمْ مِنْ كَرَمٍ

فقلت: أحسنت، ولكن سرقت البيتين من ربيعين: الأول من قول القطامي:

مَا لِلْكَوَاعِبِ وَدَّعْنَ الْحَيَاةَ كَمَا وَدَّعْنِي وَاتَّخَذْنَ الشَّيْبَ مِيعَادِي^(٣)

والثاني من قول ابن بجرة:

فَقَدْنَاكَ فِقْدَانِ الرَّيِّعِ وَلَيْتَنَا

وأنشد البيت. فقال: بلى، والله سرق الطائي من ابن بجرة بيتاً كاملاً فقال^(٤):

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفَاءً فَإِنِّي رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمُرُ

(١) الْفِرْصَادُ: اسم يُطْلَقُ عَلَى التَّوْتِ، وَصِنْعٌ أَحْمَرٌ، وَنَوَى الْعَيْنَ.

(٢) الدَّيِّمُ: جمع ديمة: السحابة الممطرة.

(٣) الْكَوَاعِبُ: جمع كاعب، وهي الفتاة التي نهض تديها.

(٤) أبو تمام، الديوان: ٣٠٤/٢. والبيت من قصيدة يرثي بها محمد بن حميد الطوسي الطائي الذي قُتِلَ فِي خِلَافَةِ الْمَأْمُونِ، وَهُوَ يَحَارِبُ الْخُرَّمِيَّةَ سَنَةَ ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م.

كذا وردت الحكاية من غير وجه، وكان يجب إذا كان من ربيعين أن يكون «فَقَدْنَاكَ» فقدان الربيع «لأخت الوليد».

وقد قال السموأل^(١) في قِصْرِ العمر:

يُقَرَّبُ حُبُّ الْمَوْتِ أَجَالَنَا لَنَا وَتَكْرَهُهُ أَجَالُهُمْ فَتَطُولُ

رثاء عمر بن الخطاب

وقال ابن قتيبة: أخذ النميري قوله: «أيا شجر الخابور» من قول الجن في عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

أَبْعَدَ قَتِيلٍ بِالْمَدِينَةِ أَظْلَمَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَهْتَزُّ الْعِصَاهُ بِأَسْوَقٍ^(٢)

وقد أنشده أبو تمام الطائي للشماخ في أبيات أولها:

جَزَى اللهُ خَيْراً مِنْ أَمِيرٍ وَبَارَكْتَ يَدُ اللهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ الْمُمَرَّقِ
[وَمَنْ يَسْعَ أَوْ يَرْكَبَ جَنَاحِي نَعَامَةٍ لِيُذْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بِالْأَمْسِ يُسَبِّقُ]
قَضَيْتَ أُمُوراً ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا نَوَافِجَ فِي أَكْثَامِهَا لَمْ تَفْتَقِ^(٣)
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ وَفَاتُهُ بِكَفِّي سَبَبِي أَزْرَقَ الْعَيْنِ مُطَرِّقِ^(٤)
تَظِلُّ الْحَصَانَ الْبِكْرُ تَلْقِي جَنِينَهَا نَحَا خَبَرٍ فَوْقَ الْمَطِيِّ مُعَلَّقِ

لبشار

وقد قال بشار قريباً من قوله: [ولا المال إلا من قنا وسيوف]^(٥):

(١) هو السموأل بن غريض بن عاديء الأزدي: شاعر جاهلي حكيم، من سكان خير شمالي المدينة. وهو صاحب حصن الأبلق بتيماء، وكان يضرب المثل بوفائه، وقصته مع امرئ القيس الشاعر مشهورة. توفي نحو ٦٥ ق. هـ/ نحو ٥٦٠ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٢٧٩؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٠٨/٢٢؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٧٥/١).

(٢) العِصَاهُ: كل شجر له شوك صَعُرٌ أو كبر، الواحدة عِصَاهَةٌ.

(٣) النوافج: جمع نافجة، وهي وعاء المسك. والأكمام: جمع كم، وهو وعاء الطلع، وهو أيضاً الغلاف الذي ينشق عن الثمر. ولم تفتق: لم تفتح.

(٤) السَّبَبِي: الجريء، المقدام، النمر.

(٥) بشار بن برد، الديوان: ١٠٦/٤.

على جَنَبَاتِ الْمُلْكِ مِنْهُ مَهَابَةٌ وَفِي الدَّرْعِ عَيْلُ السَّاعِدِينَ قَرُوعٌ^(١)
إِذَا اخْتَزَنَ الْمَالُ الْبُخِيلُ فَإِنَّمَا خَزَائِنُهُمْ خَطِيئَةٌ وَدُرُوعٌ^(٢)

للمتنبي في فاتهك

وهذا كقول أبي الطيب المتنبي في فاتهك الإخشيدي^(٣):

كُنَّا نَقْطُنُ دِيَارَهُ مُمْلُوءَةً ذَهَباً فَمَاتَ وَكُلُّ دَارٍ بَلْقَعٌ^(٤)
وَإِذَا الْمَكَارِمُ وَالصَّوَارِمُ وَالْقَنَا وَنَسَتْ أَعْوَجَ كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ^(٥)

لعبد الملك الحارثي

ومن بارع هذا النحو قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي:

وَإِنِّي لِأَرْيَابِ الْقُبُورِ لَغَابِطٌ لِسُكْنَى سَعِيدٍ بَيْنَ أَهْلِ الْمَقَابِرِ
وَإِنِّي لَمَفْجُوعٌ بِهِ إِذْ تَكَاثَرَتْ عِدَاتِي وَلَمْ أَهْتَفْ سِوَاهُ بِنَاصِرِ
وَكُنْتُ كَمَغْلُوبٍ عَلَى نَضْلٍ سَيْفِهِ وَقَدْ حَزَّ فِيهِ نَضْلُ حَرَّانٍ بَاتِرِ^(٦)
أَتَيْنَاهُ زُرَّاراً فَأَمْجَدْنَا قِرَى مِنَ الْبَثِّ وَالْدَاءِ الدَّخِيلِ الْمُخَامِرِ^(٧)
وَأُبْنَا بِزَرْعٍ قَدْ نَمَا فِي صُدُورِنَا مِنَ الْوَجْدِ يُسْقَى بِالْدُمُوعِ الْبَوَادِرِ
وَلَمَّا حَضَرْنَا لِإِفْتِسَامِ ثَرَائِهِ أَصْبْنَا عَظِيمَاتِ اللَّهِى وَالْمَائِرِ^(٨)

(١) في الديوان: «على خَشَبَاتِ الْمُلْكِ مِنْكَ مَهَابَةٌ». العيل: الضخم. قروع: مبالغة من قرع، إذا دق وضرب.

(٢) في الديوان: «إِذَا خَزَنَ»، و«خَزَائِنُهُ خَطِيئَةٌ». الخطية: الرماح الخطية: المصنوعة أو المجلوبة من الخط، وهو موضع بالبحرين، اشتهر بصناعة الرماح أو باستيرادها.

(٣) المتنبي، الديوان: ٣٠٨/٢.

(٤) بلقع: خالية.

(٥) المكارم: أفعال الكرم. الصوارم: السيوف القاطعة. القنا: الرماح. بنات أعوج: الخيل الأعوجية، نسبة إلى أعوج، وهو فعل مشهور من خيل العرب.

(٦) حرَّان: ظمَّان. باتر: قاطع.

(٧) المخامر: يقال: خامر به: استتر، وخامر الشيء: مارسه وخالطه، يقال: خامره الداء، وخامره النك.

(٨) اللُّهى: العطايا الجزيلة.

أي لم نصب مالا، ولكننا أصبنا فعلاً.

[من كلاب الأعراب]

دخلت أعرابية على عبد الله بن أبي بكرة بالبصرة، فوقفت بين السَّمَطَيْن^(١)، فقالت: أصلح الله الأمير، وأمتع به؛ حَدَرْتُنَا إِلَيْكَ سَنَةً اشْتَدَّ بِلَاؤُهَا، وانكشف غطاؤها، أقودُ صبية صغاراً، وآخرين كباراً، في بلد شاسعة، تَخْفِضُنَا خافضة، وَتَرْفَعُنَا رافعة، لِمَلَمَاتٍ من الدهر بَرَّيْنٍ عَظْمِي، وأذهبن لحمي، وتركني والهة أدورُ بالحضيض، وقد ضاق بي البلدُ العريض، فسألت في أحياء العرب: مَنْ الكاملةُ فضائله، الْمُعْطَى سائله، المكفيُّ نائله؛ فَذَلَّلْتُ عليك - أصلحك الله تعالى - وأنا امرأة من هَوازِن؛ وقد مات الوالد، وغاب الرَّافِد، وأنتَ بعد الله غيائي، ومتهى أُملي، فافعلْ بي إحدى ثلاث: إما أن تردني إلى بلدي، أو تحسن صَفْدِي^(٢)، أو تقيم أودي^(٣)! فقال: بل أجمعها لك، فلم يَزَلْ يُجْرِي عليها كما يُجْرِي على عياله، حتى ماتت.

أعرابي بباب عبيد الله بن زياد

قال العتبي: وقف أعرابي بباب عبيد الله بن زياد، فقال: يا أَهْلَ الْغَضَارَةِ^(٤)، حَقَبَ السَّحَابُ^(٥)، وانقشع الرَّبَابُ^(٦)، واستأسدت الذَّنَابُ، وردم الثَّمَدُ^(٧)، وقلَّ الحَفْدُ^(٨)، ومات الولد، وكنت كثيرَ الْعَفَاءِ^(٩)، صَحِبَ السَّقَاةَ، عَظِيمَ الدَّلَاةِ^(١٠)، لا أنضائل للزمان، ولا أحفل بالحدَثَانِ، حَيٌّ حِلَالٌ^(١١)، وَعَدَدٌ وَمَالٌ، ففترقنا أَيدي سَبَا، بعد فقد الأبناء والآباء؛

(١) السَّمَطُ: الصَّفْ.

(٢) الصَّفْدُ: العطاء.

(٣) الْأَوْدُ: العَوَجُ.

(٤) الغضارة: النعمة.

(٥) حَقَبَ السَّحَابُ: احتبس، والمراد المطر.

(٦) الرَبَابُ: السحاب الأبيض.

(٧) الثَّمَدُ: الماء القليل الذي ليس له مدد، وقيل: المكان يجتمع فيه الماء.

(٨) الحَفْدُ: الأعوان والأنصار.

(٩) الْعَفَاءُ: طالبو المعروف.

(١٠) الدلالة: جمع دال، وهو المستقي بالذلو من البئر.

(١١) حَيٌّ حِلَالٌ: مقيمون.

وكنْتَ حَسَنَ الشَّارَةِ^(١)، خَصِيبَ الدَّارَةِ، سَلِيمَ الْجَارَةِ، وَكَانَ مَحَلِّي حِمِّي، وَقَوْمِي أُسِّي، وَعَزَمِي جَدًّا؛ قَضَى اللَّهُ وَلَا رُجْعَانَ لِمَا قَضَى، بِسَوَافِ الْمَالِ^(٢)، وَشَتَاتِ الرِّجَالِ، وَتَغَيَّرَ الْحَالِ، فَأَغِيثُوا مَنْ شَخَّصَهُ شَاهِدُهُ، وَلِسَانُهُ وَافِدُهُ، وَفَقَّرَهُ سَائِقُهُ وَقَائِدُهُ.

[من مقامات بديع الزمان]

المقامة البصرية

ومن مقامات الإسكندرية من إنشاء بديع الزمان، قال:

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ، قَالَ: دَخَلْتُ الْبَصْرَةَ وَأَنَا مِنْ سَنِيٍّ فِي فَتَاءٍ^(٣)، وَمِنْ الزَّيِّ فِي حَبِيرٍ وَوِشَاءٍ^(٤)، وَمِنْ الْغَنَى فِي بَقَرٍ وَشَاءٍ؛ فَأَتَيْتُ الْمِرْبَدَ مَعَ رُقْفَةٍ تَأْخُذُهُمُ الْعْيُونَ، وَدَخَلْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمُنْتَزَهَاتِ، وَمَشِينَا فِي تِلْكَ الْمُتَوَجِّهَاتِ، وَمَلَكْنَا أَرْضَ فَحْلَلْنَاهَا، وَعَمَدْنَا لِقَدَاحِ اللَّهْوِ فَأَجْلَنَّاهَا، مُطَّرِحِينَ لِلْحِشْمَةِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا مَنَاءٌ، فَمَا كَانَ إِلَّا بِأَسْرَعَ مِنْ ارْتِدَادِ الطَّرْفِ حَتَّى عَنْ لَنَا سَوَادٌ، تَخَفِضُهُ وَهَادٌ، وَتَرْفَعُهُ نِجَادٌ، وَعَلِمْنَا أَنَّهُ يَهُمُّ بِنَا، فَأَتَلْعَنَّا^(٥) لَهُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا سِيرُهُ، وَلَقِينَا بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، وَرَدَدْنَا عَلَيْهِ مَقْتَضَى السَّلَامِ؛ ثُمَّ أَجَالَ فِينَا طَرْفَهُ وَقَالَ: يَا قَوْمُ؛ مَا مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ يَلْحَظُنِي شَرْرًا، وَيُوسَعُنِي زَجْرًا^(٦)، وَلَا يَنْبِشُكُمْ عَنِي، بِأَصْدَقِ مِنِّي؛ أَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، مِنَ الثَّغُورِ الْأُمُويَّةِ، قَدْ وَطَأَ لِي الْفَضْلُ كَنْفَهُ، وَرَحِبَتْ بِي عَبَسٌ، وَنَمَانِي بَيْتٌ، ثُمَّ جَعَجَعَ بِي الدَّهْرُ عَنْ ثَمَّةٍ وَرُمَّةٍ^(٧)، وَأَتْلَانِي زَغَالِيلُ حُمُرٍ^(٨) الْحَوَاصِلِ:

كَأَنَّهُمْ حَيَاتُ أَرْضٍ مَحَلَّةٍ فَلَوْ يَعْضُونَ لَذَكَّى سُمُّهُمْ
إِذَا نَزَلْنَا أَرْسَلُونِي كَاسِبًا وَإِنْ رَحَلْنَا رَكِبُونِي كُلُّهُمْ

- (١) الشارة: الهيئة، واللباس الحسن، والجمال الرائع.
- (٢) سواف المال: هلاكه.
- (٣) فتاء السن: ميعته ونضارته.
- (٤) الحبر: جمع حبرة، وهو ضرب من الوشي. والوشاء: نوع من اللباس مطرز.
- (٥) أتلعنا له: استشرفنا ومددنا أعناقنا نحوه.
- (٦) الشَّرْرُ: نظرة الإعراض، أو الغضب، أو الاستهانة. والزَّجْرُ: الكفُّ والمنع.
- (٧) جعجع: صَوْتٌ، وَجَعَجَعَةُ: مَرَدَّة. ثَمَّةٌ وَرَمَةٌ: قَلِيلَةٌ وَكَثِيرَةٌ.
- (٨) أتلاني: أتبعني. زغاليل: أراد بهم أطفاله. وحمر الحواصل: كناية عن صغريهم.

ونشزت علينا البيض، وشمست منا الضفر^(١)، وأكلتنا الشؤد، وحطمتنا الحمر^(٢)،
وانتابنا أبو مالك، فما تلقانا أبو جابر إلا عن عفر^(٣)، وهذه البصرة ماؤها هضوم، وفقيرها
مهضوم، والمرء من ضررته في شغل، ومن نفسه في كل، فكيف بمن:

يُطَوِّفُ مَا يُطَوِّفُ ثُمَّ يَأْوِي إِلَى زُغْبٍ مُحَدَّدَةِ الْعُيُونِ^(٤)
كَسَاهُنَّ الْبِلْسَى شُعْنًا فُتْمَسِي جِيَاعِ النَّابِ ضَامِرَةَ الْبُطُونِ

ولقد أضبحن اليوم وقد سرحن الطرف في حي كميته، وفي بيت كلا بيت، وقلبن
الأكف على ليت، فقضضن عقد الضلوع، وأفضن ماء الدموع، وتداعين باسم الجوع:

وَالْفَقْرُ فِي زَمَنِ اللَّثَا مِ لِكُلِّ ذِي كَرَمٍ عَلامَةٌ

وقد اخترتكم يا سادة، ودلّني عليكم السعادة، وقلت: قسماً، إن فيهم شيماً، فهل
من فتى يعشيهن، أو يعشيهن؟ وهل من حرّ يغديهن، أو يرديهن^(٥)؟

قال عيسى بن هشام: فوالله ما استأذن على سمعي كلام رائع أبرع مما سمعت، لا
جرم أنا استمحننا الأوساط، ونقضنا الأكمام، وبحننا الجيوب^(٦)؛ وأنلته مطرفي، وأخذت
الجماعة أخصي، وقلنا له: الحق بأطفالك، فأعرض عنا بعد شكر وفاء، ونشر ملاً به فاه.

[من رسائل البديع]

رسالة منه لبعض الرؤساء

ومن رسائله إلى بعض الرؤساء:

خلقت - أطال الله بقاء السيد وأدام تأييده - مشروح جنان الصدر، جموح عنان الحلم،
فسبح رقة الصدر:

(١) نشزت وشمست: فارقت. البيض: الدراهم لكونها من فضة. والصفرة: الدنانير لكونها من ذهب.

(٢) السود: الليالي. والحمر: السنوات المجدية.

(٣) أبو مالك: الفقر. وأبو جابر: الخير. وما تلقانا إلا عن عفر: يعني كل حين مرة.

(٤) زغب: جمع أزغب: الذي نبت زغبه (ريشه أو شعره).

(٥) غشى الشيء وعليه: جعل عليه غشاء يغطيه. ورداه: ألبسه رداءً.

(٦) بحننا الجيوب: فكنناها.

حَمُولاً صَبُوراً لَوْ تَعَمَّدَنِي الرَّدَى لَسِرْتُ إِلَيْهِ مُشْرِقَ الْوَجْهِ رَاضِياً
أَلُوفاً وَفِيّاً لَوْ رُدِدْتُ إِلَى الصَّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِياً^(١)

والله لأحيلَنَّ السيد على الأيام، ولأكلنَّ استحالة رأيه فيَّ على الليالي، ولا أزال أصفيه الولاء، وأسنيه الثناء، وأفرش له من صدري اللَهْنَاءَ^(٢)، وأعيره أذنا صماء، حتى يعلم أيَّ عِلْقِي بَاعِ^(٣)، وأيَّ فتى أضاع، وليقفنَّ موقف اعتذار، وليعلمنَّ بِنُضْحِ أَتَى الْوَاشُونَ أَمْ بِحُبُولِ^(٤)، ولا أقول: يا حالف اذكر حِلًّا، ولكن يا عاقِد اذكر حِلًّا، ولست كمن يشكو إلى رسول الله ﷺ أَدَى رَهْطِهِ، وَيَسْتَأْقُ إِلَى رَمِي يَزِيدُ لِسَبْطِهِ، ولكني أقول^(٥):

هَنِيئاً مَرِيئاً غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ لِعِزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
وأما أعلم أن السيد لا يخرج عن تلك الحلية، بهذه الرُّقِيَّةِ، وأن جوابه أحسن من لقاءه، فإن نشط للإجابة فلتكن المخاطبةُ قرأت رقعتك، فهو أخف مؤنة، وأقل تبعة.

رسالة منه إلى الشيخ العميد

وله إلى [الشيخ] العميد:

أنا - أطال الله بقاء الشيخ العميد - [مع إخوان نيسابور] في ضيعة لا فيها أَعَان، ولا عنها أَصَان، وشيمة ليست بي تَنَاط، ولا عني تُمَاط، وحرقة لا عَنِّي تُزَال، ولا فيها أُدَال، وهي الكُذْيَةُ^(٦) التي عَلَيَّ تَبِعْتُهَا، وليس لي منفعتها، فهل للشيخ العميد أن يُلطف بصنيعته لطفاً يحيط عنه دَرَن العار، وشيمة التكتب بالأشعار، ليخفف على القلوب ظِلَّهُ، ويرتفع عن الأحرار كَلَّهُ^(٧)، ولا يشغل على الأجفان شَخْصُهُ، بإتمام ما كان عَرَضَهُ عليه من أشغاله،

(١) هذا من قول المتنبي:

خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِياً

(ديوانه: ٢/٢٤٢).

(٢) الدهناء: الفلاة.

(٣) العِلْقُ: النفس من كل شيء.

(٤) هذا عجز بيت لكثير عزة، وصدره: «فلا تعجلي يا عَزُّ أَنْ تفهمي».

(٥) البيت لكثير عزة (الهوراري، أحلى قصائد الغزل - العصر الأموي ص ٢٠). وسبط رسول الله ﷺ

هو الحسين بن علي بن أبي طالب.

(٦) الكُذْيَةُ: حرقه السائل المُلِحُّ.

(٧) الكَلُّ: الثقل.

ليعلق بأذياله، ويستفيد من خلاله؛ فيكون قد صان العلم عن ابتذاله، والفضل عن إذلاله، واشترى حُسنَ الثناء بجاهه، كما يشتره بماله، والشيخ العميد فيما يوجهه من وعْدٍ يعتمده، ووفاء يتلوما يعهده، عالٍ رأيه إن شاء الله.

[عود إلى غرر المديح]

لأبي العباس الناشيء

وقال بعض أهل العصر، وهو أبو العباس الناشيء، يمدحُ سعد الدولة أبا المعالي شريف بن سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان:

كَأَنَّ مِرَاةَ فَهْمِ الدَّهْرِ فِي يَدِهِ يَرَى بِهَا غَائِبَ الْأَشْيَاءِ لَمْ يَغِيبِ
مَا يَرْفَعُ الْفَلَكَ الْعَالِي سَمَاءَ عُلَا إِلَّا عَلاَهَا شَرِيفٌ كَوَكَبُ الْعَرَبِ
يَا مَنْ بَعَيْنِ الرِّضَا يَلْقَى مُؤَمَّلَهُ وَالْبُخْلُ يُطْبِقُ أَجْفَانَا عَلَى الْغَضَبِ
لَوْ يَكْتُتُ الْمَلِكُ أَسْمَاءَ الْمُلُوكِ إِذَا أَعْطَاكَ مَوْضِعَ بِسْمِ اللَّهِ فِي الْكُتُبِ
غَرَبَتْ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ مَكْرُمَةٌ فَلَيْسَ ذِكْرُكَ فِي أَرْضٍ بِمُغْتَسِرٍ
بيته الأول كقول القائل:

أَطْلَ عَلَى الْأَشْيَاءِ حَتَّى كَانَمَا لَهُ مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ مُقْلَةٌ شَاهِدِ
[وكما قال] أبو تمام الطائي: ^(١)

أَطْلَ عَلَى كِلَا الْأَفْقَيْنِ حَتَّى كَأَنَّ الْأَرْضَ فِي عَيْنَيْهِ دَارُ ^(٢)
وأفرط ابن الرومي فقال:

أَحَاطَ عِلْمًا بِكُلِّ خَافِيَةٍ كَأَنَّمَا الْأَرْضُ فِي بَدَنِهِ كُرَّةٌ
وقال محمد بن وهيب:

عَلِمَ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ، كَأَنَّمَا يُخَاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ

(١) أبو تمام، الديوان: ٣١٦/١. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة.

(٢) في الديوان: «أَطْلَ عَلَى كُلِّ الْأَفَاقِ». الكلي: مفردتها كُلية، استعارها للأفاق. وأراد بأطل عليها: أنه خبر أمرها، لأن الكلية لا تكون إلا في الباطن.

وقال بعض شعراء بني عبد الله بن طاهر:

وُقُوفُكَ تَحْتَ ظِلَالِ السِّيفِ أَقْرَ الْخِلَافَةِ فِي دَارِهَا
كَأَنَّكَ مُطْلَعٌ فِي الْقَلْبِ إِذَا مَا تَنَاجَتْ بِأَسْرَارِهَا

وقال البحري للفتح بن خاقان:

كَأَنَّكَ عَيْنٌ فِي الْقُلُوبِ بَصِيرَةٌ تَرَى مَا عَلَيْهِ مُسْتَقِيمٌ وَمَائِلٌ

وقال في سليمان بن عبد الله بن طاهر:

يُنَالُ بِالظَّنِّ مَا فَاتَ الْيَقِينَ بِهِ إِذَا تَلَبَّسَ دُونِ الظَّنِّ إِيْقَانٌ
كَأَنَّ آرَاءَهُ وَالظَّنُّ يَجْمَعُهَا تُرِيهِ كُلُّ خَفِيٍّ وَهُوَ إِعْلَانٌ
مَا غَابَ عَنْ عَيْنِهِ فَالْقَلْبُ يَذْكُرُهُ وَإِنْ تَنَمَّ عَيْنُهُ فَالْقَلْبُ يَقْظَانُ

لأحمد بن محمد يمدح ابن وهب

وقال أبو الحسن أحمد بن محمد الكاتب يمدح عبيد الله بن سليمان [ابن وهب الوزير]:

إِذَا أَبَوْ قَاسِمَ جَادَتْ لَنَا يَدُهُ لَمْ يُحْمَدِ الْأَجُودَانِ الْبَحْرُ وَالْمَطَرُ
وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ تَضَاءَلِ الْأَنْوَارِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَإِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْحَدُ عَزَمَتِهِ تَأَخَّرَ الْمَاضِيَانِ السِّيفُ وَالْقَدَرُ
مَنْ لَمْ يَيْتْ حَذِيراً مِنْ خَوْفِ سَطْوَتِهِ لَمْ يَدِرْ مَا الْمُزْعِجَانِ الْخَوْفُ وَالْحَذَرُ
يُنَالُ بِالظَّنِّ مَا يَغَيَا الْعِيَانُ بِهِ وَالشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ
كَأَنَّهُ الدَّهْرُ فِي نُعْمَى وَفِي نَعَمٍ إِذَا تَعَاقَبَ مِنْهُ النِّفْعُ وَالضَّرَرُ
كَأَنَّهُ وَزِمَامُ الدَّهْرِ فِي يَدِهِ يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ
وَأَصْلُ هَذَا قَوْلُ أَوْسٍ بْنِ حَجَرٍ^(١):

الْأَلْمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَنَّ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا^(٢)
وهذا المعنى قد مرَّ في أثناء الكتاب.

(١) أوس بن حجر، الديوان: ص ٥٣.

(٢) في الديوان: «يظنُّ لك». والألمعي: الحديد اللسان والقلب، وقد أبانه بقوله: «الذي يظن بك كأن قد رأى وقد سمعا».

لأعرابي

قال أبو الحسن جحظة البرمكي: قلت لخالد الكاتب: كيف أصبحت؟

قال: أصبحت أرقّ الناس شعراً، قلت: أتعرف قولَ الأعرابي:

فَمَا وَجَدُ أَعْرَابِيَّةً قَدَفَتْ بِهَا صُرُوفُ اللَّيَالِي حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَنْتِ
تَمَنَّتِ أَحَالِيْبَ الرِّعَاءِ، وَخَيْمَةً بِنَجْدٍ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لَهَا مَا تَمَنَّتِ
إِذَا ذَكَرْتَ مَاءَ الْعِضَاءِ وَطَيْبَهُ وَرِيحَ الصَّبَا مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ أَرَنْتِ^(١)
بِأَعْظَمَ مِنْ وَجْدٍ يَلِيلَى وَجَدْتُهُ غَدَاةً غَدَوْنَا غَدَوَةً وَاطْمَأَنَّتِ
وَكَانَتْ رِيَا حُ تَحْمِلُ الْحَاجَ بَيْنَا فَقَدْ بَخَلْتَ تِلْكَ الرِّيحَ وَضَنْتِ^(٢)

فصاح خالد وقال: ويحك! ويلك يا جحظة! هذا والله أرقّ من شعري.

[تكاليف المجد]

فصل لأبي العباس بن المعتز

لن تكسب - أعزك الله - المحامد، وتستوجب الشرف، إلا بالحمل على النفس والجال^(٣)، والنهوض بحمل الأثقال، وبذل الجاه والمال، ولو كانت المكارم تُنال بغير مؤنة لا شريك فيها السُّقْلُ والأحرار، وتساهمها الوُضْعَاءُ مع ذوي الأخطار؛ ولكن الله تعالى خصّ الكرماء الذين جعلهم أهلها، فحَقَّقَ عليهم حملها، وسَوَّعَهم فَضْلُهَا، وحَظَّرَها على السَّفَلَةِ لِصِغَرِ أَفْئَادِهِمْ عَنْهَا، وَيَعْدُ طَبَاعَهُمْ مِنْهَا، وَتَقَوَّرَها عَنْهُمْ، واقشعرارها منهم.

وقال أبو الطيب المتنبّي^(٤):

[لَوْ لَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلَّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ]^(٥)

(١) أَرَنْتِ: صَوَّتِ، والرَّين: الصوت.

(٢) الْحَاجُّ: جمع حاجة: ما يفتقر إليه الإنسان ويطلبه. وَضَنْتِ: بَخَلْتَ.

(٣) الْجَال: العقل والعزم.

(٤) المتنبّي، الديوان: ٣٠٦/٢. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا شجاع فاتك بمصر.

(٥) يقول: لولا أن في بلوغ السيادة مشقة لصار الناس كلهم سادة، ثم بين تلك المشقة فقال: الجود يفضي إلى الفقر، والإقدام يفضي إلى القتل، ولا سيادة بدون هذين الأمرين.

وقال الطائي^(١):

وَالْحَمْدُ شَهْدٌ لَا يُرَى مُشْتَارُهُ يَجْنِيهِ إِلَّا مِنْ نَقِيعِ الْحَنْظَلِ^(٢)
شَرٌّ لِحَامِلِهِ، وَيَحْسَبُهُ الَّذِي لَمْ يُؤْذِ عَاتِقَهُ خَفِيفَ الْمَحْمَلِ^(٣)

أخذه الطائي من قول مسلم بن الوليد، وقيل غيره:

الْجُودُ أَخْشَنُ مَسَا يَا بَنِي مَطَرٍ مِنْ أَنْ تَبْزَكَّمُوهُ كَفُّ مُسْتَلَبٍ
مَا أَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ الْجُودَ مَذْفَعَةٌ لِلذَّمِّ لَكِنَّهُ يَأْتِي عَلَى النَّشَبِ^(٤)

وقال بعض الأجداد: إنا لنَجِدُ كما يجد البخلاء، ولكننا نصبر ولا يصبرون.

[احمال الغضب]

وقال الجاحظ: قيل لأبي عباد وزير المأمون، وكان أسرع الناس غضباً: إن لقمان الحكيم قال لابنه: ما الحمل الثقيل؟ قال: الغضب. قال أبو عباد: لكنه والله أخف علي من الريش! قيل له: إنما عني لقمان أن احتمال الغضب ثقيل، فقال: لا، والله لا يقوى على احتمال الغضب من الناس إلا الجمل!

وغضب يوماً على بعض كتابه، فرماه بِدَوَاةٍ كانت بين يديه فَشَجَّهُ، فقال أبو عباد: صدق الله تعالى في قوله^(٥): (والذين إذا ما غضبوا هم يعقرون). فبلغ ذلك المأمون

(١) أبو تمام، الديوان: ٢١/٢. والبيتان من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب.

(٢) الْمُشْتَارُ: مستخرج العمل، وقد اشتهر العمل: جناه من كوارته. وفي الديوان: «لا ترى مُشْتَارَهُ». ونظير هذا قول المتنبي:

تُرِيدِينَ لِقْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ التَّحْلِ
(ديوانه: ٣٣٩/٢).

(٣) في الديوان:

غِلٌّ لِحَامِلِهِ وَيَحْسَبُهُ الَّذِي لَمْ يُوهِ عَاتِقَهُ خَفِيفَ الْمَحْمَلِ
يوهي: يضعف. العاتق: ما بين المنكب والكف، والغل: القيد. يقول: إن اكتساب الحمد صعب ثقيل على صاحبه، فهو يقيد، بينما يحسبه الناس خفيفاً.

(٤) النَّشَبُ: المال، والعقار.

(٥) الآية كما وردت في كتاب الله تعالى: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» (سورة الشورى، آية ٣٧).

فأحضره، وقال له: ويحك! ما تُحسِّنُ تقرأ آيةً من كتاب الله تعالى! قال: بلى يا أمير المؤمنين، إني لأحفظ من سورة واحدة ألف آية؛ فضحك المأمون وأمر بإخراجه^(١).

نبذة من لطائف ابن المعتز، وفضل تحقيقه بالبديع والاستعارات

مما تتعين العناية بمطالعتها

قال أبو بكر الصولي: اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند أبي العباس عبد الله بن المعتز، وكان يتحقق بعلم البديع تحقيقاً يُضَرُّه دعواه فيه لسان مذاكرته، فلم يبقَ مَسَلَكٌ من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شِعْباً من شِعَابِهِ، وأوردنا أَحْسَنَ ما قِيلَ في بابِهِ، إلى أن قال أبو العباس: ما أحسن استعارة اشتمل عليها بيت واحد من الشعر؟ قال الأسدي: قول لبيد^(٢):

وَعُدَاةَ رِيحٍ قَدْ كَشَفْتُ وَفِرَّةَ إِذْ أَصْبَحْتُ يَسَدَ الشَّمَالِ زِمَامُهَا^(٣)

وقال أبو العباس: هذا حسن، وغيره أحمد منه، وقد أخذه من قول ثعلبة بن صُعَيْرَةَ المازني^(٤):

فَذَاكَرَا ثَقَلًا رَبِّدًا بَعْدَمَا أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينِهَا فِي كَافِرٍ^(٥)

وقول ذي الرمة أعجب إليّ منه:

أَلَا طَرَقْتُ مَيِّ هَيُومًا بِذِكْرِهَا وَأَيْدِي الثَّرِيَّا جُنْحَ فِي الْمَغَارِبِ

وقال بعضنا: بل قول لبيد أيضاً^(٦):

(١) الذي أضحك المأمون من ذلك الرجل أنه رآه جاهلاً بالقرآن جهلاً تاماً، حيث ذكر أنه يحفظ من سورة واحدة ألف آية، ونعلم أن أكبر سور القرآن الكريم وهي سورة البقرة تشتمل على مائتين وست وثمانين آية فقط.

(٢) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان: ص ١٧٦. وفيه: «وَعُدَاةَ رِيحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَفِرَّةَ».

(٣) وعُدَاةَ رِيحٍ: أي وَرُبَّ غداة رِيحٍ. كَشَفْتُ: أي بالطعام والكسوة وإيقاد النيران. وَالْقُرُ وَالْفِرَّةُ: البرد.

(٤) في لسان العرب (ذرع): «ثعلبة بن صُعَيْرِ المازني».

(٥) ذُكَاءُ: الشمس. والكافر: الليل، سمي بذلك لِكُفْرِهِ الأشياءَ، أي سَتَرَهَا. ومنه قول لبيد بن ربيعة:

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ بَدَأَ فِي كَافِرٍ وَأَجَسْنَ عَوَارِثُ الثُّغُورِ ظِلَامُهَا

(٦) لبيد بن ربيعة، الديوان: ص ١٧٦.

وَلَقَدْ حَمَيْتُ الْخَيْلَ تَحْمِلُ شِكَّتِي فُرْطُ، وَشَاحِي - إِنْ غَدَوْتُ - لِجَامُهَا^(١)

قال أبو العباس: هذا حسن، ولكن نعدل عن لبيد.

وقال آخر: [قول الهذلي]:

وَلَوْ أَنَّنِي اسْتَوْدَعْتُهُ الشَّمْسَ لَاهْتَدَتْ إِلَيْهِ الْمَنَايَا عَيْثُهَا وَرَسُولُهَا

قال أبو العباس: هذا حسن، وأحسن منه - في استعارة لفظ الاستيداع - قول الحُصَيْنِ بنِ الحُمَامِ^(٢)؛ لأنه جمع الاستعارة والمقابلة في قوله:

نُطَارِدُهُمْ نَسْتَوْدِعُ الْبَيْضَ هَامَهُمْ وَيَسْتَوْدِعُونَا السَّمْهَرِيَّ الْمُقَمَّوْمَا^(٣)

وقال آخر: بل قولُ ذي الرُّمَّة:

أَقَامَتْ بِهِ حَتَّى ذَوَى الْعُودِ فِي الثَّرَى وَسَاقَ الثُّرَيَّا فِي مُلَاعَتِهِ الْفَجْرُ

قال أبو العباس: هذا لعمرى نهاية الخبرة؛ وذو الرمة أبدع الناس استعارة، وأبرعهم عبارة، إلا أن الصواب حتى «ذوى العود والثرى»؛ لأن العود لا يدوي ما دام في الثرى، وقد أنكره على ذي الرمة غير ابن المعتز. قال أبو عمرو بن العلاء: كانت يدي في يد الفرزدق فأنشدته هذا البيت، فقال: أُرْشِدُكَ أَمْ أَدْعُكَ؟ قال: فقلت: بل أُرْشِدُنِي، فقال: إِنَّ العود لا يدوي في الثرى، والصواب «حتى ذوى العود والثرى».

قال الصولي: وكأنه نبه على ذي الرمة؛ فقلت: بل قوله:

وَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّيْلَ وَالشَّمْسَ حَيَّةً حَيَاةَ الَّذِي يَقْضِي حُشَاةَ نَازِعٍ

(١) ويروى: «وَلَقَدْ حَمَيْتُ الْحَيَّ»، (شرح المعاني العشر: ٢١٢). الشُّكَّةُ: السلاح. فرط: فرس متقدمة، سريعة، خفيفة. وقوله: «فرط وشاحي...» أي: أَنَّ الفرسان كان أحدهم يتوشح اللجام ليكون قريباً منه ساعة الشدة والفرع.

(٢) هو أبو يزيد، الحُصَيْن بن حمام بن ربيعة المري الذيباني: شاعر جاهلي، فارس، مقدم. كان سيد بني سهم بن مرة بن ذبيان، ويلقب بمانع الضيم. توفي نحو ١٠٠ ق. هـ/ نحو ٦١٢ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ١٥٥؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٥٤٢/٢).

(٣) البيض: السيوف. الهام: الرؤوس. السَّمْهَرِيّ: الرمح المنسوب إلى سمهر. وقد حذف نون الرفع من قوله: «ويستودعوننا» من غير ناصب ولا جازم، وكان الأصوب أن يقول: «ويستودعوننا».

قال أبو العباس: اقْتَدَحَتْ زَنْدَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فَأَوْرَى^(١)، هذا بارِعٌ جداً، وقد سبقه إلى هذه الاستعارة جرير حيث يقول:

تُحْيِي الرِّوَامِسُ رَبْعَهَا وَتُجِدُّهُ بَعْدَ الْبِلَى فَمِيشُهُ الْأُمُطَارُ^(٢)

وهذا بيتٌ جمع الاستعارة والمطابقة؛ لأنه جاء بالإحياء والإماتة، والبلى والجدة، وَلَكِنْ ذُو الرِّمَةِ قَدْ اسْتَوْفَى ذِكْرَ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَأَحْسَنَ، وهو قوله:

وَنَشَوَّانَ مِنْ طُولِ النِّعَاسِ كَأَنَّهُ يَحْبَلَيْنِ فِي مَشْطُونَةٍ يَتَرَجَّحُ^(٣)

إِذَا مَاتَ فَوْقَ الرَّحْلِ أَحْيَيْتُ رُوحَهُ بِذِكْرِكَ وَالْعَيْسُ الْمَرَايِلُ جُنَحُ^(٤)

فما أحد من الجماعة انصرف من ذلك المجلس إلا وقد غمره من تَجَرُّ أَبِي الْعَبَّاسِ مَا غَاضَ مَعَهُ مَعِينُهُ، ولم ينهض حتى زودنا من بَرِّهِ ولطفه نهاية ما اتسعت له حاله.

[كتمان الحب]

لابن المعتز

وقال ابن المعتز^(٥):

لَمَّا رَأَيْتُ الْحُبَّ يَفْضَحُنِي وَنَمَتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُ الصَّبِّ^(٦)

(١) أوري الزند: أخرج النار.

(٢) الروامس والرامسات: الرياح الزافيات التي تنقل التراب من بلد إلى آخر، وربما عثت وجه الأرض بتراب أرض أخرى، وقيل: الروامس: الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار.

(٣) في لسان العرب (شطن): «في مشطونة يَطْوُحُ». والمشطونة: البئر، ويقال: الشطون من الآبار: التي تَنْزَعُ بحبلين من جانبيها، وهي متسعة الأعلى، ضيقة الأسفل، فإن نزعها بحبل واحد جَرَّهَا على الطي فتَحَرَّقت.

(٤) العيس: النوق الكريمة، أو التي يخالط بياضها شُقْرَةٌ. المراسل لعله أراد المراسيل: جمع مراسل، وهي الناقة السهلة السير، وقيل: هي السريعة في سيرها، قال كعب بن زهير: أَضَحَّتْ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يَلُغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ التَّجِيَّاتُ الْمَرَايِلُ (ديوانه: ص ٨٦).

(٥) ابن المعتز، الديوان: ص ٦٤.

(٦) في الديوان:

لَمَّا رَأَيْتُ اللَّمْعَ يَفْضَحُنِي وَقَضَّتْ عَلَيْهِ شَوَاهِدُ الصَّبِّ
والصَّبُّ: الْمُحِبُّ الْمُشْتَاقُ الْمُعَذَّبُ.

أَلْقَيْتُ غَيْرَكَ فِي ظُنُونِهِمْ وَسَتَرْتُ وَجْهَ الْحُبِّ بِالْحُبِّ

لابن الأحنف

عباس بن الأحنف في هذا المعنى:

قَدْ جَرَّرَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا وَفَرَّقَ النَّاسُ فِينَا قَوْلَهُمْ فِرْقَا
فَكَاذِبٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَكُمْ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَذْري أَنَّهُ صَدَقَا

للفارضي

[وقريب من هذا المعنى قول الفارضي رضي الله عنه، وإن لم يكن منه:

تَخَالَفَتِ الْأَقْوَالُ فِينَا تَبَائُأً بِرَجَمِ أَصُولِ بَيْتِنَا مَا لَهَا أَصْلُ
فَشَتَّعَ قَوْمٌ بِالْوِصَالِ، وَلَمْ أَصِلْ وَأَرْجَفَ بِالسُّلُوفِ قَوْمٌ وَلَمْ أَسْلُ^(١)
وَمَا صَدَقَ التَّشْنِيعُ عَنْهَا لِشَفْوَتِي وَقَدْ كَذَّبَتْ عَنِي الْأَرَاجِيفُ وَالنَّقْلُ^(٢)

لابن المعتز

وقال ابن المعتز^(٣):

لَنَا عَزْمَةٌ صَمَاءٌ لَا تَسْمَعُ الرَّقَى تُبَيِّتُ أَنْوَفَ الْحَاسِدِينَ عَلَى رَغَمِ^(٤)
وَأَنَا لِنُعْطِي الْحَقَّ مِنْ غَيْرِ حَاكِمٍ عَلَيْنَا، وَلَوْ شِئْنَا لَمَلْنَا مَعَ الظُّلَمِ^(٥)

لأعرابي

وقد أخذه أبو العباس من قول أعرابي:

- (١) شَتَّعَ الشَّيْءُ: قَبَّحَهُ، وَشَتَّعَ عَلَى فُلَانٍ: فَضَحَهُ وَشَوَّهَ سَمْعَهُ. وَأَرْجَفَ الْقَوْمَ: خَاضُوا فِي الْأَخْبَارِ السَّيِّئَةِ وَذَكَرَ الْفِتْنَ.
- (٢) الْأَرَاجِيفُ: جَمْعُ إِرْجَافٍ، وَهُوَ الْخَبِيرُ الْكَاذِبُ الْمَثِيرُ لِلْفِتَنِ.
- (٣) ابن المعتز، الديوان: ص ٦٢١.
- (٤) فِي الدِّيَّوَانِ: «تُبَيِّتُ قُلُوبَ الْعَادِلِينَ عَلَى رُغَمٍ». وَالرُّقَى: جَمْعُ رُقِيَّةٍ، وَهِيَ الْعُوْذَةُ الَّتِي يُرْقَى بِهَا الْمَرِيضُ وَنَحْوَهُ.
- (٥) فِي الدِّيَّوَانِ: «لَوْ شِئْنَا كَتَمْنَا عَلَى ظُلْمٍ». وَكَتَمْنَا عَلَى ظُلْمٍ: صَبَرْنَا عَلَيْهِ.

أَلَا يَا شِفَاءَ النَّفْسِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِكَ النَّاسُ حَتَّى يَغْلَمُوا أَيْلَةَ الْقَدْرِ
سِوَى رَجْمِهِم بِالظَّنِّ وَالظَّنُّ كَاذِبٌ مِرَاراً وَفِيهِمْ مَنْ يُصِيبُ وَلَا يَنْدِرِي

للحسين بن مطير

وقال الحسين بن مطير^(١):

لَقَدْ كُنْتُ جَلْدًا قَبْلَ أَنْ تُوقِدَ النَّوَى عَلَى كَيْدِي نَارًا بَطِيئًا خُمُودُهَا^(٢)
وَلَوْ تَرَكْتُ نَارَ الْهَوَى لَتَضَرَّمْتُ وَلَكِنْ شَوْقًا كُلَّ يَوْمٍ يَزِيدُهَا^(٣)
وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ تَمُوتَ صَبَابَتِي إِذَا قَدِمْتَ أَيَّامُهَا وَعَهْودُهَا^(٤)
فَقَدْ جَعَلْتَ فِي حَبَّةِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا عَهْدَ الْهَوَى تُوَلَّى بِشَوْقٍ يُعِيدُهَا^(٥)
بِمُرْتَجَةِ الْأُرْدَافِ هَيْفٌ خُصُورُهَا عَذَابٌ ثَنَائِيهَا عِجَافٌ نُهُودُهَا^(٦)
وَصُفْرٌ تَرَاقِيهَا، وَحُمْرٌ أَكْفُهَا وَسُودٌ نَوَاصِيهَا، وَيَبِضٌ خُدُودُهَا^(٧)
مُخَصَّصَةَ الْأَوْسَاطِ زَانَتْ عَقُودُهَا بِأَحْسَنَ مِمَّا زَيَّنَّهَا عُقُودُهَا
يُمَيِّنُنَا حَتَّى تَرِفَ قُلُوبُنَا رَفِيفَ الْخُزَامَى بَاتَ طَلُّ يَجُودُهَا^(٨)

(١) هو الحسين بن مطير بن مكمل الأسدي: شاعر مقدم في القصيد والرجز من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وكان كلامه وزنه يشبهان مذاهب الأعراب وأهل البادية. وقيل: إنه أحقق الشعراء في وصف السحاب. توفي نحو ١٧٠ هـ/ ٨٧٦ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٣٣١/١٥؛ البغدادي، خزنة الأدب: ٤٧٥/٥).

(٢) الجلد: القوي الشديد.

(٣) تضرمت النار: اشتعلت وانتهت.

(٤) الصبابة: رقة الشوق وحرارته.

(٥) العهد: أول المطر الوسمي، وقيل: هو كل مطر بعد مطر، وعهد الحب: أوانه.

(٦) الأرداف: الأعجاز، الواحد رذف. هيف: ناحلة. الثنايا: أسنان الفم الأمامية. والمجف: ذهاب السمن، والهزال، ويقال: نصل أعجف، إذا كان رقيقاً، وفي رواية: «عجافٌ قُيُودُهَا».

(٧) التراقي: أعالي الصدر. والنواصي: جمع ناصية، وهي شعر مقدم الرأس. وفي العمدة (١١/٢):

بِسُودِ نَوَاصِيهَا وَحُمْرِ أَكْفُهَا وَصُفْرِ تَرَاقِيهَا وَيَبِضِ خُدُودُهَا

(٨) رف: لمع من النضارة. الخزامى: عشبة طويلة العيدان، صغيرة الورق، حمراء الزهرة، طيبة الريح، لها نَوْرٌ كتور البنفسج. والطلُّ: أخف المطر وأضعفه، وقيل: هو الدائم منه. يجودها: يسقيها بمائه الغزير.

وَفِيهِنَّ مِثْلَاقُ الْوِشَاحِ كَأَنَّهُمَا
مَهَاءُ بُتْرَبَانٍ طَوِيلٌ عُمُودُهُمَا^(١)
وقال:

قَضَى اللَّهُ يَا أَسْمَاءُ أَنْ لَمْتُ بَارِحاً
فَحُبُّكَ بَلَوَى غَيْرَ أَنْ لَا يَسُرَّنِي
فَوَاكِدًا مِنْ لَوْعَةِ الْبَيِّنِ كُلَّمَا
وَمِنْ عَبْرَةٍ تُذْهِبُ الدُّمُوعَ وَزَفْرَةً
فِيَالْيَتَنِي أَفْرَضْتُ جَلْدًا صَبَابَتِي
إِذَا رُضْتُ الْقَلْبَ فِي حُبِّ غَيْرِهَا
أَحَبُّكَ حَتَّى يُغْمِضَ الْعَيْنَ مُغْمِضٌ
وَإِنْ كَانَ بَلَوَى أَنَّنِي لَكَ مُنِغِضٌ
ذَكَرْتُ وَمِنْ رَفْضِ الْهَوَى حِينَ يَرْفُضُ
تَقْضِضُ أَطْرَافَ الْحَشَا ثُمَّ تَنْهَضُ^(٢)
وَأَقْرَضَنِي صَبْرًا عَلَى الشَّوْقِ مُقْرِضٌ
بَدَا حُبُّهَا مِنْ دُونِهِ يَتَعَرِّضُ^(٣)

وكان الحسين قويَّ أسْرِ الكلام، جَزَلَ الألفاظ، شديدَ العارِضة، وهو القائل في المهدي:

لَهُ يَوْمٌ بؤْسٍ فِيهِ لِلنَّاسِ أَبُؤْسٌ
فَيَمْطُرُ يَوْمَ الْجُودِ مِنْ كَفِّهِ النَّدَى
فَلَوْ أَنَّ يَوْمَ الْبُؤْسِ خَلَى عِقَابُهُ
وَلَسَوْ أَنَّ يَوْمَ الْجُودِ خَلَى نَوَالُهُ
وَأُنْشِدَ أَبُو هَفَانٍ لَهُ:

أَيِّنَ أَهْلِ الْعِتَابِ بِالْذُّهْنَاءِ
جَاوَرُونَا وَالْأَرْضُ مُلْبَسَةٌ نَوُ
كُلِّ يَسُومٍ بِأَقْحَوَانٍ جَدِيدِ
أَيِّنَ جِيرَانِنَا عَلَى الْأَحْسَاءِ^(٥)
رَ الْأَقَاحِي تَجَادُ بِالْأَنْوَاءِ^(٦)
تَضَحَّكَ الْأَرْضُ مِنْ بَكَاءِ السَّمَاءِ

(١) المهاء: البقرة الوحشية. بتربان: اسم موضع.

(٢) قَضَى الشيء: كَسَرَهُ وَدَقَّهُ.

(٣) راضه رَوْضًا، وَرِياضًا، وَرِياضَةً: دَلَّلَهُ.

(٤) النوال: العطاء. المعدم: الفقير.

(٥) في الأغاني (٣٣٣/١٥): «أَيْنَ أَهْلِ الْقِيَابِ».

(٦) في الأغاني: «فَارْقُونَا وَالْأَرْضُ قُلْبَةٌ». وَتَجَادُ: تُمْطَرُ.

لدعبل الخزاعي

أخذ هذا المعنى دعبل، ونقله إلى معنى آخر، فقال:

أَيْنَ الشَّبَابُ؟ وَأَيَّةَ سَلَكَا؟ أَمْ أَيْنَ يُطَلَّبُ؟ ضَلَّ، بَلْ هَلَكَا
لَا تَعْجَبِي يَا سَلَمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

لمسلم بن الوليد

وقال مسلم بن الوليد في هذا المعنى:

مُسْتَعِيرٌ يَكِي عَلَى دِمْنَةٍ وَرَأْسُهُ يَضْحَكُ فِيهِ الْمَشِيبُ^(١)

[معالي الأخلاق]

مما أنشده الزبير بن بكار

وأنشد الزبير بن بكار:

أُحِبُّ مُعَالِيَ الْأَخْلَاقِ جَهْدِي وَأُكْرَهُ أَنْ أَعِيبَ وَأَنْ أَعَابَا
وَأُضْفَحُ عَنْ سَبَابِ النَّاسِ حِلْمًا وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ حَبَّ السَّبَابَا
وَأَتْرُكُ قَائِلَ الْعَوْرَاءِ عَمْدًا لِأَهْلِكَ وَمَا أَعْيَا الْجَوَابَا^(٢)
وَمَنْ هَابَ الرِّجَالَ تَهَيَّؤُهُ وَمَنْ حَفَرَ الرِّجَالَ فَلَنْ يُهَابَا

[رياضة النفس على الفراق]

وعلى ذكر قوله:

إِذَا أَنَا رُضْتُ الْقَلْبَ فِي حُبِّ غَيْرِهَا

أنشد الأصمعي لغلام من بني فزارة:

وَأُعْرِضُ حَتَّى يَحْسَبَ النَّاسُ أَنَّمَا بِيَ الْهَجْرُ، لَا وَاللَّهِ مَا بِيَ لَهَا هَجْرُ
[وَلَكِنْ أَرَوْضُ النَّفْسَ أَنْظُرْ هَلْ لَهَا] إِذَا فَارَقْتُ يَوْمًا أَحِبَّتْهَا صَبْرُ

(١) الدمنة: آثار الدار، الجمع دمن.

(٢) العوراء: الكلمة أو الفعل القبيحة.

قال إسحاق الموصلي: قال لي الرشيد: ما أَحْسَنُ ما قِيلَ في رياضة النفس على الفراق؟ قلت: قول أعرابي:

وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي عُيُونًا، وَأَتَّقِي كَثِيرًا، وَأَسْتَبْقِي الْمَوَدَّةَ بِالْهَجْرِ
فَأَنْذِرُ بِالْهَجْرَانِ نَفْسِي أَرُوضُهَا لَأَعْلَمَ عِنْدَ الْهَجْرِ هَلْ لِي مِنْ صَبْرِ

[فقال الرشيد: هذا مليح، ولكنني أستمح قول أعرابي آخر:

خَشِيتُ عَلَيْهَا الْعَيْنَ مِنْ طَوْلٍ وَضَلَّهَا فَهَاجَرْتُهَا يَوْمَيْنِ خَوْفًا مِنَ الْهَجْرِ
وَمَا كَانَ هِجْرَانِي لَهَا عَنْ مَلَالَةٍ وَلَكِنِّي جَرَّيْتُ نَفْسِي بِالصَّبْرِ^(١)

لابن الأحنف

قال الصولي: قال لي المبرد: عمك إبراهيم بن العباس أحزَمُ رأياً من خاله العباس بن الأحنف في قوله:

كَانَ خُرُوجِي مِنْ عِنْدِكُمْ قَدْرًا وَحَادِثًا مِنْ حَوَادِثِ الزَّمَنِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ أَعْرِضَ الْفِرَاقَ عَلَى قَلْبِي، وَأَنْ أَسْتَعِذَّ لِلْحَسَنِ
وقال عمك إبراهيم:

وَنَاجَيْتُ نَفْسِي بِالْفِرَاقِ أَرُوضُهَا فَقَالَتْ: رُؤِيدًا لَا أَغْرُكَ مِنْ صَبْرِي
فَقُلْتُ لَهَا: فَالْهَجْرُ وَالْيُسْنُ وَاحِدٌ فَقَالَتْ أُمْنَى بِالْفِرَاقِ وَبِالْهَجْرِ^(٢)
فقلت له: إنه نقل كلام خاله:

عَرَضْتُ عَلَى قَلْبِي الْفِرَاقَ فَقَالَ لِي مِنْ الْآنَ فَإِذَا لَا أَغْرُكَ مِنْ صَبْرِي
إِذَا صَدَّ عَنْ أَهْوَى رَجَوْتُ وَصَالَهُ وَفُرْقَةُ مَنْ أَهْوَى أَحْرُ مِنْ الْجَمْرِ

لابن الأحنف

وقال العباس بن الأحنف:

(١) الملاله: السأم والكراهية.

(٢) الين: الفراق. أُمْنَى: يقدر الله ذلك علي.

أَرَوْضُ عَلَى الْهَجْرَانِ نَفْسِي لَعَلَّهَا تَمَاسَكَ لِي أَسْبَابُهَا حِينَ أَهْجُرُ
وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ تَكْذِبُ وَعَدَهَا إِذَا صَدَقَ الْهَجْرَانُ يَوْمًا وَتَغْدُرُ
وَمَا عَرَضَتْ لِي نَظْرَةً مُذْعِرَتْهَا فَأَنْظُرُ إِلَى مَا مَثَلَتْ حِينَ أَنْظُرُ

للمتنبي

[وقال المتنبي من المعنى^(١):

حَيْثُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّي مَن نَأَى وَقَدْ كَانَ غَدَارًا فَكُنْ أَنْتَ وَافِيًا^(٢)
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْيَنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهَا فَلَسْتَ فُؤَادِي إِنْ وَجَدْتُكَ شَاكِيًا^(٣)

لأبي صخر الهذلي

قال الحاتمي: والذي أراه وأذهب إليه أن أحسن من هذا المعنى قول أبي صخر الهذلي:

وَيَمْنَعُنِي مِنْ بَعْضِ انْكَارِ ظُلْمِهَا إِذَا ظَلَمْتُ يَوْمًا وَإِنْ كَانَ لِي عُذْرُ
مَخَافَةُ أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ لَيْتَنِي بَدَا لِي الْهَجْرُ مِنْهَا مَا عَلَى هَجْرِهَا صَبْرُ
وَأَنِّي لَا أَدْرِي إِذَا النَّفْسُ أَشْرَفَتْ عَلَى هَجْرِهَا مَا يَبْلُغُنَّ بِي الْهَجْرُ
فِيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوَى كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَا سَلْوَةَ الْأَحْزَانِ مَوْعِدُكَ الْحَشْرُ^(٤)

شذور من كلام أهل العصر في مكارم الأخلاق

ابن المعتز - العقل غريزة تزينها التجارب. وله: العاقل من عقل لسانه^(٥)، والجاهل من جهل قدره.

غيره: إذا تمّ العقل نقص الكلام. حُسْنُ الصورة الجمال الظاهر، وحسن الخلق

(١) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٤١. والبيتان من قصيدة يمدح بها كافوراً الإخشيدي سلطان مصر.

(٢) في الديوان: «قَبْلَ حُبِّكَ مِنْ نَأَى».

(٣) في الديوان: «يُشْكِيكَ بَعْدَهَا»، و«إِنْ رَأَيْتَكَ شَاكِيًا». يشكيك: يحملك على الشكوى.

(٤) الجوى: شدة الوجد. وموعدك الحشر، أي: يوم القيامة.

(٥) عقل لسانه: ربطه، وهو من عقل البعير إذا ضَمَّ رُئُوعَ يده إلى عضده وربطهما معاً بالعقال ليبقى باركاً.

الجمالُ الباطن. ما أبينَ وجوه الخيرِ والشرِّ في مِرَاةِ العقلِ إذا لم يُصَدِّدْهَا الهوى. آخرُ بمن كان عاقلاً أن يكونَ ما لا يَعتَنِيهِ غافلاً. التواضعُ من مصايد الشرف. من لم يتَضَعُ عند نفسه لم يرتفع عنده غيره.

يحيى بن معاذ - التكبرُ على المتكبر تواضع. الحلمُ حجابُ الآفات. أحيوا الحياةَ بمجاورة من يُستَحْيَا منه. مَنْ كساه الحياءُ ثوبه، ستر عن الناس عَته. الصبرُ تجرُّع الغُصَص، وانتظارُ الفُرص. قلوبُ العقلاء حصون الأسرار. انفرِدْ بِسِرِّكَ ولا تودعه حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون. الأناة^(١) حُسْنُ السلامة، والعجلة مفتاح الندامة. من حَسُنَ خُلُقُهُ وَجِبَ حَقُّهُ. إنما يستحق اسم الإنسانية مَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ. يكاد سيء الخلق يُعَدُّ من البهائم والسباع.

رسطاطاليس - المروءة استحياء المرء نفسه. المعروف حِصْنُ النعم من صروف الزمن. للمحازم كثر في الآخرة من عمله، وفي الدنيا من معروفه. لا تستحي من القليل فإن الحرمان أقلُّ منه.

أبو بكر الخوارزمي - الطَّرْف^(٢) يجري وبه هُزَال، [والسيف يمضي وبه انفلال]، والحرُّ يُعْطِي وبه إقلال^(٣). ويتذلُّ الجاه أحدُ المالين. شفاعَةُ اللسانِ أفضلُ زكاة الإنسان. بَذَلُ الجاهِ رِفْدٌ للمستعين^(٤). الشفيعُ جناحُ الطالب. التقوى هي العُدَّةُ الباقية، والجَنَّةُ الواقعة. ظاهرُ التقوى شرفُ الدنيا، وباطنها شرف الآخرة. من عَفَّتْ أطرافه، حسنت أوصافه. قال أبو الطيب المتنبي^(٥):

وَلَا عِفَّةٌ فِي سَيْفِهِ وَمِئَانِهِ وَلَكِنَّهَا فِي الْكَفِّ وَالْفَرْجِ وَالْقَمِّ^(٦)

لقمان - الصَّمْتُ حُكْمٌ وقليل فاعِلُهُ. أَرْبَعُ كلمات صدرت عن أربعة ملوك كأنما رُميت

(١) الأناة: الحلم والوقار.

(٢) الطَّرْف: الكريم من الناس والخيال ونحوها، والمراد هنا: القرس.

(٣) انفلال: تَثَلُّمٌ وتكثُرٌ. والإقلال: قِلَّةُ المال.

(٤) الرِّفْدُ: العطاء.

(٥) المتنبي، الديوان: ٢٦٦/٢. والبيت من قصيدة يمدح بها كافوراً الإخشيدى.

(٦) أي: هو عفيف النفس، وليس بعفيف السلاح، إذا شهد الحرب قتل الأقران، ولم يتعَفَّفَ عن دمائهم.

عن قَوْسٍ واحدة؛ قَالَ كسرى: لم أندم على ما لم أقل، وَنَدِمْتُ على ما قلت مراراً. قيسر: أَنَا على ردِّ ما لم أقل أقدرُ مني على ردِّ ما قلت. ملك الصين: إِذَا تَكَلَّمْتُ بالكلمة ملكتني، وَإِذَا لم أَتَكَلَّمْ بها ملكتها. ملك الهند: عَجِبْتُ ممن يتكلَّمُ بالكلمة إِن رُفِعَتْ ضَرَّتْهُ، وَإِن لم تُرْفَعْ لم تنفعه. ما الدُّخَانُ على النار، ولا العَجَاجُ^(١) على الريح، بآدِلٍ من ظاهر الرجل على باطنه. وأنشد:

قَدْ يُسْتَدَلُّ بِظَاهِرٍ عَنْ بَاطِنٍ حَيْثُ الدُّخَانُ فَكَمَّ مَوْقِدُ نَارٍ

مَنْ أَصْلَحَ مَالُهُ فَقَدْ صَانَ الْأَكْرَمِينَ الْمَالَ وَالْعِرْضَ. من لم يجمد في التقدير ولم يذُب في التدبير فهو شديد التدبير. عليك بالقَصْدِ بين الطرفين، لا مَنَعَ ولا إِسْرَافَ، ولا بخل ولا إِتْرَافَ. لا تكن رطباً فُتْعَصِرَ، ولا يابساً فُتَكْسَرَ، ولا حلواً فُتَسْرَطَ^(٢)، ولا مرّاً فُتَلْفَظَ.

المأمون بن الرشيد - الشناء أكثر من الاستحقاق مَلَقَّ وهذَر، والتقصير عِيٌّ وَحَصَرَ.

إِكْرَامُ الْأَصْيَافِ، من عادة الأشراف. وفي الخبر: لا تتكلفوا للضيف فتبغضوه؛ فمن أَبْغَضَ الضيفَ أَبْغَضَهُ اللهُ. ينبغي لصاحب الكريم أن يصبر عليه إِذَا جَمَعَتْهُمَا نَبَؤَةُ الزَّمَانِ، فليس يتنفع بالجوهرة الكريمة من لم ينتظر نَفَاقَهَا.

مواعظ عقلها بعض أهل العصر تتعلق بهذا الفصل

أَغْضِ على الْقَذَى، وإلا لم تَرْضَ أَبَدًا^(٣). أَجْمِلِ الطَّلِبَ فسيأتيك [ما قَدِرَ لك] صُنْ عَرْضَكَ، وإلاَّ أَخْلَقْتَ وجهك. جاور النَّاسَ بالكفِّ عن مساوئهم. أَنَسَ رِفْدَكَ، ولا تَنَسَ وعدك، كَذَبَ أسوء الظنون بأحسنها^(٤). أَغْنِ من وَلِيَّتِهِ عن السرقة، فليس يكفيك من لم تكفه. ولا تتكلف ما كُفِّتَ فَيُضِيعَ ما أوليت.

ابن المعتز - لا تُسْرِغْ إلى أرفع موضع في المجلس فالموضع الذي تُرْفَعُ إليه خيرٌ من

(١) العجاج: ما ثار من الغبار.

(٢) سَرَطُهُ سَرَطًا: بلعه.

(٣) هذا من قول بشار بن برد:

إِذَا أَنتَ لَمْ تَتَرَبَّ مِرَارًا عَلَى الْقَذَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ
(ديوانه: ١٥٧/١).

(٤) في رواية: «كَذَبَ سوء الظن بأحسنه».

الموضع الذي تُحطُّ منه. لا تذكر الميت بسوء فتكون الأرض أكرم عليك منك. ينبغي للعاقل أن يُداري زمانه مداراةً السابح للماء الجاري.

العتابي - المداراةُ سياسة رقيقة تجلبُ المنفعة، وتدفع المضرة، ولا يستغني عنها ملك ولا سُوقَة، ولا يدع أحدٌ منها حظه إلا غمرته صروف المكاره.

[من رسائل العتابي وأدبه]

وكتب العتابي إلى بعض إخوانه:

لو اعتصم شوقي إليك بمثل سُلوِّكَ عَنِّي لم أبذل وَجْهَ الرغبة إليك، ولم أتجشَّم مرارة تماديك، ولكن استَحَفَّتْنَا صبابتنا، فاحتملنا قَسَوَتَكَ، لعظيم قَدْر مودتك، وأنت أحقُّ من أقتصَّ^(١) لصلتنا من جفائه، ولشوقنا من إيظائه.

وله: كتبت إليك ونفسي رهينة بشكرك، ولساني علق بالثناء عليك، والغالبُ على ضميري لائمة لنفسي، واستقلالٌ لجهدي في مكافأتك، وأنت - أصلحك الله! - في عزٍّ الغنى عني، وأنا تحت ذُلِّ الفاقةِ إلى عطفك، وليس من أخلاقك أن تُولي جانبَ التَّوْبَةِ منك مَنْ هو عَانٍ في الضَّرَاعَةِ إليك.

ودخل العتابي على الرشيد فقال: تكلَّم يا عتابي؛ فقال: الإنسانُ قبل الإِبْسَاسِ^(٢)، لا يُحَمَّدُ المرءُ بأول صوابه، ولا يذُمَّ بأول خطئه؛ لأنه بين كلام زَوَرِهِ، أو عِي حَصَرِهِ.

ومرَّ العتابي بأبي نُؤَاس وهو ينشد الناس^(٣):

ذَكَرَ الْكَرْخُ نَازِحَ الْأَوْطَانِ فَبَكَى صَبُوءَ وَلَاتِ أَوَانِ^(٤)

(١) اقتص: من القصاص، وهو العقاب، أو الانتقام عامة.

(٢) الإِبْسَاسُ: بحث الأنس في نفس الضيف، واقتلاع الوحشة منها. والإِبْسَاسُ: تقديم الطعام والقرى، وأصل الإِبْسَاسُ: الرفق بالناقة عند الحلب، وهو أن يقال: بس بس. وهو مثل يضرب في المداراة عند الطلب، ومنه قول الشاعر:

وَلَقَدْ رَفَقْتُ فَمَا حَلَيْتُ بِطَائِلٍ لَا يَفْغُ الْإِنْسَانُ بِالْإِنْسَانِ

(الميداني، مجمع الأمثال: ٥٩/١).

(٣) أبو نؤاس، الديوان: ص ٤٧٦.

(٤) الكرْخُ: من ضواحي بغداد. نازح الأوطان: بعيدها. وفي الديوان: «فَصَبَا صَبُوءَ».

فلما رآه قام إليه، وسأله الجلوس، فأبى وقال: أين أنا منك وأنت القاتل، وقد أنصفك الزمان^(١):

قَدْ عَلِقْنَا مِنَ الْخَصِيبِ جَبَالاً أُمْتُنَا طَسَوَارِقَ الْحِدْثَانِ^(٢)
وأنا القاتل وقد جار عليّ، وأساء إليّ:

لَفَظْتُشِي الْبِلَادُ، وَاظْطَوْتُ الْأَكْ فَاءُ دُونِي، وَمَلَنْتِي جِيرَانِي
وَالْتَقْتُ حَلَقَةً عَلَيَّ مِنَ الدَّهْرِ رِمَاجَتْ بِكُلْكَلٍ وَجِرَانِ^(٣)
نَازَعَتْنِي أَحْدَاثُهَا مُنِيَةَ النَفْسِ سِ وَهَدَّتْ خُطُوبُهَا أَرْكَانِي
خَاشِعٌ لِلْهَمُومِ مُعْتَرِفٌ الْقَدْ بِ كَيْبٍ لِنَسَائِبِ الزَّمَانِ

[شعر الأعراب]

قال عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي: سمعت عمّي يحدث قال: أُرِقْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي بِالْبَادِيَةِ، وَكُنْتُ نَازِلًا عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي الصَّيْدَاءِ. وَكَانَ وَاسِعَ الرَّحْلِ، كَرِيمَ الْمَحَلِّ، فَأَصْبَحْتُ وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْعِرَاقِ، فَأَتَيْتُ أَبَا مَثْوَايَ^(٤)، فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ هَلَعْتُ^(٥) مِنَ الْغُرْبَةِ، وَاشْتَقْتُ إِلَى أَهْلِي، وَلَمْ أَفِدْ فِي قَدَمَتِي هَذِهِ كَبِيرَ عِلْمٍ. وَإِنَّمَا كُنْتُ أَغْفِرُ وَحْشَةَ الْغُرْبَةِ وَجَفَاءَ الْبَادِيَةِ لِلْفَائِدَةِ؛ فَأَظْهَرَ الْجَفَاةَ حَتَّى أُبْرَزَ غَدَاءَ لَهُ فَتَغَدَّيْتُ، وَأَمَرَ بِنَاقَةِ مَهْرِيَّةٍ^(٦) كَانَتْهَا سَبِيكَةٌ لُجَيْنٍ [فَارْتَحَلَهَا] وَاكْتَفَلَهَا، ثُمَّ رَكَبَ وَأُرْدَفَنِي، وَأَقْبَلَهَا مُطْلِعَ

(١) أبو نواس، الديوان: ص ٤٧٧.

(٢) علّقنا جبلاً: أمسكناها وتعلّقنا بها. الحداث: الحوادث والنوائب.

(٣) الكلكل: الصدر، وقد يستعار لما ليس بجسم كالليل والدهر، قالت أعرابية تراثي ولدها:

أَلْقَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ كَلْكَلَهُ مَنْ ذَا يَقُومُ بِكُلْكَلِ الدَّهْرِ

(ابن منظور، لسان العرب: كلل). والجران: باطن العنق من البعير وغيره، يقال: ألقى فلان على الأمر جراحه: وطّن نفسه عليه، وألقى عليه جراحه: ثقله.

(٤) المثنوي: الإقامة، وأبو مثنوي: أي مضيفي.

(٥) هَلَعْتُ: جَزَعْتُ.

(٦) ناقة مهريّة: منسوبة إلى مهرة بن حيدان (أبو قبيلة)، وهم حيّ عظيم، وجمع المهرية: مهاريّ،

ومَهَارٍ، ومَهَارِيّ، قال رؤبة بن العجاج:

بِهِ تَمَطَّطَ غَوْلٌ كُلُّهُمْ بِنَا حَرَا جِيجُ الْمَهَارِيّ الثَّقَةِ

(ابن منظور، لسان العرب: مهر).

الشمس؛ فما سِرْنَا كبير مسير حتى لَقِينَا شَيْخً على حمارٍ، له حُمَّةٌ قد صَبَغَهَا بِالْوَرَسِ^(١)، كأنها قنبيطة، وهو يَتَرْتَمُ، فسَلَّمَ عليه صاحبي. وسأله عن نسبه فَأَعْتَزَى أَسَدِيَا من بني ثَعْلَبَةَ. قال: أتروي أم تقول؟ قال: كُلًّا. قال: أين تَوُوم؟ فأشار إلى موضع قريب من الموضع الذي نحن فيه. فأناخ الشيخ، وقال لي: خُذْ بيد عمك فأنزله عن حماره، ففعلت، وألقى له كساءً قد اكتفل به، ثم قال: أنشدنا يرحمك الله وتصدق على هذا الغريب بأبيات يبشهن عنك، ويذكرك بهن، فأنشدني له:

لَقَدْ طَالَ يَا سَوْدَاءُ مِنْكَ الْمَوَاعِدُ وَدُونَ الْجَدَا الْمَأْمُولِ مِنْكَ الْفَرَافِدُ^(٢)
 تُمَيَّنَتَا بِالْوَصْلِ وَعَدَا، وَغَيِّمَكُم ضَبَابٌ، فَلَا صَحْوٌ، وَلَا الْغَيْمُ جَائِدُ^(٣)
 إِذَا أَنْتَ أُعْطِيتَ الْغِنَى ثُمَّ لَمْ تَجِدْ بِفَضْلِ الْغِنَى أَلْفَيْتَ مَالَكَ حَامِدُ^(٤)
 وَقَلَّ غَنَاءُ عَنْكَ مَالٌ جَمَعْتَهُ إِذَا صَارَ مِيرَاثًا وَوَارَاكَ لِأَجْدُ^(٥)
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرُكْ بِجَنِّيكَ بَعْضَ مَا يَرِيبُ مِنَ الْأَدْنَى رَمَاكَ الْأَبَاعِدُ
 إِذَا الْحَلُمُ لَمْ يَغْلِبْ لَكَ الْجَهْلُ لَمْ تَزَلْ عَلَيْكَ بُرُوقُ جَمَّةٍ وَرَوَاعِدُ^(٦)
 إِذَا الْعَزْمُ لَمْ يَقْرُجْ لَكَ الشُّكَّ لَمْ تَزَلْ جَنِيًّا كَمَا اسْتَلَى الْجَنِيَّةَ قَائِدُ^(٧)
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَتْرُكْ طَعَامًا تُحِبُّهُ وَلَا مَقْعَدًا تَدْعُو إِلَيْهِ الْوَلَائِدُ^(٨)
 تَجَلَلْتَ عَارًا لَا يَزَالُ يَشُبُّهُ عَلَيْكَ الرِّجَالُ تَثْرَهُمُ وَالْقَصَائِدُ^(٩)

وأنشدني لنفسه:

تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحُرِّ أَجْمَلُ وَلَيْسَ عَلَى رَبِّ الزَّمَانِ مَعُولُ^(١٠)

(١) الورس: نبت أصفر يشبه الزعفران.

(٢) الجدا: العطاء (الوصل).

(٣) جائد: من جاد الغيم الأرض: سقاها بمائه، أمطرها.

(٤) أَلْفَيْتَ: وَجَدْتَ.

(٥) الْغَنَاءُ: النفع والكفاية.

(٦) جَمَّةٌ: كثيرة.

(٧) استلى: استمتع، وجعلها تاليةً. والجنية: الفرس تقودها من غير أن تركبها.

(٨) الولائد: جمع وليدة، وهي الأمة، أو الصبية إلى أن تبلغ.

(٩) يَشُبُّهُ: يُوقَدُهُ، يُشْعِلُهُ، يُبِيرُهُ.

(١٠) رَبِّ الزَّمَانِ: حوادثه. مَعُولٌ: من عَوَّل عليه: اعتمد عليه واتكل، واستعان به، يقال: عَوَّلْنَا =

فَلَوْ كَانَ يُغْنِي أَنْ يُرَى الْمَرْءُ جَازِعًا لَكَانَ التَّعْزِي عِنْدَ كُلِّ مُصِيبَةٍ
وَنَازِلَةٍ أَوْ كَانَ يُغْنِي التَّذَلُّلُ^(١) وَنَازِلَةٍ بِالْحُرِّ أُولَى وَأَجْمَلُ
وَمَا لِأَمْرٍ مِمَّا قَضَى اللَّهُ مَزْحَلُ^(٢) فَكَيْفَ وَكُلُّ لَيْسَ يَغْدُو حِمَامُهُ
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ
فَمَا لَيْتَ مِنَّا قَنَاءَ صَلِيَّةٍ فَمَا لَيْتَ مِنَّا قَنَاءَ صَلِيَّةٍ
وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نَفُوسًا كَرِيمَةً وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نَفُوسًا كَرِيمَةً
وَفَيْنَا بِحَدِّ الْعَزَمِ مِنَّا نَفُوسَنَا وَفَيْنَا بِحَدِّ الْعَزَمِ مِنَّا نَفُوسَنَا

قال: فقصت إليه، وقد نسيت أهلي، هان علي طول الغربة، وَضَنُكَ العيش، سروراً بما سمعت، ثم قال: يا بني؛ من لم يكن الأدب والعلم أَحَبَّ إليه من الأهل والولد لم يَنْجُب.

[خصومة قرشية]

خاصم بعض القرشيين عمر بن عثمان بن موسى بن عبيد الله بن معمر، فأسرع إليه القرشي فقال: على رسلك، فإنك لسريع الإيقاد وَشَيْكُ الصرِمة^(٤)، وإني والله ما أنا مكافئك دون أن تبلغ غاية التعدي، فأبلغ غاية الإعذار.

[ادعاء]

قال عبد الله بن عبد العزيز، وكان من أفاضل أهل زمانه: قال لي موسى بن عيسى: أَنْهِيَ^(٥) إلى أمير المؤمنين، يعني الرشيد، أنك تشتمه، وَتَدْعُو عليه، فبأي شيء استجرت^(٦)، ذلك؟ قال: أما شَتْمُهُ فهو والله إذا أكرمُ علي من نفسي، وأما الدعاء عليه فوالله ما قلت: «اللهم إنه أصبح عبثاً ثقيلاً على أكتافنا، لا تطيقه أبداننا، وقذَى في عيوننا، ولا تنطبق عليه أجفاننا، وشجى في حلوقنا، لا تسيغه أفواهنا؛ فأكفنا مؤنته، وفرق بيننا

= على فلان في حاجتنا فوجدناه نِعَمَ الْمُعُول.

- (١) النازلة: المصيبة، الداهية.
- (٢) الْمَزْحَلُ: المكان يُزْحَل إليه، ويقال: إن لي عنك مزحلاً، أي مُتَدَحِّحاً.
- (٣) الصليبة: القوة الصلبة.
- (٤) الصرمة: القطيعة، أو إحكام الأمر، والعزيمة فيه.
- (٥) أَنْهِيَ إليه: رُفِعَ.
- (٦) استجاز الشيء: جعله جائزاً.

وبينه! ولكن قلت: «اللهم إن كان تَسْمَى الرشيد ليرشد فأرشدْهُ، أو أتى غير ذلك فراجع به، اللهم إن له في الإسلام بالعباس حقاً على كلِّ مسلم، وله بنيك قرابة ورحماً، فقرِّبه من كل خير، وباعدْهُ من كل شر، وأسعدنا به، وأصلحْهُ لنفسه ولنا». فقال له: يغفر الله لك يا عبد العزيز، كذلك بلغنا.

[عَزَلِ وَالِ]

ولما حجَّ الرشيد سنة ست وثمانين ومائة دخل مكة وعديله يحيى بن خالد؛ فأنبرى إليه الحمري فقال: يا أمير المؤمنين، قف حتى أكلِّمك! فقال: أرسلوا زِمَامَ الناقة، فأرسلوه، فوقفت فكأنما أوتِدْتُ^(١)، فقال: [أقول؟ قال:] قل، فقال: أعزل عنا إسماعيل بن القاسم. [قال: ولم؟ قال:] لأنه يقبل الرشوة، ويُطِيلُ الثَّشْوَةَ، ويضرب بالعشوة، قال: قد عزلناه [عنك]، ثم التفت إلى يحيى فقال: أعندك مثل هذه البديهة؟ فقال: إنه ليجب أن يحسن إليه، قال: إذا عزلنا عنه من يريد عزْلَه فقد كافأناه.

[حُرْمَةُ الْكَعْبَةِ]

ولما وجَّهَ عَبْدُ الْمَلِكِ بن مروان الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير وأوصاه بما أراد أن يُوصِيَه، قال الأسود بن الهيثم النخعي: يا أمير المؤمنين، أوصِ هذا الغلام [الثقفي] بالكعبة ألاَّ يَهْدِمَ أحجارها، ولا يَهْتِكَ أستارها، ولا يُنْفِرَ أطيارها، وليأخذ على ابن الزبير شُعابها، وعقابها، وأنقابها^(٢)، حتى يموتَ فيها جوعاً، ويخرج مخلوعاً.

[كِتَابُ يَنْصُرُ مُحَارِباً]

وكتبَ عبد الله بن طاهر إلى نَصْر بن شبيب وقد نزل به لِئَحَارِبَهُ في جُنْدِهِ، فوجده متحصناً منه، فكتب إليه: اعتصامك بِالْقِلَالِ قَيَّدَ عَزَمَكَ عن القتال^(٣)، والتجاؤك إلى الحصون، ليس ينجيك من المَثُونِ، ولست بِمُقْلَتٍ من أمير المؤمنين، فإما فارس مُطَاعِنٌ، أو راجل مُسْتَأْمَنٌ. فلما قرأه حصره الرعب عن الجواب، فلم يلبث أن خرج مُسْتَأْمِناً.

(١) أُوتِدْتُ: رُبِطْتُ بِوَتْدٍ.

(٢) الْعِقَابُ: جمع عقبة، وهي ما صعب مرتقاه، من الجبال. والأنقاب: جمع نقب، وهو الطريق في الجبل.

(٣) الْقِلَال: قمم الجبال، واحداها قُلَّةٌ.

[من حكم الفرس]

قال بزرجمهر بن البختكان لبعض الملوك: أنعم تُشكر، وأرهَبُ تُحذَر، ولا تهازل فَتُحَقَّر، فجعلهن الملك نَقَشَ خاتمه بدلاً من اسمه واسم أبيه.

ولما قتل أنو شروان بزرجمهر وجد في منطقتة رقعةً فيها مكتوبٌ: إذا كانت الحظوظ بالجُدود فما الحِرْص؟ وإذا كانت الأمور ليست بدائمة فما السرور؟ وإذا كانت الدنيا غرارة فما الطمأنينة؟

[قال سقراط]: من كثر احتمالُه وظهر حِلْمُه قلَّ ظلمُه وكثر أعوانه، ومن قلَّ همُّه على ما فاتهُ استراحَت نفسه وصفا ذِهنُه وطال عمره. وقال: من تعاهد نفسه بالمحاسبة أَمِنَ عليها المُدَاهنة. وقال: الأمانِيُّ جِبَالُ الجهل، والعِشْرَةُ الحسنة وقايةٌ من الأسواء^(١).

سَتَمَهُ بعضُ الملوك وكان على فرسٍ وعليه حُلٌّ وِزَّة - فقال له سقراط: إنما تفخر عليّ بغير جنسك، ولكن رد كلَّ جنسٍ إلى جنسه وتعال الآن فلتتكلم.

وقال سقراط: من أُعْطِيَ الحِكْمَةُ فلا يجوع لِفَقْدِ الذهب والفضة؛ لأن من أُعْطِيَ السلام والدَّعة لا يجوع لِفَقْدِ الأَلم والتعب؛ لأن ثمارَ الحكمة السلام والدَّعة، وثمار الذهب والفضة الأَلم والتعب؛ وقال: القُنيَّةُ ينبوع الأُحزان^(٢)؛ فَأَقْلُوا القنية تَقْلُ همومكم. وقال: القُنيَّةُ مخدومة، ومن خدَم غير نفسه فليس بحر.

وقال أبو الطيب^(٣):

أَبْدَأْتُ تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ الْبَدَنُ يَا فَيَالَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلًا
وَكَفَيْتُ كَوْنُ فَرْحَةٍ تُورِثُ اللَّهَ مَمْ وَخِلْ يُغَادِرُ الْوَجْدَ خِلًا

[حكم للهند]

وفي كتاب الهند: العاقلُ حقيقٌ أنْ تسخو نفسه عن الدنيا، عِلْمًا بأنه لا ينالُ أحدٌ منها شيئاً إلا قلَّ إمتاعه به وكثُرَ عناؤُه فيه، ووبأله عليه، واشتدَّت مؤنته عند فراقه، وعلى العاقل

(١) الأسواء: جمع سوء، وهو كلُّ ما يَضُمُ الإنسان، أو كلُّ ما يقيح.

(٢) القُنيَّةُ والقُشُوَّةُ: ما اكْتَسِبَ من مالٍ ونحوه.

(٣) المتنبّي، الديوان: ١٩٥/٢. والبيتان من قصيدة يرثي بها أخت سيف الدولة الصغرى، ويسليه ببقاء الكبرى.

أن يدوم ذِكْرُه لما بعد هذه الدار، ويتنزه عما تسيّره إليه نفسه من هذه العاجلة، وَيَسْتَنَحِيَّ عن مشاركة الكُفْرَةِ والجهال في حبِّ هذه الفانية التي لا يألّفها ولا ينخدع بها إلا المغترون.

وفيه: لا يجتذّن العاقلُ في صحبة الأحباب والأخلاء، ولا يحرصنَّ على ذلك كل الحرص. فإن صُحْبَتَهُمْ على ما فيها من السرور كثيرة الأذى، والمؤنات، والأحزان، ثم لا يفي^(١) ذلك بعاقبة الفراق.

وفيه: ليس من شهوات الدنيا ولذاتها شيء إلا وهو مولّد أذى وحُزنًا، كالماء المالح الذي كلما ازداد له صاحبه شرباً ازداد عطشاً، وكالقطعة من العسل في أسفلها سمٌ للذائق؛ فيه حلاوة عاجلة، وله في أسفلها سمٌ ذعاف، وكأحلام النائم التي تسره في منامه، فإذا استيقظ انقطع السرور، وكالبرق الذي يضيء قليلاً، ويذهب وشيكاً^(٢)، ويبقى صاحبه في الظلام مُقيماً، وكدودة الإبريسم ما ازدادت عليه لفاً إلا ازدادت من الخروج بعداً.

وفيه: صاحب الدين قد فكر؛ فعلته السكينة، وسكن فتواضع، وقنع فاستغنى، ورَضِيَ فلم يهتم، وخلع الدنيا فنَجَا من الشرور، ورفض الشهوات فصار حراً، وطرح الحسد فظهرت له المحبة، وسَحَتْ نفسه عن كل فأن، فاستكمل العقل، وأبصر العاقبة، فأمن الندامة، ولم يؤذِ الناس فيخافهم، ولم يُذنب إليهم فيسألهم العفو.

[وصية من عتبة بن أبي سفيان]

وقال سعد القصر مولى عتبة بن أبي سفيان: ولأني عتبة أمواله بالحجاز، فلما ودّعته قال: يا سعد، تعاهدْ صغير مالي فيكبر، ولا تجف كبيره فيصغر؛ فإنه ليس يَمْنَعُنِي كثير ما عندي، من إصلاح قليل ما في يدي، ولا يَمْنَعُنِي قليل ما عندي من كثير ما ينوبني^(٣). قال: فقدمت الحجاز، فحدثت به رجالاً من قريش، ففرّقوا به الكتب إلى الوكلاء.

[يزيد بن معاوية]

وقال يزيد بن معاوية لعبيد الله بن زياد: إنَّ أباك كفى أخاه عظيماً، وقد استكفيتك صغيراً، فلا تَشْكِلَنَّ مني على عُلُر، فقد اتكلت منك على كفاية، ولأنَّ أقول لك: إياك،

(١) لا يفي به: لا يعادله ولا يكون مكافئاً له.

(٢) وشيكاً: سريعاً، قريباً.

(٣) ينوبني: يعتريني وينزل بي.

أَحَبُّ إِلَيَّ مَنْ أَنْ أَقُولَ: إِيَّاي؛ فَإِنَّ الظَّنَّ إِذَا أَخْلَفَ فِيكَ أَخْلَفَ مِنْكَ، فَلَا تُرِحْ نَفْسَكَ وَأَنْتَ فِي أَدْنَى حَقِّكَ، حَتَّى تَبْلُغَ أَقْصَاهُ؛ وَادْكُرْ فِي يَوْمِكَ أَخْبَارَ غَدِكَ، وَاسْتَرْذُنِي بِإِحْسَانِكَ إِلَى أَهْلِ الطَّاعَةِ، وَإِسَاءَتِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ، أَرِذْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

[فَضْلُ الْعِمَامَةِ]

ذَكَرْتُ الْعِمَامَةَ عِنْدَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ فَقَالَ: جُنَّةٌ فِي الْحَرْبِ، وَدِنَارٌ فِي الْبَرِّ، وَكُنَّةٌ فِي الْحَرِّ، وَوَقَارٌ فِي النَّدَى، وَشَرَفٌ فِي الْأَحْدُوثةِ، وَزِيَادَةٌ فِي الْقَامَةِ، وَهُوَ [بعد] عَادَةٌ مِنْ عَادَاتِ الْعَرَبِ^(١).

[مِنْ رِسَالِ ابْنِ الْعَمِيدِ]

مِنْ كِتَابِ لَهُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الطَّبْرِيِّ

وَقَفْتُ عَلَى مَا وَصَفْتَ مِنْ بَرٍّ مَوْلَانَا الْأَمِيرَ لَكَ، وَتَوَفَّرَهُ بِالْفَضْلِ عَلَيْكَ، وَإِظْهَارَ جَمِيلِ رَأْيِهِ فِيكَ، وَمَا أَنْزَلَهُ مِنْ عَارِفَةٍ^(٢) لَدَيْكَ؛ وَلَيْسَ الْعَجَبُ أَنْ يَتَنَاهَى مِثْلُهُ فِي الْكَرَمِ إِلَى أَبْعَدِ غَايَةٍ، وَإِنَّمَا الْعَجَبُ أَنْ يَقْصُرَ شَيْءٌ مِنْ مَسَاعِيهِ عَنِ نَبْلِ الْمَجْدِ كُلِّهِ، وَحِيَازَةِ الْفَضْلِ بِأَجْمَعِهِ؛ وَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ مَا يَغْرُسُهُ مِنْ صَنِيعَةٍ عِنْدَكَ أَجْدَرُ غَرْسٍ بِالزَّكَاةِ^(٣)، وَأَضْمَنَهُ لِلرَّيْعِ وَالنَّمَاءِ؛ فَارْزَعْ ذَلِكَ، وَارْكَبْ فِي الْخِدْمَةِ طَرِيقَةَ تَبْعْدِكَ مِنَ الْمَلَالِ، وَتَوَسُّطِكَ فِي الْحُضُورِ بَيْنَ الْإِكْثَارِ وَالْإِقْلَالِ، وَلَا تَسْتَرْسِلْ إِلَى حَسَنِ الْقَبُولِ كُلِّ الْإِسْتِرْسَالِ؛ فَلَا تَدْعَى مِنْ بَعِيدٍ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُقْصَى^(٤) مِنْ قَرِيبٍ، وَلِيَكُنْ كَلَامُكَ جَوَابًا تَتَحَرَّزُ فِيهِ مِنَ الْخَطَلِ^(٥) وَمِنْ الْإِسْهَابِ، وَلَا يَعْجِبُكَ تَأْتِي كَلِمَةً مَحْمُودَةٌ فَيُلَجِّجُ بِكَ الْإِطْنَابُ تَوَقُّعًا لِمِثْلِهَا؛ فَرُبَّمَا هَدَمْتَ مَا بَنَيْتَهُ الْأَوَّلَى، وَبِضَاعَتِكَ فِي الشَّرَفِ مُزْجَاةً، وَبِالْعَقْلِ يُزَمُّ اللِّسَانُ، وَبِرَامِ السَّدَادِ، فَلَا يَسْتَفْتِرِكَ طَرَبُ الْكَلَامِ عَلَى مَا يَفْسِدُ تَمْيِيزُكَ؛ وَالشَّافِعَةُ لَا تَعْرِضُ لَهَا فَإِنَّهَا مُخْلِقَةٌ لِلْجَاهِ؛ فَإِنْ اضْطَرَّرْتَ إِلَيْهَا فَلَا تَهْجُمَ عَلَيْهَا حَتَّى تَعْرِفَ مَوْقِعَهَا، وَتَحْصُلَ زَنْهَا، وَتَطَالَعَ مَوْضِعَهَا؛ فَإِنْ

(١) الْجُنَّةُ: الشُّرَّةُ، الْوَقَايَةُ. الدَّنَارُ: الْغَطَاءُ. الْكُنَّةُ: السَّقِيفَةُ أَوْ الظُّلَّةُ. وَالنَّدَى: مَجْلِسُ الْقَوْمِ وَمَجْتَمِعُهُمْ. وَالْأَحْدُوثةُ: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ، وَيُقَالُ: صَارَ فُلَانٌ أَحْدُوثةً: كَثُرَ الْحَدِيثُ فِيهِ.

(٢) الْعَارِفَةُ: الْعَطِيَّةُ، وَالْمَعْرُوفُ.

(٣) الزَّكَاةُ: النَّمَاءُ.

(٤) تُقْصَى: تُبْعَدُ.

(٥) الْخَطَلُ: الْكَلَامُ الْفَاسِدُ الْكَثِيرُ الْمَضْطَرَبُ.

وَجَدْتَ النَفْسَ بِالْإِجَابَةِ سَمَحَةً، وَإِلَى الْإِسْعَافِ هَشَّةً، فَأَظْهَرَ مَا فِي نَفْسِكَ غَيْرَ مُحَقَّقٍ، وَلَا تَوَهَّمُ أَنَّ عَلَيْكَ فِي الرَّدِّ مَا يُوحِشُكَ، وَلَا فِي الْمَنْعِ مَا يَغِیْظُكَ، وَلِيَكُنْ انْطِلَاقٌ وَجْهَكَ إِذَا دُعِيتَ عَنْ حَاجَتِكَ أَكْثَرَ مِنْهُ عِنْدَ نَجَاحِهَا عَلَى يَدِكَ، لِيَخْفَ كَلَامُكَ، وَلَا يَثْقُلَ عَلَى سَامِعِهِ مِنْكَ. أَقُولُ مَا أَقُولُ غَيْرَ وَاِعْظَ وَلَا مُرْشِدٍ، فَقَدْ جَمَلَ اللَّهُ خَصَالِكَ، وَحَسَّنَ خِلَالِكَ، وَفَضَّلَكَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ؛ لَكِنِّي أَنَبَهُ تَنْبِيهِ الْمَشَارِكِ لَكَ، وَأَعْلَمُ أَنَّ لِلذِّكْرِى مَوْضِعاً مِنْكَ لَطِيفاً.

وله أيضاً: سَأَلْتَنِي عَمَّنْ شَفَنِي وَجَدِي بِهِ^(١)، وَشَفَنِي حُبِّي لَهُ^(٢)، وَزَعَمْتُ أَنِّي لَوْ شِئْتُ لَذَهَلْتُ عَنْهُ وَلَوْ أَرَدْتُ لَاعْتَصَمْتُ مِنْهُ زَعِماً، لَعَمْرُ أَبِيكَ، لَيْسَ بِمَزْعَمٍ كَيْفَ أَسْأَلُو عَنْهُ، وَأَنَا أَرَاهُ، وَأَنْسَاهُ وَهُوَ لِي تُجَاهٌ؛ هُوَ أَغْلَبَ عَلَيَّ، وَأَقْرَبَ إِلَيَّ، مِنْ أَنْ يُرْخِيَ لِي عَنَانِي، أَوْ يُخْلِيَنِي وَاحْتِيَارِي؛ بَعْدَ اخْتِلَاطِي بِمُلْكِهِ، وَأَنْخِرَاطِي فِي سِلْكِهِ، وَبَعْدَ أَنْ نَاطَ حُبَّهُ بَقَلْبِي نَاطِطٌ، وَسَاطَهُ بَدْمِي سَاطِطٌ^(٣). وَهُوَ جَارٍ مَجْرَى الرُّوحِ فِي الْأَعْضَاءِ، مَتَسِمٌ تَسْتَمُ رُوحُ الْهَوَاءِ؛ إِنْ ذَهَبْتُ عَنْهُ رَجَعَ إِلَيْهِ، وَإِنْ هَرَبْتُ مِنْهُ وَقَعْتُ عَلَيْهِ، وَمَا أَحَبَّ السَّلَوُ عَنْهُ مَعَ هَنَاتِهِ، وَمَا أَوْثَرَ الْخَلَوُ مِنْهُ مَعَ مَلَاتِهِ؛ هَذَا عَلَى أَنَّهُ إِنْ أَقْبَلَ عَلَيَّ بَهْتَتِي إِقْبَالَهُ^(٤)، وَإِنْ أَعْرَضَ عَنِّي لَمْ يَطْرُقْنِي خِيَالُهُ، يَبْعَدُ عَنِّي مِثَالُهُ، وَيَقْرُبُ مِنْ غَيْرِي نَوَالُهُ، وَيَرُدُّ عَيْنِي خَاسِئَةً، وَيَشْنِي يَدِي خَالِيَةً، وَقَدْ بَسَطَ آفَاتِ الْعَيُونِ الْمَقَارِبَةَ، وَصَدَّقَ مَرَامِي الظُّنُونِ الْكَاذِبَةَ، وَصَلَّهُ يُنْزِرُ بَصْدَهُ، وَقُرْبُهُ يُؤْذِنُ بَبْعَدِهِ، يُذْنِي عِنْدَمَا يَنْزَحُ، وَيَأْسُو^(٥) مِثْلَ مَا يَجْرَحُ، مُحَالَتُهُ أَحْوَالُ، وَخِلَّتُهُ خِلَالُ^(٦)، وَحُكْمُهُ سِجَالُ، الْحُسْنُ فِي عَوَارِفِهِ، وَالْجَمَالُ مِنْ مَنَافِحِهِ، وَالْبَهَاءُ مِنْ أُصُولِهِ وَصِفَاتِهِ، وَالسَّنَاءُ مِنْ نَعَوْتِهِ وَسِمَاتِهِ، اسْمُهُ مُطَابِقٌ لِمَعْنَاهُ، وَفَحْوَاهُ مُوَافِقٌ لِنَجْوَاهُ، يَتَشَابَهُ حَالَاهُ، وَيَتَضَارَعُ قَطْرَاهُ، مِنْ حَيْثُ تَلْقَاهُ يَسْتَتِيرُ، وَمِنْ حَيْثُ تَنْسَاهُ يَسْتَدِيرُ.

[هَرَبُ مِنَ الْوَبَاءِ]

وَقَعَ بِالْكُوفَةِ وَبَاءٌ، فَخَرَجَ النَّاسُ وَتَفَرَّقُوا بِالنَّجْفِ، فَكَتَبَ شَرِيحٌ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ خَرَجَ

(١) شَفَّهَ الْوَجْدَ: أَنْحَلَهُ وَأَهْرَلَهُ.

(٢) شَفَّهَ الْحُبَّ: أَصَابَ قَلْبَهُ، وَشَغَفَ بِهِ وَيَحُبُّهُ: أَحَبَّهُ وَأُولَعَ بِهِ.

(٣) سَاطَطَ: خَلَطَطَ.

(٤) بَهْتَتُهُ الشَّيْءُ: أَدْهَشَهُ وَحَبَّرَهُ.

(٥) يَأْسُو: يَدَاوِي.

(٦) وَفِي رِوَايَةٍ: «فَحَالَتُهُ أَحْوَالُ».

بمخرج الناس: أما بعد، فإنك بالمكان الذي أنت فيه بعين من لا يُعجزه هَرَبٌ، ولا يَؤُوتُه طَلَبٌ؛ وإنَّ المكانَ الذي خَلَفْتَ لا يُعَجِّلُ لأحدِ حِمَامَةٍ^(١)، ولا يظلمه أَيْامه، وإنا وإياك لعلَى بَسَاطٍ واحد، وإن النجف من ذي قُلَّةٍ لقريب.

وهرب أعرابي ليلاً على حمارٍ حَذَّاراً من الطاعون، فبينما هو سائر إذ سمع قائلاً يقول:
لَنْ يُنَبِّقَ اللهُ عَلَى حِمَارٍ وَلَا عَلَى ذِي مَيْعَةٍ طَّيَّارٍ^(٢)
أَوْ يَأْتِيَ الْحَنْفُ عَلَى مِقْدَارٍ قَدْ يُصْبِحُ اللهُ أَمَامَ السَّارِي^(٣)
فكرّ راجعاً، وقال: إذا كان الله أمام الساري فلات حين مَهْرَب.

[قتيل الحب]

قال الأصمعي: أخبرني يونس بن حبيب قال: أتى قومٌ إلى ابن عباس بفتى محمول ضَعْفًا، فقالوا: استشف لهذا الغلام، فنظر إلى فتى حُلُوَ الوجه، عاري العظام؛ فقال له: ما بك؟ فقال:

بِئْسَ مَنْ جَوَى الشَّوْقِ الْمُرَّحَ لَوْعَةً تَكَادُ لَهَا نَفْسُ الشَّفِيقِ تَذُوبُ^(٤)
وَلَكِنَّمَا أَبْقَى حُشَّاشَةً مَا تَرَى عَلَى مَا بِهِ عُودٌ هُنَاكَ صَلِيبُ^(٥)

فقال ابن عباس: أرايتم وجهاً أعتق، ولساناً أذلق، وعُوداً أصلب، وهوى أغلب، مما رأيتم اليوم؟ هذا قتيل الحب، لا قود ولا دية!^(٦)

ابن عباس

وكان ابن عباس رضي الله عنهما حَبْرَ قُرَيْشٍ وَبَحْرَهَا، وله يقول رسول الله ﷺ: اللهم فقّهه في الدين وعلمّه التأويل. وفيه يقول حسّان بن ثابت:

- (١) الحِمَامُ: الموت.
- (٢) المَيْعَةُ: يقال: ميعة الشيء: أوله، وميعة الحُضِرِ: أوله ونشاطه. وأراد بـ«ذي ميعة»: حصان سريع نشيط.
- (٣) الحنف: الهلاك.
- (٤) الجوى: الحزن، أو حرقة الشوق والحزن. والمُبْرَحُ: البالغ الشدة في الإجهاد، واللوعة: الحرة.
- (٥) الحشاشة: بقية الروح في الجسد. والصليب: القوي الصلب.
- (٦) القود: الفصاص.

إِذَا قَالَ لَمْ يَشْرُكَ مَقَالًا لِقَائِلٍ بِمُلْتَطَاتٍ لَا تَرَى بَيْنَهَا فَضْلًا
شَفَى وَكَفَى مَا فِي النُّفُوسِ؛ فَلَمْ يَدْعُ لِذِي لَسَنِ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلًا^(١)
سَمَوْتَ إِلَى الْعُلْيَا بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ فَلَنْتَ ذُرَاهَا لَا دَيْتًا وَلَا وَغْلًا^(٢)

[مسلم بن الوليد صريع الغواني]

وقال مسلم بن الوليد:

أَعَاوِدُ مَا قَدَمْتُهُ مِنْ رَجَائِهَا إِذَا عَاوَدْتُ بِالْيَأْسِ فِيهَا الْمَطَامِعُ
رَأَيْتِي غَنِيَّ الطَّرْفِ عَنْهَا فَأَعْرَضْتُ وَهَلْ خَفْتُ إِلَّا أَنْ تُشِيرَ الْأَصَابِعُ
فَأَقْسَمْتُ أَنْسَى الدَّعَايَا إِلَى الصَّبَا وَقَدْ فَاجَأَتْهَا الْعَيْنُ وَالسُّتْرُ وَاقِعُ
فَغَطَّتْ بِأَيْدِيهَا ثِمَارَ نُحُورِهَا كَأَيْدِي الْأَسَارَى أَثْقَلَتْهَا الْجَوَامِعُ^(٣)

وكان مسلم أنصاريًا صريحًا، وشاعرًا فصيحًا، ولقب صريعًا أيضًا لقوله:

سَأَنَّكَادُ لِلذَّاتِ مُتَّبِعَ الْهَوَى لِأَمْضَى هَمًّا أَوْ أَصِيبَ فَتَى مِثْلِي
هَلْ الْعِيشُ إِلَّا أَنْ تَرُوحَ مَعَ الصَّبَا صَرِيعَ حُمَيَّا الْكَأْسِ وَالْأَعْيُنِ الثُّجَلِ^(٤)

واجتلب له هذا الاسم لأجل هذا البيت؛ وقد قال القطامي:

صَرِيعُ غَوَانٍ رَاقِهِنَّ وَرُقْنَه لَدُنْ شَبَّ حَتَّى شَابَ سُودُ الذَّوَائِبِ

ومسلم أول من لطف البديع، وكسا المعاني حُللَ اللفظ الرفيع، وعليه يقول الطائي، وعلى أبي النّوَّاس، ومن يديع شعره الذي امثله الطائي قوله:

تُسَاقِطُ يُمْنَاهُ النَّدَى وَشِمَالُهُ الرَّيْ دَى وَعَيُونَ الْقَوْلِ مَنْطِقُهُ الْفَصْلُ^(٥)

- (١) لَسَنَ فُلَانٍ لَسَنًا: فَصَحَ وَبَلَغَ، فَهُوَ لَسِنٌ، وَهِيَ لِسَنَةٌ، وَهُوَ أَلْسَنُ، وَهِيَ لَسْنَاءٌ، وَالْجَمْعُ لَسَنٌ.
- (٢) الْوَغْلُ: الضَّعِيفُ النَّذْلُ السَّاقِطُ الْمُقْصَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، أَوْ الدَّاخِلُ عَلَى الْقَوْمِ فِي طَعَامِهِمْ أَوْ شَرَابِهِمْ غَيْرَ مَدْعُوٍّ إِلَيْهِ.
- (٣) الْجَوَامِعُ: الْكِبُولُ وَالْقِيُودُ، مَفْرَدُهَا جَامِعَةٌ.
- (٤) حُمَيَّا كُلِّ شَيْءٍ: شِدَّتُهُ وَحِدَّتُهُ، وَحُمَيَّا الْخَمْرِ: شِدَّتُهَا وَسُورَتُهَا. وَالْأَعْيُنُ الثُّجَلُ: الْوَاسِعَةُ الْحَسَنَةُ.
- (٥) النَّدَى: الْجُودُ وَالْعَطَاءُ. الرَّدَى: الْمَوْتُ وَالْهَلَاكُ. وَالْمَنْطِقُ الْفَصْلُ: الْقَاطِعُ لَا رَادَّ لَهُ.

كَأَنَّ نَعْمَ فِي فِيهِ تَجْرِي مَكَانَهَا
لَهُ هَضْبَةٌ تَأْوِي لِي ظِلُّ بَرْمَكِ
عَجُولٌ إِلَى أَنْ يُودَعَ الْحَمْدُ مَالَهُ
وَقَدْ حَرَّمَ الْأَعْرَاضَ بِالْيَضِ وَالنَّدَى
حُبًّا لَا يَطِيرُ الْجَهْلُ فِي عَرَصَاتِهَا
يَكْفُ أَبِي الْعَبَّاسِ يُسْتَقْطَرُ الْغَنَى
مَتَى شِئْتَ رَفَعْتَ الشُّوْرَ عَنِ الْغَنَى
وقوله أيضاً:

إِذَا كُنْتُ ذَا نَفْسٍ جَوَادٍ ضَمِيرُهَا
رَأَيْتُ بِعَيْنِ الْجُودِ فَاَنْتَهَزَ الَّذِي
ظَلَمْتُكَ إِنْ لَمْ أَجْزِلِ الشُّكْرَ بَعْدَمَا
فَبِإِنَّكَ لَمْ يَتْرُكْ نَدَاكَ ذَخِيرَةً
وقال ليزيد بن مزيك:

مُوفٍ عَلَى مُهَجٍ فِي يَوْمٍ ذِي رَهَجٍ
يَسْأَلُ بِالرَّفْقِ مَا بَيْنَا الرِّجَالُ بِهِ
لَا يَرْحَلُ النَّاسُ إِلَّا نَحْوَ حُجْرَتِهِ
يَقْرِئِي الْمَنِيَّةَ أَرْوَاحَ الْكِمَاةِ كَمَا
كَأَنَّهُ أَجَلَ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ^(٧)
كَالْمَوْتِ مُسْتَعْجَلًا يَأْتِي عَلَى مَهَلٍ
كَالْيَتِّ يُضْحِي إِلَيْهِ مُلْتَقَى السُّبُلِ
يَقْرِئِي الضُّيُوفَ شُحُومَ الْكُومِ وَالْبِرْلِ^(٨)

- (١) السلافة من كل شيء: خالصه. ومج الماء أو الشراب من فيه: لفظه، يقال: مجت النحل العسل، ومجت الشمس ريقها، والنبات يمج الندى.
- (٢) الأطناب: الحبال، الواحد طناب.
- (٣) بسل: حرام.
- (٤) حُبًّا: جمع حَبْوَةٍ، وهي أن يجمع الرجل ساقيه إلى ظهره بثوبه أو يديه. والذحل: الثَّار.
- (٥) يُسْتَرْعَفُ النَّصْلُ: يُسْتَقْطَرُ دَمًا.
- (٦) فَعَرَّ فَمَةً: فَتَحَهُ.
- (٧) الرهج: الغبار، أو الشَّعْب.
- (٨) الكَمَاة: الأبطال، الواحد كَمِيٍّ. والكوم: جمع كوماء، وهي الناقة العظيمة السنام. والبرل: =

يَكْسُو السُّيُوفَ رُؤُوسَ النَّاكِثِينَ بِهِ وَيَجْعَلُ الْهَامَ تَيْجَانِ الْقَنَا الذُّبُلِ^(١)
قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثَقَّنَ بِهَا فَهَنْ يَتَّبَعُهُ فِي كُلِّ مَرْتَحَلٍ

[من شعر أبي نواس]

قال عمرو الوراق: سمعت أبا نواس ينشد قصيدته^(٢):

أَيُّهَا الْمَتَابُ عَنْ عُقْرِهِ لَسْتُ مِنْ لَيْلِي وَلَا سَمَرِهِ^(٣)
لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرِهِ^(٤)
فحسدته عليها، فلما بلغ إلى قوله:

وَإِذَا مَجَّ الْقَنَا عَلَقَاً وَتَرَأَى الْمَوْتَ فِي صُورِهِ^(٥)
رَاحَ فِي ثَنِي مُفَاضَتِهِ أَسَدٌ يَذْمَى شَبَا ظُفْرِهِ^(٦)
تَتَأَيَّى الطَّيْرُ غَزْوَتَهُ ثِقَةً بِالشَّبْعِ مِنْ جَزَرِهِ^(٧)

= جمع بازل: الجمل الذي تم له تسعة أعوام.

- (١) الذُّبُلُ: جمع ذابل، ورمح ذابل: دقيق.
- (٢) أبو نواس، الديوان: ص ٤٢٧. والأبيات من قصيدة يمدح بها العباس بن عبد الله.
- (٣) المتاب: يقال: انتابهم: أتاهم مرة بعد أخرى. العُقْرُ: من ليالي الشهر: السابعة والثامنة والتاسعة، وقد حركها للضرورة والسَّمرُ: حديث الليل.
- (٤) حَدَّثَ إبراهيم بن المنذر عن محمد بن شبيب أنه سأل أبا نواس فقال: ما أردت بقولك: لا أذود الطير... فقال: أخبرك، كانت لي صديقة تحبني كثيراً، فقيل لي: إنها كانت تختلف إلى آخر من أهل الريب، فلم أصدق حتى تتبعتها فوجدتها تدخل إلى منزل ذلك الرجل، ثم إن ذلك الرجل جاءني، وكان لي صديقاً فكلمني، فصرفت وجهي عنه، وقلت: يا أيها المتاب... أي: لا أمنعك من هذه التي غدرت وجربت غدرها، قال: ثم جعلت ذلك صدر مديح العباس الهاشمي. وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح، فإنها تجلو معنى البيتين بوضوح.
- (٥) القنا: الرماح، الواحدة قناة. العلق: الدم. قراءى: ظهر.
- (٦) المُفَاضَةُ: الدرع الواسعة. الشبا: جمع الشبابة، وهي حدٌ كل شيء.
- (٧) تتأى الطير غزوته: تقصدها وتتعمدها. وفي الديوان: «غذوته». الجزر: جمع الجزور، وهو البعير، أو الناقة المجزورة، والمراد: قتلاه في المعركة. قال عنتر بن شداد: إن يَفْعَلاً فَلَقَدْ تَرَكَتْ أَبَاهُمَا جَزَرَ الشَّبَاعِ وَكُلَّ نَرٍ قَشَمٍ
(ديوانه: ص ٣١).

تَحْتَ ظِلِّ الرُّمَحِ تَنْبَعُهُ فَهِيَ تَغْلِسُهُ عَلَى أَثَرِهِ^(١)

فقلت: ما تركت للنابعة شيئاً حيث يقول^(٢):

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ^(٣)

جَوَانِحُ قَدْ أَقْبَنَ أَنْ فَيَلَّهُ إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ^(٤)

فقال: اسكت، فلئن أحسن الاختراع، لما أسأت الاتباع.

أخذه الطائي فقال^(٥):

وَقَدْ ظَلَّلْتُ عِقْبَانَ رَايَاتِهِ ضَحَى يَعْقَبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ^(٦)

أَفَامَتْ عَلَى الرَايَاتِ حَتَّى كَانَتْهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ^(٧)

[وصف جيش]

وقال المتنبي يصف جيشاً^(٨):

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بَنَاجٍ، وَلَا الْوَحْشُ الْمُثَارُ بِسَالِمِ^(٩)

تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ^(١٠)

(١) لم يرد هذا البيت في رواية الديوان، وفيه بالقافية نفسها:

سَبَقَ التَّقْرِيطُ رَأْسَهُ وَكَفَاهُ الْعَيْنُ مِنْ أَثَرِهِ

(٢) النابعة الذبياني، الديوان: ص ١٠. والبيتان من قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث الأصغر بن

الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شمر الغساني، حين هرب إلى الشام ونزل به.

(٣) العصائب: الجماعات. يريد أن النور والعقبان تتبع العساكر تنتظر القتلى لتقع عليهم.

(٤) جوانح: مائلات للوقوع.

(٥) أبو تمام، الديوان: ٤٠/٢. والبيتان من قصيدة يمدح بها المعتصم العباسي، ويذكر الأفشين.

(٦) في الديوان: «وقد ظللت عقبان أعلامه». يشبه أعلامه بالعقبان، ويجعل عقبان الطير تسير معها، لأنها تعودت أن تأكل من لحوم أعدائه.

(٧) يقول: أَلِفْتُ الْعُقْبَانَ الْجَيْشَ حَتَّى صَارَتْ جِزْءاً مِنْهُ، غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلْ مَعَهُ.

(٨) المتنبي، الديوان: ٣٧٤/١. والأبيات من قصيدة يمدح بها الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طنج بالرملة.

(٩) اللجب: اختلاط الأصوات. والمثار: الذي أثاره الخوف من مكمنه.

(١٠) تطالعه: بمعنى تطلع عليه. القشاعم: النور.

إِذَا ضَوْءُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ^(١)

[شُعْبُ بَوَّان]

ونظير قول أبي الطيب في هذا البيت وإن لم يكن في معناه قوله يصف شعب بَوَّان، وسيأتي، وفي هذا الشعب يقول أبو العباس المبرد: كنت مع الحسن بن رجاء بفارس؛ فخرجتُ إلى شعب بَوَّان، فنظرت إلى تربة كأنها الكافور، ورياض كأنها الثور الموشى، وماء ينحدر كأنه سلاسلُ الفضة، على حصباء كأنها حصَى الدر؛ فجعلت أطوف في جنباتها، وأدور في عَرَصاتها، فإذا في بعض جدرانها مكتوب:

إِذَا أَشْرَفَ الْمَكْرُوبُ مِنْ رَأْسِ تَلْعَةٍ	عَلَى شُعْبِ بَوَّانِ أَفَاقَ مِنَ الْكَرْبِ ^(٢)
وَالْهَاءُ بَطْنٌ كَالْحَرِيرِ لَطَافَةٌ	وَمُطَّرِدٌ يَجْرِي مِنَ الْبَارِدِ الْعَذْبِ
وَطَيْبُ رِيَاضٍ فِي بِلَادٍ مَرِيْعَةٍ	وَأَغْصَانُ أَشْجَارٍ جَنَاهَا عَلَى قُرْبِ ^(٣)
يُدِيرُ عَلَيْنَا الْكَاسَ مَنْ لَوْ لَحَظْتُهُ	بِعَيْنِكَ مَا لُمْتَ الْمُحْبِينَ فِي الْحُبِّ
فَبِاللَّهِ يَا رِيحَ الشَّمَالِ تَحْمَلِي	إِلَى شُعْبِ بَوَّانِ سَلَامَ فَكَيَّ صَبِّ

قال أبو العباس: فأخبرت سليمان بن وهب بما رأيت، فقال: وقد رأيت تحت هذه الآيات:

لَيْتَ شِعْرِي عَنِ الَّذِينَ تَرَكْنَا	خَلَفْنَا بِالْعِرَاقِ هَلْ ذَكَّرُونَا؟
أَمْ يَكُونُ الْمَدَى تَطَاوُلَ حَتَّى	قَدَّمَ الْعَهْدُ بَيْنَنَا فَتُسُونَا
إِنْ حَفَّوْا حُرْمَةَ الصَّفَاءِ فَإِنَّا	لَهُمْ فِي الْهَوَى كَمَا عَهْدُونَا

وشعر المتنبي^(٤):

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيِّباً فِي الْمَغَانِي	يَمُنْزِلَةُ الرِّيحِ مِنَ الزَّمَانِ ^(٥)
---	--

- (١) الفرجة: الخلل. البيض: جمع بيضة، وهي الخوذة من الحديد.
- (٢) التَّلْعَةُ: ما ارتفع من الأرض، أو مسيل الماء من أعلى إلى أسفل.
- (٣) مَرِيْعَةٌ: مُخَصَّبة.
- (٤) المتنبي، الديوان: ٣٧٢/٢. والآيات من قصيدة يمدح بها عَضُدُ الدولة البويهى، ويذكر في طريقه إليه شعب بوان.
- (٥) المغاني: المنازل. الشعب: المتفرج بين جبلين، والمراد هنا: شعب بوان، وهو موضع عند شيراز، كثير الشجر والمياه، وَيُعَدُّ من جَنَّاتِ الدُّنْيَا.

وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا
مَلَاعِبُ جَنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا
طَبَتْ فُرْسَانُنَا وَالْخَيْلُ حَتَّى
غَدُونَا تَنْقُضُ الْأَغْصَانُ فِيهِ
فَجِئْتُ وَقَدْ حَجَبْنَ الشَّمْسَ عَنِّي
وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي بَنَانِي
غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ
سُلَيْمَانٌ لَسَارٌ بِشُرْجُمَانٍ^(١)
خَشِيبٌ وَإِنْ كَرُمَنْ مِنَ الْحِرَانِ^(٢)
عَلَى أَعْرَافِهَا مِثْلَ الْجُمَانِ^(٣)
وَجِئْنَا مِنَ الضِّيَاءِ بِمَا كَفَانِي^(٤)
دَنَانِيرًا تَفَرُّ مِنَ الْبَنَانِ^(٥)

[ومنها:

يَقُولُ بِشَعْبٍ بَوَّانٍ حِصَانِي
أَبْسُوكُمْ أَدَمَ سَنٍّ الْمَعَاصِي
أَعَنْ هَذَا يُسَارُ إِلَى الطَّعَانِ؟
وَعَلَّمَكُمْ مُفَارَقَةَ الْجِنَانِ]

إنما أردت هذا البيت. ومنها:

لَهَا ثَمَرٌ تُشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهُ
وَأَمْوَاهُ يَصِلُ بِهَا حَصَاهَا
بِأَشْرِبَةٍ وَقَفْنَ بِلَا أَوَانِي^(٦)
صَلِيلَ الْحَلِي فِي أَيْدِي الْغَوَانِي^(٧)

[زَجْعٌ إِلَى وَصْفِ الْجَيْشِ]

وأول من ابتكر هذا المعنى الأول الأفوه الأودي^(٨) في قوله:

- (١) الْجَنَّةُ: الْجَنُّ.
- (٢) طَبَاهُ وَيَطْبُوهُ وَيَطِيهِ: دَعَاهُ. وَالْحِرَانُ فِي الدَّبَابَةِ: أَنْ تَقِفَ مَكَانَهَا فَلَا تَبْرَحَ.
- (٣) غَدُونَا: سَرْنَا غَدَوَةً. الْأَعْرَافُ هُنَا: جَمْعُ عَرَفٍ، وَهُوَ شَعْرُ عَقِ الْفَرَسِ. وَالْجُمَانُ: حَبٌّ مِنَ الْفَضَّةِ يَشْبَهُ اللَّالِئِ.
- (٤) فِي الدِّيَوَانِ: «فَسِرْتُ وَقَدْ حَجَبْنَ الْحَرَّ عَنِّي».
- (٥) فِي الدِّيَوَانِ: «وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي». الْبَنَانُ: أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ. وَيُرِيدُ بِالْذَنَانِيرِ: مَا يَتَخَلَّلُ الْأَغْصَانُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فَإِنَّهُ يَقَعُ مُسْتَدِيرًا. قِيلَ: لَمَّا أُنْشِدَ هَذَا الْبَيْتُ، قَالَ لَهُ عَضُدُ الدَّوْلَةِ: وَاللَّهِ لَا لَقَيْنَ فِيهَا دَنَانِيرَ لَا تَفَرُّ.
- (٦) يُرِيدُ أَنْ ثَمَرَهَا لَرَقَةٌ قَشَرُهُ يُرَى مَادَّةٌ مِنْ وَرَاءِ الْقَشَرِ، كَأَنَّهُ شَرَابٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ إِنْاءٍ يُمْسِكُهُ.
- (٧) تَصِلُ: تَصَوَّتْ. وَالْغَوَانِي: النِّسَاءُ الْحِمَانُ.
- (٨) هُوَ أَبُو رَبِيعَةَ، صِلَاءَةُ بْنُ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ، مِنْ بَنِي الْأَوْدِ، مِنْ مَذْهَبِ: شَاعِرِ جَاهِلِي قَدِيمٍ. لَقِبَ بِالْأَفْوَاهِ لِأَنَّهُ كَانَ غَلِيظَ الشَّفَتَيْنِ، ظَاهِرَ الْأَسْنَانِ. وَكَانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ وَقَائِدَهُمْ فِي حُرُوبِهِمْ. وَكَانَتْ =

وَأَرَى الطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا رَأَيْ عَيْنِ ثِقَةٍ أَنْ سَمَّارٌ^(١)
وقال حميد بن ثور وذكر ذنباً:

إِذَا مَا غَدَا يَوْمًا رَأَيْتُ غِيَابَهُ مِنَ الطَّيْرِ يَنْظُرُنَ الَّذِي هُوَ صَانِعُ
فَهُمْ بِأَمْرِئِهِمْ أَزْمَعُ غَيْرُهُ وَإِنْ ضَاقَ أَمْرٌ مَرَّةً فَهُوَ وَاسِعُ
وقال مسلم بن الوليد:

وَأَنِّي لَأَسْتَحْيِي الْقُنُوعَ وَمَذْهَبِي فَسَيِّحٌ وَأَقْلِي الشَّحَّ إِلَّا عَلَى عِرْضِي^(٢)
وَمَا كَانَ مِثْلِي يَعْتَرِيكَ رَجَاؤُهُ وَلَكِنْ أَسَاءْتُ نِعْمَةً مِنْ فَتَى مَحْضٍ^(٣)
وَأَنِّي وَلِإِشْرَافِي عَلَيْكَ بِهَمَّتِي لَكَالْمُبْتَغِي زَيْدًا مِنَ الْمَاءِ بِالْمَحْضِ^(٤)
أخذه أبو عثمان الناجم فقال:

لَمْ تُحْصَلْ بِمَحْضِكَ الْمَاءَ إِلَّا زَيْدًا حِينَ رُمْتَ بِالْجَهْلِ زَيْدًا

[وصف سفينة]

وقال مسلم أيضاً يصف السفينة:

كَشَفْتَ أَهَؤُلَ الدُّجَى عَنْ مَهُولِهِ بِجَارِيَةٍ مَحْمُولَةٍ حَامِلٍ بِكْرِ^(٥)
إِذَا أَقْبَلْتُ رَأَعْتُ بِقُتَّةٍ قَرْهَبٍ وَإِنْ أَدْبَرْتُ رَاقَتْ بِقَادِمَتِي نَسْرِ^(٦)
أَطْلُتْ بِمَجْدَافَيْنِ يَعْتَوِرَانِهَا وَقَوْمَهَا كَبُحَ اللَّجَامِ مِنَ الدَّبْرِ^(٧)

= العرب نَعْدَهُ من حكمائها. وكان يقال لأبيه: فارس الشوهاء. وأشهر فنونه الحكمة والحماسة.
(ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١٤٩/١؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٢/١٦٥).

(١) سَمَّار: أي ستنال الميرة، وهي الطعام.

(٢) أَقْلِي الشَّحَّ: أبغضه.

(٣) الْمَحْضُ: كل شيء خالص حتى لا يشوبه شيء يخالطه، وقد مَحَضَ فلاناً الوَدَّ أو النصح: أخلصه إياه.

(٤) مَحْضُ اللِّين: حَرَكَةٌ ليخرج زبده.

(٥) المهول: من هال هَوْلًا: خاف وفزع. والجارية: السفينة.

(٦) القرهَب: الثور. وفي رواية: «بِقُتَّةٍ قَرْهَدٍ»، والقرهد: ولد الأسد أو ولد الوعل. والقُتَّة من كل شيء: أعلاه.

(٧) اعتوروا الشيء: تداولوه فيما بينهم. والكبح في الأصل: أن يجذب الراكب رأس الدابة إليه =

كَأَنَّ الصَّبَا تَحْكِي بِهَا حِينَ وَاجَهَتْ نَسِيمَ الصَّبَا مَثِي العُرُوسِ إِلَى الْخِذْرِ

[مما قيل في وصف الأساطيل]

لابن هانئ يصف أسطول المعز الفاطمي

وقال أبو القاسم بن هانئ يصف أسطول المعز بالله:

أَمَّا وَالْجَوَارِي الْمُثَنَّاتِ الَّتِي سَرَتْ قَبَابٌ كَمَا تُرْخَى الْقِيَابُ عَلَى الْمَهَا [وَمَا رَاعَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَّا إِطْلَاعُهَا وَلِلَّهِ مِمَّا لَا يَرُونَ كِتَائِبٌ أَطَالَ لَهَا أَنْ الْمَلَائِكُ خَلَفَهَا وَأَنَّ الرِّيحَ الذَّارِيَاتِ كِتَائِبٌ عَلَيْهَا غَمَامٌ مُكْفَهَرٌ صَيَّرَهُ مَوَاحِرُ فِي طَامِي الْعَبَابِ كَأَنَّهَا أَنْفَتْ بِهَا أَطَامُهَا وَسَمَا بِهَا [مَنْ الطَّيْسِ إِلَّا أَنَّهُنَّ جَوَارِحُ وَلَيْسَ بِأَعْلَى كَبْكَبٍ وَهُوَ شَاهِقٌ مِنَ الرَّاسِيَاتِ الشَّمُّ لَوْلَا انْتِقَالُهَا مِنْ الْقَادِحَاتِ النَّارُ تُضْرَمُ لِلصَّلَى

لَقَدْ ظَاهَرَتْهَا عُذَّةٌ وَعَدِيدٌ وَلَكِنَّ مَنْ ضَمَّتْ عَلَيْهِ أُسُودٌ^(١) تُشَرُّ أَعْلَامُ لَهَا وَبُنُودٌ^(٢) مُسَوِّمَةٌ يَجْرِي بِهَا وَجُنُودٌ^(٣) فَمَنْ وَقَفَتْ خَلْفَ الصَّفُوفِ رُدُودٌ^(٤) وَأَنَّ النُّجُومَ الطَّالِعَاتِ سَعُودٌ لَهُ بَارِقَاتٌ جَمَّةٌ وَرُعُودٌ^(٥) لِعَزْمِكَ بَأْسٌ أَوْ لِكَفِّكَ جُودٌ بِنَاءٌ عَلَى غَيْرِ الْعَرَاءِ مَشِيدٌ^(٦) وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النُّفُوسَ مَصِيدٌ وَلَيْسَ مِنَ الصُّفَّاحِ وَهُوَ صَلُودٌ^(٧) فَمِنْهَا قَنَانٌ شَمَخٌ وَرَيْسُودٌ^(٨) فَلَيْسَ لَهَا يَوْمَ اللَّقَاءِ خُمُودٌ^(٩)

= باللجام لكي تقف ولا تجري، ومنه: كبح فلاناً عن حاجته: رَدَّه عنها.

(١) المها: جمع مهاة: البقرة الوحشية.

(٢) مُسَوِّمَةٌ: مُعَلِّمَةٌ.

(٣) ردود: جمع رد (بكر الراء) وهو كل ما اعتمدت عليه، ورجعت إليه.

(٤) الصير: السحاب المتراكم بعضه فوق بعض.

(٥) الآطام: جمع أطم، وهو الحصن أو البيت المرتفع، وقد أطم اليهودج ونحوه: ستره أو علاه.

(٦) الريود: جمع ريد، وهو القطعة من الجبل.

(٧) الصلَى: يقال: صلَى الشيء صَلِيًّا: ألقاه في النار، وَصَلَى النَّارَ وبها: احترق فيها.

إِذَا زَفَرَتْ غَيْظًا تَرَامَتْ بِمَارِجٍ	كَمَا شُبَّ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ وَقُودُ ^(١)
تُعَانِقُ مَوْجَ الْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ	سَلِيْطٌ لَهُ فِيهِ الذُّبَابُ عَيْدُ ^(٢)
تَرَى الْمَاءَ فِيهَا وَهُوَ قَانَ خِضَابُهُ	كَمَا بَاشَرْتُ رَدَعَ الْخَلْقِ جُلُودُ ^(٣)
فَأَنْفَاسُهُنَّ الْحَامِيَّاتُ صَوَاعِقُ	وَأَفْوَاهُهُنَّ الزَّافِرَاتُ حَدِيدُ
يُشَبُّ لَالِ الْجَاثِلِيْقِ سَعِيرُهَا	وَمَا هِيَ مِنْ آلِ الطَّرِيدِ بَعِيدُ
لَهَا شَعْلٌ فَوْقَ الْغِمَارِ كَأَنَّهَا	دِمَاءٌ تَلْقِيهَا مَلَا حِفْ سُوْدُ
وغير المذاكى نَحْرُهَا غير أنها	مُسْوَمَةٌ تَحْتَ الْفَوَارِسِ قُودُ ^(٤)
فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الرِّيحُ أَعْنَةُ	وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْعُبَابُ كَدِيدُ ^(٥)
تَرَى كُلَّ قَوْدَاءِ التَّلِيلِ كَمَا أَتَشَتْ	سَوَالِفُ غَيْدٍ أَعْرَضَتْ وَخُدُودُ ^(٦)
رَحِيَّةٌ مَدَّ الْبَاعِ وَهَسِي نَضِيجَةٌ	بَغِيرَ شَوَى عَذْرَاءٍ وَهَسِي وَلُودُ
تَكْبَسِرْنَ عَنْ نَقْعٍ يُشَارُ كَأَنَّهَا	مَوَالٍ وَجُرْدُ الصَّافِنَاتِ عَيْدُ ^(٧)
لَهَا مِنْ شُفُوفِ الْعَبْقَرِيِّ مَلَابِسُ	مُفَوِّفَةٌ فِيهَا التُّضَارُ جَسِيدُ ^(٨)
كَمَا اشْتَمَلَتْ فَوْقَ الْأَرَائِكِ خُرْدُ	أَوْ التَّقَعَّتْ فَوْقَ الْمَنَابِرِ صِيدُ ^(٩)
لَبُوسٌ تَكْفُ الْمَوْجَ وَهُوَ غُطَامِطٌ	وَتَدْرَأُ بِأَسِّ الْيَسَمِ وَهُوَ شَدِيدُ ^(١٠)
فَمِنْهُ دُرُوعٌ فَوْقَهَا وَجَوَاشِنُ	وَمِنْهَا خَفَاطَيْنُ لَهَا وَبُرُودُ ^(١١)

- (١) المارِجُ: الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد، أو هو اللهب المختلط بسواد النار.
- (١) السليط: الزيت. والزبال: جمع ذبالة، وهي الفتيلة التي تُسْرَج.
- (٣) الردع: الزعفران. الخلق: ضرب من الطيب.
- (٤) القود: طائفة من الخيل تُقاد في السفر بجوار الركب ولا تُركَّب، بل تودع حتى يحتاج إليها في الدفاع عن الركب.
- (٥) الكديد: الأرض الصلبة.
- (٦) قوداء التليل: طويلة العنق.
- (٧) الصافنات: الخيل. ويقال: صفن الفرس صُفُونًا: قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة.
- (٨) المفوفة: الرقيقة المُخَطَّطة.
- (٩) الخُرْدُ: جمع خريدة، وهي الجارية البكر. والصيد: جمع أصيد، وهو المائل بعنقه تكبراً.
- (١٠) الغُطَامِطُ والغُطْمُطُ: الكثير الماء والالتظام، وقيل: غُطَامِطُ البحر: لُجَّةٌ حين يزخر، وهو مُعْظَمُهُ.
- (١١) الجواشن: جمع جوشن: الدرع.

وقال علي بن محمد الإيادي يصف أسطول القائم فأجاد ما أراد:

لعلي الإيادي يصف أسطول القائم

أعجب لأسطول الإمام مُحَمَّدٍ وَلِحُسْنِهِ وَزَمَانِهِ الْمُسْتَعْرِبِ
لَيْسَتْ بِهِ الْأَمْوَاجُ أَحْسَنَ مَنَظَرٍ يَبْدُو لِعَيْنِ النَّاضِرِ الْمُتَعَجِّبِ
مِنْ كُلِّ مُشْرِفَةٍ عَلَى مَا قَابَلَتْ إِشْرَافَ صَدْرِ الْأَجْدَلِ الْمُتَضَبِّ (١)
دَهْمَاءٌ قَدْ لَيْسَتْ ثِيَابَ تَصْنَعِ تَسْبِي الْعُقُولِ عَلَى ثِيَابِ تَرْهَبِ (٢)
مِنْ كُلِّ أَيْضٍ فِي الْهَوَاءِ مُنْشَرٍ مِنْهَا وَأَسْحَمَ فِي الْخَلِيجِ مُغَيَّبِ (٣)
كَمَلَاءَةٍ فِي الْبَرِّ يَقْطَعُ شَدَّهَا فِي الْبَحْرِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ الشُّذْبِ (٤)
مَحْفُوفَةٌ بِمَجَازِفٍ مَصْفُوفَةٌ فِي جَانِبَيْنِ دُونِ صُلْبِ صُلْبِ
كَقَوَادِمِ النَّسْرِ الْمُرْفَرِفِ عُرِيَتْ مِنْ كَاسِيَاتِ رِيَاشِهِ الْمُتَهَدَّبِ
تَحْتُهَا أَيْدِي الرِّجَالِ إِذَا وَنَتْ بِمُصْعَدٍ مِنْهُ بُعِيدَ مَضَوِّبِ (٥)
خَرَقَاءُ تَذْهَبُ إِنْ يَدٌ لَمْ تَهْدِهَا يَوْمَ الرِّهَانِ وَتَسْقُلُ بِمَوَكِبِ
وَلَهَا جَنَاحٌ يُسْتَعَارُ يُطِيرُهَا طَوَوْعَ الرِّيحِ وَرَاحَةَ الْمَتَطَرِّبِ
يَعْلُو بِهَا حَدَبُ الْعُبَابِ مُطَارَةٌ فِي كُلِّ لُجٍّ زَاخِرٍ مُغْلَسُولِبِ
تَسْمُو بِأَجْرَدٍ فِي الْهَوَاءِ مُتَوِّجِ عُرْيَانٍ مَسْجُوجِ الذَّوَابَةِ شَوَذِبِ (٦)
يَتَنَزَّلُ الْمَلَاخُ مِنْهُ ذَوَابَةٌ لَوْ رَامَ يَرْكَبُهَا الْقَطَا لَمْ يَرْكَبِ
فَكَأَنَّمَا رَامَ اسْتِرَاقَةً مَقْعِدِ تَلْسَمِعُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُشْهَبِ (٧)

(١) الأجدل: الصقر.

(٢) دهماء: سوداء.

(٣) الاسحم: الأسود.

(٤) شذب الشيء: قطعه وفرقه.

(٥) تحشها: تحملها على السرعة. وننت: فترت. مصعد: يقال: صعد في الجبل: رقي. وصوب الشيء: خفضه وأماله.

(٦) الشوذب من الرجال: الطويل الحسن الخلق.

(٧) لم يشهب: لم يُزَمَ بالشهاب، يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعُهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (سورة الصافات، آية ١٠).

سَجَرُوا جَوَاحِمَ نَارِهَا فَتَقَاذَفُوا
 مِنْ كُلِّ مَنُجُورٍ الْحَرِيقِ إِذَا انْبَرَى
 عُرْيَانٌ يَفْدُمُهُ الدِّخَانُ كَأَنَّهُ
 وَلَوْ أَحِقَّ مِثْلُ الْأَهْلَةِ جُنَحٌ
 يَذْهَبْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ لَطَافَةٌ
 كَنُضَائِضِ الْحَيَاتِ رُحْنٌ لَوَاعِبًا
 شَرَعُوا جَوَانِبَهَا مَجَاذِفَ أَثْعَبَتْ
 تَنْصَاعُ كَثَبٍ كَمَا نَقَرَ الْقَطَا
 وَالْبَحْرُ يَجْمَعُ بَيْنَهَا فَكَأَنَّهُ
 وَعَلَى كَوَاكِبِهَا أَسْوَدُ خِلَافَةٍ
 فَكَأَنَّمَا الْبَحْرُ اسْتَعَارَ بِزِيَّتِهِمْ
 مِنْهَا بِالْأُنْ مَارِجٌ مُتْلَهَبٌ^(١)
 مِنْ سَجْنِهِ انْصَلَّتْ انْصِلَاتِ الْكُوكِبِ^(٢)
 صُبْحٌ يَكُرُّ عَلَى الظَّلَامِ الْغَيْهَبِ
 لُحُوقُ الْمَطَالِبِ فَائِتَاتُ الْمَهْرَبِ
 وَيَجُنْنَ فِعْلَ الطَّائِرِ الْمُتَغَلِّبِ
 حَتَّى يَقَعْنَ بِبِرْكِ مَاءِ الْمِيزَبِ^(٣)
 شَأْوُ الرِّيحِ لَهَا وَلَمَّا تَغَيَّبَ
 طَوْرًا، وَتَجْتَمِعُ اجْتِمَاعُ الرَّبْرِ^(٤)
 لَيْلٌ يُقَرِّبُ عَقْرِبَاءَ مِنْ عَقَرٍ
 تَخْتَالُ فِي عُذْدِ السِّلَاحِ الْمُذْهَبِ
 ثَوْبُ الْجَمَالِ مِنَ الرِّيعِ الْمُعْجَبِ

[من لطائف التودد]

كتب العباس بن جرير إلى الفضل بن يحيى:

لا أعلم منزلةً توحشني من الأمير ولا توحشه مني؛ لأنني في المودة له كنفسه، وفي الطاعة ككيده، وإنما أُلْطِفُهُ من فضله، وقد بعثت بعض ما ظننت أنه يحتاج إليه في سفره. وذكر ما بعث.

وكتب غيره في هذا المعنى: إذا كان اللَّطْفُ دليلاً محبّةً، ومِيسَمُ قُرْبَةٍ، كفى قليله عن كثيرة، وناب يسيّره عن خطيره، لا سيما إذا كان المقصود به ذا همّةٍ لا يستعظم نفيساً، ولا يستصغر خسيساً؛ وقد حُرِزَتْ من هذه الصفة أجَلٌ فضائلها، وأُرفِعَ منازلها.

وفي هذا المعنى: إن يد الأُنْسِ طويلة بكل ما بلغت، منبسطة بكل ما أدركت، من

(١) يقال: سَجَرُ التَّنُورِ: مَلَأَهُ وَقُودًا وَأَحْمَاهُ.

(٢) انصَلَّتْ: بَرَزَ وَظَهَرَ، وَانْصَلَّتْ فِي جَرِيهِ أَوْ أَمْرِهِ: جَدَّ وَسَبَقَ.

(٣) النُّضَائِضُ مِنَ الْحَيَاتِ: الَّذِي لَا يَثْبُتُ فِي مَكَانِهِ لِشَرِّهِ وَنَشَاطِهِ، أَوِ الَّذِي يَخْرُجُ لِسَانَهُ يَنْضَضُهُ (يَحْرَكُهُ).

(٤) الرَّبْرِ: الْقَطِيعُ مِنَ بَقَرِ الْوَحْشِ.

حيث يدُ الحشمة قصيرة عن كل ما حَوَتْ، مقبوضة دون ما أَمَلَتْ؛ لأن باب القول مطلقٌ لذوي الخصوص، محذور عند ذوي الهموم، وَلِتَمَكُنْ ما بيننا عاطيتك من لُطْفِي ما لا دونه قلة، ثقةً منك بأنه يرد على ما لا فَوْقَهُ كثرة.

ومن أفاظ أهل العصر في إقامة رسم الهدية في المهرجان والنيروز

لمثل هذا اليوم الجديد والأوان السعيد سنّة، وعلى مثلي فيها أن يتحف ويُلطف، وعلى مثل سيدنا، ولا مثْلَ له، أن يقبل ويشرف. لليوم رسمٌ إن أخل به الأولياء فيما اقترن بالرقعة، ويكسبني بذلك الشرف والرفعة. الهدايا تكون من الرؤساء مكاثرة بالفضل، ومن النظراء مقارضة بالمثل، ومن الأولياء ملاطفة بالقل^(١)، وقد سلكت في هذا اليوم مع مولاي سبيلَ أهل طبقة من الأرباب، وقد حملت إلى مولاي هدية [الملاطف، لا هدية] المُحتفل، والنفس له، والمال منه.

ولهم في التهنة بالنيروز والمهرجان وفصل الربيع

هذا اليوم غُرّة في أيام الدهر، وتاجٌ على مفرق العصر. أسعد الله مولانا بِتَوَرُّوْزِهِ الوارد عليه، وأعاد ما شاء وكيف شاء إليه. أسعد الله تعالى سيدنا بالنوروز الطالع عليه بركاته، وأيمن طائرَه في جميع أيامه ومتصرفاته؛ ولا يزال يلبس الأيام ويُلبيها وهو جديد، ويقطع مسافة نحسها وسعدها وهو سعيد. أقبل النيروزُ إلى سيدنا ناشراً حُلله التي استعارها من شيمته، ومُبدياً حالته التي اتخذها من سَجِيته، ومستصحباً من أنواره ما اكتسبه من محاسن فضله وإكرامه، ومن أنظاره ما اقتبسه من جوده وإنعامه. ويؤكد الوعد بطول بقاءه حتى يملَ العمر، ويستغرق الدهر. سيدنا هو الربيع الذي لا يدبُّ شجره [ولا يزول سحره] ولا ينقطع ثمره، ولا يُقْلَعُ غَمَامُه، ولا تتبدل أيامه؛ فأسعده الله تعالى بهذا الربيع المتشبه بأخلاقه، وإن لم يَنَلْ قدرها، ولم يحمل فضّلها، ولم يجد بُدّاً من الإقرار بها. سيدنا هو الربيع الذي يتصل مطرُه، من حيث يؤمن ضرره، ويدوم زهرُه، من حيث يتعجل ثمره؛ فلا زال آمراً ناهياً، قاهراً علياً، تنهياً الأعياد بمصادفة سلطانه، وتستفيد المحاسن من رياض إحسانه. أسعد الله سيدنا بهذا التَوَرُّوزِ الحاضر، الجديد الناضر، سعادة تستمر له في جميع أيامه على العموم دون الخصوص، لتكون متشابهات [في اكتناف] المواهب لها، واتصال المسار فيها،

(١) القُل: القليل.

لا يفرق إلا بمقدار يزيد التالي على الخالي، ويدرج الآتي على الماضي. وأبقاه ما شاء في ظلال الأمان والأمان. هذا اليوم من محاسن الدهر المشهورة، وفضائل الأزمنة المذكورة، فَلَقِيَ الله تعالى سيدنا بركة وُروِدِهِ، وأجزل حظّه من أقسام سعوده، هذا اليوم من غُررِ الدهور، ومواسم السرور، معظّم في الملك الفارسي، مُسْتَظَرَف في الملك العربي؛ فَوَفَّرَ الله تعالى فيه على مولاي السعادات، وعَرَفَه في أيام البركات، على الساعات واللحظات.

الصفات التي تلزم في رجل الشرطة

وقال الحجاج بن يوسف: دلّوني على رجل للشرطة، فقيل: أي رجل تريد؟ فقال: أريد رجلاً دائمَ العبوس، طويلَ الجلوس، سمينَ الأمانة، أعجَبَ الخيانة^(١)، يهونُ عليه سِبَالُ الشريف في الشفاعة^(٢)! فقالوا: عليك بعبد الرحمن بن عبد الله التميمي، فأرسل إليه يستعمله، فقال: لست أعمل لك عملاً إلا أن تكفيني ولدك، وأهل بيتك، وعيالك وحاشيتك، فقال: يا غلام ناد: مَنْ طلب إليه حاجةً منهم فقد برئت منه الذمة.

لأشجع السلمي يمدح صاحب شرطة الرشيد

وقال أشجع بن عمرو السلمي يمدح في هذا المعنى إبراهيم بن عثمان بن نهيك صاحب شرطة الرشيد، وكان جباراً عنيداً:

يَذْوِي النِّفَاقِ، وَفِيهِ أَمْنُ الْمُسْلِمِ	فِي سَيْفِ إِبْرَاهِيمَ خَوْفٌ وَاقِعٌ
مَالِ الْمَضِيعِ وَمُهْجَةِ الْمُسْتَسْلِمِ	وَبَيْتُ يَكْسَلٍ وَالْعِيُونُ هَوَاجِعٌ
حَتَّى اسْتَقَامَ لَهُ الَّذِي لَمْ يُخْطَمِ ^(٣)	شَدَّ الْخَطَامَ بِأَنْفِ كُلِّ مُخَالَفٍ
تَغَشَّى الْبَرِيَّ بِفَضْلِ ذَنْبِ الْمَجْرِمِ	لَا يُضْلِحُ السُّلْطَانُ إِلَّا شِدَّةً
وَالسَّيْفُ تَقَطَّرَ شَفَرَتَاهُ مِنَ الدَّمِ ^(٤)	وَمِنَ الْوَلَاةِ مُفَخَّخٌ لَا يَتَّقِي

(١) أعجف الخيانة: مهزولها وضعيفها، والمراد: عديم الخيانة.

(٢) السِبَالُ: جمع سَبَلَة، وهي طرف الشارب من الشعر، ومقدم اللحية. ويقال: جرّ فلان سبلته: ثيابه المُسْبَلَة، وجاء وقد نشر سبلته: جاء متوعداً.

(٣) الخِطَام: الزمام، وخطم أنفه: جعل عليه خطاماً، وخطم أنف فلان: ألصق به عاراً ظاهراً، وخطم فلاناً بالكلام: قهره ومنعه حتى لا يتكلم.

(٤) في رواية: «ومن الولاة مُفَخَّخٌ». والمقحم: الذي يقحم نفسه في الأمور.

مَنْعَتْ مَهَابُثُكَ الثُّمُوسَ حَدِيثَهَا بِالْأَمْرِ تَكْرَهُهُ وَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ

[من كلام الأعراب]

أعرابية تلوم أباهَا في الجود

عَدَلْتُ أعرابية أباهَا في الجود وإتلاف ماله، فقالت: حَبَسُ الْمَالِ، أَنْفَعُ لِلْعِيَالِ، مِنْ بَذْلِ الْوَجْهِ فِي السُّوَالِ؛ فَقَدْ قَلَّ النَّوَالُ، وَكَثُرَ الْبُخَالُ، وَقَدْ أَتْلَفْتُ الطَّارِفَ وَالثَّلَادَ، وَبَقِيَتْ تَطْلُبُ مَا فِي أَيْدِي الْعِبَادِ وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْ مَا يَنْفَعُهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَسْعَى فِيَمَا يَضُرُّهُ.

دعوة أعرابية

قال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول: اللهم ارزُقني عمل الخائفين، وخوف العاملين، حتى أتبعهم بترك التنعم، رجاءً لما وَعَدْتَ، وخوفاً مما أوعدت.

وقال آخر: اللهم من أراد بنا سوءاً فأحِطْهُ بِهِ كإِحَاطَةِ الْقَلَانِدِ، بِأَعْنَاقِ الْوَلَانِدِ، وَأَرْسِخْهُ عَلَى هَامَتِهِ، كرسوخ السَّجِيلِ، عَلَى هَامِ أَصْحَابِ الْفِيلِ.

وقال بعضُ الأعراب: نَالْنَا وَسَمِيَّ، وَخَلَفَهُ وَلِيٌّ^(١)؛ فَالْأَرْضُ كَانَهَا وَشْيٌ [عَبْقَرِي]؛ ثُمَّ أَتَيْنَا غُيُومَ جَرَادٍ، بِمَنَاجِلِ حِدَادٍ؛ فَخَرَّبْتَ الْبِلَادَ، وَأَهْلَكَتِ الْعِبَادَ؛ فَسَبْحَانَ مَنْ يُهْلِكُ الْقَوِيَ الْأَكُولَ بِالضَّعِيفِ الْمَأْكُولِ.

[مع الولاة والخلفاء]

السفاح وعمارة بن حمزة

وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس السفاح - وقد أمر له بجوائز نفيسة، وكُسُوة وصلة، وأذن مجلسه -: وصلك الله يا أمير المؤمنين وبرِّك، فوالله لئن أردنا شُكْرَكَ عَلَى كُنْهِ صَلَّتِكَ، فَإِنَّ الشُّكْرَ لَيَقْصُرُ عَنْ نِعْمَتِكَ، كَمَا قَصُرْنَا عَنْ مَنَزَلَتِكَ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَكَ فَضْلاً عَلَيْنَا بِالتَّقْصِيرِ مِنَّا، وَلَمْ تَحْرِمْنَا الزِّيَادَةَ مِنْكَ لِتَقْصِيرِ شُكْرِنَا.

السفاح وخالد بن صفوان

وقال أبو العباس السفاح لخالد بن صفوان: كَيْفَ عَلِمْتُكَ بِأَخْوَالِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ

(١) الوسمي: أول المطر. والولي: المطر يتبع المطر.

كعب؟ قال: يا أمير المؤمنين، هم هامة الشرف، وعزّين الكرم^(١)، وفيهم خصالٌ ليست في غيرهم من قومهم، هم أحسنهم أمماً، وأكرمهم شيماً، وأهناهم طعماً، وأوفاهم ذمماً، وأبعدهم همماً، هم الجَمْرَة في الحرب^(٢)، والرأس في كلِّ خطب، وغيرهم بمنزلة العَجَب^(٣).

عمر بن عبد العزيز وخالد بن صفوان

وعزّى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهتأة بالخلافة، فقال: الحمد لله الذي منّ على الخلق بك، والحمد لله الذي جعل نبوتكم رَحمةً، وخلافتكم عِصمةً، ومصابكم أسوة، وجعلكم قُدوةً.

وقال خالد بن صفوان لبعض الولاة: قدمت وأعطيت كلاً بِقِسْطِهِ من نظرك ومجلسك، في صوتك وعدلك، حتى كأنك من كلِّ أحد، وحتى كأنك لست من أحد. وقال رجل لخالد: إن أباك كان دميماً^(٤)، ولكنه كان حليماً، وإن أمك كانت حسناء، ولكنها كانت رعناء^(٥)، فيا جامع شرِّ أبويه!

شذور في المقابح ومساوئ الأخلاق

علي بن عبيدة الرياحي - أذنس شعار المرء جهله.

ابن المعتز - نعم الجاهل، كالرياض في المزابيل. كلما حَسُنَتْ نعمة الجاهل ازداد فيها قُبْحاً. لسان الجاهل مفتاح حَقِّهِ. لا ترى الجاهل إلا مُفْرِطاً.

الجاحظ - البخل والجبن غريزة واحدة، يجمعهما سوء الظن بالله. والبخل يهدم مباني الشرف.

وقال ابن المعتز: لما عرف أهل النَّقْصِ حالهم عند ذوي الكمال، استعانوا بالكِبَرِ ليعظّم صغيراً، ويرفع حقيراً، وليس ينفع الطمع في وثاق الذلّ. الغضب يصدىء العقل حتى

(١) الهامة: الرأس. والعزّين: أول كلِّ شيء، وما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشمم.

(٢) الجَمْرَة: القطعة الملتهبة من النار، ويقال: هم جَمْرَة: أهل منعة وشدة.

(٣) العَجَب: أصل الذنب، وهو أيضاً مؤخر كل شيء.

(٤) الدميم: القبيح الشكل.

(٥) الرعناء: الهوجاء في منطقتها.

لا يرى صَاحِبُهُ صُورَةَ حَسَنٍ فِيرْتَكِبُهُ، وَلَا صُورَةَ قَبِيحٍ فَيَجْتَنِبُهُ. الْغَضَبُ يَنْبِئُ عَنْ كَامِنِ الْحَقْدِ. مَنْ أَطَاعَ غَضَبَهُ أَضَاعَ أَدَبَهُ. حَدَّةُ الْغَضَبِ تَعَثِّرُ الْمُنْطِقَ، وَتَقْطَعُ مَادَّةَ الْحُجَّةِ، وَتَفَرِّقُ الْفَهْمَ^(١). غَضَبُ الْجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ، وَغَضَبُ الْعَاقِلِ فِي فِعْلِهِ. عَقُوبَةُ الْغَضَبِ تَبْدَأُ بِالْغَضْبَانِ: تَقْبِحُ صُورَتَهُ، وَتُلْثِمُ دِينَهُ، وَتَعْجِلُ نَذْمَهُ. مَا أَقْبَحَ الْإِسْطِطَالَةَ^(٢) عِنْدَ الْغِنَى، وَالْخُضُوعَ عِنْدَ الْفَقْرِ، مَنْ يَهْتَكُ سِتْرَ غَيْرِهِ تَكْشَفَتْ عَوْرَاتُ بَيْتِهِ. نِفَاقُ الْمَرْءِ مِنْ ذَلِكِ. الشَّرِيرُ لَا يَظُنُّ بِالنَّاسِ خَيْرًا لِأَنَّهُ يَرَاهُمْ بِعَيْنِ طَبْعِهِ. مَنْ عَدَّدَ نَعْمَهُ مَحْقَ كَرَمِهِ. خُلِفُ الْوَعْدِ خُلِقَ الْوَعْدُ، مَنْ أَسْرَعَ كَثْرَ عَثَارِهِ.

[من المفاحرات]

بين كاتبٍ ونديمٍ

فَاخَرَ كَاتِبٌ نَدِيمًا، فَقَالَ الْكَاتِبُ: أَنَا مَعُونَةٌ، وَأَنْتَ مَوْنَةٌ؛ وَأَنَا لِلْجِدِّ، وَأَنْتَ لِلْمَهْزُلِ؛ وَأَنَا لِلشَّدَةِ وَأَنْتَ لِللَّيْنَةِ؛ وَأَنَا لِلْحَرْبِ، وَأَنْتَ لِلسَّلَامِ. فَقَالَ النَّدِيمُ: أَنَا لِلنَّعْمَةِ، وَأَنْتَ لِلخِدْمَةِ؛ وَأَنَا لِلْحَضَرَةِ، وَأَنْتَ لِلْمَهْنَةِ؛ تَقُومُ وَأَنَا جَالِسٌ، وَتَحْتَشِمُ وَأَنَا مُؤَانِسٌ؛ تَذَابُّ لِرَاحَتِي، وَتَشْفَى لِسَعَادَتِي؛ فَأَنَا شَرِيكَ، وَأَنْتَ مُعِينٌ، كَمَا أَنَّكَ تَابِعٌ، وَأَنَا قَرِينٌ.

وفاخر صاحبُ سيفٍ صاحبَ قلمٍ، فقال صاحبُ القلمِ: أَنَا أَقْتُلُ بِلا غَرَرٍ^(٣)، وَأَنْتَ تَقْتُلُ عَلَى خَطَرٍ. فقال صاحبُ السيفِ: الْقَلَمُ خَادِمُ السيفِ إِنْ تَمَّ مَرَادُهُ، وَإِلَّا فَلِأَيِّ السيفِ مَعَادُهُ.

قال أبو تمام^(٤):

السيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ^(٥)

إبراهيم بن المهدي:

- (١) تَفَرَّقَ الْفَهْمُ: تَبَدَّدَ.
- (٢) الْإِسْطِطَالَةُ: التَّكْبِيرُ.
- (٣) الْغَرَرُ: الْخَطَرُ، وَالتَّعْرِيزُ لِلْمَهْلَكَةِ.
- (٤) أَبُو تَمَامٍ، الدِّيَوَانُ: ٩٦/١. وَابْنُ مَطْلَعٍ قَصِيدَةً يَمْدَحُ بِهَا الْمُعْتَصِمَ الْعَبَّاسِيَّ، وَيَذْكُرُ انْتِصَارَهُ عَلَى الرُّومِ فِي مَوْقِعَةٍ عُمُورِيَّةٍ سَنَةِ ٨٣٧ م.
- (٥) الْكُتُبُ: أَيُّ كُتُبِ السَّحَرِ وَالتَّنْجِيمِ. الْحَدُّ: الْفَاصِلُ.

فَقَدْ تَلَيْنُ بَعْضَ الْقَوْلِ تَبَذُّلُهُ وَالْوَصْلُ فِي جَبَلٍ صَعْبٍ مَرَايِهِ
كَالْخِيزَرَانِ مَنِيعٌ حِينَ تَكْسِرُهُ وَقَدْ يُرَى لَيْثًا فِي كَفِّ لَأْوِيهِ

لأبي الهيثم المرّي يرثي

قال أبو الهيثم عامر بن عمارة المرّي يرثي:

سَأَبْكِيكَ بِالْبَيْضِ الرَّقَاقِ وَبِالْقَنَاءِ فَإِنْ بَهَا مَا أَدْرَكَ الْوَاتِرُ الْوِثْرَا^(١)
وَلَسْنَا كَمَنْ يَبْكِي أَخَاهُ بِعَبْرَةٍ يُعْصِرُهَا مِنْ مَاءٍ مُقْلَتِهِ عَصْرَا
وَلَكِنِّي أَشْفِي فُوَادِي بَغْمَرَةٍ وَالْهَبُّ فِي قُطْرَيِّ جَوَانِيهِ جَمْرَا
وَإِنَّا أَنْاسٌ مَا تَفِيضُ دُمُوعُنَا عَلَى هَالِكٍ مِنَّا وَإِنْ قَصَمَ الظُّهْرَا^(٢)

[من وصايا الحكماء]

لقى رجل حكيمًا فقال: كيف ترى الدهر؟ قال: يُخْلِقُ الأبدان، ويجدّد الآمال،
ويقربُ المنيّة، ويباعدُ الأُمْنِيّة. قال: فما حالُ أهله؟ قال: من ظفر به منهم تعب، ومن فاته
نصيب. قال: فما الغنى عنه؟ قال: قَطْعُ الرجاء منه، قال: أيّ الأصحاب أبرّ وأوفى؟ قال:
العمل الصالح والتقوى. قال: أيّهم أضُرُّ وأرْدَى^(٣)؟ قال: النفس والهوى، قال: فأين
المخرج؟ قال: سلوكُ المَنْهَج. قال: وما هو؟ قال: بذلُ المجهود، وترك الراحة، ومداومة
الفكرة. قال: أوْصني قال: قد فعلت.

وقال بعضُ الملوك لحكيم من حكمائه: عِظْنِي بِعِظَةٍ تَنْفِي عَنِي الْخِيَلَاءَ^(٤)، وتزهدني في
الدنيا. قال: فَكَّرْ فِي خَلْقِكَ، واذْكُرْ مَبْدَأَكَ وَمَصِيرَكَ، فإذا فعلت ذلك صَغُرَتْ عِنْدَكَ نَفْسُكَ،
وَعَظُمَ بِصَغَرِهَا عِنْدَكَ عَقْلُكَ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ أَنْفَعُهُمَا لَكَ عِظْمًا، وَالنَّفْسَ أَرْيَنُهُمَا لَكَ صِغَرًا؛ قال
الملك: فَإِنْ كَانَ شَيْءٌ يُعِينُنِي عَلَى الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ فَصَفِّتْكَ هَذِهِ. قال: صَفِّتِي دَلِيلَ، وَفَهْمُكَ
مُحِبَّةً، وَالْعِلْمَ عَلِيَّةً، وَالْعَمَلَ مَطِيَّةً، وَالْإِخْلَاصَ زَامِمًا، فَخُذْ لِعَقْلِكَ بِمَا يَزِينُهُ مِنَ الْعِلْمِ،
وَلِلْعَمَلِ بِمَا يَصُونُهُ مِنَ الْعَمَلِ، وَلِلْعَمَلِ بِمَا يَحْقُقُهُ مِنَ الْإِخْلَاصِ، وَأَنْتِ أَنْتِ! قال: صدقت.

(١) البيض: السيوف. القنا: الرماح. وَوَتَرَ فَلَانًا وَتَرًا، وَتَرَةً: قتل حميمه.

(٢) قَصَمَ الشَّيْءَ: كسره كسرًا فيه انفصال، وَقَصَمَ اللَّهُ ظَهْرَ فُلَانٍ: أنزل به البلية.

(٣) أَرْدَى: أَشَدَّ رَدَى، وَالرَّدَى: الْهَلَاكُ.

(٤) الْخِيَلَاءُ: التَّكْبِيرُ.

[من المدح]

لابن الرومي

وقال ابن الرومي^(١):

تَغْنُونُ عَنْ كُلِّ تَقْرِيطٍ بِمَجْدِكُمْ غِنَى الطَّبَاءِ عَنِ التَّكْحِيلِ بِالْكَحْلِ^(٢)
تَلُوحُ فِي دُولِ الْأَيَّامِ دَوْلَتُكُمْ كَأَنَّهَا مِلَّةُ الْإِسْلَامِ فِي الْمِلَلِ^(٣)
وقال أيضاً^(٤):

كُلُّ الْخِصَالِ الَّتِي فِيكُمْ مَحَاسِنُكُمْ تَشَابَهَتْ مِنْكُمْ الْأَخْلَاقُ وَالْخَلْقُ^(٥)
كَأَنَّكُمْ شَجَرُ الْأَثْرِجِ طَابَ مَعَا حَمَلًا وَنُورًا، وَطَابَ الْعُودُ وَالْوَرَقُ

لأبي الفتح البستي

وقال البستي [في نحو هذا]:

فَتَى جَمَعَ الْعِلَاءَ عِلْمًا وَعِفَّةً وَبِأَسَاءَ وَجُودًا لَا يَفِيقُ فُوقَا
كَمَا جَمَعَ التَّفَاحُ حُسْنًا وَنَضْرَةً وَرَائِحَةً مَجْجُورَةً وَمَذَاقًا

في مدح أبي دلف

قال أبو العباس المبرد: حدثني عجل بن أبي دلف قال: امتدح رجلٌ أبي بكلمة، فوصله بخمسة دینار ولم يره، وهي:

مَا لِي وَمَا لَكَ قَدْ كَلَّفْتَنِي شَطَطًا حَمَلَ السِّلَاحِ وَقَوْلَ الدَّارَعَيْنِ قِفَ^(٦)
أَمِنْ رِجَالِ الْمَنَايَا خِلْتَنِي رَجُلًا أُمْسِي وَأَصْبَحُ مُشْتَاقًا إِلَى التَّلَفِ

(١) ابن الرومي، الديوان: ٢٣٣/٥.

(٢) في الديوان: «عن كل تقريظ بفضلكم». والتقريظ: مدح الإنسان وهو حي.

(٣) في الديوان: «في دولة الأيام».

(٤) ابن الرومي، الديوان: ٢٨٨/٤.

(٥) في الديوان: «كل الخلال». والخلق: جمع خلقه.

(٦) شَطَطٌ شَطُوطًا وَشَطَطًا: بَعْدَ، وَشَطَّ فِي الْأَمْرِ: أَمِنَ وَجَاوَزَ الْحَدَّ، وَشَطَّ عَلَيْهِ فِي الْحَكْمِ شَطَطًا:

أرى المنايا على غيري فأكرهها فكيف أمشي إليها بارزاً الكتيف
أخلفت أن سواد الليل غيرني وأن قلبي في جنبي أبي دلف

قلت: هذا كحديث الذي دخل في قوم على شراب فسقوه غير الشراب الذي يشربون، فقال:

بئذان في مجلس واحد لإشار مثير على مثير^(١)
فلو كنت تفعل فعل الكرام فعلت كفعل أبي البخري
تبّع أخوانه في البلاد فأغنى المقل عن المكثير
فاتصل شعره بأبي البخري فأعطاه ألف دينار ولم يره.

[أحمد بن أبي فنن]

والأبيات التي مدح بها أبو دلف هي لأحمد بن أبي فنن، وكان شاعراً مجيداً، وهو القائل:

ولما أبث عيناى أن تملك البكى ولما أبث عيناى أن تملك البكى
تشاءت كنى لا يكر الدمع منكرو تشاءت كنى لا يكر الدمع منكرو
أعرضتماني للهوى ونمتما أعرضتماني للهوى ونمتما
وقال:

وحياة هجرى غير معتمد إلا لقصد الحنث في الحلف^(٢)
ما أنت أملك من رأيت ولا كلفى بحبك متتهى كلفى

قال الصولي: كنا بحضرة أبي العباس المبرد فأنشد هذين البيتين فاستطرفهما وأنشدنا في ذلك:

وحياة غيرك غير معتمد به حشاً ولكن معظماً لحياتكا
ما ينقضي طمعي وإن أطمعتني في الوعد منك إلى اقتضاء عداكا^(٣)

(١) أثره إشاراً: اختاره وفضله.

(٢) الحنث في الحلف: عدم البر فيه.

(٣) العدا: جمع عدا، بمعنى الوعد، واقتضاؤها: طلب إنجازها.

وقال الخثعمي:

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الصَّدِّ أَدْعَى إِلَى الْهَوَى إِذَا كَانَ مِمَّنْ لَا يَخَافُ عَلَى وَضَلِ
وَأَلَّتْ يَمِينًا كَالزُّجَاجِ رَقِيقَةً وَمَا خَلَفْتُ إِلَّا لِتَحَنُّتٍ مِنْ أَجَلِي

وكان أحمد بن أبي فتن أسود، ولذلك قال:

أَخِلَّتْ أَنْ سَوَادَ اللَّيْلِ غَيَّرَنِي

ولما أدخل على المعتز وامتدحه قال: هذا الشاعرُ الآدم^(١)، قال بعض من حضر: لا يَصِرُّه سواده مع يياض أياديك عنده، قال: أجل، ووصله. أخذ قوله:

أرى المنايا على غيري فأكرهها

من قول أعرابي قيل له: ألا تغزو؟ قال: أنا والله أكره الموت على فراشي، فيكف أمشي إليه ركضاً؟

[استطرد]

وهذا المذهب الذي سلكه أحمد ضربٌ من البديع يسمَّى الاستطرد، وذلك أن الفارس يظهر أنه يستطرد لشيء ويَبْطِنُ غيره، فيكرُّ عليه، وكذلك هذا الشاعر يظهر أنه يذهب لمعنى فيعن له آخر فيأتي به، كأنه على غير قصد، وعليه بناء، وإليه كان معزاه^(٢)، وقد أكثر المُحدثون منه فأحسنوا في ذلك.

لإسحاق الموصلي

قال الأصمعي: كنت عند الرشيد فدخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فقال: أنشدني من شعرك، فأنشده:

وَأَمْرٌ بِالْبُخْلِ قُلْتُ لَهَا: أَقْصِرِي فَلَيْسَ إِلَيَّ مَا تَأْمُرِينَ سَبِيلُ
أَرَى النَّاسَ خُلَّانَ الْجَوَادِ، وَلَا أَرَى بَخِيلًا لَهُ فِي الْعَالَمِينَ خَلِيلُ

(١) الآدم: وصف من الأدمة، وهي السمرة.

(٢) معزاه: اعتزاه أي انتسابه.

وَمِنْ خَيْرِ حَالَاتِ الْفَتَى لَوْ عَلِمَتْهُ إِذَا نَالَ شَيْئاً أَنْ يَكُونَ مُنِيلٌ
فَعَالِي فَعَالٍ الْمُكْثَرِينَ تَجْمُلًا وَمَا لِي كَمَا قَدْ تَعَلَّمِينَ قَلِيلٌ
وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ أَوْ أُحْرِمُ الْغِنَى وَرَأَيْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيلٌ

فقال الرشيد: يا فضل؛ أعطه عشرين ألف درهم. ثم قال: لله آيات تأتينا بها يا إسحاق ما أتقن أصولها، وأبين فصولها، وأقل فضولها! فقال: والله يا أمير المؤمنين؛ لا قبلتُ منها درهماً واحداً. قال: ولم؟ قال: لأن كلامك، والله، خيرٌ من شعري. فقال: يا فضل؛ ادفع إليه أربعين ألفاً. قال الأصمعي: فعلمت أنه أصيد لندراهم الملوك مني.

لأبي تمام يصف فرساً

ومن ذلك قول أبي تمام يصف فرساً^(١):

وَسَابِحَ هَظَلٍ تَعْدَاءَ هَتَانٍ عَلَى الْجِرَاءِ أَمِينٍ غَيْرِ خَوَانٍ^(٢)
أَظْمَى الْفُصُوصَ وَلَمْ تَظْمَأْ قَوَائِمُهُ فَخَلَّ عَيْنِكَ فِي رِيَّانٍ ظَمَانٍ^(٣)
فَلَوْ تَرَاهُ مُشِيحاً وَالْحَصَى زَيْمٌ يِّنَ السَّنَابِكِ مِنْ مَثْنَى وَوُحْدَانٍ^(٤)
أَيَقْنَتَ - إِنْ لَمْ تَتَبَّتْ - أَنَّ حَافِرَهُ مِنْ صَخْرٍ تَذْمُرُ أَوْ مِنْ وَجْهِ عُثْمَانَ^(٥)

وقد احتذى البحترى هذا الحذو في حَمْدُوهِ الْأَحُولِ، وكان حمدويه هذا عدوًّا للممدوح، فقال^(٦):

وَأَغْرَّ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمَ مُحَجَّلٍ قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغْرٍ مُحَجَّلٍ^(٧)

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/٢٦٧.

(٢) هظل: سائل. العداء: العدو: الركض. هتان؛ متابع المطر؛ استعار هذه الألفاظ للسابح، أي الفرس السابح (السريع). الجراء: مفردا جرو: صغير كل شيء، والفتوة.

(٣) في الديوان: «فَخَلَّ عَيْنِكَ فِي ظَمَانٍ رِيَّانٍ». الفصوص: جمع فص: ملقَى كل عظمين، وحدة العين.

(٤) المشيح: من أشاح بوجهه: أعرض متكرهاً، السنايك: جمع سنيك: طرف الحافر.

(٥) في الديوان: «حلفت إن لم تتبَّت». وعثمان: هو عثمان بن إدريس الشامي.

(٦) البحترى، الديوان: ٢/٣٦٧. والأبيات من قصيدة يمدح بها محمد بن علي بن عيسى القمي الكاتب.

(٧) أَغْرَّ مُحَجَّلٍ: مشهور.

كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلِ
مَلَكَ الْعِیُونَ؛ فَإِنْ بَدَأَ أُعْطِنَهُ نَظَرَ الْمُحِبِّ إِلَى الْجِيبِ الْمَقْبَلِ
مَا إِنْ يَافَى قَدْىَ وَلَوْ أَوْرَدَتْهُ يَوْمًا خَلَّاتِ حَمْدَؤُهُ الْأَحْوَلِ

وفي قصيدته هذه يحكى أن البحري قال له أصحابه: إنك ستُعاب بهذا البيت؛ لأنك سرقت من أبي تمام، قال: أعاب من أخذي من أبي تمام؟! والله ما قلت شعراً قط إلا بعد أن أحضرت شعره في فكري، قال: وأسقط البيت بعد، فلا يوجد في أكثر النسخ.

[سبق المتقدمين إلى الاستطراد]

وهذا معنى قد أعجب المُحدِّثين، وتخيلوا أنهم لم يُسبقوا إليه، وقد تقدّم لمن قبلهم، قال الفرزدق^(١):

كَأَنَّ فِقَاحَ الْأَزْدِ حَوْلَ ابْنِ مِسْمَعٍ إِذَا جَلَسُوا أَفْوَاهُ بَكْرِ بْنِ وائِلٍ^(٢)

قال الحاتمي: وأتى جرير بهذا النوع فحثا^(٣) في وَجْهِ السَّابِقِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فَضْلاً عَنْ تَلَاهٍ؛ فَإِنَّهُ اسْتَطَرَدَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ، فَهَجَا فِيهِ ثَلَاثَةً، فَقَالَ^(٤):

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مَيْمِي وَعَلَى الْبَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ^(٥)

وقيل هذا البيت مما يَرُدُّ عَلَى الْحَاتِمِيِّ، وَهُوَ قَوْلُهُ:

أَعْدَدْتُ لِلشُّعْرَاءِ كَأْساً مُرَّةً فَسَقَيْتُ آخِرَهُمْ بِكَأْسِ الْأَوَّلِ^(٦)

قال أبو إسحاق: وأوّل من ابتكره السموأل بن عادِيَاءَ الْيَهُودِي، وَكُلُّ أَحَدٍ تَابِعٌ لَهُ

فَقَالَ:

(١) لا وجود لهذا البيت في ديوانه.

(٢) الفِقَاحُ: جمع فِقْحَةٍ، وهي حلقة الدبر، وقيل: هي الدبر يَجْمَعُهَا، قال جرير: وَلَوْ وَضَعْتُ فِقَاحَ بَنِي نُمَيْرٍ عَلَى خَبْتِ الْحَدِيدِ إِذَا لَدَابَا (ابن منظور، لسان العرب: فققح).

(٣) حثا التراب: قبض قبضةً منه ورمى به.

(٤) جرير، الديوان: ص ٣٥٧.

(٥) في الديوان: «وَضَعْتُ الْبَعِيثَ».

(٦) في الديوان: «أَعْدَدْتُ لِلشُّعْرَاءِ سُماً نَاقِعاً».

وَأَنَا أَنَا لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلَوُ
يُقَرَّبُ حُبُّ الْمَوْتِ أَجَالَنَا لَنَا وَتَكْرَهُهُ أَجَالُهُمْ فَتَطْوُ

لطرفه بن العبد البكري

وقد قال طرفه في هذا المعنى^(١):

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بْنَ مَرْثَدٍ^(٢)
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ، وَعَادَنِي بُنُونَ كِرَامٍ سَادَةٌ لِمُسَوْدٍ^(٣)

قيس بن خالد: ذو الجَدَيْنِ الشَّيْبَانِي. وعمرو بن مَرثَد: سيد بني قيس بن ثعلبة، فدعا [عمرو] طرفه لما بلغه ذلك، فقال: أما البنون فإن الله يعطيك، ولكن لا تريم حتى تكون من أوسطنا حالاً؛ وأمر بنيه وكانوا عشرة، فدفع إليه كل واحد منهم عشرة من الإبل؛ فانصرف بمائه ناقة.

ابن عبدل وابن بشر بن مروان

وكان ابن عبدل منقطعاً إلى عبد الله بن بشر بن مروان، فتأخر عنه بره، وغاب أياماً، ثم أتاه فسأله عن غيبته، فقال: خطبت ابنة عم لي بالسواد، فزعمت أن لها ديوناً وأسلاًفاً هناك، وأنا إذا جمعتها لها صارت إلى محبتي، ففعلت ذلك، فلما استنجزتها كتبت إلي:

سَيُخْطِئُكَ الَّذِي أَمْلَيْتَ مِنِّي إِذَا انْتَقَصَتْ عَلَيْكَ قُوَى جِبَالِي
كَمَا أَخْطَاكَ مَعْرُوفُ ابْنِ بَشْرِ وَكُنْتَ تَعُدُّ ذَلِكَ رَأْسَ مَالٍ

فقال: ما أحسن ما ألطفت بالسؤال! وأجزل صلاته.

لبشار بن برد

ومن بديع هذا الباب قول بشار بن برد^(٤):

(١) طرفه بن العبد، الديوان: ص ٣٦.

(٢) يقول: لو شاء الله بلغني منزلتهما وقدرهما.

(٣) في الديوان: «وزارني». يقول: لو بلغني الله منزلتهما لصرت وافر المال، كريم العقب.

(٤) بشار بن برد، الديوان: ١٨٧/٤.

خَلِيلِيَّ مِنْ كَفَبٍ أَعِينَا أَخَاكُمَا عَلَى دَهْرِهِ؛ إِنْ الْكَرِيمَ مُعِينٌ^(١)
وَلَا تَبْخَلَا بُخْلَ ابْنِ قَزَعَةٍ؛ إِنَّهُ مَخَافَةٌ أَنْ يُرْجَى نَدَاهُ حَزِينٌ
إِذَا جِئْتُهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَسَمَ تَلَقَّاهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَمِينٌ^(٢)
فَقُلْ لِأَبِي يَحْيَى مَتَى تَبْلُغَ الْعِلَا وَفِي كُلِّ مَعْرُوفٍ عَلَيْكَ يَمِينٌ^(٣)

لبكر بن النطاح

وقال بكر بن النطاح يمدح مالك بن طوق:

عَرَضْتُ عَلَيْهَا مَا أَرَادَتْ مِنَ الْمُنَى لِرَضَى فَقَالَتْ: قُمْ فَجِئْنِي بِكَوْكَبٍ
فَقُلْتُ لَهَا: هَذَا التَّعْنُتُ كُلُّهُ كَمَنْ يَنْتَهِي لَحْمَ عَنَقَاءٍ مُغْرِبٍ^(٤)
سَلِي كُلِّ أَمْرٍ يَسْتَقِيمُ طِلَابُهُ وَلَا تَذْهَبِي يَا دَرَّ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ
فَأَقْسَمُ لَوْ أَصْبَحْتُ فِي عِزِّ مَالِكٍ وَقُدِّرَتْهُ مَا رَامَ ذَلِكَ مَطْلَبِي
فَتَى شَقِيَّتْ أَمْوَالُهُ بِسَمَاحِهِ كَمَا شَقِيَّتْ قِيَمٌ بِأَرْمَاحِ ثَغْلَبٍ

واعتذر رجلٌ إلى رجلٍ بحضرة عبد الأعلى بن عبد الله فلم يقبل عذره، فقال عبد الأعلى: أما والله لئن كان احتمل إثم الكذب ودنايته، وخضوع الاعتذار وذلته، فعاقبه على الذنب الذاهب، ولم تشكر له إنابة التائب، إنك لممن يُسيء ولا يُحسن.

للحطيئة

وقال الحطيئة:

يَسُوسُونَ أَحْلَامًا بَعِيدًا أَنْتَاهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِظَةُ وَالْجَدُّ^(٥)

- (١) كعب: هو كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وهو أبو عقيل موالي بشار.
- (٢) الكمين: القوم يكمنون في الحرب حيلة، أو اللبس والغموض في الأمر لا يَفْطَنُ لموضعه.
- (٣) أو يحيى: كنية ابن قزعة، ويكنى أيضاً أبا المغيرة. وقبله في الديوان:
كَأَنَّ عُيَيْدَ اللَّهِ لَمْ يَلْقَ مَا جَدًّا وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الْمَكْرُمَاتِ تَكُونُ
- (٤) تعنتت عليه: سأله عن شيء يريد به اللبس عليه والمشقة.
- (٥) ساسَ الناسَ سياسةً: تولى رياستهم وقيادتهم. الأحلام: جمع الحلم، وهو العقل، أو الأناة وضبط النفس، والأناة: الحلم والوقار.

أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَيْكُمْ مِنْ اللُّومِ أَوْسُدُوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا
أَوْلَيْكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَا وَإِنْ وَعَدُوا أَوْفَوْا وَإِنَّ عَقْدُوا شَدُّوا
وَإِنْ كَانَتْ النِّعْمَاءُ فِيهِمْ جَزَوْا بِهَا وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا كَدُّوا
وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جُلٍّ حَادِثٍ مِنْ الدَّهْرِ رُدُّوا فَضَّلَ أَحْلَامَكُمْ رَدُّوا
وَيَعْذِلْنِي أَبْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمْتُ سَعْدٌ^(١)

[شاعر باهلي في حضرة الرشيد]

وَوَصَلَ سَعِيدُ بْنُ سَلَمٍ إِلَى الرَّشِيدِ شَاعِرًا بَاهِلِيًّا، فَأَشْدَهُ قَصِيدَةً حَسَنَةً، فَاسْتَرَابَهُ الرَّشِيدُ، وَقَالَ: أَسْمِعْكَ مَسْتَحْسِنًا، وَأَنْكَرْكَ مَتَّهَمًا؛ فَإِنْ كُنْتَ صَاحِبَ هَذَا الشَّعْرِ فَقُلْ فِي هَذَيْنِ، وَأَشَارَ إِلَى الْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ وَكَانَا جَالِسَيْنِ.

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَمَلْتَنِي عَلَى غَيْرِ الْجَدِّ^(٢): هَيْبَةُ الْخِلَافَةِ، وَوَحْشَةُ الْغُرْبَةِ، وَرَوْعَةُ الْمَفَاجِئَةِ، وَجَلَالَةُ الْمَقَامِ، وَصُعُوبَةُ الْبَدِيهَةِ، وَشُرُودُ الْقَوَافِي، عَلَى غَيْرِ الرُّوِيَّةِ، فَلَيِّمْنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَتَأَلَّفَ نَافِرُ الْقَوْلِ.

فَقَالَ الرَّشِيدُ: لَا عَلَيْكَ إِلَّا تَقُولَ؛ قَدْ جَعَلْتُ اعْتِزَارَكَ عَوَظَ امْتِحَانِكَ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ نَفَسْتُ الْخِنَاقَ، وَسَهَّلْتُ مِيدَانَ السِّبَاقِ، ثُمَّ قَالَ:

بَنَيْتَ بَعْدَ اللَّهِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ذُرَى قُبَّةِ الْإِسْلَامِ فَاخْضَرَّ عُودُهَا
هُمَا طُبَّاهَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهِمَا وَأَنْتَ - أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - عُمُودُهَا^(٣)

فَقَالَ الرَّشِيدُ: وَأَنْتَ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، سَلِّ وَلَا تَكُنْ مَسْأَلَتَكَ دُونَ إِحْسَانِكَ، فَقَالَ: الْهِنْدَةُ^(٤) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَأَمَرَ لَهُ بِهَا، وَبِخَلْعِ نَفِيسَةٍ، وَصِلَةٍ جَزِيلَةٍ.

[كاتب الحجاج عند سليمان بن عبد الملك]

دَخَلَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ كَاتِبَ الْحَجَّاجِ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَازْدَرَاهُ وَنَبَتَ

(١) يعذلني: يلومني.

(٢) الجد: الأرض المستوية.

(٣) الطنب: حبل يُشدُّ به الخباء والسرادق ونحوهما.

(٤) الهنيدة: اسم للمائة من الإبل.

عَيْنُهُ عَنْهُ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ عَيْنِي كَالْيَوْمِ قَطُّ، لَعَنَ اللَّهُ امْرَأَ أَجْرَكَ رَسَنَهُ، وَحَكَمَكَ فِي أَمْرِهِ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا تَقُلْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرُ عَنِّي مُدْبِرٌ، وَعَلَيْكَ مُقْبِلٌ؛ فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرُ عَلَيَّ مُقْبِلٌ، وَعَنْكَ مُدْبِرٌ، لَاسْتَعْظَمْتَ مِنِّي مَا اسْتَصْغَرْتَ، وَاسْتَكْبَرْتَ مَا اسْتَقَلَلْتَ.

قَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ يَا بَنَ أَبِي مُسْلِمٍ لِتُخْبِرَنِي عَنِ الْحِجَاجِ، أَتَرَاهُ يَهْوَ فِي جَهَنَّمَ أَمْ قَدْ قَرَّ بِهَا؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا تَقُلْ هَذَا فِي الْحِجَاجِ، وَقَدْ بَذَلَ لَكُمْ النَّصِيحَةَ، وَأَمَّنْ دَوْلَتَكُمْ، وَأَخَافُ عَدُوَّكُمْ، وَكَأَنِّي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَن يَمِينِ أَيْكَ، وَيَسَارِ أَخِيكَ، فَاجْعَلْهُ حَيْثُ شِئْتَ.

فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: أَغْزُبُ^(١) إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ! فَخَرَجَ، فَالْتَفَتَ سُلَيْمَانُ إِلَى جُلَسَائِهِ فَقَالَ: قَاتِلْهُ اللَّهُ! مَا أَحْسَنَ بَدِيعَتَهُ، وَتَرْفِيعَهُ لِنَفْسِهِ وَلِصَاحِبِهِ! وَقَدْ أَحْسَنَ الْمَكَافَأَةَ فِي الصَّنِيعَةِ، خَلَّوْا عَنْهُ.

[من أدب إبراهيم بن العباس الموصلي]

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْمَوْصِلِيُّ: وَاللَّهِ مَا اتَّكَلْتُ فِي مَكَاتِبَةٍ قَطُّ إِلَّا عَلَى مَا يَجْلِبُهُ خَاطِرِي، وَيَجِيشُ بِهِ صَدْرِي، إِلَّا قَوْلِي فِي فَصْلِ: وَصَارَ مَا كَانَ يُحَرِّزُهُمْ يُبْرِزُهُمْ، وَمَا كَانَ يَعْقِلُهُمْ يَعْتَقِلُهُمْ. وَقَوْلِي فِي رِسَالَةِ أُخْرَى: «فَأَنْزَلَهُ مِنْ مَعْقِلٍ إِلَى عُقَالٍ، وَبَدَّلُوهُ آجَالًا بِأَمَالٍ»، فَإِنِّي أَلَمْتُ فِي هَذَا بِقَوْلِ الصَّرِيعِ^(٢):

مُوفٍ عَلَى مُهَجٍ فِي يَوْمٍ ذِي رَهَجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ

وَفِي الْمَعْنَى الْأَوَّلِ يَقُولُ أَبُو تَمَامٍ^(٣):

فَإِنْ يَنْ حِيطَانًا عَلَيْهِ فَإِنَّمَا أَوْلُكَ عُقْسَالَاتِهِ لَا مَعَاقِلُهُ^(٤)

وَكَانَ يَقُولُ: مَا تَمَنَّيْتُ كَلَامَ أَحَدٍ أَنْ يَكُونَ لِي إِلَّا قَوْلَ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى: النَّاسُ

(١) أغرب: أبعد.

(٢) الصريع: صريع الغواني، وهو مسلم بن الوليد، وقد مضت له أبيات منها هذا البيت.

(٣) أبو تمام، الديوان: ١٤/٢. والبيت من قصيدة يمدح بها الخليفة العباسي المعتصم بالله.

(٤) عقالاته: قيوده وجبوسه. معاقله: ملاجه. يقول: إن يحارب داخل الأسوار والحصون، تكن تلك الأسوار سجنًا له لا ملجأ.

أصناف متباينون، وأطوار متفاوتون، منهم علق مضنة لا يُباع، وغل مظنة لا يُبتاع.

ورد كتاب بعض الكتاب إلى إبراهيم بن العباس بزم رجل ومدح آخر؛ فوقع في كتابه: إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقنعُه، وللمسيء من التكال ما يَقْمعه، بذل المحسن الواجب عليه رغبة، وانقاد المسيء للحق رهبةً، فوثب الناس يقبلون يده.

ووقع لرجل مَنّ إليه بِحُرْمَة: تقدمت بحرمة مألوفة، ووسيلة معروفة، أقوم بِواجبها، وأزعاها من جميع جوانبها.

وإبراهيم بن العباس هو القائل:

لَنَا إِبِلٌ كَوْمٌ يَصِيقُ بِهَا الْفَضَا وَتَغَبَّرُ مِنْهَا أَرْضُهَا وَمَمَاؤُهَا^(١)
فَمِنْ دُونِهَا أَنْ تُسْتَبَاحَ دِمَاؤُهَا وَمَنْ دُونَنَا أَنْ يُسْتَذَمَّ دِمَاؤُهَا
حِمَى وَقَرَى فَالْمَوْتُ دُونَ مَرَامِهَا وَأَيَسَرُّ خَطْبِ يَوْمٍ حَقَّ فَنَاؤُهَا

وقال الصولي: وجدت بخط عبد الله بن أبي سعيد إبراهيم بن العباس أنشده لنفسه^(٢):

وَعَلَّمْتَنِي كَيْفَ الْهَوَى وَجَهْلَتُهُ وَعَلَّمَكُم صَبْرِي عَلَى ظُلْمِكُمْ ظُلْمِي
وَأَعْلَمَ مَا لِي عِنْدَكُمْ فَيَرُدُّنِي هَوَايَ إِلَى جَهْلِي فَأَرْجِعُ عَنْ عِلْمِي^(٣)

فقلت: أسبقك إلى هذا أحد؟ فقال: العباس بن الأحنف بقوله:

تَجَنَّبَ يَرْتَسَادُ السُّلُوفَ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ عِنَّا فِي الْأَرْضِ الْعَرِيضَةَ مَذْهَبًا^(٤)
فَعَادَ إِلَى أَنْ رَاجَعَ الْوَصْلَ صَاغِرًا وَعَادَ إِلَى مَا تَشْتَهِيْنَ وَأُعْتَبَا^(٥)

قال الصولي: وأظن أن ابن أبي سعيد غلط في هذه الرواية؛ لأن الأشبه بقول ابن العباس: «فعاد إلى أن راجع الوصل صاغراً» قوله:

(١) الكوم: جمع كوما، وهي الناقة العظيمة السنام.

(٢) البيتان في العمدة في محاسن الشعر: ٧٩/٢.

(٣) في العمدة: «وأعرض عن عِلْمِي».

(٤) ارتاد الشيء: طلبه.

(٥) أُعْتَبَ: فعل ما يزول معه العتب (الموجدة).

كَمْ قَدْ تَجَرَّعْتُ مِنْ غَيْظٍ وَمِنْ حَزَنِ
وَكَم سَخِطْتُ وَمَا بِالْيَتُّمِ سَخِطِي
وَأُنْشِدْ لَهُ:

لَمَنْ لَا أَرَى أَعْرَضْتُ عَنْ كُلِّ مَنْ أَرَى
أَدْفَعِيهِ عَنْ سُلُوءٍ وَأَرْدَهُ
وَقَالَ فِي هَذَا النَحْوِ:

وَأَنْتَ هَوَى النَّفْسِ مِنْ بَيْنِهِمْ
وَمَا بِكَ إِنْ بَعَدُوا وَخَذَهُ
وَقَالَ الطَّائِي (٢):

إِذَا جِئْتَ لَمْ أَحْزَنْ لِبُعْدِ مُفَارِقِ
فِيالْيَتْنِي أَفْدِيكَ مِنْ غُرْبَةِ النُّوَى
وَأَصْلُ هَذَا مِنْ قَوْلِ مَالِكِ بْنِ مَسْمَعٍ

حَضَرْتُ، وَلَا أَتَنَفَعُ بِالْحَاضِرِ إِذَا غَبَتْ».
وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ:

تَدَانَسْتُ بِقَوْمٍ عَنْ تَسَاءٍ زِيَارَةٍ
وَأَنْ مُقِيمَاتٍ يُمْنَعُجِ اللَّوَى
وَلَيْلَى كَمَثَلِ النَّارِ يَنْفَعُ ضَوْؤُهَا
كَأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى قَوْلِ النَّظَّارِ الْفَقْعَسِيِّ:

يَقُولُونَ هَذَا أَمْ عَمْرٍو قَرِيَّةٌ
أَلَا إِنَّمَا بُعْدُ الْخَلِيلِ وَقُرْبُهُ
دَنَتْ بِكَ أَرْضٌ نَحْوُهَا وَسَمَاءٌ
إِذَا هُوَ لَمْ يُوصَلْ إِلَيْهِ سَوَاءٌ

(١) الأوصاب: جمع وصب، وهو الوجع والمرض. والبلابل: جمع بلبال، وهو الوسواس.

(٢) لم نجد هذين البيتين في ديوانه.

(٣) التناهي: البعد. وشطط: بعد.

وقوله: «وليلي كمثل النار» كقول العباس بن الأحف:

أَحْرَمُ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَشِقُوا
صِرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ تَضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ^(١)
وقال إبراهيم بن العباس:

أَمِيلُ مَعَ الصَّدِيقِ عَلَى ابْنِ عَمِّي وَأَخَذُ لِلصَّدِيقِ مِنَ الشَّقِيقِ
وَأَنْ أَلْفَيْتَنِي حُرّاً مُطَاعاً فَإِنَّكَ وَاجِدِي عَبْدَ الصَّدِيقِ
أَفَرَقَ بَيْنَ مَعْرُوفِي وَمَنِّي وَأَجْمَعُ بَيْنَ مَالِي وَالْحَقِيقِ

[رثاء مصلوب]

قال العقيلي يروي صديقاً له أخذ في خربة فقتل وصلب:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَصْبَحْتَ فَوْقَ مُشَدَّبٍ طَوِيلٍ تُعَفِّكَ الرِّيحُ مَعَ الْقَطْرِ^(٢)
لَقَدْ عَشْتُ مَبْسُوطَ الْيَدَيْنِ مُرْزَأً وَعُوفِيَتْ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ ضَجْعَةِ الْقَبْرِ
وَأُفْلِتَ مِنْ ضِيقِ التَّرَابِ وَغَمِّهِ وَلَمْ تَفْقِدِ الدُّنْيَا؛ فَهَلْ لَكَ مِنْ شُكْرِ
فَمَا تَشْتَقِي عَيْنَايَ مِنْ دَائِمِ الْبُكَى عَلَيْكَ، وَلَوْ أَنِّي بَكَيْتُ إِلَى الْحَشْرِ
فَطُوَسَى لِمَنْ يَكِي أَخَاهُ مُجَاهِراً وَلِكَيْتَنِي أَبْكِي لِفَقْدِكَ فِي سِرِّ

[كلام لا يحتمل الجواب]

من محمد بن كثير إلى الرشيد

وكتب محمد بن كثير إلى هارون الرشيد:

يا أمير المؤمنين؛ لولا حظ كرم الفعل في مطالع السؤال، لألهمي المطل قلوب
الشاكرين، ولصرف عيون الناظرين إلى حسن المحبة. وأتي الحالين يُعِدُّ قولك عن مجاز
فعلك؟

(١) الذبالة: الفتيلة التي تُسْرَجُ.

(٢) مُشَدَّب: يقال: شذب العود شذباً: قشره، أو أزال ما عليه من الأغصان حتى يبدو لحاؤه.
وَتُعَفِّيه الرياح: تمحوه.

فقال هارون الرشيد: هذا الكلام لا يحتمل الجواب: إذ كان الإقرار به يمنع من الاحتجاج عليه.

[تعجيل الإحسان]

بين المأمون ويحيى بن أكرم

وقال يحيى بن أكرم للمأمون يذكر حاجة له قد وعده بقضائها، وأغفل ذلك:

أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ نَعْرُضَ لَكَ بِالْإِسْتِجَارِ، وَنَقَابِلَكَ بِالْأَذْكَارِ، وَأَنْتَ شَاهِدِي عَلَى وَعْدِكَ، وَأَنْ تَأْمُرَ بِشَيْءٍ لَمْ تَتَقَدَّمْ أَيَّامَهُ، وَلَا يَقْدِرْ زَمَانُهُ، وَنَحْنُ أَضْعَفُ مَنْ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَيْنَا صَبْرُ أَنْتَظَارِ نِعْمَتِكَ، وَأَنْتَ الَّذِي لَا يُوَدُّهُ^(١) إِحْسَانٌ، وَلَا يُعْجِزُهُ كَرَمٌ، فَعَجَّلْ لَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَزِيدُكَ كَرَمًا، وَتَزِدَادُ بِهِ نِعْمًا، وَنَتَلَقَّاهُ بِالشُّكْرِ الدَّائِمِ.

فاستحسن المأمون هذا الكلام، وأمر بقضاء حاجته.

المأمون ورجل من بني الدهاقين

قدم على المأمون من أبناء الدهاقين وعظمائهم، من أهل الشعر على عِدَّة سَلَفَتْ لَهُ مِنَ الْمَأْمُونِ^(٢)، مِنْ تَوَلَّيْتَهُ بِلْدَهُ، وَأَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ مَمْلَكَتَهُ، فَطَالَ عَلَى الرَّجُلِ أَنْتَظَارُ خُرُوجِ أَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ، فَقَصَدَ عَمْرُو بْنُ مَسْعُودَةَ وَسَأَلَهُ إِصْبَالَ رَقْعَةٍ إِلَى الْمَأْمُونِ مِنْ نَاحِيَتِهِ، فَقَالَ: اكْتُبْ بِمَا شِئْتَ فَإِنِّي مُوَصِّلُهُ، قَالَ: فَتَوَلَّى ذَلِكَ عَنِّي، حَتَّى تَكُونَ لَكَ نِعْمَتَانِ، فَكُتِبَ عَمْرُو:

إِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ يَقْلَكَ أَشْرَ عِدَّتِهِ مِنْ رِبْقَةِ الْمَطْلِ^(٣)، بِقَضَاءِ حَاجَةِ عَبْدِهِ، وَالْإِذْنِ لَهُ بِالْإِنْصِرَافِ إِلَى بِلْدِهِ، فَعَلَ مُوَفَّقًا.

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عَمْرُوًا، وجعل يعجب من حُسن لفظها، وإيجاز المراد فيها، فقال له عمرو: فما نتيجتها يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: الْكِتَابَةُ لَهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ بِمَا سَأَلَ؛ لِثَلَا يَتَأَخَّرَ فَضْلُ اسْتِحْسَانِنَا كَلَامَهُ، وَبِجَائِزَةِ تَنْفِي دَنَاءَةِ الْمَطْلِ.

(١) لَا يُوَدُّهُ: لَا يَعْجِزُهُ وَلَا يَضْعُفُهُ.

(٢) الْعِدَّة: الْوَعْد. سَلَفَتْ: مَضَتْ.

(٣) الرِّبْقَةُ: وَاحِدَةُ الرِّبْقِ، وَهُوَ حَبْلٌ ذُو عُرَى، أَوْ حَلْقَةٌ لِرَبْطِ الدَّوَابِّ، وَيُقَالُ: حَلَّ رِبْقَتَهُ: فَزَجَ كُرْبَتَهُ.

ومن كلام عمرو بن مسعدة: أعظمُ الناس أجراً، وأنبههم ذكراً، من لم يرُضَ بحياة العَدْلِ في دولته وظهور الحَقِّ في سلطانه، وإيصال المنافع إلى رَعِيَّتِهِ في حياته، حتى احتال في تخليد ذلك في الغابرين^(١) بعده، عنايةً بالدين، ورحمةً بالرعية، وكفايةً لهم من ذلك ما لو عنوا باستنباطه لكان يعرض أحد الأمرين، إما الإكداء عن إصابة الحق فيه لكثرة ما يعرض من الالتباس، وإما إصابة الرأي بعد طول الفكر، ومقاساة التجارب، واستغلاق كثير من الطرق إلى دركه؛ وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في أيامه، وبُعَدَ وفاته وانقراضه.

[فضل الإيجاز]

وقال رجل لسويد بن منجوف، وقد أطل الخبطة بكلام افتتحه للصلح بين قوم من العرب:

«يا هذا؛ أتيت مرعى غير مرعاك، أفلا أدلك عليه؟ قال: نعم. قال: «أما بعد، فإن في الصلح بقاء الآجال، وحفظ الأموال، والسلام»، فلما سمع القوم هذا الكلام تعانقوا وتواهبوا الترات^(٢).

[أبو مسلم]

قال عبد الله بن مسعود: لما أمر أبو مسلم بمحاربة عبد الله بن علي^(٣) دخلت عليه فقلت: «أيها الأمير، تريد عظيمًا من الأمر؟» قال: وما هو؟ قلت: عم أمير المؤمنين وهو شيخ قومه، مع نجدة، وبأس، وحزم، وحسن سياسة. فقال لي: يا بن شبرمة، أنت بحديث تعلم معانيه، وشعر توضح قوافيه، أعلم منك بالحرب؛ إن هذه دولة قد اطردت أعلامها، وامتدت أيامها، فليس لمناوئها والطامع فيها يد تنيله شيئاً من الوثوب عليها، فإذا ولت أيامها فدع الوزع بذنبه فيها.

قال بعض حكماء خراسان: لما بلغني خروج أبي مسلم أثبت عسكره لأنظر إلى تدبيره وهيبته، فأقمت فيه أياماً، فبلغني عنه شدة عجب، وكبر ظاهر، فظننت أنه تحلى بذلك ليعي فيه أراد أن يستره بالصمت، فتوصلت إليه بحيث أسمع كلامه، وأغيب عن بصره، فسلمت فرداً جميلاً، وأمر بإدخال قوم يريد تنفيذهم في وجه من الوجه، وقد

(١) الغابرون: الماضون.

(٢) الترات: جمع ترة، وهي الثأر.

(٣) خرج عبد الله بن علي على الخلافة حين مات السفاح، ورؤي الخلافة أبو جعفر المنصور سنة ١٣٧ هـ.

عقدوا لرجل منهم لواءً، فنظر إليهم ساعة متأملاً لهم، وقال: افهموا عني وصيَّتي إياكم؛ فإنها أجْدَى عليكم من أكثر تدبيركم، وبالله توفيقكم. قالوا: نعم أيها السالار، ومعناه السيد بالفارسية، فسمَّته يقول، ومترجم يحكي كلامه بالفارسية لمن عبَّر له منهم بالعربية: «أشعروا قلوبكم الجراءة فإنها سبب الظَّفَر، وأكثرُوا ذِكْرَ الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حصنُ المحارب، وعليكم بعصية الأشراف، ودَعُوا عصية الدناءة؛ فإن الأشراف تظهر بأفعالها، والدناءة بأقوالها».

من أوصاف أبي مسلم

وذكر إدریس بن معقل أبا مسلم فقال: بمثل أبي يُدْرَك ثار، ويُفْنَى عار، ويُؤَكَّد عَهْد، وَيُبرَم عقد، ويسهل وَعر، ويخاض عَمْرٌ، ويُقلع ناب، ويُفتح باب.

[حساب]

وقال رجلٌ لأبي جعفر المنصور: أينَ ما تُحَدِّثُ به في أيام بني أمية؟ إنَّ الخلافة إذا لم تقابل بإنصاف المظلومين، ولم تعامل بالعدل في الرعية، وقسمة الفء بالسوية، صار عاقبة أمرها بَوَاراً^(١)، وحقاً بُولَاتِها سوءُ العذاب.

قال: فتنفس ثم قال: قد كان ما تقول، ولكننا يا أخي استعجلنا الفانية على الباقية، وكأن قد انقضت هذه الدار. فقال له الرجل: فانظر على أي حالة تنقضي.

وقال أبو الدوانيق وكان فصيحاً بليغاً: «عجباً لمن أصرَّ علِمَه غَرَضاً لِسَهَام الخطايا، وهو عارفٌ بِسُرْعَةِ المنايا، اللهم إن تقض للمسيئين صَفْحاً فاجعلني منهم، وإن تَهَبْ للظالمين فسحاً فلا تحرمني ما يَطْوُلُ به المولى على أخس عيده».

[من كلام الأحنف بن قيس]

الأحنف بن قيس يصف العقل

سُئِلَ الأحنف بن قيس عن العقل؟ فقال: رأس الأشياء؛ فيه قوامها، وبه تمامها؛ لأنه سراجٌ ما بَطَن، وملاك ما عَلَن، وسائس الجَسَد^(٢)، وزينة كل أحد، لا تستقيم الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه.

(١) بَوَّرَ الشيء بَوْرًا وَبَوْرًا: هلك، أو كَسَلَ وَتَعَطَّلَ، ويقال: بارت الأرض: لم تُعَمَّر.

(٢) سائس الجسد: قائده.

ولما خطب زيادة خطبته المشهورة قام الأحنف بن قيس، فقال: الفرس يشده،
والسيف يحده، والمرء بجده، وقد بلغ بك جدك ما أرى، وإنما الثناء بعد البلاء، فإننا لا
نُثني حتى نُبَلِّغ^(١).

[مما كتبه ابن الزيات]

وكتب ابن الزيات عهدَ الواثق على مكة بحضرة المعتمد: أما بعد، فإن أمير المؤمنين
قد قلّدك مكة وزمزم، تُراثُ أهلك الأقدم، وجدّدك الأكرم، ورَكَّضَ جبريل^(٢)، وسُقِّيَا
إسماعيل، وحَفَرَ عبد المطلب، وسَقَايَةَ العباس؛ فعليك بتقوى الله تعالى، والتوسعة على
أهل بيته.

وكتب: لو لم يَكُنْ من فضل الشكر إلا أنك لا تراه إلا بين نعمة مقصورة عليه،
وزيادة منتظرة له، ثم قال لمحمد بن رباح: كيف ترى؟ قال: كأنهما قرطان بينهما وَجْهٌ
حسن، ومع ذلك ذكر ابن الزيات أمرَ الحرم بتعظيم وتفخيم.

الفاظ لأهل العصر في التهنية بالحج، وتفخيم [أمر] الحرم و[تعظيم] أمر المناسك والمشاعر، وما يتصل بها من الأدعية

قصد البيت العتيق، والمطاف الكريم، والملتزم النبيه، والمستلم التزيه. [وقف
بالمُعَرَّفِ العظيم، وورد زمزم والحطيم]. حَرَّمَ الله الذي أوسع للناس كرامة، وجعله لهم
مَثَابَةً^(٣)، وللخليل خُطَّةً، وللذبيح خُلةً، ولمحمد ﷺ قِبْلَةً، ولأُمّتِهِ كَعْبَةً، ودعا إليه حتى
لَبَّى من كل مكان سحيق، وأسرع نحوه من كل فج عميق، يعودُ عنه مَنْ وُفِّقَ وقد قُبِلَتْ
تَوْبَتُهُ، وغُفِرَتْ حُوتَتُهُ^(٤)، وسَعِدَتْ سفرته، وأنجحت أُوْبَتُهُ، وحُمِدَ سَعْيُهُ، وزكا حُجُّهُ،
وتقبل عَجْه وَجْهَهُ^(٥). انصرف مولاى عن الحجّ الذي انتضى له عَزَائِمُهُ، وأنضى فيه^(٦)

(١) البلاء: الاختبار.

(٢) يروى أن جبريل عليه السلام ضرب بقدمه زمزم فأخرج الماء.

(٣) مثابة: مكان يعود إليه من خرج منه.

(٤) الحوة: الذنب.

(٥) العَجُّ: رفع الصوت بالتلبية. والتَّجُّ: إراقة دم الهدي.

(٦) أنضى الراحلة: أتعبها وأهزلها.

رَوَّاحِلَه، وَأَتَعَبَ نَفْسَه بِطَلَبِ رَاحَتِهَا، وَأَنْفَقَ ذَخَائِرَهُ بِشِرَاءِ سَعَةِ الْجَنَّةِ وَسَاحَتِهَا؛ فَقَدْ زَكَّتْ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَفْعَالَهُ وَتُقَبِّلَتْ أَعْمَالُهُ، وَشَكَرَ سَعِيَهُ، وَبَلَغَ هَدِيَهُ.

قَدْ أَسْقَطَتْ عَنْ ظَهْرِكَ الثَّقَلَ الْعَظِيمَ، وَشَهِدْتَ الْمُؤَقِّفَ الْكَرِيمَ، وَمَحَصْتَ^(١) عَنْ
نَفْسِكَ بِالسَّعْيِ مِنَ الْفَجِّ الْعَمِيقِ، إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ. حَمْدًا لِمَنْ سَهَّلَ عَلَيْكَ قَضَاءَ فَرِيضَةِ
الْحَجِّ، وَرُؤْيَا الْمَشْعَرِ وَالْمَقَامِ، وَبِرَكَّةِ الْأَدْعِيَةِ وَالْمَوْسَمِ، وَسَعَادَةِ أَفْنِيَةِ الْحَطِيمِ وَزَمْزَمَ. قَصْدُ
أَكْرَمِ الْمَقَاصِدِ، وَشَهِدَ أَشْرَفَ الْمَشَاهِدِ؛ فُورِدَ مَشَارِعَ الْجَنَّةِ وَخِيَمَ بِمَنَازِلِ الرَّحْمَةِ. وَقَدْ
جُمِعَتْ مَوَاهِبُ اللَّهِ لَدَيْكَ، فَالْحَجَّ أَدَيْتَ فَرَضَهُ - وَحَرَّمَ اللَّهُ وَطِئْتَ أَرْضَهُ، وَالْمَقَامَ الْكَرِيمَ
قُمْتَهُ، وَالْحَجَرَ الْأَسْوَدَ اسْتَلَمْتَهُ، وَزُرْتَ قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ مَشَافَهًا لِمَشْهَدِهِ، وَمَشَاهِدًا لِمَسْجِدِهِ.
وَمُبَاشَرًا بِأَدْيِهِ وَمَحْضَرَهُ، وَمَاشِيًا بَيْنَ قَبْرِهِ وَمَنْبَرِهِ، وَمَصْلِيًا عَلَيْهِ حَيْثُ صَلَّى، وَمَتَقَرِّبًا إِلَيْهِ
بِالْقَرَابَةِ الْعَظْمَى، وَعَدْتَ وَسَعَيْكَ مَشْكُورًا، وَذَنْبُكَ مَغْفُورًا، وَتِجَارَتَكَ رَابِحَةً، وَالْبَرَكَاتِ
عَلَيْكَ غَادِيَةً وَرَاضِيَةً. تَلَقَّى اللَّهُ دَعَاءَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَاسْتَغْفَارَكَ بِالرِّضَا، وَأَمْلَكَ بِالنَّجْحِ، وَجَعَلَ
سَعْيَكَ مَكْشُورًا وَحُجَّتَكَ مَبْرُورًا. عَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى مَوْلَايَ مَنَاجِحَ مَا نَوَاهُ، وَقَصَدَهُ وَتَوَخَّاهُ، مَا
يَسْعُدُهُ فِي دُنْيَاهُ، وَيَحْمَدُ عُقْبَاهُ.

[من شعر قطري بن الفجاءة]

قال أبو حاتم: أتيت أبا عبيدة ومعني شعر عروة بن الورد، فقال لي: ما معك؟ قلت:
شعر عروة، قال: شعر فقير، يحمله فقير، ليقراه على فقير! قلت: ما معني [شعر] غيره؟
فأنشدني أنت ما شئت، فأنشدني:

يَا رَبِّ ظِلِّ عُقَابٍ قَدْ وَقَيْتُ بِهِ مُهْرِي مِنَ الشَّمْسِ وَالْأَبْطَالِ تَجْتَلِدُ^(٢)
وَرُبَّ يَوْمٍ حِمَى أَرْعَيْتُ عَقْوَتَهُ خَيْلِي اقْتَسَارًا وَأَطْرَافُ الْقَنَا قَصْدُ^(٣)
وَيَوْمَ لَهْوٍ لِأَهْلِ الْخَفْضِ ظِلٌّ بِهِ لَهْوِي اضْطِلَاءُ الْوَعَى وَنَارُهُ تَقْدُ^(٤)

(١) مَحَصَ الشَّيْءُ: خَلَّصَهُ مِنْ عِيوبِهِ. وَمَحَصَ اللَّهُ مَا بِهِ: أَذْهَبَهُ عَنْهُ.

(٢) الْعُقَابُ هُنَا: الرَّايَةُ. وَتَجْتَلِدُ: يَجَالِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

(٣) الْعَقْوَةُ: السَّاحَةُ وَالْمَحَلَّةُ. وَالْقَصْدُ: جَمْعُ قَصْدَةٍ (بِالْكَسْرِ) وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِمَّا يُكْسَرُ.

(٤) الْخَفْضُ: الدَّعَةُ وَسَعَةُ الْعَيْشِ. الْوَعَى: الْحَرْبُ.

مُشْهَرًا مَوْقِفِي والحَرْبُ كَاشِفَةٌ
وَرُبَّ هَاجِرَةٍ تَغْلِي مَرَاجِلَهَا
عَنِهَا الْقِنَاعُ وَيَحْرُ الْمَوْتُ يَطْرُدُ^(١)
مَخْرُتُهَا بِمَطَايَا غَارَةٍ تَخْدُ^(٢)
كَأَنَّهَا أُسْدٌ يَصْطَادُهَا أُسْدُ
عَلَى الطَّعَانِ وَقَصْرُ الْعَاجِزِ الْكَمْدُ^(٣)
وَلَمْ أَقُلْ لِمَ أَسَاقِ الْمَوْتَ شَارِبَهُ
فِي كَأْسِهِ وَالْمَنَايَا شُرْعَ وَرْدُ

ثم قال: هذا والله هو الشعر، لا ما يتعللون به من أشعار المخانيث.

والشعر لِقَطْرِي بن الفجاءة المازني، وكان يُكْنَى في السلم أبا محمد، وفي الحرب أبا نعام، وكان أطول الخوارج أياماً، وأحدهم شوكة، وكان شاعراً جواداً، وهو القائل أيضاً:

لَا يَرْكَنُ أَحَدٌ إِلَّا لِإِحْجَامٍ
فَلَقَدْ أَرَانِي لِلرَّمَاكِ دَرِيئَةً
يَوْمَ الْوَعَى مُهَيَّباً لِحِمَامٍ^(٤)
مِنْ عَنِّ يَمِينِي تَارَةً وَأَمَامِي^(٥)
أَكْنَافَ مَرْجِي أَوْ عَنَانَ لِجَامِي^(٦)
جَذَعَ الْبَصِيرَةَ قَارِحَ الْإِقْدَامِ^(٧)
ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَقَدْ أَصَبْتُ وَلَمْ أَصْبُ

[من جَيْدِ المَدِيحِ]

لِلْمَسِيْبِ بْنِ عَلْسٍ

وقال المسيب بن علس^(٨):

- (١) أطرد: تتابع، ومنه: أطرد الحديث: جرى مجرى واحداً مُتَّصِلاً، وأطرد النهر: تتابع جريان مائه.
- (٢) الهاجرة: الوقت نصف النهار. مخررتها: قطعتها. تخد: تسرع في سيرها.
- (٣) قصره كذا وقصاره: أي غاية ما يطلب. والكمد: الحزن الذي لا يُستطاع إمضاؤه.
- (٤) الإحجام: الكف والنكوص.
- (٥) الدريئة في الأصل: ما يستتر به الصائد لِيَحْتَلِ الصَّيْدَ.
- (٦) الأكفاف: النواحي.
- (٧) جذع البصيرة: يقال: جذعه جذعاً: دلكه، والجذع من الرجال: الشاب الحديث، ويقال: فلان في هذا الأمر جذع، إذا أخذ فيه حديثاً، والقارح في الأصل: ما استتم (من ذي الحافر) الخامسة، وسقطت سته التي تلي الرابعة، ونبت مكانها نابه.
- (٨) هو زهير بن علس بن مالك بن ضبيعة البكري، الشهير بالمسيب. شاعر جاهلي من أهل العراق، وأحد فحول بكر المعدودين، ونخال الأعشى ميمون بن قيس. عاصر الملك عمراً بن هند =

تَبَيْتُ الْمُلُوكَ عَلَى عَثَبِهَا وَشَيَّانُ إِنْ غَضِبَتْ تُعْتَبُ
وَكَالشَّهْدِ بِالرَّاحِ أَلْفَاظَهُمْ وَأَخْلَافُهُمْ مِنْهُمَا أَعْذُبُ
وَكَالْمِسْكِ تُرْبُ مَقَامَاتِهِمْ وَتُرْبُ أَصُولِهِمْ أَطِيبُ

وقال آخر:

أَذْكَرَ مَجَالِسَ مَنْ بَنَى أَسَدَ بَعُدُوا فَحَنَّ إِلَيْهِمُ الْقَلْبُ
الشَّرْقُ مَنَزِلُهُمْ، وَمَنَزِلُنَا غَرْبُ، وَأَيْنَ الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ؟
مِنْ كُلِّ أَيْضَ جُلُّ زِينَتِهِ مِنْكَ أَحْمُ وَصَارِمُ عَضْبُ^(١)
وَمُدْجَجٍ يَسْعَى لِنَارَتِهِ وَعَقِيرَةُ يَفْنَائِهِ تَجْبُو^(٢)

آخر:

رَأَيْتُكُمْ بَقِيَّةَ آلِ حَرْبٍ وَهَضْبَهَا التَّسِي فَوْقَ الْهَضَابِ
تُبَارُونَ الرِّيحَ نَدَى وَجُوداً وَتَمْتَلُونَ أَعْمَالَ السَّحَابِ
يُذَكِّرُنِي مُقَامِي الْيَوْمَ فِيكُمْ مُقَامِي أَمْسٍ فِي ظِلِّ الشَّبَابِ

[بين سعيد بن عبد الله وسعيد بن حميد]

كتب سعيد بن عبد الملك إلى سعيد بن حميد:

أكره - أظال الله بقاءك - أن أضعك ونفسي موضع العذر والقبول، فيكون أحدنا معتذراً مقصراً والآخر قابلاً متفضلاً، ولكن أذكر ما في التلاقي من تجديد البر، وفي التخلف من قلة الصبر، وأسأل الله تعالى أن يوفقك وإيانا لما يكون منه عقبى الشكر.

فأجابه: وصل كتابك - أكرمك الله تعالى! - الحاضر سروره، اللطيف موقعه، الجميل صدوره ومؤرده، الشاهد ظاهره على صدق باطنه، ونحن - أعزك الله - نجعل جزاءك حسن

= ومدحه، والتقى بطرفة والمتلمس عنده. توفي نحو ٥٨٠ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ١٥٦، ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١٠٧/١).

(١) الصارم: السيف. والعضب: القاطع.

(٢) العقيرة: ما عُقِرَ من صيد أو غيره، وقد عُقِرَ البعير: قطع إحدى قوائمه ليقطع ويتمكن من ذبحه. والفناء: الساحة في الدار أو بجانبها.

الاعتراف بفضلك، ومجاراتك التقصير دونك؛ ونرى أن لا عُذْرَ في التخلف عنك، وإنْ حالت الأشغال بيننا وبينك. وإن كنت سامحت في العذر قبل الاعتذار، وسبقت إلى فضيلة الاعتذار، فلا زلت على كل خير دليلاً، وإليه داعياً، وبه أمراً؛ ولقد التقينا قبل وصول كتابك لقاءً أحدث وطراً، وهاج شوقاً، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما ضاقت به الأيام؛ فننال حظاً من محادثتك والأنس بك.

[منزلة سعيد بن حميد]

ولسعيد بن حميد حلاوة في منظومه ومثوره، لكنه قليل الاختراع، كثير الإغارة على مَنْ سبقه؛ وكان يقال: لو رجع كلام كل أحد إلى صاحبه لبقى سعيد بن حميد ساكناً. وفيه يقول أبو علي البصير:

رَأْسُ مَنْ يَدْعِي الْبَلَاغَةَ مِنِّي وَمَنْ النَّاسَ، كُلَّهُم فِي حِرَامَةٍ
وَأَخُونَا وَلَسْتُ أَكْنِي سَعِيدُ بـ نُ حَمِيدٍ تُورِّخُ الْكُتُبَ بِاسْمِهِ

هذا المعنى ينظر إلى قول منصور الفقيه وإن لم يكن منه:

تَضِيقُ بِهِ الدُّنْيَا فَيَنْهَضُ هَارِباً إِذَا نَحْنُ قُلْنَا: خَيْرُنَا الْبَاذِلُ السَّمْحُ^(١)
فَإِنْ قِيلَ: مَنْ هَذَا الشَّقِيُّ؟ أَقُلْ لَهُمْ عَلَى شَرِّ كِثْمَانِ الْحَدِيثِ: هُوَ الْفَتْحُ

وكان سعيد يهوى فضل الشاعرة؛ فعزم مرة على سفر، فقالت له:

كَذَّبْتَنِي الْوُدَّ أَنْ صَافَحْتَ مُرْتَجِلاً كَفَّ الْفِرَاقُ بِكَفِّ الصَّبْرِ وَالْجَلْدِ^(٢)
لَا تَذْكُرَنَّ الْهَوَى وَالشُّوقَ لَوْ فُجِعَتْ بِالشُّوقِ نَفْسُكَ لَمْ تَصْبِرْ عَلَى الْبُعْدِ

وكان سعيد عند بعض إخوانه، فنهض منصرفاً وأخذ بعُضَادَتِي الباب، وأنشأ يقول:

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، حَالَتِ الْكَأْسُ بَيْنَنَا وَوَلَّتْ بِنَا عَنْ كُلِّ مَرَأَى وَمَسْمَعِ
فَلَمْ يَتَّقْ إِلَّا أَنْ يُصَافِحَنِي الْكَرَى فَيَجْمَعُ سُكْرًا بَيْنَ جِسْمِي وَمَضْجَعِي

(١) بَدَلَ الشَّيْءِ بَدَلًا: جَاءَ بِهِ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ، فَهُوَ بَاذِلٌ، وَبَدَّلَ، وَبَدَّلَ، وَبَدَّلَ. وَالسَّمْحُ: الْجَوَادُ السَّخِيُّ.

(٢) الْجَلْدُ: الصَّبْرُ عَلَى الْمَكْرُوهِ.

وقال [سعيد]:

أَرَى أَلْسَنَ الشُّكْوَى إِلَيْكَ كَلِيلَةً وَفِيهِنَّ عَنْ غَيْرِ الشَّاءِ قُتُورٌ^(١)
تُقِيمُ عَلَى الْعَثْبِ الَّذِي لَيْسَ نَافِعاً وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا إِلَيْكَ مَصِيرُ
وَمَا أَنْتَ إِلَّا كَالزَّمَانِ تَلَوَّنَتْ نَوَائِبُ مِنْ أَحْدَاثِهِ وَأُمُورُ
فَإِنْ قَلَّ إِنْصَافُ الزَّمَانِ وَجُودُهُ فَمَنْ ذَا عَلَى جَوْرِ الزَّمَانِ يُجِيرُ^(٢)

[من السرقات الشعرية]

أما قوله:

تُقِيمُ عَلَى الْعَثْبِ الَّذِي لَيْسَ نَافِعاً

فمن قول المؤمل^(٣):

لَا تَغْضَبَنَّ عَلَى قَوْمٍ تُحِبُّهُمْ فَلَيْسَ مِنْكَ عَلَيْهِمْ يَنْفَعُ الْغَضَبُ
يَا جَائِرِينَ عَلَيْنَا فِي حُكُومَتِهِمْ وَالْجَوْرُ أَقْبَحُ مَا يُؤْتَى وَبُرْتُكَبُ
لَسْنَا إِلَى غَيْرِكُمْ مِنْكُمْ نَفَرٌ إِذَا جُرْتُمْ، وَلَكِنْ إِلَيْكُمْ مِنْكُمْ الْهَرَبُ

وأول من نبه على هذا المعنى النابغة الذبياني في قوله للنعمان بن المنذر^(٤):

فَلَيْسَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنْ الْمُتَأَيَّ عَنْكَ وَاسِعُ
خَطَاطِيفُ حُجْنٍ فِي جِبَالٍ مَتِينَةٍ تَمُدُّ بِهَا أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعُ^(٥)

(١) كليله: ضعيف، متعب.

(٢) جَوْرُ الزمان: ظلمه. ويجيره: يحميه وينقذه.

(٣) هو أبو أميل، المؤمل بن أميل بن أميد المحاربي: شاعر كوفي، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، قدم بغداد، ومدح المهدي العباسي وهو أمير على الري، ثم انقطع إليه بعد توليه الخلافة. أشهر شعره في المدح والنسيب. توفي نحو ١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٢٢/٢٥٥؛ المرزباني، معجم الشعراء: ٢٩٨).

(٤) النابغة الذبياني، الديوان: ص ٨١.

(٥) خطاطيف: الواحد خطاف: حديدة حجناء في جانبي البكرة فيها المحور. حُجْن: معوجة. نوازع: جوازب. يقول: ضاقت بي الدنيا فكأنني من ضيقها في بئر، فإذا أردتني فأنا أمد إليك بالخطاطيف لا أجد غيرك.

سرقه أشجع السلمي فقال لإدريس بن عبد الله بن الحسين بن علي، وقد بعث إليه الرشيد من إغتاله في المغرب:

أَنْظُنْ يَا إِدْرِيسُ أَنْكَ مُفْلِتٌ كَيْدَ الْخِلَافَةِ أَوْ يَغِيكَ حِذَارُ
إِنَّ السُّيُوفَ إِذَا انْتَضَاهَا عَزَمَهُ طَالَتْ، وَتَقْصُرُ دُونَهَا الْأَعْمَارُ^(١)
هَيْهَاتَ إِلَّا أَنْ تَحُلَّ بِبِلَدَةٍ لَا يَهْتَدِي فِيهَا إِلَيْكَ نَهَارُ
وَقَالَ سَلَمُ الْخَاسِرِ يَعْتَذِرُ إِلَى الْمَهْدِيِّ^(٢):

إِنِّي أَعَزَّ بِخَيْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَأَنْتَ ذَاكَ لَمَّا يَأْتِي وَيَجْتَبُ
وَأَنْتَ كَالدَّهْرِ مَبْثُوثًا جَبَائِلُهُ وَالذَّهْرُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا هَرْبُ
وَلَوْ مَلَكَتُ عِنَانَ الرِّيحِ أَصْرَفُهُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مَا فَاتَكَ الطَّلَبُ^(٣)
فَلَيْسَ إِلَّا انْتِظَارِي مِنْكَ عَارِفَةٌ فِيهَا مِنَ الْخَوْفِ سُنْجَاةٌ وَمُنْقَلَبُ^(٤)
وَقَوْلُ سَلَمٍ:

وَلَوْ مَلَكَتُ عِنَانَ الرِّيحِ أَصْرَفُهُ

كَأَنَّهُ مِنْ قَوْلِ الْفَرَزْدَقِ لِلْحِجَاجِ^(٥):

وَلَوْ حَمَلْتَنِي الرِّيحُ ثُمَّ طَلَبْتَنِي لَكُنْتُ كَمُودٍ أُدْرِكْتُهُ مَقَارِدُهُ^(٦)
وَقَوْلُ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ لِحَمِيدِ الطُّوسِيِّ:
وَمَا لِأَمْرِي حَاوَلْتَهُ مِنْكَ مَهْرَبُ وَلَوْ رَفَعْتَهُ فِي السَّمَاءِ الْمَطَالِعُ
أَخَذَهُ الْبَحْثَرِيُّ فَقَالَ^(٧):

(١) انتضى السيف: أخرجه من غمده، سَلَّه.

(٢) يقال: إن سلم الخاسر كان قد مدح بعض العلويين، فبلغ ذلك المهدي، فتوعده وهم به، فقال سلم هذه الأبيات يعتذر بها إليه، فعفا المهدي عنه. (الأصفهاني، الأغاني: ٢٢٩/١٩).

(٣) في الأغاني: «عنان الريح أصرفها».

(٤) العارفة: الإحسان، الجمع عوارف.

(٥) الفرزدق، الديوان: ٢٥١/١. والبيت من قصيدة يمدح بها الوليد بن عبد الملك.

(٦) المودي: الهالك. وفي الديوان: «وَأَنْ لَوْ رَكِبْتُ الرِّيحَ» و«لَكُنْتُ كَشَيْءٍ».

(٧) البحتري: الديوان: ٣١٩/٢. والبيتان من قصيدة يمدح بها إسحاق بن إبراهيم.

سُلبُوا وَأُشْرِقَتِ السِّدْمَاءُ عَلَيْهِمْ مُحْمَرَّةً فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُسْلَبُوا
فَلَوَانَهُمْ رَكِبُوا الْكَوَائِبَ لَمْ يَكُنْ لِيُجِيرَهُمْ مِنْ حَدِّ بَأْسِكَ مَهْرَبٌ^(١)

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في نحو قول النابغة:

وَإِنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنْتِي أَفْرُتُكَ إِنَّ الرَّاْيَ مِنِّي لِعَازِبٌ^(٢)
لِأَنَّكَ لِي مِثْلُ الْمَكَانِ الْمَحِيطِ بِي مِنَ الْأَرْضِ لَوْلَا اسْتَنْهَضْتَنِي الْمَذَاهِبُ

وأما قول سعيد: وما أنت إلا كالزمان والبيت الذي يليه، فكأنه ألم فيه بقول شمعل الثعلبي وإن لم يكن المعنى بنفسه:

أَمِنْ جَذْبَةٍ بِالرَّجْلِ مِنِّي تَبَاشَرْتُ عُذَاتِي، وَلَا عَتَبُ عَلَيَّ وَلَا هَجَرُ
فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفَعَلَهُ لَكَآ لَذَّهْرٌ، لَا عَارَ بِمَا صَنَعَ الدَّهْرُ

وقال رجل من طيء وكان رجل منهم يقال له زيد من ولد عروة بن زيد الخيل قتل رجلاً اسمه زيد فأفاد منه السلطان، فقال الطائي يفتخر على الأسديين:

عَلَا زَيْدُنَا يَوْمَ الْحِمَى رَأْسَ زَيْدِكُمْ بِأَبْيَضَ مَشْحُودِ الْغِرَارِ يَمَانِي^(٣)
فَإِنْ تَقْتُلُوا زَيْدًا بِزَيْدٍ فَإِنَّمَا أَقَادَكُمُ السُّلْطَانُ بَعْدَ زَمَانٍ^(٤)

وقول الثعلبي مأخوذ من قول النابغة، وهو أول من ابتكره^(٥):

وَعَيَّرْتَنِي بَنُو ذِيانَ خَشِيَّتُهُ وَمَا عَلَيَّ بِأَنْ أَخْشَاكَ مِنْ عَارٍ
ومن جيد شعر سعيد بن حميد:

أَهَابُ وَأَسْتَحْيِي وَأَرْقُبُ وَعَدُهُ فَلَا هُوَ يَيْدَانِي وَلَا أَنَا أَسْأَلُ

(١) في الديوان: «لِ الْمُجْدِّهِمْ مِنْ أَخَذِ بَأْسِكَ مَهْرَبٌ».

(٢) العازب: الغائب.

(٣) الْغِرَارُ: حَدُّ السِّيفِ.

(٤) أقادكم السلطان: اقتص منكم، من القود: القصاص، وقد أقاد القاتل بالقتل: قتله به قوداً.

(٥) النابغة الذبياني، الديوان: ص ٥٧. والبيت من قصيدة قالها النابغة في بني ذبيان وقد نهاهم عن تربع وادي أقر الذي حماه النعمان بن المنذر، فأبوا ذلك وتربعوه، وعبروا النابغة خوفاً النعمان. ثم مات النعمان فوجه إليهم أخوه عمرو جيشاً فأصابهم وشتت شملهم.

هُوَ الشَّمْسُ مَجْرَاهَا بَعِيدٌ وَضَوْءُهَا قَرِيبٌ، وَقَلْبِي بِالْبَعِيدِ مُوَكَّلٌ
وهذا المعنى وإن كان كثيراً مشهوراً فما يَكَادُ يُدَانِي فِي الْإِحْسَانِ فِيهِ.
وقد قال أبو عيينة:

عَزَّتَنِي جُيُوشُ الْحَبِّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِذَا حَانَ مِنْ جُنْدٍ قُفُولٌ غَزَا جُنْدٌ^(١)
أَقُولُ لِأَصْحَابِي: هِيَ الشَّمْسُ، ضَوْءُهَا قَرِيبٌ، وَلَكِنْ فِي تَنَاوُلِهَا بَعِيدٌ
وقال العباس بن الأحنف:

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي السَّمَاءِ فَعَزَّ الْفَوَادَ عَزَاءً جَمِيلاً
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ التُّرُودَ
وقال البحرري^(٢):

دَنَوْتُ تَوَاضِعاً وَعَلَوْتُ قَذَرًا فَشَأْنَاكَ أَنْحِدَارٌ وَارْتِفَاعٌ
كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُدَانِيَ وَيَدْنُو الضَّوْءُ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ^(٣)
وقال ابن الرومي^(٤):

وَذَخَرْتُهُ لِلدَّهْرِ أَعْلَمُ أَنَّهُ كَالدَّهْرِ فِيهِ لِمَنْ يَوُولُ مَالٌ^(٥)
وَرَأَيْتُهُ كَالشَّمْسِ إِنْ هِيَ لَمْ تُنَلْ فَالْثَّوْرُ مِنْهَا وَالضِّيَاءُ يُنَالُ^(٦)
وقال المتنبي^(٧):

بَيْضَاءُ تَطْمَعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوباً لِمَنْ طَلَبَا^(٨)

(١) الْقُفُولُ: الرجوع، يقال: أفضل الجيش: رجع.

(٢) البحرري: الديوان: ٢٥٩/١. والبيتان من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن المدبر.

(٣) في الديوان: «كذلك الشمس تبعد إن تَسَامَى».

(٤) ابن الرومي، الديوان: ١٤٧/٥. والبيتان من قصيدة يرثي بها محمد بن نصر بن منصور بن بَشَام.

(٥) في الديوان: «كالحصن فيه لمن يَوُولُ مَالٌ».

(٦) في الديوان: «فَضِيَاؤُهَا وَالرَّفَقُ فِيهِ يُنَالُ».

(٧) المتنبي، الديوان: ٢٢٣/١. والبيتان من قصيدة يمدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي.

(٨) الْحُلَّةُ: الثوب. يقول: هي لِأُنْسِهَا وعدوية منطقها تطمع العاشق في نفسها، فإذا حاول ذلك عَزَّ عليه مطلبه لتعقُّفها وصيانتها.

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ يُعْبِي كَفَّ قَابِضُهَا شُعَائُهَا وَتَرَاهُ الْعَيْنُ مُقْتَرِبًا^(١)
وقال سعيد بن حميد، وروى لِفَضْلُ الشاعرة:

مَا كُنْتُ أَيَّامَ كُنْتُ رَاضِيَةً عَنِّي بِذَلِكَ الرِّضَا بِمُغْنِبِطٍ
عِلْمًا بِأَنَّ الرِّضَا سَيَّبَعُهُ مِنْكَ التَّجَنِّي وَكَثْرَةُ السَّخَطِ^(٢)
فَكُلُّ مَا سَاءَنِي فَعَنَ خُلُقِي مِنْكَ وَمَا سَرَّنِي فَعَنَ غُلُطِ

وفي هذا المعنى يقول أبو العباس الهاشمي من ولد عبد الصمد بن علي، ويُعرف بأبي العَبَر:

أُبْكِي إِذَا غَضِبْتُ، حَتَّى إِذَا رَضِيتُ
فَالْمَوْتُ إِنْ غَضِبْتُ، وَالْمَوْتُ إِنْ رَضِيتُ
وقال العباس بن الأحنف:

إِذَا رَضِيتُ لَمْ يَهْتِنِي ذَلِكَ الرِّضَا
وَأُبْكِي إِذَا مَا أَذْنَبْتُ خَوْفَ عَثْوِهَا
وَصَالِكُكُمْ هَجْرًا، وَفُرِيكُم قَلَى
وَأَنْتُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ فِيكُمْ فَظَاظَةٌ
وقال:

قَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَأَنْتِ رَاضِيَةٌ
إِنْ تَمَّ ذَا الْهَجْرِ يَا ظَلُومٌ وَلَا
حِذَارَ هَذَا الصُّدُودِ وَالْغَضَبِ
تَمَّ فَمَالِي فِي الْعَيْشِ مِنْ أَرْبٍ^(٣)

(١) في الديوان:

شُعَائُهَا وَسَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبًا

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ يُعْبِي كَفَّ قَابِضِهِ

أعياء: أعجزه. والطرف: النظر.

(٢) تَجَنَّنِي عَلَيْهِ: أَدَّعَى عَلَيْهِ جَنَائَةً لَمْ يَفْعَلْهَا.

(٣) السُّلُوءُ: النسيان مع طيب نفس بعد القراق.

(٤) الْقِلَى: الْبُغْضُ.

(٥) الْفَظَاظَةُ: الْقِسْوَةُ وَالْإِسَاءَةُ. الذَّلُولُ: السَّهْلُ الْإِنْقِيَادِ. وَالصَّعْبُ: الَّذِي يَعْسِرُ قِيَادَهُ، وَأَصْلُهُ فِي

الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ.

(٦) الْأَرْبُ: الْمَقْصَدُ، الْحَاجَةُ.

وما أحسن قول القائل:

وَمَا فِي الْأَرْضِ أَشَقَى مِنْ مُحِبٍّ وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى حُلُوَ الْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِياً فِي كُلِّ حِينٍ مَخَافَةً فُرْقَةٍ أَوْ لِاشْتِيَاقِ
فِيكَ يَنْزِلُ نَأْؤُا حَذْراً عَلَيْهِمْ وَيَكِي أَنْ دَنَوْا خَوْفَ الْفِرَاقِ
وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الشَّائِي وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلَاقِ

[الافتباس من القرآن الكريم]

وقال سعيد بن حميد إذا نَزَعْتُ في كتاب بآية من كتاب الله تعالى أَثَرْتُ إِظْلَامَهُ، وَزَيْتُ أَحْكَامَهُ، وَأَعَذَبْتُ كَلَامَهُ.

أمثال للعرب والعجم والعامّة وما يماثلها من كتاب الله تعالى

[مما هو أجل منها وأعلى] أخرجها أبو منصور عبد الملك الثعالبي.

قال علي رضي الله تعالى عنه: «الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ»، وفي القرآن: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١).

والعرب تقول لمن يُعَيِّرُ غيره بما هو فيه: «عَيَّرَ بُجَيْرٌ بُجْرَهُ وَنَسِيَ بُجَيْرَ خَبْرَهُ»^(٢)، وفي القرآن: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾^(٣).

وفي معاودة العقوبة عند معاودة الذنب: «إِنْ عَادَتِ الْعُقُوبَةُ عُذْنَا لَهَا» وفي القرآن: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدْنَا﴾^(٤). ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدَهُ﴾^(٥).

وفي ذوق الجاني وبال أمره: «يَدَاكَ أَوْكَنَا، وَفُوكَ نَفَخَ»^(٦). وفي القرآن: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ﴾^(٧).

(١) سورة البقرة، آية (١٧٩).

(٢) هذا مثل يضرب لمن يُعَيِّرُ غيره بالذي هو فيه.

(٣) سورة يس، آية (٧٨).

(٤) سورة الإسراء، آية (٨).

(٥) سورة الأنفال، آية (١٩).

(٦) الميداني، مجمع الأمثال: ٤١٤/٢. وأصله أن رجلاً كان في جزيرة من جزائر البحر، فأراد أن يعبر على زقٍ نفخ فيه فلم يُحَسِّنْ إحكامه، حتى إذا توسط البحر خرجت منه الريح فغرق، فلما غشيه الموت استغاث برجل، فقال له: «يَدَاكَ أَوْكَنَا وَفُوكَ نَفَخَ».

(٧) سورة الحج، آية (١٠).

وفي قُرْبِ الغد من اليوم قول الشاعر^(١): «وإن غداً لِنَاظِرِهِ قَرِيبٌ»، وفي القرآن: ﴿الْبَسِ الصَّيْحُ بِقَرِيبٍ﴾^(٢).

وفي ظهور الأمر: «قد وضع الأمر لذي عَيْنَيْنِ»، وفي القرآن: ﴿الْفَنِّ حَصَصَ الْحَقُّ﴾^(٣).

وفي الإساءة إلى من لا يقبل الإحسان: «أعطِ أخاك ثمرة، فإن أبي فَجَمْرَةٌ»^(٤).

وفي القرآن: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٥).

وفي قُوت الأمر: «سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ»^(٦)، وفي القرآن العظيم: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(٧).

وفي الوصول إلى المراد ببذل الرغائب: «من ينكح الحسنة يُعْطِ مَهْرَهَا»^(٨) وفي القرآن: ﴿لَنْ نَأْثُرَ إِلَّا بِرَحْمَتٍ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِبْتُمْ﴾^(٩).

وفي منع الرجل مُرادَه^(١٠):

وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالتَّزْوَانِ

- (١) الميداني، مجمع الأمثال: ٧٠/١. وهو من قول قراد بن أجدع:
 - (٢) سورة هود، آية (٨١).
 - (٣) سورة يوسف، آية (٥١).
 - (٤) الميداني، مجمع الأمثال: ٢٢/٢. وفيه أنه يُضْرَبُ للذي يختار الهوان على الكرامة.
 - (٥) سورة الزخرف، آية (٣٦).
 - (٦) الميداني، مجمع الأمثال: ٣٢٨/١. قاله ضَبَّةُ بن أَدَ حين لاهه الناس على قتله قاتل ابنه في الحرم.
 - (٧) سورة يوسف، آية (٤١).
 - (٨) الميداني، مجمع الأمثال: ٣٠/٢، ويضرب في المصانعة بالمال.
 - (٩) سورة آل عمران، آية (٩٢).
 - (١٠) الميداني، مجمع الأمثال: ٩٦/٢. وهو عجز بيت من كلام صخر بن عمرو أخِي الخنساء، من أبيات قالها في امرأته وقد مَرَضَ مُدَّةً طويلة، فَمَلَّتْ عيادته، والبيت بتمامه:
- أَهْمُ بِأَمْرِ الْحَزْمِ لَوْ اسْتَطِيعْتُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالتَّزْوَانِ

وفي القرآن: ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾^(١).

وفي تَلَا فِي الإِسَاءَةِ: «عاد غيث على ما أفسد»^(٢)، وفي القرآن: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾^(٣).

وفي الاختصاص: «كل مقام بمقال»^(٤)، وفي القرآن: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّنتَقَرٌ﴾^(٥).

العجم: «من احترق كُدُسُهُ تمنى إحراق أكداس الناس»^(٦)، وفي القرآن: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾^(٧).

العامة: «مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ بَرًّا وَقَعَ فِيهَا»، وفي القرآن: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٨).

ومن الشعر:

كُلُّ أَمْرٍ يُشَبِّهُهُ فِعْلُهُ مَا يَفْعَلُ الْمَرْءُ فَهُوَ أَهْلُهُ

وفي القرآن: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^(٩).

العامة: «كل البقل ولا تسأل عن المَبْقَلَةِ».

وفي القرآن: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَكُمْ﴾^(١٠).

(١) سورة سبأ، آية (٥٤).

(٢) الميداني، مجمع الأمثال: ١٨/٢. وفيه: يُضْرَبُ لِلرَّجُلِ فِيهِ فَسَادٌ، وَلَكِنَّ الصَّلَاحَ أَكْثَرُ.

(٣) سورة الأعراف، آية (٩٥).

(٤) الميداني، مجمع الأمثال: ١٩٨/٢. وفيه: «لكل مقام مقال». وفي المعنى أنشد ابن الأعرابي:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِيكَ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا

أي: أحسن إليَّ حتى أذكرك في كل مقام يحسن فعلك.

(٥) سورة الأنعام، آية (٦٧).

(٦) الكدس: الكومة من الطعام أو التمر أو الدراهم.

(٧) سورة النساء، آية (٨٩).

(٨) سورة فاطر، آية (٤٣).

(٩) سورة الإسراء، آية (٨٤).

(١٠) سورة المائدة، آية (١٠١).

شعر:

كَمْ مَرَّةً حَفَّتْ بِكَ الْمَكَارِهُ خَارَ لَكَ اللَّهُ وَأَنْتَ كَارِهُ^(١)

وفي القرآن: ﴿فَسَعَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٢). العامة:
«المأمول خيرٌ من المأكول»، وفي القرآن: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾^(٣). العامة: «لو كان
في اليوم خيرٌ ما سلم عليّ الصياد»، وفي القرآن: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّامْتَمَعَهُمْ﴾^(٤).
المتنبي:^(٥)

مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ

وفي القرآن: ﴿وَلِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾^(٦).

عِنْدَ الْخَنَازِيرِ تَنْفُقُ الْعُذْرَةُ

وفي القرآن: ﴿الْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِثِ وَالْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِثِ﴾^(٧). العجم: «لم يرد الله
بالنملة صلاحاً إذ أنبت لها جناحاً»، وفي القرآن: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾^(٨).
العامة: «الكلب لا يصيد كارهها»، وفي القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(٩). العجم: «كل شاة
تُناط برجلها»، وفي القرآن: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(١٠).

(١) خار له في الأمر: جعل له فيه الخير، أو أعطاه ما هو خير له.

(٢) سورة النساء، آية (١٩).

(٣) سورة الضحى، آية (٤).

(٤) سورة الأنفال، آية (٢٣).

(٥) هذا عجز بيت للمتنبي، والبيت بتمامه.

بِذَا قُضِيَ الْأَيَّامُ مَا بَيْنَ أَهْلِهَا مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ
ديوانه: ٨٠/٢.

(٦) سورة آل عمران، آية (١٢٠).

(٧) سورة النور، آية (٢٦).

(٨) سورة الأنعام، آية (٤٤).

(٩) سورة البقرة، آية (٢٥٦).

(١٠) سورة المدثر، آية (٣٨).

جملة من مكاتبات [بعض] أهل العصر

أبو القاسم محمد بن علي الإسكافي عن الأمير نوح بن نصر وعن ابنه عبد الملك لأبي طاهر وشمكير بن زياد يَشْكُرُهُ على حَمِيد سيرته :

مَنْ حمدناه - أعزَّكَ الله تعالى - من أعيان المِلَّة الذين بهم افتِخَارُها، وأعوان الدولة الذين بهم استظْهَارُها، بِخَلَّةٍ يتزع فيها من خلال^(١) الفضل، وَخَصْلَةٍ يكمل بها من خصال العدل. وإنَّكَ - أعزَّكَ الله - من نحمده بالارتقاء في دَرَج الفضائل، والاستواء في كلِّ الشواكل؛ فإنه ليس من مَحْمَدَةٍ إلا وسهْمُكَ فيها فائز، [ولا من شدة إلا ومَهْلُكَ^(٢)] فيها بارز، وذلك - أعزَّكَ الله تعالى - أمرٌ قد أغنى صِدْقُ خبره عن العيان، وكفى بيان أثره تكلف الامتحان، ولو أعطينا النفوس مَنَّاها وسَوَّغْنَاها هَوَاها، لأوردنا عليك في ذرور^(٣) كلِّ شارقٍ جديدٍ شُكْرٍ، وجَدَدنا لك مع اعتراض كلِّ خاطر جميلٍ ذكر، لكننا للعادة في تَرْكِ الهوى، والثقة بأنَّكَ مع صالح آدابك تحلُّ الأدنى من الإحماد محلَّ الأوفى، فيَقْضَى لك بأنه - وإن عظم قدره - يسير العدد، وعلى ما هو - وإن تناهى لَقْظُهُ - باقى الفخر مدى الأبد، وكان مما اقتضانا الآن تناولك به أخبارٌ تواترت، وأقوال تظاهرت، بإطباق سكان الحَضْرَةِ ونيسابور من أهل عملك على شُكْرِ ما يَتَزَيَّد لهم وفيهم من موادِّ عدلك، وحسن فَضْلِكَ، حتى لقد ظلُّوا ولهم في شكر ذلك محافل تُعَقَّد، ومشاهد تُشْهَد، يعجب بها السامعُ والرائي، ويقتِرُن بها المؤمنُ والداعي؛ فإن هذا - أعزَّكَ الله - حال يطيب مَسْمَعُهُ - ويلدِّ مَوْقِعُهُ، حتى لقد ملأ القلوبُ بهجاءً، والصدورُ تلجأً، حتى استفزَّها قَرْطُ الارتياح، وصِدْقُ الإنشراح، إلى هذا الكتاب أن أعجلناه، وهذا الشكر أن أجزلناه. بعد ذكرٍ لك اتصل كلُّ الاتصال، وأجمل كلُّ الإجمال، وتضاعف به حظُّكَ من الرأي أضعافاً، وأشرف محلك على كلِّ المحال إشرافاً، ونحن نهنيك - أعزَّكَ الله - على التوفيق الذي قَسَمَهُ الله لك، والتيسير الذي وَكَلَهُ بك، ونبعثك على استدامتها بصالح النية، وبصادق البغية، لِتَدْنُو من العدل على ما ترعى، وتحسن الهدْي فيما تتولَّى. فرأيك أبقاك الله تعالى في إحلال ذلك محله من استبشار به تستكملُه، واستثمار له تعجِّلُه [إن شاء الله تعالى].

(١) الخلَّة: الخصلة، والجمع خِلَال.

(٢) المهل: العمل بسكينة، ورفق، أو التؤدة والرفق.

(٣) ذرور: طلوع، وأراد: من كلِّ شارق شمس، أي في طلوع كلِّ يوم.

وكتب إليه يعزيه: «إن أحقَّ من سلِّم لأمر الله تعالى ورضي بقدره، حتى يُمَحِّضَ مصطنعاً^(١)، ويخلصَ مُصْطَبِراً، وحتى يكون بحيث أمر الله من الشكر إذا وهب، والرضا إذا سلب، أنت أعزك الله تعالى؛ لمحلِّك من الشكر والحِجَا، وحظك من الصبر والنُّهى^(٢)، ثم لِمَا ترجعُ إليه من ثبات الجنان^(٣) عِنْدَ النَّازِلَةِ، وقوة الأركان لعزِّ الدولة الفاضلة، فإنَّ لك فيها وفي سَهْمِكَ الفائز، ومَهْلِكِ البارز، عَوْضاً عن كلِّ مَرْزوء، ودَرْكاً لكلِّ مَرْجُو، ونسأل الله أن يجعلك من الشاكرين لِفَضْلِهِ إذا أبلى؛ والصابرين لحكمه إذا ابتلى^(٤)، وأن يجعل لك لا بِكَ التعزية، ويقيك في نفسك وفي ذَوِيكَ الرزية، بمنه وقدرته.

وله إليه: ترامى إلينا خبرُ مُصَابِكَ بفلان؛ فخلص إلينا من الاغتمام به ما يحصل في مثله ممَّن أطاع ووفى، وخدم ووالى، وعلمنا أن لفقدك مثله لَوَعَةٌ، وللمصائب به لَذْعَةٌ^(٥)؛ فأثّرنا كتابنا هذا إليك في تعزيتك، على يقيننا بأنَّ عقلك يُعْنِي عن عِظَتِكَ، ويهدي إلى الأولى بشيمتك، والأزيد في رُبَّتِكَ، فَلْيَحْصُنْ - أعزك الله - صبرك على ما أخذه منك، وَشُكْرُكَ على ما أبقي لك، وليتمكّن في نفسك ما وفرَّ لك من ثواب الصابرين، وأجزل من دُخْرِ المحسنين، وليردِّ كتابك بما ألهمك الله تعالى من عزاء، وأبلاكه من جميل بلاء، إن شاء الله تعالى.

وله إليه جواب: وصل كتابك - أعزك الله تعالى - مُفْتَتِحاً بالتعزية عن فلان، وبِوَصْفِ تَوَجُّعِكَ للمصيبة، ونحن نحمدُ الله تعالى الذي يُنْعِمُ فضلاً، ويُحْكِمُ عدلاً، ويَهَبُ إحساناً، ويسلب امتحاناً، على مجاري قضيتِه كيف حرَّتْ آخذة ومعطية، ومَوَاقِعَ مشيئته كيف مضت سارة ومسيئة، حَمْدُ عالمين أن لا حكم إلا له، ولا حول إلا به، ومستمسكين بما أمر به عند المساءة من الصبر، والمسرة من الشكر، راجين ما أعدّه الله من الثواب للصابرين، والمزيد للشاكرين. وما توفيقنا إلا بالله عليه تتوكل وإليه نيب^(٦)، وأما وَحْشَتُكَ - أعزك الله -

(١) محض فلاناً النصح أو الود: أخلصه إياه، وأمحضه الحديث والنصيحة: صدقه.

(٢) النُّهى: العقل.

(٣) الجنان: القلب.

(٤) أبلى: أعطى، وابتلى: امتحن واختبر.

(٥) لَذْعَةٌ: ألم وحرقة، يقال: لذعت النار: مسَّتْهُ وأحرقته، ولذع الحُبُّ قلبه: ألمه، والتذع: احترق وجعاً.

(٦) إليه نيب: إليه نرجع.

للحادث على الماضي، عفا الله عنه، فَمِثْلُكَ من ذَوِي الصِّفَاءِ والوفاء اختَصَّ بذلك واهتم له، وعرف مِثْلَهُ فَاغْتَمَّ به؛ فَإِن الطاعة نَسَبٌ بين أوليائها، والنعمة سبب بين أبنائها، فلا عَجَبٌ أَنْ يَمَسَّكَ في هذا العارض ما يمسُّ أولي المشاركة، ويخصَّكَ من الاهتمام ما خص ذوي المشابكة.

وله إليه أيضاً في أمر غزاة: ورد خَيْرُكَ أكرمَكَ الله تعالى بنفوذك لوجهك فيمن جمعهم الله تعالى لِلْعَمَى في سبيله إلى جملتك؛ فَأَمَلْنَا أَنْ يكون ذلك موصولاً بأعظم الخيرة، مؤدياً إلى أحسن المغبة. إلا أَنَّا أحسنا من الغزاة الذين بهم تَعْتَضِد، وإياهم تستنجد، فَتُورَ نِيَّاتٍ، وفساد طَوَيَّاتٍ؛ وهذا كما علمت بابَّ عظيم يجبُ الاطلاع بالفكر والرأي عليه، والاحتراس بالجِدِّ والجهد من الخَطَلِ فيه. [فسييلُك أن تتأمل أمرَك بعين استقصاء العَوْرَةِ، واستدراك الآخرة]، فإنَّ أَنتَ وجدت في عدتك تمامَ القدرة، وفي عُدَّتِكَ مقدار الكفاية، ولم تَجِدْ نِيَّاتِ أولئك الغزاة مَدْخُولَةً، ولا عُرَاهِمَ مَحْلُولَةً^(١)، استخرت الله تعالى في المسير بكلِّ ما تقدَّرُ عليه من الحَزْمِ في أمرَك، ثم إن تكن الأخرى، وكان القوم على ما ذكرت من كلال البصائر، وَضَعْفِ المرائر^(٢)، علمت على التلَوِّمِ لحديثٍ يحدثك به كتابُنا هذا إن اجتليت ما ذكرته، وإن لم تبلغ بلاغة ما اخترته، فاعتلق بِذِيْلِهِ^(٣).

[من مقامات بديع الزمان]

المقامة القزوينية

وهذه المقامة من إنشاء البديع، قال عيسى بن هشام: غزوت الثغر بقزوين سنة خمس وسبعين، فما اجترينا حَزْناً، إِلَّا هَبَطْنَا بَطْناً، حتى وقف بنا المسيرُ على بعض قُرَاهَا، فمالت الهاجرة بنا إلى ظِلِّ أَثْلَآتٍ في حِجْرِهَا عين كلسان الشمعة، أصفى من الدمعة، تسبح في الرُّضْرَاضِ، سبيح النَّضْنَضِ^(٤)؛ فَنَلْنَا من المأكَلِ ما نلنا، ثم ملنا إلى الظلِّ فَنَلْنَا؛ فما ملَكْنَا

(١) العَرَى: جمع عروة، وأصلها أخت الزرِّ من الثوب.

(٢) الكلال: الضعف والفتور. والبصائر: جمع بصيرة، وهي العقل والفطنة. والمرائر: جمع مريرة، وهي العزيمة، وأصلها: ما لَطَفَ وطال واشتد قتله من الحبال.

(٣) اعتلق بِذِيْلِهِ: تَمَسَّكَ به.

(٤) الرضراض: الحصى. والنضناض: الحبة التي تتلوى دائماً، أو التي لا تثبت في مكانها لِشَرْنِهَا ونشاطها.

النوم حتى سَمِعْنَا صوتاً أنكرَ من صوتِ الحمار، وَرَجَعَا أَضْعَفَ من رَجْعِ الحُورِ^(١) يَشْفَعُهُمَا صَوْتُ طَبْلٍ كأنه خارج من ماضِغِي أسد؛ فذَادَ عن^(٢) القوم رائد النوم، وفتحت العيون إليه وقد حالت الأشجار دونه، وَأَصْغَيْتُ فإذا هو يقول على إيقاع صوت الطبل:

أدعو إلى الله فهل مِنْ مُجِيبٍ
وَجَنَّةٍ عَالِيَةٍ مَا تَنِي
بِاقِوْمٍ إِنِّي رَجُلٌ ثَائِبٌ
إِنْ أَكُ أَمْنُتُ فَكَلِمَ لَيْلَةٍ
يَا رَبِّ خِزِيرٍ تَمْشُشُهُ
ثَمَ هِدَانِي الله، وَأَنْتَ أَشْنِي
فَظَلَّتْ أُخْفِي الدِّينَ فِي أُسْرَتِي
أَسْجُدُ لِمَلَائِكَةِ حِذَارِ الْعِدَى
وَأَسْأَلُ الله إِذَا جَنَّتْ سِي
رَبِّ كَمَا أَتَيْتُكَ أَنْقَذْتَنِي
ثَمَ اتَّخَذْتُ اللَّيْلَ لِي مَرْكَباً
وَقَلْدِكَ مِنْ سِيرِي فِي لَيْلَةٍ
حَتَّى إِذَا مَا جُرْتُ بِخَرِّ الْعَمَى
وَقُلْتُ إِذْ لَاحَ شِعَارُ الْهُدَى
إِلَى ذَرَى رَحْبٍ وَعَيْشٍ خَصِيبٍ
قُطِرُوهَا دَانِيَةً مَا تَغِيبُ^(٣)
مِنْ بَلَدِ الْكُفْرِ وَأَمْرِي عَجِيبُ^(٤)
جَحَذْتُ فِيهَا وَعَبَدْتُ الصَّلِيبَ
وَمُسْكِرٍ أَحْرَزْتُ مِنْهُ النَّصِيبَ^(٥)
مِنْ زَلَّةِ الْكُفْرِ اجْتِهَادُ الْمُصِيبِ^(٦)
وَأَعْبَسْتُ الله بِقَلْبٍ مُنِيبِ^(٧)
وَلَا أَجِي الْكَعْبَةَ خَوْفَ الرَّقِيبِ
لَيْلِي وَأَضْنَانِي يَوْمَ عَصِيبِ^(٨)
فَنَجِّنِي؛ إِنِّي فِيهِمْ غَرِيبُ
وَمَا سَوَى الْعِزِّ أَمَامِي نَجِيبُ^(٩)
يَكَادُ رَأْسُ الطِّفْلِ فِيهَا يَشِيبُ
إِلَى حِمَى الدِّينِ نَفَضْتُ الْوَجِيبُ^(١٠)
نَصَرْتُ مِنَ الله وَفَتَحَ قَرِيبُ

(١) الحُورُ: ولد الناقة من وقت ولدته إلى أن يُقَطَمَ وَيُقَصَّلَ.

(٢) ذَادَ: دفع، منع.

(٣) تني: تفتت.

(٤) ثائب: راجع.

(٥) تَمْشُشُهُ: أكلت مَشَاشَهُ، وَالْمَشَاشُ: طَرَفُ مَا لَانَ مِنَ الْعِظَامِ.

(٦) انتاشني: خلّصني وأنقذني.

(٧) منيب: تائب.

(٨) يوم عَصِيبٍ: شديد الحرّ أو الهول، قال تعالى: ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (سورة هود، آية ٧٧).

(٩) النجيب: الفاضل على مثله النفيس في نوعه، ونجائب الإبل: خيارها.

(١٠) الوجيب: الخفقان.

ولما بلغ هذا البيت قال: يا قوم: وطنتُ والله بلادكم بِقَلْبٍ لا العِشْقُ شاقَهُ، ولا الفَقْرُ ساقَهُ، وقد تركت وراءَ ظَهْرِي حدائقَ وأعْباباً، وكواعبَ أثْراباً، وخيلاً مُسَوِّمَةً، وقناطيرَ مُقَنَّطَرَةً، وعُدَّةً وعديداً، ومراكبَ وعبيداً، وخرجتُ خروجَ الحَيَّةِ من جُحرِهِ، وبرزتُ بروزَ الطائرِ من وَكرِهِ مُؤَثِّراً دينيَ على دُنْيائي. وجامعاً يُمْناي إلى يُسْرائي، واصلاً سَيْرِي بِسْرائي^(١)، فلو رفعتُم النارَ بشرِها، ورميتُم الرومَ بحجرِها، وأعتَموني على غَزْوها مساعدةً وإِسعاداً، ومرافدةً وإِرفاداً، ولا شَطَطَ^(٢)، فكلُّ قادرٍ على قُدْرَتِهِ، وحَسْبُ ثَرْوَتِهِ. ولا أَسْكَثَرُ البَذْرَةَ^(٣)، ولا أَرَدَ الثمرةَ، وأقبلُ الذرةَ، ولكل مني سهمان، سَهْمٌ أَذْلَقُهُ لِلْقَاءِ^(٤)، وسَهْمٌ أَفْوَقه بِالذِّعَاءِ^(٥)، وأرْشَقُ به أبوابَ السماء، عن قَوْسِ الظلماء.

قال عيسى بن هشام: فاستفتني رائعُ ألفاظه، وَسَرَوْتُ جِلْبَابَ النومِ، وعدوت إلى القومِ، وإذا والله شيخُنا أبو الفتح الإسكندري، بسيفٍ قد شَهره، وزِيٌّ قد نكره؛ فلما رآني غَمَزَنِي بعينه وقال: رحم الله امرءاً أحسنَ حَدْسَهُ؛ ومَلِكٌ نَفْسَهُ، وأَغْنانا بِفاضلِ قَوْلِهِ، وقسمَ لنا من نِيلِهِ! ثم أَخَذَ ما أَخَذَ، فقمتُ إليه فقلت: أنت من أولادِ بناتِ الرومِ؟ فقال:

أَنَا حَالِي مَعَ الزَمَا	نِ كحَالِي مَعَ النَّسَبِ
نَسَبِي فِي يَدِ الزَمَا	نِ إِذَا سَامَاهُ انْقَلَبَ
أَنَا أُمْسِي مِمَّنَ النَّبِي	طِ وَأُضْحِي مِمَّنَ الْعَرَبِ

[عاقبة السؤال بلفظ حسن]

قال سليمان بن عبد الملك: ما سألتني أحدٌ قط مسألةً يثقلُ عليَّ قضاؤها، ولا يخفُّ عليَّ أداؤها، بلفظٍ حسنٍ يجمعُ له القلبُ فهمه إلا قضيتها، وإن كانت العزيمة نفدت في منعه، وكان الصواب مستقراً في دفعه، ضاً بالصواب أن يردَّ سائله، أو يحرم نائله.

- (١) السير: الذهاب في الأرض في أي وقت كان. والرِّي: سير عامة الليل.
- (٢) مرافدةً وإِرفاداً: يقال: رفده رِفْداً وإِرفاداً: أعانهُ، وأعطاه، ووصله. والشَطَط: الإِمعان ومجاورة الحدِّ، والجَوْر.
- (٣) البَذْرَةُ: كيس فيه مقدار من المال، يُعامل به، وَيُقَدَّم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود.
- (٤) أَذْلَقَهُ: يقال: ذلق السكين: حدَّده، وذلق السراج: أضاءه وأوقده.
- (٥) قَوْقِي السهم: عَمِلَ له قَوْقَاً، والقَوْقُ من السهم: حيث يثبت الوتر منه، وهما فوقان، والجمع قَوْقٍ، وَأَفْوَاقٍ.

[ابن رفاعه يتحدث عن النعمان بن المنذر والحارث الغساني]

وقال أبو عبيدة: كان أبو قيس بن رفاعه يقد سنةً إلى النعمان بن المنذر اللخمي وسنة إلى الحارث بن أبي شمّر الغساني، فقال له الحارث يوماً وهو عنده: يا بن رفاعه، بلغني أنك تفضل النعمان عليّ! قال: كيف أفضّله عليك أبيت اللعن! فوالله لَقَفَاكَ أَحْسَنُ من وَجْهِه، ولَأَمَكَّ أَشْرَفُ من أبيه، [ولَآبَاؤُكَ أَشْرَفُ من جميع قومه]، ولَأَمْسَكَ أَفْضَلُ من يومه، ولشمالك أجود من يمينه، وَلِحِرْمَانِكَ أَنْفَعُ من بَدَلِهِ، وَلَقَلِيلُكَ أَكْثَرُ من كثيره، [وَلِثَمَادُكَ أَغْزَرُ من غديره^(١)]، وَلِكُرْسِيِّكَ أَرْفَعُ من سريره، وَلِجَدْوَلِكَ أَغْمَرُ من بحوره، وَلِيَوْمِكَ أَفْضَلُ من شهره، وَلِشَهْرِكَ أَشْرَفُ من حَوْلِهِ، وَلِحَوْلِكَ خَيْرُ من حَقْبِهِ، وَلِزَنْدِكَ أَوْرى من زَنْدِهِ، وَلِجَنْدِكَ أَغْزَمُ من جَنْدِهِ، وَلِهَزْلِكَ أَصُوبُ من جَدِّهِ، وَإِنَّكَ لَمِنْ غَسَّانِ أَرْبابِ الملوِك، وَإِنَّهُ لَمِنْ لَحْمٍ كَثِيرِ النُّوِكِ^(٢)! فَعَلَامَ أَفْضَلُهُ عَلَيْكَ؟ وقد رُوي مثل هذا الكلام للنابغة الذبياني مع النعمان بن المنذر.

[أربعة أبيات]

وقال المفضل الضبي: دخلت على المهدي فقال قبل أن أجلس: أنشدني أربعة أبيات لا تزد عليهنّ، وعنده عبد الله بن مالك الخزاعي، فأنشدته^(٣):

وَأَشَعْتُ قَدْ قَدَّ السَّفَارُ قَمِيصَهُ	يَجْرُ شِوَاءَ بِالْعَصَا غَيْرَ مُنْضَجٍ ^(٤)
دَعَوْتُ إِلَى مَا نَابَنِي وَأَجَابَنِي	كَرِيمٌ مِنَ الْفَتِيَانِ غَيْرُ مُزَلَّجٍ ^(٥)
فَتَى يَمْلَأُ الشَّيْزَى وَيُرْوِي سِنَانَهُ	وَيَضْرِبُ فِي رَأْسِ الْكَمِيِّ الْمُدَجَّجِ ^(٦)
فَتَى لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ	وَلَا فِي بِيوتِ الْحَيِّ بِالْمُتَوَلِّجِ

فقال المهدي: هذا هو، وأشار إلى عبد الله بن مالك، فلما انصرفْتُ بعثَ إليّ بألف دينار، وبعثَ إليّ عبد الله بأربعة آلاف.

(١) الثَّمَادُ: جمع ثَمَد، الماء القليل الذي ليس له مدد، وقيل: المكان يجتمع فيه الماء.

(٢) النَّوْكُ: الْحَقْنُ.

(٣) الأبيات للشماع بن ضرار الغطفاني، انظر الأغاني: ١٦٠/٩.

(٤) قَدَّ الْقَمِيصُ: شَقَّه. السَّفَارُ: الارتحال، السَّفَر، التنقل من مكان إلى مكان.

(٥) الرجل المزليج: الناقص قولاً وفعلًا (الدُّون).

(٦) الشَّيْزِي: نوع من الخشب. الكمي: البطل الشجاع المقدم الجريء. والمُدَجَّجُ: هو التام السلاح.

[أبو الأسود الدؤلي وامراته]

تنازع أبو الأسد الدؤلي وامراته إلى زياد في ابنهما، وأراد أبو الأسود أخذه منها فأبَتْ، وقالت المرأة: أصلح الله الأمير، وهذا ابني، كان بطني وعاءؤه، وحجري فناؤه، وثديي سقاؤه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام؛ فلم أزل بذلك سبعة أعوام، فلما استوفى فصاله، وكملت خصاله، واستوكت أوصاله^(١)، وأملت نفعه، ورجوت عطفه، أراد أن يأخذه مني كرهاً، فآدني أيها الأمير؛ فقد أراد قهري، وحاول قسري.

فقال أبو الأسود: هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعت قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في تقويم أوده^(٢)، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله، ويستكمل فتله.

فقالت المرأة: صدق أصلحك الله؛ حملته خفًا، وحملته ثقلاً، ووضعته شهوةً، ووضعته كرهاً.

فقال زياد: اردد على المرأة ولدها؛ فهي أحق به منك، ودعني من سجعك.

[عظات ووصايا]

عظة حكيم

قال الأصمعي: بلغني أن بعض الحكماء كان يقول: إني لأعظكم، وإني لكثير الذنوب، مُسْرِفٌ على نفسي، غير حامد لها، ولا حاملها على المكروه في طاعة. وقد بلوتها فلم أجد لها شكراً في الرضاء، ولا صبراً على البلوى. ولو أن أحداً لا يعظ أخاه حتى يحكم أمره لترك الأمر.... ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب وجلاء النفوس، وتذكير من النسيان، واعلموا أن الدنيا سرورها أحزان، وإقبالها إديار، وآخر حياتها الموت، فكم من مستقبل يوماً لا يستكملُه، ومنتظر غداً لا يبلغه؟ ولو تنظرون الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره.

عظة عبد الملك بن مروان أهله وولده

جمع عبد الملك أهله وولده فقال: يا بني أمية، ابذلوا نداكم، وكفوا أذاكم، وأجملوا

(١) استوكت: كملت وتمت. الأوصال: الأعضاء.

(٢) الأود: الأعوجاج والميل. والتقويم: التعديل.

إذا طلبتم، واغفروا إذا قدرتم، ولا تلحِقُوا إذا سألتهم، ولا تبخلوا إذا سُئِلْتُمْ؛ فإن العفو بعد القدرة، والثناء بعد الخبرة، وخير المال ما أفاد حمداً ونَقَى ذمّاً.

[وصف هشام بن عبد الملك بصفته]

ودخل سعيد الجعفري على هشام بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أصفك بصفتك، فإن انحرف كلامي فلهية الإمام، واجتماع الأقوام، وتصرف الأعوام، ولرب جوادٍ عثر في أرسانه^(١) وكبا في ميدانه^(٢)، ورحم الله امرءاً قصّر من لفظه، وألصق الأرض بلحظه، ووعى قولي بحفظه. فخاف هشام أن يتكلم فيقصّر عن جائزة مثله، فعزم عليه فسكت.

[حاتم الطائي يتحمل الديات عن عبد قيس البرجمي]

قال عبد قيس بن خُفاف البرُجُمي لحاتم الطائي وقد وفَدَ عليه في دماء تحملها وعجز عن البعض: إنه وقعت بيني وبين قومي دماء فتواكلوها، وإني حملتها في مالي وأملي، فقدمت مالي، وكُنْتُ أُملي، فإن تحملها فَرُبَّ حَقٍّ قضيته، وَهَمٌّ قد كفيته، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمُّ يومك، ولم أياس من غذك.

[وَصَفُ ثَقِيل]

قال أبو علي العتابي: حدثني الحمدوني قال: بعث إليّ أحمد بن حَرَبٍ المهلي في غداة السماء فيها مُغِيمة، فأتيته والمائدة موضوعة مُغَطَّة؛ وقد وافَتْ عُجَاب المغنيّة، فأكلنا جميعاً، وجلسنا على شرابنا، فما راعنا إلا داقٌ يدق الباب، فأتاه الغلام فقال: بالباب فلان؛ فقال لي: هو فتى من آل المهلب، ظريف، نظيف، فقلت: ما نريد غير ما نحن فيه، فأذن له، فجاءَ يتبختر وقدّامي قدَحُ شراب فكسره، فإذا رَجُلٌ أَدَمٌ صَخَمٌ^(٣)، قال: وتكلم فإذا هو أعيان الناس، فجلس بيني وبين عُجَاب، قال: فدعوت بدواة وكتبت إلى أحمد بن حرب:

كَدَّرَ اللهُ عَيْشَ مَنْ كَدَّرَ الْعِيَّ شَأْ! فَقَدْ كَانَ صَافِياً مُسْتَطَاباً

(١) الأرسان: جمع رَسَن، وهو ما يُقاد به الفرس ونحوه.

(٢) كبا الجواد: عثر.

(٣) آدم: وصف من الأدمة، وهي السُمرة.

جَاءَنَا وَالسَّمَاءُ تَهْتَطِلُ بِالْغَيْثِ ثِ وَقَدْ طَابَقَ السَّمَاعُ الشَّرَابِ
كَسَرَ الْكَاسِ وَهِيَ كَالْكُوكَبِ الدَّر رِي ضَمَّتْ مِنَ الْمُدَامِ رُضَاباً^(١)
قُلْتُ لِمَا رُمِيتُ مِنْهُ بِمَا أَكْرَهُ وَالذَّهْرُ مَا أَفَادَ أَصَابَا
عَجَّلَ اللَّهُ نَقْمَةً لِابْنِ حَرْبٍ تَدْعُ الدَّارَ بَعْدَ شَهْرِ خَرَابَا

ودفعت الرقعة إلى أحمد، فقال: [ويحك] ألا نقست فقلت بعد حول؟ فقلت: أردت أقول بعد يوم، فخفت أن تصيني مضرّة ذلك، وفطن الثقيل فنهض، فقال: آذيت! فقلت: هو آذاني.

[طيلسان ابن حرب]

وقال الحمدوني^(٢) في طيلسان ابن حرب:

وَلِي طَيْلَسَانٌ إِنْ تَأَمَّلْتَ شَخْصَهُ تَيَقَّنْتُ أَنَّ الذَّهْرَ يَفْنَى وَيَنْقَرِضُ
تَصَدَّعَ حَتَّى قَدْ أَمِنْتُ انْصِدَاعَهُ وَأَظْهَرْتَ الْأَيَّامُ مِنْ عُمْرِهِ الْغَرَضُ
كَأَنِّي لِإِشْفَاقِي عَلَيْهِ مُمَرِّضُ أَخَا سَقَمٍ مِمَّا تَمَادَى بِهِ الْمَرَضُ
فَلَوْ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَلَامِ يَرَوْنَهُ لَمَارَوْكَ فِيهِ وَادَّعَوْا أَنَّهُ عَرَضُ^(٣)

وقال فيه:

لِطَيْلَسَانَ ابْنِ حَرْبٍ نِعْمَةٌ سَبَقَتْ بِهَا تَيَّيَنَ فَضْلِي فَهُوَ مُتَّصِلُ
قَدْ كُنْتُ دَهْرًا جَهُولًا ثُمَّ حَنَنْتِي عَلَيْهِ خَوْفِي مِنَ الْأَقْوَامِ إِنْ جَهِلُوا
أَظَلُّ أَجْتَنِبُ الْإِخْوَانَ مِنْ حَزَرٍ كَأَنَّمَا بِي جُرْحٌ لَيْسَ يَنْدَمِلُ^(٤)
يَا طَيْلَسَانَا إِذَا الْأَلْحَاطُ جُلْنَ بِهِ فَعَلْنِ فِعْلَ سِهَامٍ فِيهِ تَنْتَضِلُ^(٥)

(١) الرُّضَابُ: الرِّيق.

(٢) هو أبو علي، إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصري الحمدوي: شاعر، أديب، ظريف، وضاف، وأكثر شعره في طيلسان ابن حرب (ابن المعتر، طبقات الشعراء: ٣٧٠؛ ابن خلكان، وفيات والأعيان: ٩٥/٧).

(٣) أصحاب الكلام: أي علماء الكلام. وماروك: جادلوك وشككوك. والعرض: ما لا يقوم بنفسه، وإنما يقوم بغيره.

(٤) اندمل الجرح: أخذ في البرء.

(٥) انتضل السيف: أخرجه من غمده، وانتضل السهم: أخرجه من كنانته.

لَيْسَ بَلَيْتَ فَكَمِ أَبْلَيْتَ مِنْ أُمِّ
وَكَمِ رَأَى أَخِي لِي ثُمَّ أَنْشَدَنِي:
تَكْرَى أَبَادَتَهُمْ أَيَّامُكَ الْأَوَّلُ
وَدَعِ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ^(١)
وقال فيه^(٢):

يَا بْنَ حَرْبٍ كَسَوْتَنِي طِيلَسَانًا
فَإِذَا مَا لَيْسَتْهُ قُلْتُ: سُبْحَا
طِيلَسَانٌ لَهُ إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ
أَذْكَرْتَنِي يَتَاءً لِحَسَانٍ فِيهِ
لَوْ يَدِبُ الْحَوْلِيُّ مَنْ وَلَدَ الذِّ
وقال أيضاً:

يَا قَاتِلَ اللَّهِ ابْنَ حَرْبٍ لَقَدْ
بَطِيلَسَانٍ خِلْتُ أَنَّ الْبَلَى
أَجْدُ فِي رَفْوِي لَهُ، وَالْبَلَى
ذَكَرْنِي الْجَنَّةَ لَمَّا غَدَا
إِنْ أَتَاهُمُ الرِّفَاءُ فِي رَفْوِهِ
غَنَيْتُهُ لَمَّا مَضَى رَاحِلًا:
أَطَالَ إِتْعَابِي عَلَى عَمْدٍ
يَطْلُبُهُ بِالْوَتْرِ وَالْحَقْدِ
يَلْهُو بِهِ فِي الْهَزْلِ وَالْجِدِّ
أَصْحَابُهَا مِنْهَا عَلَى حَرْدٍ^(٤)
مَضَى بِهِ التَّمْزِيقُ فِي نَجْدٍ^(٥)
يَا وَاحِدِي تَكْرُنِي وَحْدِي!
وقال أيضاً فيه:

- (١) هذا صدر بيت للأعشى ميمون بن قيس، والبيت بتمامه:
وَدَعِ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ
(الأعشى، الديوان: ص ٣٠٠).
- (٢) البيتان الأول والثاني من هذه الأبيات في وفيات الأعيان لابن خلكان (٩٦/٧).
- (٣) اندبته: جرحتها. الكلوم: جمع كلم، وهو الجرح.
- (٤) الحرْدُ: يقال: رجل حرْدٌ: معتزل عن الناس مُتَنَحٍّ. وفي البيت إشارة إلى القصة الواردة في سورة القلم من الآية ١٦ إلى الآية ٢٦.
- (٥) الرِّفَاءُ: الذي صناعته رَفُو الثياب ونحوها. وقد رفا الثوب ونحوه من كل منسوج: أصلحه وضم بعضه إلى بعض.

إِنَّ ابْنَ حَرْبٍ كَسَانِي ثَوْباً يُطِيلُ انْحِسْرَافَهُ
أَطْلُلُ أَذْفَعُ عَنْهُ وَآتَقِي كُلَّ آفَةٍ
فَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْ خَشْيَةٍ تَنِي عَلَيْهِ الثَّقَافَةُ

وقال أيضاً:

طَيْلَسَانٌ مَا زَالَ أَقْدَمَ فِي الدَّهْرِ رِ مِنْ الدَّهْرِ مَا لِرَفْوِيهِ حِيلَةٌ
وَتَرَى ضَعْفَهُ كَضَعْفِ عَجُوزٍ رُتَّةِ الْحَالِ ذَاتِ فَقْرٍ مُعِيلَةٍ
غَمَرَتْهُ الرِّقَاعُ فَهُوَ كِمَضِيرٍ سَكَنْتُهُ نُزَاعِ كُلِّ قَبِيلَةٍ
إِنْ أُزِيَّتْهُ يَسَا بِنَ حَرْبٍ بِذِمَّتِي فَجَرِيرٌ قَدْ زَانَ قَبْلِي بِجِيلَةٍ

جرير: ابن عبد الله البجلي، وله صحبة [رضى الله عنه، وقد] قال غسان في هجائه جريراً:

لَعَمْرِي لَيْسَ كَانَتْ بِجِيلَةٍ زَانَهَا جَرِيرٌ لَقَدْ أَخْزَى كُتَيْباً جَرِيرَهَا^(١)
وقال الحمدوني في معناه الأول^(٢):

يَا بَنَ حَرْبٍ إِنِّي أَرَى فِي زَوَايَا بَيْنَنَا مِثْلَ مَا كَسَوْتَ جَمَاعَةً^(٣)
طَيْلَسَانٌ رَفَوْتُهُ وَرَفَوْتُ الرِّ فَوَ مِنْهُ حَتَّى رَفَوْتُ رِقَاعَةً^(٤)
فَأَطَاعَ الْبَلْسَى وَصَارَ خَلِيعاً لَيْسَ يُعْطِي الرِّفَاءَ فِي الرِّفْوِ طَاعَةً
فَإِذَا سَائِلٌ رَأَيْتَنِي فِيهِ ظَنَّ أَنِّي فَتَى مِنْ أَهْلِ الضِّيَاعَةِ^(٥)

وقال فيه:

طَيْلَسَانٌ لَا بِنَ حَرْبٍ يَتَدَاعَى لَا مِسَاسَا^(٦)

- (١) جرير (الأول): هو ابن عبد الله البجلي صاحب رسول الله ﷺ، وجرير (الثاني): هو أبو حمزة، جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي التميمي، الشاعر الأموي المشهور.
- (٢) هذه الأبيات الأربعة في وفيات الأعيان (٩٧/٧).
- (٣) في وفيات الأعيان: «مثل من كسوت جماعه».
- (٤) في وفيات الأعيان: «ورفوت الرفو منه وقد رفعت رقاعه».
- (٥) في وفيات الأعيان: «من أهل الضياعة».
- (٦) لاميساس: لا تمسني، وهذا كناية عن شدة بلاه.

قَدْ طَسَوَى قَرْنًا فَقَرْنًا وَأُنَاسًا فَأُنَاسًا^(١)
لِبَيْسِ الْأَيْسَامِ حَتَّى لَمْ تَدْعُ فِيهِ لِبَاسًا
غَابَ تَحْتَ الْحَسَنِ حَتَّى لَا يُرَى إِلَّا قِيَاسًا

[من رسائل ابن العميد]

من ابن العميد إلى الطبري

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري:

كتابي وأنا بحالٍ لو لم ينقص منها الشوقُ إليك، ولم يُرْتَقِ صَفْوُهَا التَّزَاغُ نحوك، فَعَدَدْتُهَا من الأحوال الجميلة، واعتدلت حظِّي منها في النعم الجليلة؛ فقد جمعتُ إليها بين سلامةِ عامَّةٍ، ونعمةِ تامةٍ، وحَظِيَّتُ منها في جسمي بصلاح، وفي سَعْيِي بنجاح، لكن ما بقي أن يَصْفُوَ لي عيش مع بُعْدِي عنك، ويخلو ذَرْعِي مع خُلُوي منك، وَيَسُوغَ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك، وكيف أطمعُ في ذلك وأنت جزءٌ من نفسي، وناظِمٌ لِشَمْلٍ أنسي، وقد حُرِمْتُ رُؤْيَيْكَ، وَعَدِمْتُ مشاهدتك، وهل تسكنُ نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس مُنْشَت بلا نظام، وقد قرأت كتابك جعلني الله تعالى فداءك؛ فامتلتُ سروراً بملاحظة خطك، وتأثلتُ تصرفك في لفظك، وما أقرَّطهما فكلُّ خصالك مقرَّطٌ عندي، وما أمدحهما فكلُّ أمرك ممدوح في ضميري وعَقْدِي^(٢)، وأرجو أن تكونَ حقيقةُ أمرك موافقةً لتقديرِي فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري.

من ابن العميد إلى عضد الدولة

وله إلى عضد الدولة يهنئه بولدين:

أطال الله بقاء الأمير الأجلِّ عضد الدولة، دام عزه وتأييده، وعلوه وتمهيدته، وبَسْطَتُهُ وتَوْطِيدُهُ، وظاهر له من كل خير مزيد، وهنَّاه ما اختصه به على قُرْبِ الميلاد، من توافر الأعداد، وتكثر الأمداد^(٣)، وتتمر الأولاد، وأراه من النجابة في البنين

(١) الْقَرْنُ: الأمة تأتي بعد الأمة، وقيل: القرن من الناس: أهل زمان واحد، قال الشاعر:
إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وَخُلِفَتْ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ
(ابن منظور، اللسان: قرن).

(٢) الْعَقْدُ: الْعَهْدُ.

(٣) الْأَمْدَاد: جمع مَدَد، وهو ما يُمَدُّ به الشيء، يقال: مددته بمدد: قُوَّتُهُ وأَعْتَهُ به.

والأسباط^(١)، ما أراه من الكرم في الآباء والأجداد، ولا أخلى عينه من قرّة، ونفسه من سرّة، ومتجدّد نعمة، ومستأنف مكرمة، وزيادة في عده، وفُتح في أمده، حتى يبلغ غاية مهله، ويستغرق نهاية أمّله، ويستوفي ما بعد حُسن ظنه؛ وعرفه الله السعادة فيما بشر عبده من طلوع بلدين هما أنبعتا من نوره، واستنارا من دُوره، وحققا بسريره، وجعل وفودهما متلائمين، وورودهما تَوَافُين، بشيرين بتظاهر النعم، وتواتر القسم ومؤذنين بترادف بنين [يغصُّ] بجمعهم مُنْخَرَقُ الفُضَاءِ، وَيَشْرِقُ بنورهم أفق العلاء، وينتهي بهم أمدُ النماء^(٢)، إلى غاية نفوت غاية الإحصاء، ولا زالت السبلُ عامرة، والمناهلُ غامرة، يضافُ صادرهم بالبشر [الوارد] وآملهم بالنيل القاصد.

لأبي الطيب في ابني عضد الدولة

وقال أبو الطيب وذكر أبا دلف وأبا الفوارس ابني عضد الدولة^(٣):

فَلَمْ أَرْ قَبْلَهُ شِئْنِي هَزَنِي	كَشْبْلِيهِ، وَلَا فَرَسِي رَهَانِي ^(٤)
فَعَاشَا عَيْشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيِي	بَضَائِيهِمَا وَلَا يَحْأَسِدَانِي ^(٥)
وَلَا مَلَكَ سِوَى مُلْكِ الْأَعَادِي	وَلَا وَرِثَا سِوَى مَنْ يَنْتَلَانِي ^(٦)
[وَكَاَنَا ابْنَا عَدُوٍّ كَاثَرَاهُ	لَهُ يَأْنِي حُرُوفِ أُنَيْسِيَانِي ^(٧)
دُعَاءُ كَالثَّيَاءِ بِلا رِيَاءِ	يُؤَدِّيهِ الْجَنَانُ إِلَى الْجَنَانِ ^(٨)

(١) الأسباط: جمع سبط، وهو ولد البنت.

(٢) النِّمَاءُ: الزيادة.

(٣) المتنبي، الديوان: ٣٧٧/٢. والأبيات من قصيدة طويلة يمدح بها عضد الدولة البويهّي، ويصف وهو في الطريق إليه شِعْبَ بوان المعروف بجماله الطبيعي الساحر.

(٤) الشبل: ولد الأسد. والهزير: من أسماء الأسد. والرهان: السباق. وأراد بالشبلين: ولدي عضد الدولة.

(٥) عاشا: دعاء للولدين. والقمران: الشمس والقمر.

(٦) هذا دعاء لأبيهما بالحياة، يقول: لا ملكاً إلّا ملك الأعداء دون ملكك، ولا ورثاً إلّا من يقتلانه منهم.

(٧) المكاثرة: المفاخرة بالكثرة. وأُنَيْسِيَان: مصغر إنسان، وهو من شواذ التصغير، لوروده بيائين.

(٨) الْجَنَان: القلب..

من الإسكافي في تهنئة واستبطاء

وكتب أبو القاسم الإسكافي عن نوح بن نصر إلى وَشْمَكِر بن زياد في استبطاء وتهنئة:

وصل كتابك ناطقاً مُفْتَحُهُ بِجَمِيلِ الْعُذْرِ، فيما نَقَلَ من المكاتبة، وبعث من المطالعة، ومُعْرِباً مُخْتَمُهُ عن جُمْلَةِ خَيْرِ السَّلَامَةِ التي طَبَّقْتَ أَعْمَالَك، والاستقامة التي عَمَّتْ أحوالك، وفهمناه، ولولا أَنَّ مَوَاتَاتِكَ - أيدك الله تعالى - فيما تَأْتِي وتَذَرُ، وترتني وتدبر، عادةً لنا أورثناها قرابة ما بين وفائنا ووفائك، ومُلاءمة حال أَلْجَأْتَنَا لحال استحقاقك؛ لكننا ربما ضايقتنا في العذر الذي اعتذرت به، وإن كان واضحاً طريقه، وناقشناك فيه، وإن كان واجباً تصديقه، لِفَرْطِ الْأَنْسِ [يَخْلُصُ إلينا] بكتابك، والارتياح بخطابك، اللذين لا يؤديان إلا خبرَ سَلَامَةٍ تَوْجِبُ الإِحْمَادَ، فنحن نأبى إلا إِجْرَاءَ تلك العادة، كما عَوَّدْنَا، وإلا التجافي عما نريد فيه من الزيادة التي أَرَدْتَهَا، ولا ندع مع ذلك أن يصل تَسْوِيفُكَ^(١) إلى الإقلال الذي اخترته بإحمادك على الكتاب إذا كتبه، توخياً^(٢) لأن تكون مؤهلاً في الحالين لخالصة التناول، مقدماً في درج التفضيل، موفياً حقائق الإيثار، موفياً لواحق الاستقصار، ونستعين بالله على قضاء حقوقك، وعلى جميل النية في أمورك؛ فإن ذلك لا يُبْلَغُ إلا بِقُوَّتِهِ، ولا يُدْرِكُ إلا بِحَوْلِهِ، وأما بعد فقد عَفَى^(٣) - أعزك الله تعالى - ما أفاد كتابك بخبر السلامة من أنسه، على آثار من سبقه بخير العلة من وَحْشَةٍ، فأوجبنا مقابلة موهبة الله تعالى في المحبوب صنع، والمكروه دفع، نستقبل به إخلاص المواهب لنا، ونستديم به أخص المراتب بنا، فأريكَ - أعزك الله تعالى - في المطالعة بذكر تسميته في القوة والصحة من مزيد، والطاعة والكفاية من توفيق وتسديد، موقفاً إن شاء الله تعالى . . .

ألفاظ لأهل العصر في ضروب التهاني وما ينخرط في سلكها

من ذلك في التهنئة بالمولود وما يجري مجراها من الأدعية

وما يختص منها بالملوك أو الرؤساء

مرحباً بالفارس المصدق للظنون، المقر للعيون، المقبل بالطالع السعيد، والخير

(١) سَوَّفَ الأمر تسويفاً: أرجأه وأخره.

(٢) توخى الأمر توخياً: قصده.

(٣) عَفَى: غَطَّى ومستر.

العَتِيد، أنجب الأبناء لأكرم الآباء. أنا مُسْتَبَشِّرٌ بطلوع النجم الذي كُنَّا منه على أَمَلٍ، ومن تطاول استِسْرَارُهُ^(١) [الذي كنا منه] على وَجَلٍ، إن يشأ الله يجعله مقدمة إخوة في نَسَقٍ كالْفَرِيدِ المُشْتَقِّ^(٢). قد طلع في أفق الحرية أسعدُ نَجْمٍ، [وَنَجْمٌ]^(٣) في حدائق المروءة أذكي نبت. يا بُشْرَايَ بطلوع الفارس الميمون جَدُّه، المضمون سَعْدُهُ، عليه خاتم الفضل وطابعه، وله سَهْمٌ الخير وطالِعُهُ. الحمد لله على طلوع هذا الهلال الذي نَرَاهُ إن شاء الله بَدْرًا لا يُضْمِرُ السَّرَّارُ بِهِاهُ، ولا يبلغ المَحَاقُ سَنَاءَهُ وسَنَاهُ، وقد بَشَّرْتُ قوابله بالإقبال وعُلُوَّ الجَدِّ^(٤)، واقترن قدومُهُ بالطالع السَّعْد. هُنَاكَ الله تعالى بقوة الظَّهْرِ، واشتداد الأَزْرِ. الفارس المُكْتَبِرُ لسواد الفضل، الموقر لحالِ الأهل، المستوفي شرف الأرومة^(٥)، بكرم الأبوة والأمومة، وأبقاه حتى نراه، كما رأينا جَدَّهُ وأباه. عرفت أَنفَاءً ما كثر الله به عدده، وشَدَّ عَصْدَهُ، من طلوع الفارس الذي أضاء له الأفق، وطال به باعُ السعادة فعظمت التَّعْمَى لدي، وأوردتِ البُشْرَى غاية المُنَى عليّ. مرحباً بالفارس القادم، بأعظم المغانم، سَوِيَّ الخلق [سامي العِرق] يلوح عليه سيماء المجد، وتتجاذبه أطراف الملك والحمد. وردت البُشْرَى بالفارس الذي أَوْسَعَ رِباع المجد تأهيلاً، وَمَنَاقِبِ الشرف ارتفاعاً، وأَعْضَادِ العزِّ اشتداداً. واتتني بُشْرَى البشائر^(٦)، والنعم المحروسة على النظائر، في سُلَالَةِ العزِّ وسليبه، وابن منبر الملك وسريره، والأمير القادم بغرّة المكارم، الناهض إلى ذُرْوَةِ العلياء، بآباء أمراء، وملوك عظماء. مرحباً بالفارس المأمول لشَدَّ الظهور، المرجو لسَدِّ الثغور. الحمد لله الذي شَدَّ أَزَرَ الدولة، ونظم قلادة الإمرة، ودعم سَرِيرِ العزّة، ووطد منابر المملكة، بالقمر السعد، وشبل الأسد الوَرْد. قد تَنَسَّمت المكارم والمعالي، وتبشرت الخُطْبُ والقوافي، بالفارس المأمول لشَدَّ أَزْرِ الملك، وسَدَّ ثَغْرِ المجد، وتطاول السُريرُ شَوْقاً إليه، واهتزّت المنابرُ حرصاً عليه. قد افْتَرَّ جَفْنُ العالَمِ عن العينِ البصيرة، واستَغْرِبَ مَضْحَكُهُ عن اللّمة المُنيرة؛ أما الأمير فالتاح لجبينه يهْيى، والركاب بقدمه تزهى، اللهم أرني هذا الهلال بَدْرًا قد عَلَا الأقدار قدراً،

(١) الاستمرار: يقال: استسرَّ القمر: خفي ليلة السرار، وهي آخر ليلة في الشهر القمري.

(٢) الفريد هنا: الدرُّ. والمُشْتَقُّ: المتظم.

(٣) نَجْمٌ: طَلَعٌ.

(٤) الجَدُّ: البخت والحظ.

(٥) الأرومة: الأصل.

(٦) واتاه يواتيه: أسعفه وأنجده.

وَيَلْغَهُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ مُنَاهُ، حَتَّى نَرَاهُ وَأَخَاهُ، مُنِيفَيْنِ عَلَى ذُرْوَةِ الْمَجْدِ^(١)، آخِذِينَ مِنْ أَوْفَرِ الْحَظْوَةِ بِأَعْلَى الْجَدِّ.

ولهم: والله يمتنع به، ويرزق الخير منه، ويحقق الأمل فيه. عرف الله تعالى آثار بركة المولود المسعود، وعَضَّدَ الفضل بالزيادة في عهده، وأَقْرَعَ عَيْنَ المجد بالسادة من ولده. عرفه الله تعالى من سيادة مقدمه، ما يجمع الأعداء تحت قدمه. عمرك الله تعالى حتى ترى هذا الهلال قمراً باهراً، ويدراً زاهراً، يَكْثُرُ به عدد حَفَدَتِكَ، ويعظم معه غُصَّةُ حَسَدَتِكَ، من حيث لا تَهْتَدِي النَوَائِبُ إِلَى أغراضكم، ولا تَطْمَعُ الحَوَادِثُ إِلَى انتقاصكم، متعك الله بالولد، وجعله من أقوى العُدَدِ، وَوَصَلَهُ بِإِخْوَةِ متوافري العُدَدِ، شَادِي الأَزْرَ والعَضُدِ. هَتَّاكَ الله تعالى مَوْلَاهُ، وقرن باليُمْنِ مَوْرَدَهُ، وأراك من بنيه أولاداً بَرَّةً [وأسباطاً وحفدة، وعرفك بركة قُدُومِهِ، ونجح مقدمه، وسعد طالعه، ويمن طائرته، وعمرك الله] حتى ترى زيادة الله منه كما رأيتهَا به، والله يبلِّغُكَ أَفْضَلَ ما تقسمه السعود، وتعلو به الجدود، حتى يستغرق مع إخوته مساعي الفضل، وَيَشِيدُوا قَوَاعِدَ الفخر، ويزحموا صُدُور الدَّهْرِ، ويضبطوا أطراف الأرض؛ والله يَحْرُسُهُ من نواظر الأيام أَنْ تَرْتُوَ إِلَيْهِ^(٢)، وأطماع الليالي أَنْ تَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ، حتى يستقلَّ بأعباء الخدمة، وينهض بِأَثْقَالِ الدعوة، ويخف في الدفع عن البَيِّضَةِ^(٣)، وَيُسْرِعَ فِي حِمَايَةِ الْحَوْزَةِ^(٤)، والله يديم لمولانا من العُمُر أَكْلَاهُ، ومن العِزَّ أَهْنَاهُ، لِيُطَبِّقَ الْعَالَمَ بِفَضْلِهِ وَعَدْلِهِ، ويدبر الأرض بالنجباء من نَسْلِهِ.

[ولهم في ذكر المولود العلوي]

غُضِّنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، شَجَرَهُ أَهْلًا أَنْ يَحْلُو ثَمَرُهُ، وَفَرِّغْ بَيْنَ الرِّسَالَةِ وَالْإِمَامَةِ مُسْتَمَاهُ، خَلِيقَ أَنْ يُحَمَّدَ بَدْوُهُ وَعُقْبَاهُ. مرحباً بالطالع بأيمن طالع، وَمَنْ هُوَ مِنْ أَشْرَفِ الْمَنَاصِبِ وَالْمَنَاصِبِ، حيث الرِّسَالَةُ وَالْخِلَافَةُ، وَالْإِمَامَةُ وَالزَّعَامَةُ، أَبْقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى يَتَهَنَّا فِيهِ صَوَانِعِ الْمُنَنِ، وَيَعِدَّ حُسْنُهُ مِنْ بَنِي الْحَسَنِ.

(١) ناف الشيء توفاً: علا وارتفع.

(٢) ترنو: تنظر مع سكون طرف.

(٣) بيضة الشيء: أصله، وبيضة القوم: حوزتهم وحماهم، وبيضة الدار: وسطها، ويقال: فلان بيضة البلاد: إذا عُرف بالسيادة.

(٤) الحَوْزَةُ: الناحية، وحوزة الرجل: ما في ملكه، وحوزة البلد: حدوده ونواحيه.

ولهم في التهنة بالإملاك^(١) والنفاس، وما يقرن به من الأدعية.

من اتصل بمولاي سببه، وشرف به منصبه، كان حقيقاً بالرغبة إلى الله تعالى في نوفيته وتكثيره، وزيادته وتثمينه، لتزكو منابت الفضل، وتنمي مغارس النبل والفخر، وتطيب معادن المجد. بارك الله لمولاي في الأمر الذي عقده، وأحمدته إياه^(٢) وأسعده، وجعله موصلاً بنماء العدد، وزكاء الولد، واتصال الحبل، وتكثير النسل. والله تعالى يخير له في الوصلة الكريمة، ويفرنها بالمنحة الجسيمة. قد عظم الله بهجتي، وضاعف غبطتي، بما أتاحه من سرور ممهد، بجمع شمل مجدد، فلا زالت النعم به محفوفة، والمساير إليه مصروفة، جعل الله هذه الوصلة أكيدة العقدة، طويلة المدة، سابعة البركة والفضل، طيبة الذرية والنسل. وصل الله هذا الاتصال السعيد، والعقد الحميد، بأكمل المواهب، وأحمد العواقب، وجعل شمل مسرتك ملثماً، وسبب أسسك منتظماً. عرفك الله تعجيل البركات، وتوالي الخيرات، ولا أخلاك الله من هذه الوصلة [من التهاني بنجباء الأولاد، وكبت بكثرة عددك الحساد^(٣)]. هناك الله مولاي الوصلة بكثرة العدد، ووفود الولد، وانبساط الباع واليد، عالي القدر والجدة.

[ولهم في التهنة بالولاية والأعمال، وما يتصل بها من الأدعية]

للوزراء والقضاة والعمال

عرفت أخبار البلد الذي أحسن الله إلى أهله، وعطف عليهم بفضل، إذ أضيف إلى ما يلاحظه مولاي بعين إيلاته، ويشفي خلله بفضل أصالته. أنا من سر بالولاية يلبس مولاي ظلالها، ويسحب أذيالها، بنعم مستفادة، ورُتب مستزادة، سروري بما أعلمه بكسبه الشاء في كل عمل يُدبره، من أحداث جميلة، ومثوبة جزيلة، ويؤثره من إحياء عدل، وإماتة جور، وعمارة لسبل الخيارات، وإيضاح لطرق المكرمات، سيدي يوفي على الرتب التي يدعى لها بحلوله؛ فهنيئاً لها بتجملها بولايتها، وتحليها بكفايتها. والأعمال إن بلغت أقصى الآمال، فكفاية مولاي تتجاوزها وتتخطاها، والرتب وإن جلت قدراً، وكبرت ذكراً فصناعته تسبقها وتسبقها^(٤)، غير أن للتهاني رسماً لا بد من إقامته، وشرطاً لا سبيل إلى نقض عادته.

(١) الإملاك: التزويج، يقال: أملك الرجل ابنته: زوّجها.

(٢) أحمدته إياه: جعله يرى عاقبته محمودة.

(٣) كبت فلان فلاناً: غاظه وأذله وأخزاه، وكبت العدو: ردّه بنغيظه.

(٤) تسبقها: تؤخرها.

الأعمال وإن بلغت أقصى الآمال فكفاية سيدي توفي عليها إيفاء الشمس على النجوم، وترتفع عنها ارتفاع السماء على التخوم. سيدي أرفع قدراً وأنبه ذكراً، من أن نُهتته بولاية وإن جلَّ أمرها وعظم قدرها. قد أعطيت قوس الوزارة باريها، وأضيفت إلى كفئها وكافئها، وفُسخ فيها شرط الدنيا الفاسد في إهداء حظوظها إلى أوغادها، ونُقِص بها حكمها الجائر في العدول بها عن نُجباء أولادها. الدنيا أعز الله الوزير مهتأة بانحيازها إلى رأيه وتنفيذه، والممالك مغبوبةً باتصالها إلى أمره وتدييره. قد كانت الدنيا مستشفقةً لوزارته، إلى أن سَعِدَتْ بما كانت الأيام عنه مُخْبِرة، وحَظِيَتْ بما كانت الظنون به مبشرة. أنا أهتئ الوزارة بإلقائها إلى فضله مقادتها، وبلوغها في ظله إرادتها، وانحيازها من إيالته إلى واضحة الفخر، وتوشحها من كفايته بعزة سائدة على وجه الدهر. الحمد لله الذي أقر عين الفضل، ووطأ مهاد المجد، وترك الحساد يتعثرون في ذبول الخيبة، ويتساقطون في فضول الحسرة؛ وأراني الوزارة وقد استكمل الشيخ إجلالها، ووفى لها جمالها:

فَلَسْمُ تَكْ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَلَسْمُ يَكْ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا

والقاضي علم العلم شرقاً وغرباً، ونجم الفضل غوراً ونجداً، وشمس الأدب براً وبحراً، فسيل الأعمال إن تهتأ إذا رُدَّتْ إلى نظره الميمون، وعُصِبَتْ برأيه المأمون. [أسد الله القاضي بما جد] له من رأي مولانا وارتضاء، واعتمده لأجل أمر الشريعة وأمضاء، وأسعد المسلمين والدين بما أصاره إليه، وجمع زمامه في يديه. عرف الله سيدي من سعادة عمله، أفضل ما ترقاؤه بأمله، ولقاؤه من مناجح أمره، أفضل ما انتحاه بفكره. خار الله له فيما تولاه وتطوّقه، وبلغه في كل حال أمله وحقيقه، وعرفه من يُمنّ ما باشره بتديره الخير [والخيرة] والبركات الحاضرة والمنتظرة، وجعل المناجح إليه أرسالاً، لا تملّ توالياً واتصالاً. أسعده الله أفضل سعادة قُسمت لوالي عمل، وأسهم له أخص بركة أسهمت لِمُسامي أهل، أحضر الله السداد عزمه، والرشاد همّه، وكفه العِصمة وأيدّه، وقَرَنَه بالتوفيق ولا أفردّه. هنأ الله تعالى الموهبة التي ساقها إليه، ومدّ رواقها عليه؛ إذ كانت من عقائل المواهب، مُسْفِرة عن خصائص المراتب، وحلت فيه محل الاستحباب لا الإيجاب، والاستحقاق دون الاتفاق. هنا الله نعمته الفضل الذي الولاية أصغر آلائها، والرياسة بعض صفاتها.

[ولهم في التهنة بذكر الخلع والأجبية]

أهتئ سيدي مزيد الرفعة، وجديد الخلعة، التي تخلع قلوب المنازعين، واللواء الذي

يلوي أُنْدِي المنابذين، والحظُّ الذي لو امتطاه إلى الأفلاك لحازها، أو سَامَى به الجَوَازُ لجازها. بلغني خبرٌ ما تطَوَّعت به سماءُ المجد، وجادت به أنواءُ الملك، فصن من الخلع أسنائها، ومن المراكب أبهاها، [ومن السيوف أمضاها، ومن الأفراس أجراها، ومن الإقطاعات أنماها]. لبس خلعتَه مُتَجَلِّلاً منها ملابسَ العِزِّ، وامتطى فرسَه فارعاً به ذِرْوَةُ المجد، وتقلَّد سيفه حاصداً بحده طُلَى أَعْدائِهِ^(١)، وَغَامِطِي نِعْمَاهُ^(٢)، واعتنق طوقه مَتَّوِّفاً عِزَّ الأبد، واعتضد بالسوارين المُؤَدِّيَّيْنِ بقوة الساعد والعَضُدِ، ومَنَسَ أوليائه ولِوَاءَ العِزِّ عليه خافق، وهو بلسان الظَفَرِ والنَّصْرِ ناطق. قد لبس خلعتَه التي تعمد بها [رفعته]، وامتطى حُمْلَانَهُ الذي وصل به إِحْسَانُهُ^(٣)، تمنطق بِحُسامِهِ الذي ظاهر أبواب إنعامه، وتختم بِخَاتَمِيهِ، اللذين بسطا مِنْ يَدِيهِ؛ ووقَّعَ مِنْ دَوَاتِهِ، التي أعلَّتْ مِنْ درجاته. قد زَرَّرت عليه سماءُ الشرف عُرَى الخلعة، التي تترأى صفحاتُ العِزِّ على أعطافها، وَتُمْتَرِي مزايا المجد من أطرافها، وركب الحملان الذي تتناول قاصيتي المني من ناصيته، والمركب الذي تُسْتَخَذِي^(٤) حُلَى الثريا لحليته، والسيف والمنطقة الناطقان عن نهاية الإكرام، الناظران قلائد الإعظام. خلع تخلع قلوب الأعداء من مَقَارَّهَا، وتعمر نفوس الأولياء بمسارَّهَا، وسيف كالقضاء مَضَاءً وحداً، ولِوَاءُ يَخْفُقُ قلوب المنازعين إذا خفق، وحملات تصدع منكب الدَّهْرِ إذا انطلق.

[ولهم في التهنة بالقدوم من سفر]

أُهْنِئْ سيدي ونَفْسِي بما يَسَّرَهُ اللهُ مِنْ قُدُومِهِ سَالِماً، وأشكره على ذلك شكراً قائماً؛ غَيْبَةُ المكارم مقرونةً بغيبتك، وأُوبَةُ النعم موصولةٌ بأوبتك؛ فوصل الله تعالى قدومك من الكرامة، بأضعاف ما قَرَنَ به مسيرك من السلامة، وهناك أيامك، وبلغك محابك؛ ما زِلْتُ بالنِّيةِ مسافراً، وباتِّصالِ الذكر والفكر لك ملاقياً، إلى أن جمع الله شَمْلَ سروري بأوبتك^(٥)، وسكَّنَ نافِرَ قلبي بعودتك، فأسأل الله أن يسعدك بمقدمك سعادةً تكون فيها [بالإقبال] مُقَابِلاً، وبالأمانِي ظافراً، ولا أوحش منك أوطانَ الفضل، وريِّعَ المجد، بمَنَّةِ وكرمه.

(١) الطُّلَى: الأعناق، أو أصولها.

(٢) غَمَطَ النعمة: كفرها ولم يشكرها.

(٣) في نسخة: «وامتطى حملانه التي بها إحسانه».

(٤) استخذى: خَضَعَ وَذَلَّ.

(٥) أُوْبَتِكَ: رُجُوعِكَ.

[من أحسن الشعر]

قال الهيثم بن عدي: أنشدني مجالد بن سعيد شعراً أعجبني، فقلت: من أنشدك؟ قال: كنا يوماً عند الشعبي فتناشدنا الشعر، فلما فرغنا قال: أيكم يحسن أن يقول مثل هذا، وأنشدنا:

خَلِيلِي مَهْلًا طَالَمَا لَمْ أَقُلْ مَهْلًا وَمَا سَرَفًا مِ الْآنَ قُلْتُ وَلَا جَهْلًا^(١)
وَأَنْ صَبَا ابْنِ الْأَرْبَعِينَ سَفَاهَةً فَكَيْفَ مَعَ الْلَاتِي مِثْلْتُ بِهَا مَثَلًا
يَقُولُ لِي الْمُفْتِي وَهَنْ عَشِيَّةً بِمَكَّةَ يَسْجُبْنَ الْمُهْدَبَةَ الشُّحْلًا^(٢)
تَقِي اللَّهَ لَا تَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ يَا فَكِي وَمَا خِلْتُنِي بِالْحَجِّ مُلْتَمِسًا وَضَلًا
فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَى وَإِنْ شَطَّتِ النَّوَى عَرَانِيَهُنَّ الشَّمَّ وَالْأَعْيْنَ التُّجْلًا^(٣)
وَلَا الْمِنْكَ فِي أَعْرَافِهِنَّ وَلَا الْبُرَى جَوَاعِلَ فِي أَوْسَاطِهَا قَصَبًا خَدَلًا^(٤)
خَلِيلِي لَا وَاللَّهِ مَا قُلْتُ مَرْحَبًا لِأَوَّلِ شِيَّاتٍ طَلَعْنَ وَلَا أَهْلًا
خَلِيلِي إِنَّ الشَّيْبَ دَاءٌ كَرِهْتُهُ فَمَا أَحْسَنَ الْمَرْعَى وَمَا أَقْبَحَ الْمَحَلَّ

قال مجالد: فكتبت الشعر، ثم قلنا للشعبي: من يقوله؟ فسكت، فحسبنا أنه قائله.

[المراثي التي قيلت على قبر عمرو بن حممة الدوسي]

قال الشَّرْقِيُّ بن القَطَّامي: لما مات عمرو بن حُمَمَةَ الدَّوْسِي - وكان أحد من تتحاكم العربُ إليه - مرَّ بقبره ثلاثة نفر من أهل المدينة قادمين من الشام: الهذم بن أمريء القيس بن الحارث بن زيد، وهو أبو كلثوم بن الهذم الذي نزل عليه النبي ﷺ، وعتيك بن قيس بن هَيْشَةَ بن أمية بن معاوية، وحاطب بن قيس بن هَيْشَةَ بن معاوية. وحاطب بن هَيْشَةَ الذي كانت بسية حرب حاطب، فَعَقَرُوا رَوَاحِلَهُمْ عَلَى قَبْرِهِ، وَقَامَ الْهَذَمُ فَقَالَ:

لَقَدْ ضَمَّتِ الْأَثْرَاءُ مِنْكَ مُرَرًّا عَظِيمَ رَمَادِ النَّارِ مُشْتَرِكَ الْقِنْدَرِ^(٥)

(١) في رواية: «ولا سرفاً مني المقال».

(٢) المهديبة السحل: الثياب البيض، واحدها سحيل.

(٣) الْأَعْيْنَ التُّجْلُ: الحساء الواسعة.

(٤) الْبُرَى: جمع بُرَّة، وهي الخلخال. وَخَدَلٌ خَدَلًا، وَخَدَالَةٌ، وَخَدُولًا: امتلاء، ويقال: خَدِلْتُ المرأة، وَخَدِلْتُ السَّاقَ، وَخَدِلْتُ الذَّرَاعَ، فهو أَخْدِل، وهي خَدَلَاء.

(٥) الْأَثْرَاءُ: جمع ثَرَى، وهو التراب الندي، وقيل: هو التراب الذي إذا بُلَّ لم يصير طيناً لازباً.

إِذَا قُلْتَ لَمْ تَشْرُكَ مَقَالاً لِقَائِلِ
حَلِيمًا إِذَا مَا الْحِلْمُ كَانَ حَزَامَةً
لِيَبْكِكَ مَنْ كَانَتْ حَيَاتُكَ عِزَّهُ
سَقَى الْأَرْضَ ذَاتَ الطُّولِ وَالْعَرْضِ مُثْجَمٌ
وَمَا بِي سَقِيَا الْأَرْضِ لَكِنَّ تَرَبَةً
وَقَامَ عَتِيقُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ:

بِرَغْمِ الثَّلَا وَالْجُودِ وَالْمَجْدِ وَالتَّنْدِي
لَقَدْ غَالَ صَرْفُ الدَّهْرِ مِنْكَ مُرْزَأً
يَضُمُّ الْعُقَاةَ الطَّارِقِينَ فَنَاوُهُ
وَيَسْرُو دُجَا الْهَيْجَا مَضَاءً عَزِيمَةً
وَيُسْتَهْزَمُ الْجَيْشُ الْعَرْمَرُمُ بِاسْمِهِ
فَلِإِذَا تُصِيبُنَا الْحَادِثَاتُ يَنْكَبَةُ
فَلَا تَبْعَدَنَّ إِنْ الْحُتُوفَ مَوَارِدُ
وَقَامَ حَاطِبُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ:

سَلَامٌ عَلَى الْقَبْرِ الَّذِي ضَمَّ أَعْظَمًا
سَلَامٌ عَلَيْهِ كُلَّمَا دَرَّ شَارِقُ
[فِيَا قَبْرَ عَمْرٍو جَادَ أَرْضًا تَعَطَّقَتْ
تَحُومُ الْمَعَالِي نَحْوَهُ فَتَسَلَّمُ
وَمَا امْتَدَّ قَطْعٌ مِنْ دُجَى اللَّيْلِ مُظْلِمٌ
عَلَيْكَ مُلْكٌ دَائِمُ الْقَطْرِ مُرْزَمٌ^(١٠)

(١) الحزامة: الضبط، والإتقان.

(٢) مُثْجَمٌ: سريع المطر دَائِمُهُ. يقال: أُنْجِمت السماء: أسرع مطرها ودام. واهي العرى: ضعيفها.

(٣) غَالَهُ غَوْلًا: أَهْلَكَهُ.

(٤) الْعُقَاةُ: طَالِبُو الْمَعْرُوفِ. الْفَنَاءُ: سَاحَةُ الدَّارِ.

(٥) الْغِيَاظِلُ: جَمْعُ غِيْظَلٍ: الظِّلْمَةُ.

(٦) جَيْشٌ عَرْمَرُمٌ: كَثِيرُ الْعِدَدِ. الصَّوَاهِلُ: جَمْعُ صَاحِلٍ، وَالْمُرَادُ الْأَحْصَنَةُ.

(٧) الضَّابِلُ: جَمْعُ ضَبْلٍ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ.

(٨) الْحُتُوفُ: جَمْعُ حُتَفٍ، وَهُوَ الْهَلَاكُ. وَغَيْرُ وَائِلٍ: غَيْرُ نَاجٍ.

(٩) كُلَّمَا دَرَّ شَارِقٌ: أَيُّ كُلَّمَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، أَوْ كُلَّمَا أَسْفَرَ الصَّحْجُ.

(١٠) مُلْكٌ يُقَالُ: لَيْتَ الْمَطَرُ دَامَ أَيَّامًا لَا يَقْلَعُ. مُرْزَمٌ: يُقَالُ: أَرَزَمَ الرِّعْدُ: اشْتَدَّ صَوْتُهُ، وَرَزَمَ =

تَضَمَّنَتْ جَنماً طَابَ حَيًّا وَمَيِّتاً فَأَنْتَ بِمَا ضُمَّنْتَ فِي الْأَرْضِ مُعْلَمٌ
 فَلَوْ نَطَقَتْ أَرْضٌ لَقَالَ تَرَائِبُهَا إِلَى قَبْرِ عَمْرٍو الْأَزْدِ حَلَّ النَكَرُمِ
 إِلَى مَرْمَسٍ قَدْ حَلَّ بَيْنَ تَرَائِبِهِ وَأَحْجَارِهِ بَذْرٌ وَأَضْبَطَ ضَبْغُمُ^(١)
 فَلَا يَبْعِدُنْكَ اللَّهُ حَيًّا وَمَيِّتاً فَقَدْ كُنْتَ نَوْرَ الْخَطْبِ وَالْخَطْبُ مُظْلِمٌ
 لَعَمْرُ الَّذِي حُطَّتْ إِلَيْهِ عَلَى الْوَنَا حَدَايِيرُ عَوْجٍ نَيْهَا مُتَهَمٌ^(٢)
 لَقَدْ هَدَمَ الْعِلْيَاءَ مَوْنُكَ جَانِباً وَكَانَ قَدِيماً رُكْنُهَا لَا يَهْدَمُ

[بلاغة الأعراب]

أعرابي يصف قومه

قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يذكر قومه فقال: كانوا إذا اصطَفَوْا تحت الفَتَامِ، مطرت بينهم السهام، بشُؤْبُوبِ الْحِمَامِ^(٣)، وإذا تصافحوا بالسيوف، فغرت أفواهها الحُتُوفُ، فرب فَرْنٍ عَارِمٍ قد أحسنوا أدبه، وحَرْبٍ عبوسٍ قد أضحكها أَسْتَهْمُ، وخطب مُشْمِزٍ ذَلَّلُوا مناكبه، ويوم عَمَاسٍ^(٤) قد كشفوا ظُلْمَتَهُ بالصبر حتى تتجلى. كانوا البحر لا يُنْكَشُ عُمَارُهُ^(٥)، ولا يَنْهَنُ تِيَارُهُ.

أعرابي يصف حاله عند الموت

قال العتبي: سئل أعرابي عن حاله [عند موته] فقال: أجدني مأخوذاً بالثقلِ، مَحْجُوجاً بالمهلة، أفارق ما جمعت، وأقدم على ما ضيَّعت، فيا حياي من كريم قدَّم المعذرة، وأطال النَّظْرَةَ^(٦)، وإن لم يتداركني بالمغفرة، ثم قضى.

= الشناء، برد، والرَّزْمُ: الغيث الذي لا يقطع رعده.

(١) الضيغم: من أسماء الأسد.

(٢) الوَتَى: الفتور، والضعف، والكلال، والإعياء. الحدايير: جمع جذبار، أو جذبير، وهي الناقة

الضامرة التي ييس لحمها من الهزال ويدت حراقفها، وقيل: هي الناقة المعجاء الظهر. والعُوج:

جمع عوجاء، وهي الناقة التي عجمت فاعوج ظهرها، وناقة عاتجة: لينة الأعطاف.

(٣) القتام: الغبار الذي ثيره الخيل في المعركة. الشؤبوب: الدفعة من المطر.

(٤) يوم عماس: شديد، والعماس: كل أمر شديد لا يُدْرَى من أين يُؤْتَى له، والحرب الشديدة.

(٥) نكش الشيء نكشاً: أخرج ما فيه، يقال: هذه بئر لا تُنْكَش: لا تُتْرَح، وفلان بحر لا يُنْكَش: لا يَنْقُذُ كَرْمُهُ.

(٦) النظرة: التأخير والتأجيل.

الإخوان ثلاثة

وقال بعضُ الرواة: كان يقال: الإخوان ثلاثة: أخ يخلصُ لك وُدّه، ويبلغُ لك في مهْمَتِكَ جُهدَه، وأخ ذو نِيَّةٍ يقتصرُ بك على حسن نيته، دون رِفْدِهِ^(١) ومعونته، وأخ يجاملك بلسانه، ويشغلُ عنك بشأنه، ويوسّعُك من كذبه بأيمانه.

أعرابية تسأل

قال إسحاق بن الموصلي: وقفت علينا أعرابية فقالت: يا قوم، تعثر بنا الدهر، إذ قلّ منا الشكر، وفارقنا الغنى، وحالفنا الفقر، فرحم الله امرأً فهم بعقلٍ، وأعطى من فضلٍ، ووَاسَى مِنْ كَفَافٍ، وأعان على عَفَافٍ.

[ذَلِ السُّؤَالِ]

قال أبو بكر الحنفي: حضرتُ مسجدَ الجماعة بالكوفة، وقام سائلٌ يتكلم عند صلاة الظهر ثم عند العصر والمغرب، فلم يُعْطَ شيئاً. فقال: اللهم إنك بحاجتي عالم غير معلّم، واسع غير مكلف، وأنت الذي لا يرزؤك نائل، ولا يُحْفِيكَ^(٢) سائل، ولا ييل، مِدْحَتَكَ قائل، أنت كما قال المُثَنُّون، وفوق ما يقولون، أسألك صبراً جميلاً، وفرجاً قريباً، ونَصْراً بالهدى، وقرّة عين فيما تحب وترضى، ثم وَلَّى لينصرف، فابتدره الناس يعطونه، فلم يأخذ شيئاً، ثم مضى وهو يقول:

مَا اعْتَصَصَ بِاذِلٍّ وَجْهِهِ بِسُؤَالِهِ عِوَضاً، وَلَوْ نَالَ الْغِنَى بِسُؤَالِ
وَإِذَا السُّؤَالُ مَعَ النَّوَالِ وَزَنَّتْهُ رَجَحَ السُّؤَالُ وَخَفَّتْ كُلُّ نَوَالِ

[من مقامات بديع الزمان]

المقامة الأهوازية (المكفوفية)

ومن مقامات الإسكندري إنشاء البديع: حدّثنا عيسى بن هشام قال: كنت في بلاد الأهواز، وقصّاراي لفظة شرود أصيدها، أو كلمة بليغة أستفيدها؛ فأداني السير إلى رُقْعَةٍ [من البلاد] فسيحة، وإذا هناك قومٌ مجتمعون على رجل يستمعون إليه وهو يخطب الأرض بعصاً

(١) الرُّفْدُ: العطاء.

(٢) لا يحفيك: لا يثقل عليك.

على إيقاع لا يختلف، وعلمت أن مع الإيقاع لحناً، ولم أبعدُ لأنال من السماع حظاً، أو أسمع من البليغ لفظاً، فما زلتُ بالنظارة، أرحم هذا وأدفعُ ذلك، حتى وصلتُ إلى الرجل، وصرفت الطرف منه إلى حُرْقَةٍ كَالْقَرْنَبِ^(١)، مكفوف في شَمْلَةٍ من صوف، يدور كالخُذروف^(٢)، مُتَبَرِّناً بِأَطْوَلَ منه^(٣)، مُعْتَمِداً على عصاً فيها جلاجل^(٤)، يَضْرِبُ الأرض بها على إيقاع غنج، ولفظٍ هزج، من صدرٍ حرج، وهو يقول:

يا قومُ قَدْ أَثْقَلَ دَيْنِي ظَهْرِي	وَطالِبَتْنِي طَلَّتِي بِالْمَهْرِ ^(٥)
أَصْبَحْتُ مِنْ بَعْدِ غَنَى وَوَفْرِ	سَاكِنَ قَفَرٍ وَحَلِيفَ فَقْرِ
يا قومُ هَلْ يَبْكُكُمْ مِنْ حُرٍّ	يُعِينُنِي عَلَى صُرُوفِ الدَّهْرِ
يا قومُ قَدْ عِيلَ بِفَقْرِي صَبْرِي	وَانْكَشَفْتُ عَنِّي ذِيوُ السُّتْرِ
وَفَضَّ ذَا الدَّهْرِ بِأَيْدِي الْبَشْرِ	مَا كَانَ لِي مِنْ فَضَّةٍ وَتَبْرِ
أَوَى إِلَى يَبَسٍ كَقَيْدِ الشُّبْرِ	خَامِلَ قَنْدَرٍ وَصَغِيرَ قَنْدَرٍ ^(٦)
لَوْ خَتَمَ اللَّهُ بِخَيْرٍ أَمْرِي	أَعْقَبَنِي مِنْ عُشْرَةِ بُشْرِ
هَلْ مِنْ فَتَى فِيكُمْ كَرِيمُ النَّجْرِ	مُحْتَسِبٌ فِي عَظِيمِ الْأَجْرِ ^(٧)

إِنْ لَمْ يَكُنْ مُغْتَمِماً لِلشُّكْرِ

قال عيسى بن هشام: فرقَ له والله قلبي، واغرورقت عيني، وما لبثت أن أعطيته ديناراً كان معي، فأنشأ يقول:

يا حُسَنَاهَا فَاقِعَةٌ صَفَرَاءُ	مَعْشُوقَةٌ مَنُوشَةٌ قَوْرَاءُ
يكسَادُ أَنْ يَقْطُرَ مِنْهَا الْمَاءُ	قَدْ أَثْمَسَرَتْهَا هِمَّةٌ عَلِيَاءُ
نَفْسٌ فَتَى يَمْلِكُهُ السَّخَاءُ	يَصْرِفُهُ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ

(١) الحُرْقَة: القصير المتقارب الخطو. والقرب: اليربوع أو الفأرة.

(٢) الخذروف: لعبة من لعب الصبيان.

(٣) تَبَرَّنَسَ فلان: لبس البرنس، وهو كل ثوب رأسه منه، مُلتزق به، أو قلنسوة طويلة.

(٤) الجلاجل: جمع جُلجل، وهو الجرس الصغير.

(٥) الطَّلَّة: الزَّوْجَة.

(٦) قيد الشبر: قدره.

(٧) النَّجْرُ: الأصل.

يَا ذَا السَّذِيِّ يَغْنِيهِ ذَا الثَّنَاءِ مَا يَقْصِي قَدْرَكَ الْإِطْرَاءُ^(١)

فَامْضِ عَلَى اللَّهِ لَكَ الْجَزَاءُ

ورحم الله من شدها في قرن بمثلها، وأنسها بأختها، فناله الناس ما نالوه^(٢)؛ ثم فارقه وتبعته، وعلمت أنه متعام لسرعة ما عرف الدينار، فلما نظمتا خلوة مددت يميني إلى يسرى عضديه، وقلت: والله لتريني سرك، أو لأكشفن سرك؛ فكشف عن توأمتي لوز^(٣)، وحدرت لثامه، فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فقلت: أنت أبو الفتح؟ فقال: لا.

أَنَا أَبُو قَلَمُونَ	فِي كُسْلٍ لَسُونُ أَكُونُ
اخْتَرُ مِنَ الْكَنْبِ دُونَا	فَإِنْ دَهْرَكَ دُونَ
زَجَّ الزَّمَانُ بِحُمُوقِي	إِنَّ الزَّمَانَ زَبُونُ
لَا تَخْذَعَنَّ بِعَقْلِي	مَا الْعَقْلُ إِلَّا الْجَنُونُ

[من شعر كشاجم]

وقال أبو الفتح كشاجم:

مَا زَالَ حَرُّ الشَّوْقِ يَغْلِبُ صَبْرَهَا	حَتَّى تَحْدَرَ دَمْعُهَا الْمُتَعَلِّقُ
وَجَرَى مِنَ الْكُحْلِ السَّحِيقِ بِخَدِّهَا	خَطٌّ تُؤَثِّرُهُ الدَّمُوعُ الشَّبَقُ
فَكَانَ مَجْرَى الدَّمْعِ حَلِيَّةُ فِضَّةٍ	فِي بَعْضِهِ ذَهَبٌ وَبَعْضُ مُحَرَّقُ

وقال:

مَا لِسَدَّةٍ أَكْمَلُ فِي طِيهَا	مِنْ قُبْلَةٍ فِي إِثْرَهَا عَضَّة
كَأَنَّمَا تَأْيِيرَهَا لَمْعَةٌ	مِنْ ذَهَبٍ أُجْرِي فِي فِضَّة
خَلَسَتْهَا بِالْكُورِ مِنْ شَادِنٍ	يَعْشَقُ بَعْضِي بِالْمَتَى بَعْضُهُ ^(٤)

(١) أطراه: أحسن الثناء عليه، وبالغ فيه.

(٢) ناله الناس: أعطوه.

(٣) توأمتي لوز: كناية عن حدة عينه.

(٤) الشادين: ولد الظبية الذي قوي واشتد واستغنى عن أمه.

وقال:

وَمُسْتَهْجِنٍ مَدْحِي لَهُ إِنْ تَأَكَّدَتْ لَهُ عَقْدُ الْإِخْلَاصِ، وَالْحُرُّ يُمَدِّحُ^(١)
وَيَسْأَلِي الَّذِي فِي الْقَلْبِ إِلَّا تَيَّنَا وَكُلَّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ بَرَشَّحُ

وقال:

وَإِذَا افْتَحَرْتَ بِأَعْظَمِ مَقْبُورَةٍ فَالْإِنْسُ بَيْنَ مُكَذِّبٍ وَمُصَدِّقٍ
فَأَقِمْ لِنَفْسِكَ فِي انْتِسَابِكَ شَاهِدًا بِحَدِيثِ مَجْدٍ لِلْقَدِيمِ مُحَقِّقٍ

وقال:

يَا مُنْدِيَّ الْعُرْفِ إِسْرَارًا وَإِعْلَانًا وَمُتَّبِعَ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا^(٢)
أَقْلِعْ سَحَابَكَ قَدْ غَرَّقْتَنِي نَعْمًا مَا أَدْمَنَ الْغَيْثُ إِلَّا كَانَ طُوفَانًا^(٣)
هذا مولد من قول أبي نواس^(٤):

لَا تُسَدِّدَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا^(٥)
البحري^(٦):

الْحَجَّ جُودًا وَلَمْ تَضُرُّ سَحَابُهُ وَرُبَّمَا ضَرَّ فِي الْإِحْسَانِ الْمَطَرُ
مَوَاهِبُ مَا تَجَشَّمْنَا الشُّوَالَ لَهَا إِنَّ الْغَمَامَ قَلِيبٌ لَيْسَ يُحَقَّرُ^(٧)
وقد أُخِذَ عَلَى ذِي الرِّمَّةِ قَوْلُهُ^(٨):

(١) استهجن الشيء: استقبجه.

(٢) المُنْدِي: المعطي، وأسدى: أعطى. والعُرْفُ: المعروف.

(٣) أقلع سحابك: أي اقطع معروفك وعطاءك. وأدمن: دام وتتابع.

(٤) أبو نواس، الديوان: ص ٤٣٣. والبيت من قصيدة يمدح بها العباس بن عبيد الله، ومطلعها:

حَلَّتْ سَعْدًا وَأَهْلَهَا سَرَفًا قَوْمًا عِدَى وَمَحَلَّةً قَدْ نَا

(٥) العارفة: الإحسان، الجمع عوارف.

(٦) البحري، الديوان: ٣٠٩/٢. والبيتان من قصيدة يمدح بها علي بن مرّ الأرمني.

(٧) تجشمتا: تكلفنا. القليب: البشر.

(٨) عاب عليه فدامة بن جعفر عدم الاحتراس في قوله: «ألا يا أسلمي...» وَرَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِأَنَّ

الشاعر قَدَّم الدِّعَاءَ بِالسَّلَامَةِ لِلدَّارِ فِي أَوَّلِ الْبَيْتِ، فَأَتَى بِالْإِحْتِرَاسِ الْمَطْلُوبِ. (انظر

العمدة: ٥١/٢).

أَلَا يَا إِسْلَمِي يَا دَارِمِي عَلَى الْبَلَى وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجَرَعَائِكَ الْقَطَرُ^(١)
قالوا: وأحسن منه قول طرفة^(٢):

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ الرِّيعِ وَدِيمَةُ تَهْمِي^(٣)
وقد تحرز ذو الرمة مما تؤول عليه بالسلامة في أول البيت.
وقال كشاجم:

أَيَا نَشْوَانَ مِنْ خَمَرٍ بِفِيهِ مَتَى تَصْحُو وَرَيْقُكَ خَنْدَرِيْسُ^(٤)
أَرَى بِكَ مَا أَرَاهُ بِذِي انْتِشَاءٍ أَلَحَّ عَلَيْهِ بِالْكَاسِ الْجَلِيْسُ
تَوَرَّدُ وَجَنَّةٍ وَفُتُورٌ لِحَظٍ تَمُرُّضُهُ وَأَعْطَافٌ تَمِيْسُ^(٥)
وقال:

وَمَا زَالَ يَبْرِي جُمْلَةَ الْجِسْمِ حُبُّهَا وَنُقْصُهُ حَتَّى نَقَصْتُ عَنِ النَّقْصِ^(٦)
وَقَدْ ذُبْتُ حَتَّى صِرْتُ إِنْ أَنَا زُرْتُهَا أَمِنْتُ عَلَيْهَا أَنْ يَرَى أَهْلُهَا شَخْصِي

[الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره]

كتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء: نَبْتُ بِي غَرَّةُ الْحَدَاثَةِ، فَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ التَّجَرِبَةُ، وَقَادَّتْنِي الضَّرُورَةُ، ثِقَّةٌ بِإِسْرَاعِكَ إِلَيَّ وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ، وَقَبُولِكَ الْعَذْرَ، وَإِنْ قَصُرْتُ عَنْ

- (١) مُنْهَلًا: متساقطًا. الجرعاء: الرملة المستوية لا تنبت شيئًا. والقطر: المطر.
- (٢) طرفة بن العبد، الديوان: ص ٨٨. والبيت من قصيدة يهدد بها المسيب بن علس، ويمدح قتادة بن مسلمة الحنفي، وكان قد أصاب قوم طرفة سنة فأتوه، فبذل لهم. وقادة هذا من أجواد العرب، وكان يلقب بنيث الضريك، وَضُرِبَ بِهِ الْمَثَلُ؛ فَقِيلَ: أَقْرَى مِنْ غَيْثِ الضَّرِيكِ.
- (٣) الصوب: المطر. الديمة: السحاب يدوم مطره. وقوله: غير مفسدها: احتراس للديار، من أن تضدها كثرة المطر. ومثله قول جرير:
فَسَقَاكَ - حَيْثُ حَلَلْتَ غَيْرَ فَقِيدَةٍ - هَزَجُ الزَّوْاجِ وَدِيمَةُ لَا تُقْلِعُ
(ديوانه: ص ٢٦٨). وقوله: «غير فقيدة» تميم لما أراد من دنوها وسقياها غير راحلة ولا مبة، إذ كانت العادة أن يُدعى للغائب الميت بالمقي؛ فاحترس من ذلك.
- (٤) الخندريس: الخمر.
- (٥) ماس فلان ميسًا وميسانًا: تبخر واختال.
- (٦) يبري: ينحل، ويهزل، ويضعف.

واجبك، وإن كانت ذنوبي سَدَّتْ عليّ مسالك الصّبح عني، فراجعْ فيّ مجدك وسؤددك،
وإني لا أعرف موقفاً أذلّ من موقفي، لولا أنّ المخاطبة فيه لك، ولا خطّة أدنى من خطّتي،
لولا أنها في طلب رضاك.

وهذا المعنى الذي ذهب إليه من الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره قد أكثر الناس
منه قديماً وحديثاً وسأفيض في طرفٍ من ذلك.

أنشد أبو عبيدة لزياد بن مُثَنَّد الحنظلي، وهو أخو [المرار العدوي، نسب إلى أمّه
العدوية، وهي فُكَيْهَة بنت تميم بن الدَّوْل بن جَبَلَة بن عدي بن] عبد مناة بن أد بن طابخة؛
فولدت لمالك بن حنظلة عدنياً ويريوعاً؛ فهؤلاء من ولده يقال لهم: [بنو] العدوية، وكان
زيادٌ نزل بِصَنْعَاء فاجتواها^(١) ومنزله بنجد، فقال في ذلك قصيدة يقول فيها وذكرَ قومه:

مُخَدَّمُونَ ثِقَالٌ فِي مَجَالِسِهِمْ وَفِي الرِّحَالِ إِذَا صَاحَبْتَهُمْ خَدَمٌ^(٢)
لَمْ أَلْقَ بَعْدَهُمْ حَيًّا فَأَخِيرَهُمْ إِلَّا يَزِيدُهُمْ جُبًّا إِلْسِي هُمْ
وأراه أول من استثار هذا المعنى.

وكان ابن أبي عَرَادَة السعدي مع سلم بن زيادة بخراسان وكان له مُكْرِمًا فتركه وصحب
غيره فلم يحمد أمره، فرجع إليه، فقال:

عَبَيْتُ عَلَى سَلَمٍ فَلَمَّا فَقَدْتُهُ وَجَرَيْتُ أَفْوَامًا بَكَيْتُ عَلَى سَلَمٍ
رَجَعْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ تَجْرِبٍ غَيْرِهِ فَكَانَ كَبْرَاءَ بَعْدَ طَوْلِ مِنَ السُّقَمِ
وقال مسلم بن الوليد:

حَيَاتِكَ يَا بَنَ سَعْدَانَ بَنَ يَحْيَى حَيَاةً لِلْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِسِي
جَلَبْتُ لَكَ الثَّنَاءَ فَجَاءَ عَفْوًا وَنَفْسُ الشُّكْرِ مُطْلَقَةُ الْعَقَالِ^(٣)
وَتُرْجِعُنِي إِلَيْكَ - وَإِنْ نَأَتْ بِي دِيَارِي عَنْكَ - تَجْرِبَةُ الرِّجَالِ

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد للبحري^(٤):

(١) اجتواها: كرهها واستوخمها.

(٢) مخدّمون: يكثر غيرهم خدمتهم. وثقال في مجالسهم: كناية عن الحلم والنبات.

(٣) العقال: الحبل الذي يُعْقَل به البعير، استعاره للنفس الشاكرة.

(٤) لم نجد هذين البيتين في ديوان البحري.

أَخْ لَكَ عَادَاهُ الزَّمَانُ فَأَصْبَحْتُ مَذْمُومَةً فِيمَا لَدَيْهِ الْمَطَالِبُ
مَتَى مَا تُذَوِّقُهُ التَّجَارِبُ صَاحِباً مَنِ النَّاسِ نَرُدُّهُ إِلَيْكَ التَّجَارِبُ
وَأُنْشِدُ:

حَيَاةُ أَبِي الْعَبَّاسِ زَيْنٌ لِقَسُومِهِ لِكُلِّ امْرِئٍ قَاسَى الْأُمُورِ وَجَرَباً
وَنَعْتِبُ أَحِبَّاناً عَلَيْهِ وَلَوْ مَقْصَى لَكُنَّا عَلَى الْبَاقِي مِنَ النَّاسِ أُعْتَبَا^(١)

قال الصولي: جرى ذِكْرُ المكتفي بحضرة الراضي فأطريته وأكثرُ الثناء عليه، فقال لي: يا صولي؛ كنت أنشدتني لجرير^(٢):

أُسْلِيكَ عَنْ زَيْدٍ لِنَسْلَى، وَقَدْ أَرَى بَعَيْنُكَ مِنْ زَيْدٍ قَدْ لَيْسَ يَسْرُحُ
فقلت: يا أمير المؤمنين، مَنْ شَكَرَ القليل كان للكثير أشدَّ شكراً، وأعظم ذكراً، قال: فأين أنا لك من المكتفي؟ فأُنشدته للطائي^(٣):

كَمْ مِنْ وَسَّاعِ الْجُودِ عِنْدِي وَالنَّدَى لَمَّا جَرَى وَجَرِيَتْ كَانَ قَطُوفاً^(٤)
أَحْسَتْهَا صَدِّي، وَلَكِنْ كُنْتُ لِي مِثْلَ الرِّبْعِ حَيّاً وَكَانَ خَرِيفاً^(٥)
وَكِلَا كَمَا اقْتَعَدَ الْعُلَا فَرَكِبَتْهَا فِي الدَّرْوَةِ الْعُلْيَا وَجَاءَ رَدِيفاً^(٦)
إِنْ غَاضَ مَاءُ الْمَزْنِ فِضَّتْ، وَإِنْ قَسَتْ كَبِدُ الزَّمَانِ عَلَيَّ كُنْتُ رَوْوفاً^(٧)

وكان المكتفي أول من نادى الصولي، واختلط به.

من اسمه علي ممن استخلف

ولم يل الخلافة أحد اسمه علي إلا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وعلي بن

(١) اعتبا: أشدَّ عتبا.

(٢) لم نجد هذا البيت في ديوان جرير.

(٣) أبو تمام، الديوان: ٤٢٥/١، والأبيات من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف، ويُعرِّض بقائده ولي الثغور مكانه، وكان ناسكاً فهُزِمَ.

(٤) الوساع: المُسَّعِ الخطوط. القُطُوف: المتقارب الخطوط.

(٥) الصَّفْدُ: العطية. الربيع: أي مطر الربيع. الخريف مطر الخريف.

(٦) اقتعد العلي: جعل العلي راحلة أو فرساً ركبها الممدوح، وجاء الآخر رديفاً، أي تابعاً.

(٧) غاض الماء: غار. المَزْنُ: السحاب.

المعتضد المكتفي بالله، وكان سبب اتصاله به وانقطاعه إليه أن رجلاً يعرف بمحمد بن أحمد الماوردي نزع إلى المكتفي بالرقّة، وكان ألعب الناس بالشطرنج، فلما قدم عليه بغداد وهو خليفة قال: يا أمير المؤمنين، أنا أعلم الناس بهذه الصناعة، فأقطعني ما كان للرازي الشطرنجي؛ فغاض ذلك المكتفي، وندب له الصولي فلم يُرَ معه الماوردي شيئاً. فقال له المكتفي: صار ماء وردك بولاً، قال الصولي: فأقبل المكتفي عليّ ورثني في الجلساء، فحجبت يوماً عنه، واتصل بي أن خصمي شئت بي، فكتببت قصيدة للمكتفي أقول فيها:

قَدْ سَاءَ ظَنُّ النَّاسِ بِي وَتَنَكَّرُوا لَمَّا رَأَوْنِي دُونَ غَيْرِي أُحْجَبُ
إِنْ كَانَ عَلَيْهِ يُقَرِّبُ أَمْرَهُ دُونِي فَإِنِّي عَنْ قَرِيبٍ أُغْلَبُ

فضحك، وأمر لي بمائتي دينار، وأندرجت في خدمته.

[في بيعة يزيد بن معاوية]

اجتمعت وفود العرب عند معاوية رحمه الله تعالى، وكان إذا أراد أن يفعل شيئاً ألقى منه ذراً إلى الناس^(١)، فإذا امتنعوا كف، وإن رضوا أمضى، فعرض بيعة يزيد، فقامت خطباء معدّ فشققوا الكلام، وأطنبوا في الخطاب، فوثب شاب من غسان قابضاً على قائم سيفه، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إِنَّ الْحَيْفَ فِي حَكْمِ السَّيْفِ^(٢)، وبعد النسيم الهَيْفَ^(٣)؛ فَإِنْ هَؤُلَاءِ عَجَزُوا عَنِ الصِّيَالِ، فَعُولُوا عَلَى الْمَقَالِ، ونحن القاتلون إذا صُلْنَا، والمعجبون إذا قلْنَا، فمن مال عن الْقَصْدِ أَقْمَنَاهُ، ومن قال بغير الحقِّ وَقَمْنَاهُ^(٤)، فليُنْظَرِ نَاطِرٌ إِلَى مَوْطِئِ قَدَمِهِ، قبل أن تَدْخُضَ فِيهِ هَوْيُ الْحَجَرِ مِنْ رَأْسِ النَّيْقِ^(٥)؛ فَتَفْرَقَ النَّاسُ عَنْ قَوْلِهِ، وَنَسُوا ما كانوا فيه من الخطب.

[في الإقدام حياة]

وقال المهلب يوماً لجلسائه: أراكم تعتفونني في الإقدام، قالوا له: إي والله، إنك

- (١) ذراً: أي شيئاً منه.
- (٢) الحيف: الظلم والجور.
- (٣) الهيف: الريح الحارة.
- (٤) وقمناه: قهرناه وأذللناه.
- (٥) النيق: أرفع موضع في الجبل.

لَسَقُوطُ بِنَفْسِكَ فِي الْمَهَالِكِ، قَالَ: إِلَيْكُمْ عَنِي! فَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ آتَى الْمَوْتَ مُسْتَرْسِلاً، لِأَتَانِي مُسْتَعْجِلاً؛ إِنِّي لَسْتُ آتَى الْمَوْتَ مِنْ حُبِّهِ، إِنَّمَا آتَيْهِ مِنْ بُغْضِهِ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْحُصَيْنِ بْنِ الْحَمَامِ الْمَرِي:

[تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدِّمًا

وَمِنْ هَذَا أَخَذَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِيُّ قَوْلَهُ^(١):

أَرَى كُلَّنَا يَهْوَى الْحَيَاةَ لِنَفْسِهِ فَحُبُّ الْجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الثُّقَى
حَرِيصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَبًا^(٢) وَحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الْحَرَبَا^(٣)

وَقَالَ أَبُو دَلْفٍ:

الْحَرْبُ تَضَحُّكَ عَنْ كَرِّي وَإِقْدَامِي سَيْفِي مُدَامِي، وَرِيحَانِي مُثَقِّفِي،
وَالْخَيْلُ تَعْرِفُ أَثَارِي وَأَيَّامِي وَهَمَّتِي مَقَّةُ التَّفْصِيلِ لِلْهَامِ^(٤)
وَقَدْ تَجَرَّدَ لِي بِالْحُسْنِ مُفْرَدًا أَمْضَى وَأَشْجَعَ مِنِّي يَوْمَ إِقْدَامِي
سَلَّتْ لِسَوَاحِظِهِ سَيْفَ التَّقَامِ عَلَى جِسْمِي فَأَصْبَحَ جِسْمِي رُبْعَ أَسْقَامِ

[مِنْ أَخْبَارِ أَبِي دَلْفٍ وَشَعْرِهِ]

وَكَانَ أَبُو دَلْفٍ شَاعِراً مَجِيداً، وَجَوَاداً كَرِيماً جَامِعاً لآلَاتِ الْأَدَبِ وَالظَّرْفِ، وَلَهُ شَعْرٌ جَيِّدٌ فِي كُلِّ فَنٍّ، وَهُوَ الْقَائِلُ:

أَحْبَبْتُكَ يَا جَنَانٌ؛ فَأَنْتَ مِنِّي وَلَوْ أَنِّي أَقْسَوْتُ: مَكَانَ رُوحِي
مَحَلُّ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِ الْجَبَانِ لَخَفْتُ عَلَيْكَ بِأِدْرَةِ الزَّمَانِ^(٥)
لِإِقْدَامِي إِذَا مَا الْخَيْلُ جَالَتْ وَهَابَ كُمَاتُهَا حَرَّ الطَّعَانِ^(٦)

(١) الْمُتَنَبِّئِيُّ، الدِّيَوَانُ: ٨٩/٢. وَالبَيْتَانِ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْحَمْدَانِي، وَيَذْكُرُ بِنَاءَهُ، مَرَعَشَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةِ ٣٤١هـ/ ٩٥٢ م.

(٢) يَغْنِي، يَطْلُبُ. الْمُسْتَهَامُ: الَّذِي غَلِبَ عَلَيْهِ الْعَشْقُ فَخَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ. وَالصَّبُّ: الْعَاشِقُ.

(٣) فِي الدِّيَوَانِ: «أَوْرَدَهُ الْبَقَا» وَ«حُبُّ الشُّجَاعِ الْحَرْبُ».

(٤) الْمُثَقِّفَةُ: الْقَنَاطَةُ الرَّمَحُ، وَالْمَقَّةُ: الْمَحَبَّةُ. الْهَامُ: الرُّؤُوسُ.

(٥) الْبَادِرَةُ: الْغَضَبَةُ السَّرِيعَةُ.

(٦) الْكِمَامَةُ: جَمْعُ كِمٍّ، وَهُوَ الْفَارَسُ الْمُتَكِمِيُّ فِي سِلَاحِهِ، أَيْ الْمُسْتَر.

وكان يتعشق جارية ببغداد فإذا شخّص إلى الحضرة زارها، فركب في بعض قدماته إليها، فلما صار بالجسر مشى على طرف طيلسان بعض المازنين، فخرقه، فأخذ بعنانه، وقال: يا أبا دلف؛ ليست هذه كرخك، هذه مدينة السلام؛ الذنب والشاة بها في مَرَبَع واحد! فثنى عنانه متوجّهاً إلى الكرخ، وكتب إلى الجارية:

قَطَعْتَ عَنْ لِقَائِكَ الْأَشْغَالُ وَهَمُومٌ أَتَتْ عَلَيَّ ثِقَالُ
فِي بِلَادٍ يَهَانُ فِيهَا عَزِيزُ الدِّ قَوْمٌ حَتَّى تَنَالَهُ الْأَنْدَالُ
حَيْثُ لَا مَدْفَعُ بِسَيْفٍ عَنِ الضَّيِّدِ سَمٍ وَلَا لِلْكَفَاةِ فِيهِ مَجَالُ
وَمَقَامُ الْعَزِيزِ فِي بَلَدِ الْهُو نِ إِذَا أَمَكْنَ الرَّحِيلُ مُحَالُ
فَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا ظَنِيَّةَ الْكَرِّ خِ أَقْمَتُمْ وَحَانَ مِنَّا ارْتِحَالُ

ودخل أبودلف على المأمون بعد الرضا عنه، فسأله عن عبد الله بن طاهر، فقال: خَلَفْتُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِينَ غَيْبٍ، نَصِيحَ جَيْبٍ، أَسَدًا عَاتِيًا، قَائِمًا عَلَى بَرَائَتِهِ، يَسْعُدُ بِهِ وَلِيُّكَ،، وَيَشْفِي بِهِ عَدُوَّكَ، رَحَبَ الْفَنَاءِ لِأَهْلِ طَاعَتِكَ، ذَا بَأْسٍ شَدِيدٍ لِمَنْ زَاغَ عَنْ قَصْدِ مُحِبَّتِكَ، قَدْ فَقَّهَ الْحَزْمَ، وَأَيَقَظَ الْعَزْمَ، فقام في نحر الأمور على ساق التشمير، يثيرها بَأْيَدِهِ^(١) وَكَيْدِهِ، وَيَقْلَعُهَا بِحَدِّهِ وَجَدِّهِ؛ وما أشبه في الحرب إلا بقول العباس بن مرداس:

أَكْرُ عَلَى الْكَتِيئَةِ لَا أَبَالِي أَحْتَقِي كَانَ فِيهَا أَمْ سَوَاهَا

[فقال قائل: ما أفصحه على جَبَلَتِهِ! فقال المأمون: وإن بالجبل قوماً أمجاداً، كراماً أنجاداً، وإنهم لَيُؤْفِقُونَ السيفَ حظه يوم التَّوَالِ، والكلام حقّه يوم المقال، وإن أبا دلف منهم].

[من رسائل الميكالي]

فصل لأبي الفضل الميكالي من كتاب تعزية عن أبي العباس بن الإمام أبي الطيب.

لئن كانت الرزية بمصيبة مؤلمة، وطُرُقُ العزاء والسَّلَوةِ مبهمة، لقد حَلَّتْ بِسَاحَةِ مَنْ لَا تُنْقَضُ بِأَسَالِهَا مَرَاتِرُهُ، وَلَا تَضَعُفُ عَنْ أَحْتِمَالِهَا بَصَائِرُهُ، بَلْ يَتَلَقَّاهَا بِصَدْرِ فَسِيحٍ يَحْمِي أَنْ يَفْتَحَ الْحَزْنَ بَابَهُ، وَصَبْرٍ مُشِيحٍ يَحْمِي أَنْ يَحْبَطَ الْجَزَعُ أَجْرَهُ وَثَوَابَهُ، وَلَمْ لَا وَادَابُ الدِّينِ

(١) الْأَيْدُ: الْقُوَّة.

من عنده تُلْتَمَس، وأحكامُ الشرع من بَنَانِهِ ولسانه تُسْتَفَادُ وَتُقْتَبَسُ، والعيونُ تَرْمُقُهُ^(١) في هذه الحال لتَجْرِيَ على سَنَنِهِ، وتأخذُ بِآدَابِهِ وَسُنَنِهِ، فَإِنْ تَعَزَّتْ الْقُلُوبُ فَيَحْسُنِ تَمَاسِكَه عَزَاؤُهَا، وَإِنْ حَسُنَتْ الْأَفْعَالُ فَإِلَى حَمِيدِ أَعْمَالِهِ وَمَذَاهِبِهِ اعْتِرَاؤُهَا.

وله من تعزية إلى أبي عمرو البحتري: قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ، وَسَقَى ضَرْبِيهِ؛ فَلَقَدْ عَاشَ نَبِيَهُ الذُّكْرُ، جَلِيلَ الْقَدْرِ، عَبَقَ الثَّنَاءِ وَالنَّشْرِ، يَتَجَسَّلُ بِهِ أَهْلُ بَلَدِهِ، وَيَتَبَاهَى بِمَكَانِهِ ذُووُ مَوَدَّتِهِ، وَيَفْتَخِرُ الْأَثَرُ وَحَامِلُوهُ بِتَرَاحِيهِ بَقَائِهِ وَمُدَّتِهِ، حَتَّى إِذَا تَسَنَّمَ ذِرْوُهُ^(٢) الْفَضَائِلِ وَالْمَنَاقِبِ، وَظَهَرَتْ مُحَاسِنُهُ كَالنَّجُومِ الثَّوَابِقِ، اخْتَطَفَتْهُ يَدُ الْمِقْدَارِ، وَمُحِي أَثَرَهُ بَيْنَ الْآثَارِ، فَالْفَضْلُ خَاشِعٌ الطَّرْفِ لِفَقْدِهِ، وَالكَرَمُ خَالِي الرَّبْعِ مِنْ بَعْدِهِ، وَالْحَدِيثُ يَنْدُبُ حَافِظَهُ وَدَارِسَهُ، وَحُسْنُ الْعَهْدِ يَبْكِي كَافِلَهُ وَحَارِسَهُ.

وله: فَأَمَّا الشُّكْرُ الَّذِي أَعَارَنِي رِذَاءَهُ، وَقَلَّدَنِي طَوْفَهُ وَسَنَاءَهُ؛ فَهِيَاهُ يَتَسَبَّبُ إِلَّا إِلَى عَادَاتِ فَضْلِهِ وَإِفْضَالِهِ، وَلَا يَسِيرُ إِلَّا تَحْتَ رَايَاتِ عُرْفِهِ وَنَوَالِهِ، وَهُوَ ثَوْبٌ لَا يُحْلَى إِلَّا بِذِكْرِهِ طِرَازِهِ، وَاسْمٌ لَهُ حَقِيقَتُهُ وَلِسَوَاهُ مَجَازُهُ، وَلَوْ أَنَّهُ حِينَ مَلِكٍ رِقِّي بِأَيَادِيهِ، وَأَعْجَزَ وَسُيْعِي عَنْ حَقُوقِ مَكَارِمِهِ وَمُسَاعِيهِ، خَلَّى لِي مَذْهَبَ الشُّكْرِ وَمِيزَانَهُ، وَلَمْ يَجَازِبْنِي زَمَانُهُ وَعَنَانُهُ، لَتَعَلَّقْتُ عَنْ بُلُوغِ بَعْضِ الْوَاجِبِ بِعُرْوَةِ طَمَعٍ، وَنَهَضْتُ فِيهِ وَلَوْ عَلَى وَهْنٍ وَظَلَعٍ^(٣)، وَلَكِنَّهُ يَأْبَى إِلَّا أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَى أَمَدِ الْفَضَائِلِ، وَتَسَنَّمُ ذُرَاَ الْغَوَارِبِ مِنْهَا وَالْكُوَاهِلِ؛ فَلَا يَدْعُ فِي الْمَجْدِ غَايَةً إِلَّا يَسْبِقُ إِلَيْهَا فَارِطًا، وَيُخَلِّفُ مِنْ سِوَاهُ عَنْهَا حَسِيرًا سَاقِطًا؛ لِتَكُونَ الْمَعَالِي بِأَسْرِهَا مَجْمُوعَةً فِي مِلْكِهِ، مَنْظُومَةً فِي سِلْكِهِ، خَالِصَةً لَهُ مِنْ دَعْوَى الْقَسِيمِ وَشِرْكِهِ.

وله فصل من كتاب إلى أبي سعيد بن خلف الهمداني: فَأَمَّا التَّحْقِيقُ الَّذِي شَفَعَهَا بِكِتَابِهِ فَقَدْ وَصَلْتُ، فَكَانَتْ ضَرَّةَ لَزْهَرِ الرَّبِيعِ، مُؤَفِيَةً بِحُسْنِ الْخَطِّ عَلَى الْوَشْيِ الصَّنِيعِ، وَلَيْسَ يَهْتَدِي لِمِثْلِ هَذِهِ اللَّطَائِفِ فِي مَهَرَّةِ الْإِخْوَانِ، إِلَّا مَنْ يُعَدُّ مِنْ أَفْرَادِ الْأَقْرَانِ، وَلَا يَرْضَى مِنْ نَفْسِهِ فِي إِقَامَةِ شَعَائِرِ الْبِرِّ دُونَ الْقِرَانِ^(٤)، وَاللَّهُ يَمْتَعُهُ بِمَا مَنَحَهُ مِنْ خَصَائِصٍ هِيَ فِي آذَانِ الزَّمَانِ شُوفٌ^(٥)، وَفِي جِيدِهِ عَقْدٌ مَرْصُوفٌ.

(١) ترمقه: تنظره وتطلع إليه.

(٢) تسنم: علا، وأصله ركب فوق السنام، وهو أعلى مكان في الإبل، وذروة كل شيء: أعلاه.

(٣) الوهن: الضعف. والظلع: أن تغمز في سيرك.

(٤) القِرَان: أن تجمع الشيء إلى الشيء.

(٥) الشوف: جمع شنف، وهي حلية تلبس في أعلى الأذن.

[عتاب]

للخريمي يعاتب الوليد بن أبان

وقال أبو يعقوب الخريمي يعاتب الوليد بن أبان:

أَتَعَجَّبُ مِنِّي إِنْ صَبَرْتُ عَلَى الْأَذَى
فإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا رَأْيَ عَاجِزٍ
وَلَكِنْ تَدَبَّرْتُ الْأُمُورَ؛ فَلَمْ أَجِدْ
وَأُقْسِمَ لَوْلَا سَالِفُ الْوُدِّ بَيْنَنَا
وَأَيَّامُكَ الْغُرُّ اللَّوَاتِي تَقْدَمْتُ
رَحَلْتُ قُلُوصَ الْهَجْرِ ثُمَّ اقْتَعَدْتُهَا
وَأَكْرَمْتُ نَفْسِي وَالْكَرَامَةَ حَظُّهَا
وَعَارَضْتُ أَطْرَافَ الصَّبَا أَبْتَغِي أَخًا
أَخًا كَأَبِي عَمْرُو، وَأَنْتَى بِمِثْلِهِ
جَزَى اللَّهُ عَثْمَانَ الْخَرِيمِي خَيْرَ مَا
أَخًا كَانَ إِنْ أَقْبَلْتُ بِالْوُدِّ زَادَنِي
أَخًا لَمْ يَخْخِي فِي الْحَيَاةِ وَلَمْ أَبِثْ
إِذَا حَاوَلُوهُ بِالسَّعَايَةِ حَاوَلُوا
يُحْكَمْنِي فِي مَالِهِ وَلِسَانِهِ
كَفَى جَفْوَةَ الْإِخْوَانِ طُولَ حَيَاتِهِ

وَكُنْتُ امْرَأً ذَا إِرْبَةٍ مُتَجَمِّلًا^(١)
رَأَيْتُ، وَلَا أَخْطَأْتُ لِلْحَقِّ مَقْصِلًا
سِوَى الْحِلْمِ وَالْإِغْضَاءِ خَيْرًا وَأَفْضَلًا
وَعَهْدُ أَبِثْ أَرْكَانُهُ أَنْ تَزِيلًا^(٢)
وَأُولَيْتِيهَا مُنْعِمًا مُتَطَسُّوًا
إِلَى الْبَعْدِ مَا أَلْفَيْتُ فِي الْأَرْضِ مَعْمَلًا^(٣)
وَلَمْ تَرْنِي لَوْلَا الْهَوَى مُتَذَلَّلًا
يُعِينُ إِذَا مَا الْهَمُّ بِالْمَرِّ أَغْضَلًا^(٤)
إِذَا الْحُرُّ بِالْمَجْدِ ارْتَدَى وَتَسَرَّ بَلَا
جَزَى صَاحِبًا جَزَلَ الْمَوَاهِبَ مُفْضِلًا
صَفَاءً وَإِنْ أَدْبَرْتُ حَنًّا وَأَقْبَلًا
يُخَوِّفُنِي الْأَعْدَاءُ مِنْهُ التَّنْقِلًا
بِهِ هَضْبَةٌ تَأْبَى بِأَنْ تَخْلُخَلَ
وَيَرْكَبُ دُونِي الزَّاعِبِي الْمُؤَلَّلًا^(٥)
وَأَوْرَثَ مِمَّا كَانَ أُعْطِيَ وَأَجْزَلًا

(١) الإربة: البغية، قال تعالى: ﴿غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ﴾ (سورة النور، آية ٣١). أي: البغية في النساء.

وتجمل فلان: ظهر بما يجمل.

(٢) تزيل القوم: تباينوا وتفرقوا.

(٣) القلوص من الإبل: الفتية المجتمعة الخلق، وذلك من حين تركب إلى التاسعة من عمرها، ثم هي ناقة.

(٤) أغضل الأمر: اشتد واستغلق، وأغضل الشيء: اشتد قبحه.

(٥) الزاعبي: الرمح الذي إن هزته تدافع كله، والمؤلل: المعدد طرفه.

وَبَاتَ حَمِيداً لَمْ يَكْثُرْ صُنْعُهُ وَلَمْ أَقْلِهِ طُولَ الْحَيَاةِ وَمَا قَلَا^(١)
وَكُنْتُ أَحْسَنَ لِرَدَامِ عَهْدِكَ وَاصْلاً نَصُوراً إِذَا مَا الشَّرُّ خَبَّ وَهَرَوَلَا^(٢)
فَغَيَّرَكَ الْوَأَشُونَ حَتَّى كَانَمَا تَرَانِي شُجَاعاً يَبِينُ عَيْنَيْكَ مُقْبِلاً

[من ترجمة أبي يعقوب الخريمي]

وأبو يعقوب هذا إسحاق بن حسان، قال المبرد: كان أبو يعقوب جميل الشعر، مقبولاً عند الكتاب، وله كلام قوي، ومذهب متوسط، وكان يرجع إلى نسب كريم في الصُّغْد، وكان له ولَاءٌ في غطفان، وكان اتصاله بمولاه أبي عثمان بن خُرَيْم المري الذي يقال له خُرَيْم الناعم، وكان أبو عثمان هذا قائداً جليلاً، وسيداً كريماً. وسُئِلَ [خُرَيْم] عن لَذَّةِ الدنيا، فقال: الأَمْنُ فإنه لا عيشَ لخائف، والعافية فإنه لا عيشَ لسقيم، والغنى فإنه لا عيشَ لفقير. وقيل له: ما بلغ من نعمتك؟ قال: لم أَلَسْ جديداً في صيف، ولا خَلَقاً في شتاء. وفي نسبه في الصُّغْد يقول:

أَبَا الصُّغْدِ بَاسٌ أَنْ تُعَيِّرَنِي جُمْلُ سَفَاهَا وَمِنْ أَخْلَاقِ جَارَتِنَا الْبُخْلُ
وَمَا ضَرَّنِي أَنْ لَمْ تَلِدْنِي يُحَابِرُ وَلَمْ تَشْتَمِلْ جَرَمَ عَلَيَّ وَلَا عُكْلُ^(٣)

يقول فيها:

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ نِيَّةٌ لَهَا مَصْعَدٌ حَزَنٌ وَمُنْحَلَرٌ سَهْلُ
وَوَدَّ الْفَتَى فِي كُلِّ نَيْلٍ يُبِيلُهُ إِذَا مَا انْقَضَى لَوْ أَنَّ نَائِلُهُ جَزْلُ
وَأَعْلَمَ عِلْماً لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ لِكُلِّ أَنَاسٍ مِنْ ضَرَانِبِهِمْ شَكْلُ
وَأَنْ أَحْسَاءَ السَّزْمَانِ غَنَاؤُهُمْ قَلِيلٌ إِذَا مَا الْمَرْءُ زَلَّتْ بِهِ الثُّغْلُ
تَزَوَّدَ مِنَ الدُّنْيَا مَتَاعاً لِغَيْرِهَا فَقَدْ شَمَرَتْ حَدَاءُ وَانْصَرَمَ الْجَبْلُ^(٤)
وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا هَامَةُ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ لِأَمِّكَ مِنْ إِحْدَى طَوَارِقِهَا الثُّكْلُ

(١) قلا: أبغض.

(٢) خَبَّ خَبّاً، وَخَبِيّاً، وَخَبِيّاً: عدا، وَخَبَّ الْفَرَسُ: نَقَلَ أَيَامَهُ وَمَيَاسَرَهُ جَمِيعاً فِي الْعَدُوِّ. وَهَرَوَلَّ: أَسْرَعَ بَيْنَ الْعَدُوِّ وَالْمَشْيِ.

(٣) يُحَابِرُ، وَجَرَمَ، وَعَقَلَ: مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ.

(٤) الْحَدَاءُ: السَّرِيعَةُ.

وقال يتشوق الحسن بن التَّحْتَاح:

أَلَا مُبْلَغٌ عَنِّي خَلِيلِي وَدُونِسُهُ
رِسَالَةً ثَاوٍ بِالْعِرَاقِ وَرُوحُهُ
لَهُ كُلُّ يَوْمٍ حَكَّةٌ بَعْدَ رَنَّةٍ
إِلَى صَاحِبٍ لَا يُخْلِقُ النَّأْيُ عَهْدَهُ
تَخَيَّرَهُ حَرًّا نَفِيًّا ضَمِيرُهُ
هُوَ الشَّهْدُ سِلْمًا، وَالذَّعَافُ عَدَاوَةً
فِيَا حَسَنَ الْحُسَيْنِ الَّذِي عَمَّ فَضْلُهُ
إِلَيْكَ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ تَطَلَّعْتُ
أَرَى بَعْدَكَ الْإِخْوَانَ أَبْنَاءَ عَلَّةٍ
فَهَلْ يَرْجِعُنَّ عَيْشِي وَعَيْشُكَ مَرَّةً
لِيَالِي أَرْعَى فِي جَنَابِكَ رَوْضَةً
وَإِذْ أَنْتَ لِي كَالشَّهْدِ بِالرَّاحِ صُفْقًا
عَسَى وَلَعَلَّ اللَّهَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

مَطَا سَفَرٍ لَا يَطْعَمُ النَّوْمُ طَالِيَةً^(١)
بِفَسْطَاطٍ مِضْرٍ حَيْثُ جَمَّتْ عَجَائِبُهُ^(٢)
يَجِيئُ بِهَا فِي الصَّدْرِ شَوْقٌ يُغَالِبُهُ
لِنَاءٍ وَلَا يَشْقَى بِهِ مَنْ يُصَاقِبُهُ^(٣)
جَمِيلًا مُحْيَاهُ كَرِيمًا ضَرَائِبُهُ
وَيَبْحُرُ عَلَى الْوُرَادِ تَجْرِي غَوَارِبُهُ
وَتَمَّتْ أَيْادِيهِ وَجَمَّتْ مَسَاقِبُهُ
نَسَوَازُ شَوْقِي مَا تُرَدُّ عَسَوَارِبُهُ
لَهُمْ نَسَبٌ فِي وَدْهِمْ لَا أَنْاسِيُهُ^(٤)
يَبْغِدَادَ دَهْرٌ مُنْصِفٌ لَا نُعَاتِبُهُ
وَأَوِي إِلَى حِصْنٍ مَنِيْعٍ مَرَاتِبُهُ
بِمَاءٍ رِصَافٍ صَفْقَتُهُ جَنَائِبُهُ^(٥)
كَمَا لَأَمَتْ صَدْعُ الْإِنَاءِ مَشَاعِبُهُ^(٦)

[فقر وفصول في معان شتى]

قال العتابي: حظ الطالبين من الدُّرِّكَ بحسب، ما استصحبوا من الصَّبْرِ.

بعض الحكماء: الحلم عُدَّةٌ للسفيه، وجُنَّةٌ من كَيْدِ العدو، وإنك لن تقابل سفيها بالإعراض عن قوله إِلَّا أَذَلَّتْ نَفْسَهُ، وَفَلَلَّتْ حَدَّهُ، وَسَلَلَتْ عَلَيْهِ سِيوْفًا من شواهد جَلَمِكَ عنه، فتولوا لك الانتقام منه.

(١) المطا: الظهر. ومطا فلان: صاحب صديقاً في السفر، ومطا مطوياً: جدّاً في السير.

(٢) ثاو: مقيم. جَمَّتْ: كَثُرَتْ.

(٣) صَاقِبُهُ مُصَاقِبَةٌ، وَصِيقَابًا: قَارِبُهُ وَوَاجِهُهُ.

(٤) الْعَلَّةُ؛ الْفُرَّةُ. وَبَنُو الْعَلَاتِ: بَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْ أَمْهَاتِ شَيْءٍ.

(٥) صُفْقًا: خُلْطًا. وَرِصَافٌ: جَمْعُ رَصْفَةٍ (بِالتَّحْرِيكِ) وَهِيَ الْحِجَارَةُ الْمَرْصُوفُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ فِي

سِيلِ الْمَاءِ. وَالْجَنَائِبُ: جَمْعُ جَنْوَبٍ، وَهِيَ الرِّيحُ الَّتِي تَقَابِلُ رِيحَ الشَّمَالِ.

(٦) الْمَشَاعِبُ: جَمْعُ مِشْعَبٍ، وَهُوَ مِثْقَبٌ يُسْتَعْمَلُ فِي إِصْلَاحِ الْآلِيَةِ.

وقال آخر: العجلة مكسبة للمذمة ومجلبة للندامة، منفرة لأهل الثقة، مانعة من سداد الرغبة.

وأتى العتابي وهو بالرّي رجلٌ يودّعه فقال: أين تريد؟ قال: بغداد، قال: إنك تريد بلداً اصططح أهله على صحّة العلانية، وسقم السرية، كلهم يعطيك كله، ويمنعك قلّه^(١).

وقال يحيى بن خالد لرجل دخل عليه: ما كان خبرك مع فلان؟ قال: قد افتديت مكاشفته واشتريت مكاشرته^(٢) بألف درهم، فقال يحيى: لا تبرح حتى يكتب الفضل وجعفر عنك هذا القول.

قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يدعو، ويقول: اللهم ارزقني عمل الخائفين، وخوف العاملين، حتى أتعم بترك التنعم، رجاء لما وعدت، وخوفاً مما أوعدت.

وللعتابي: أما بعد فإنه ليس بمُسْتَخْلَصٍ غَضَارَةُ عَيْشٍ إِلَّا مِنْ خِلَالِ مَكْرُوهِهِ، وَمَنْ أَنْتَظِرَ بِمُعَاجَلَةِ الدُّرْكِ مُوَاجِلَةَ الْإِسْتِقْصَاءِ سَلَبَتْهُ الْأَيَّامُ فِرْصَتَهُ.

كتب بعض الكتاب إلى أخ له: إن رأيت أن تحدّد لي ميعاداً لزيارتك، أتقوّته^(٣) إلى وقت رؤيتك، ويؤنسني إلى حين لقاءك، فعلت إن شاء الله.

فأجابه: أخاف أن أعذكّ وعداً يعترض دون الوفاء به، ما لا أقدر على دفعه، فتكون الحسرة أعظم من الفرقه.

فأجاب المبتدئ: أنا أسرّ بموعذك، وأكون جدلاً^(٤)، بانتظارك، فإن عاق عن الإنجاز عاتق، كنت قد ربحت السرور بالتوقع لما أحبه، وأصبحت أجري على الحسرة بما حرمته.

وكتب أخ إلى أخ له يستدعيه: أما بعد فإنه من عانى الظمأ بفُرْقَتِكَ استوجب الرّي من رؤيتك، والسلام.

وكتب آخر في بابه: يومنا يوم طاب أوله، وحسن مستقبله، وأنت السماء بقطارها،

(١) القُلُّ: القليل، والقِلُّ (بالكسر): النواة تنبت منفردة ضعيفة.

(٢) المكاشرة: المعالنة أو الجهر بالبغض.

(٣) أتقوّته: أجعله قوياً لي.

(٤) جدلاً: مسروراً.

فَحَلَّتْ الْأَرْضَ بِأَنْوَارِهَا^(١)، وَبِكَ تَطْيِبُ الشَّمُولُ، وَيُشْفَى الْغَلِيلُ، فَإِنْ تَأَخَّرَتْ عَنَا فَرَقَتْ شَمَلَنَا، وَإِنْ تَعَجَّلَتْ إِلَيْنَا نَظَمْتَ أَمْرَنَا.

قال إسحاق الموصلي: قال لي ثُمَامَةُ بْنُ أَشْرَسَ، وَقَدْ أُصِيبْتُ بِمَصِيئَةٍ: لِمَصِيئَةٍ فِي غَيْرِكَ لَكَ ثَوَابُهَا، خَيْرٌ مِنْ مَصِيئَةٍ فِيكَ لَغَيْرِكَ أَجْرُهَا.

وَمَرُّ عُمَرَ بْنِ ذَرِّبَابِنِ عِيَاضِ الْمَتَوَفِّ، وَكَانَ سَفِهَ عَلَيْهِ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَتَعَلَّقَ بِثَوْبِهِ، وَقَالَ: يَا هُنَاكَ؛ إِنَّا لَمْ نَجِدْ لَكَ جَزَاءً إِذْ عَصَيْتَ اللَّهَ فِينَا، خَيْرًا مِنْ أَنْ نُطِيعَهُ فِيكَ. أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا عَاقَبْتَ مِنْ عَصَى اللَّهِ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهُ فِيهِ.

وَكُتِبَ بَعْضُ الْكِتَابِ إِلَى رَئِيسِهِ: مَا رَجَائِي عَذْلَكَ بِزَائِدٍ عَلَى تَأْمِيلِي فَضْلَكَ. كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ خَوْفِي صِيَالَكَ^(٢)، بَأَكْثَرِ مِنْ خَشْيَتِي نِكَالَكَ^(٣)؛ لِأَنَّكَ لَا تَرْضَى لِلْمَحْسَنِ بِصَغِيرِ الْمَثُوبَةِ، كَمَا لَا تَقْنَعُ لِلْمُسِيءِ إِلَّا بِمُوجِعِ الْعُقُوبَةِ.

وَقَالَ آخَرُ: مَا عَسَيْتَ أَنْ أَشْكُرَكَ عَلَيْهِ مِنْ مَوَاعِدَ لَمْ تُشَبِّ بِمَطْلٍ، وَمَرَاغِدَ لَمْ تَشْنِ بِمَنْ، وَعَهْدَ لَمْ يَمَازَحْهُ مَلَقٌ، وَوُدٌّ لَمْ يَشْبِهْ مَذَقٌ^(٤).

وَقَالَ آخَرُ: عَلِقْتُ بِهِ أَسْبَابَ الْجَلَالَةِ غَيْرِ مُسْتَشْعِرٍ فِيهَا بِنَخْوَةٍ، وَتَرَامْتُ لَهُ أَحْوَالُ الصَّرَامَةِ غَيْرِ مُسْتَعْمِلٍ مَعَهَا السُّطُورَةِ، هَذَا مَعَ دِمَائَةٍ فِي غَيْرِ حَصَرٍ، وَلَيْنَ جَانِبٍ مِنْ غَيْرِ خَوَرٍ^(٥).

فَصَلَ لَا بِنِ الرُّومِيِّ: إِنِّي لَوَلِيْتُكَ الَّذِي لَمْ تَزَلْ تَنْفَادُ لَكَ مَوَدَّتَهُ مِنْ غَيْرِ طَمَعٍ وَلَا جَزَعٍ، وَإِنْ كُنْتَ لَذِي رَغْبَةٍ مَطْمَعًا، وَلَذِي رَهْبَةٍ مَهْرَبًا.

أَبُو فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيُّ^(٦):

كَذَاكَ الْوِدَادُ الْمَحْضُ لَا يُرْتَجَى لَهُ ثَوَابٌ، وَلَا يُخْشَى عَلَيْهِ عِقَابٌ^(٧)

(١) القطار: المطر. والأنوار: جمع نور، وهو نور الزهر.

(٢) صَاوِلُهُ مُصَاوِلَةٌ، وَصِيَالًا، وَصِيَالَةٌ: غَالِبُهُ وَنَافِسُهُ فِي الصُّوْلِ، وَقَدْ صَالَ عَلَيْهِ صَوْلًا: سَطَا عَلَيْهِ لِيَقْهَرَهُ.

(٣) النكال: العقاب أو النازلة.

(٤) مَذَقَ الْوُدَّ مَذَقًا: شَابَهُ وَلَمْ يَخْلُصْهُ.

(٥) الدَّمَائَةُ: اللَّيْنُ وَالسَّهْوَةُ. وَالْحَصَرُ: احْتِسَاسُ الْقَوْلِ، وَالْعَمَى: وَالْخَوَرُ: الْجَبْنُ وَالضَّعْفُ.

(٦) أَبُو فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيُّ، الدِّيَوَانُ: ص ٢٧.

(٧) الْمَحْضُ: الْخَالِصُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

[بين حنيفة ونمير]

غَزَتْ حَنيفَةُ نَمِيرًا فَانْتَصَفُوا مِنْهُمْ، فَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ: كَيْفَ صَنَعَ قَوْمُكَ؟ قَالَ: اتَّبَعُونِي وَقَدْ أَحَقُّوْا كُلَّ جُمَالِيَةِ خَيْفَانَةٍ^(١)، فَمَا زَالُوا يَخْصِفُونَ [أَخْفَافًا]^(٢) الْمِطْيَ بِحَوَافِرِ الْخَيْلِ، حَتَّى لَحَقَوْهُمْ؛ فَجَعَلُوا الْمُرَّانَ أَرْضِيَّةَ الْمَوْتِ^(٣)، فَاشْتَقُّوا بِهَا أَرْوَاحَهُمْ.

[دعاء]

ودعا أعرابي فقال: اللهم إن كان رزقي نائياً فقرِّبه، أو قريباً فيسرَّه، أو ميسراً فجعله، أو قليلاً فكثره، أو كثيراً فثمره.

[من رسائل البلغاء]

بين المأمون وعامله على الرقة

وكتب عَنَسَةُ بن إسحاق إلى المأمون وهو عامله على الرقة، يصف خروج الأعراب بناحية سنجار وعيَّتهم بها^(٤): يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ قَطَعَ سَبِيلَ الْمُجْتَازِينَ، مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُعَاهِدِينَ، نَفَرٌ مِنْ شُدَاذِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَا يَرْقُبُونَ فِي مَوْمِنٍ إِلَّا^(٥) وَلَا ذِقَّةً، وَلَا يَخَافُونَ مِنْ اللَّهِ حَدًّا وَلَا عَقُوبَةً، وَلَوْ لَا ثِقَّتِي بِسَيْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَخَصَّدَهُ هَذِهِ الطَّائِفَةُ، وَبَلُوغِهِ فِي أَعْدَاءِ اللَّهِ مَا يَرْدَعُ قَاصِيَهُمْ وَدَانِيَهُمْ، لَأَذْنْتُ بِالْإِسْتِجَادِ عَلَيْهِمْ، وَلَا بَتَعَثْتُ الْخَيْلَ إِلَيْهِمْ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُعَانٌ فِي أُمُورِهِ بِالتَّأْيِيدِ وَالنَّصْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فكتب إليه المأمون:

أَسْمَعْتَ غَيْرَ كَهَامٍ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ لَا يَقْطَعُ السِّيفُ إِلَّا فِي يَدِ الْحَذِرِ^(٦)

(١) أحقب البعير: جعل عليه الحقب، وهو جبل يُشَدُّ به الرحل. والجمالية: الناقة القوية الوثيقة والخيفانة: السريعة.

(٢) خصف النعل: خرزها بالمخصف، وخصف الشيء إلى الشيء: ضمه إليه، وخصف الكتيبة: كثفها.

(٣) المرَّان: الرماح الصلبة للندن، والواحدة مُرَّانة. والأرضية: جمع رشاء: الحبل.

(٤) العيث: الإفساد.

(٥) الإل: العهد.

(٦) كَهَمَّ الرجل كهامةً: بَطُوًةً عن النصرة والحرب، فهو كهام، وَكَهَمَ السيف: كَلَّ، فهو كَهَامٌ وَكَهِيمٌ.

سَيُضْبِحُ الْقَوْمُ مِنْ سَيْفِي وَضَارِبِهِ مِثْلَ الْهَشِيمِ ذَرْتُهُ الرِّيحُ بِالمَطَرِ^(١)
فوجه عنبسة بالبيتين إلى الأعراب، فما بقي منهم اثنان.

[بين الحسن بن سهل والمطلب بن عبد الله]

وكتب المطلب بن عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل في رجل توسل به:
طَلَبُ العَافِينَ الوَسَائِلَ إِلَى الأمير - أعزّه الله - يُثْبِئُ عَنْ شُرُوحِ مَوَارِدِ إِحْسَانِهِ، وَيَدْعُو إِلَى
مَعْرِفَةِ فَضْلِهِ، وَمَا أَنْصَفَهُ - أعزّه الله تعالى - مَنْ تَوَسَّلَ إِلَى مَعْرُوفِهِ بِغَيْرِهِ؛ فَرَأَى الأمير
- أعزّه الله - فِي التَّطَوُّلِ عَلَى مَنْ قَصُرَتْ مَعْرِفَتُهُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا يَرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ مَوْفَقاً
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فكتب إليه الحسن: وصلك الله بما وصلتني في صاحبك من الأجر والشكر، وأراك
الإحسان في قصيدك إلي بأمثاله فرضاً يفيدك شكره، ويعقبك أجره، فأريك في إتمام ما
ابتدأت به وإعلامي ذلك مشكوراً.

وكان المطلب ممدحاً كريماً، وقد حسد دعبل شرفه وانعامه، وغبط إحسانه وإكرامه،
إذ يقول:

اضرب ندى طلحة الطلحات مُعْتَرِفاً بِلُؤْمِ مُطَلَبٍ فِينَا وَكُنْ حَكَمًا
تَخْلُصْ خِزَاعَةً مِنْ لُؤْمٍ وَمَنْ كَرَمٍ فَلَا تُعَدِّ لَهُا لُؤْمًا وَلَا كَرَمًا
وأمر طلحة أعرف من أن يوصف.

وما أبعد قول دعبل من قول البحري لصاعد بن مخلد وأهل بيته^(٢):

بَنِي مَخْلَدٍ كَفُّوا تَذَقُّقَ جُودِكُمْ وَلَا تَبَخُّسُونَا حَظَّنَا فِي الْمَكَارِمِ
وَلَا تَنْصُرُوا مَجْدِي قِنَانٍ وَمَخْلَدٍ بِأَنْ تَذْهَبُوا عَنَّا بِمُغَمَّةٍ حَاتِمِ^(٣)
وَكَانَ لَنَا اسْمُ الْجُودِ حَتَّى جَعَلْتُمْ تَغْضُؤُونَ مِنَّا بِالْخِلَالِ الْكَرَائِمِ^(٤)

(١) الهشيم: المتكسر، واليابس من كل شيء.

(٢) البحري، الديوان: ١٧٢/٢.

(٣) في الديوان: «ولا تنصروا مجدي قنان ومالك»، و«أن تذهبوا منا».

(٤) الخلال: الخصال.

[رثاء يزيد بن يزيد]

قال الزبير بن بكار: لما مات يزيد بن يزيد بأرمينية قام حبيب بن البراء خطيباً، فقال: أيها الناس، لا تقنطوا من مثله وإن كان قليل النضير، وهبوه من صالح دعائكم مثل الذي أخلص فيكم من نواله، والله ما تفعل الديمة الهطلة في البقعة الجذبة ما عملت فينا يده من عدله ونداه.

فسرق هذا أبو لبابة [الشاعر] فقال:

ما بُقْعَةٌ جَادَهَا غَيْثٌ وَقَرَّبَهَا فَأَزْهَرَتْ بِأَقَاحِي النَّبْتِ الْوَانَا^(١)
أَبْهَى وَأَحْسَنُ مِمَّا أَثَرَتْ يَدُهُ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ مَعْرُوفاً وَإِحْسَانَا

[وقال ابن المبارك يمدح يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة:

وَإِذَا تَبَاعُ كَرِيمَةٌ أَوْ تُشْتَرَى فَيَوَاكُ بَائِعُهَا وَأَنْتَ الْمُشْتَرَى
وَإِذَا تَوَعَّرَتِ الْمَسَالِكُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا السَّيْلُ إِلَى نَدَاكَ بِأَوْعَرِ^(٢)
وَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً أَتَمَمْتَهَا يَبْدِينَ لَيْسَ نَدَاهُمَا بِمُكْدَرِ
وَإِذَا هَمَمْتَ لِمُعْتَفِيكَ بِنَائِلِ قَالَ النَّدَى - فَاطْعَمَهُ - لَكَ: أَكْثَرِ^(٣)
يَا وَاحِدَ الْعُرْبِ الَّذِي مَا إِنْ لَهُمْ مِنْ مَعْدَلٍ عَنْهُ وَلَا مِنْ مَقْصَرِ]

[من رسائل بديع الزمان]

كتب البديع أبو عبد الله أحمد بن الحسين بن يحيى: أما أبو فلان فلا شك أن كتابي يرد منه على صدر محاسني من صحيفته، وقطع حظي من وظيفته، ونسي اجتماعنا على الحديث والغزل، وتصرفنا في الجد والهزل، وتقلبنا في أعطاف العيش، بين الوقار والطيش، وارتضاعنا ثدي العشرة؛ إذ الزمان رقيق العشرة، وتواعدنا أن يلحق أحدنا بصاحبه، وتصافحنا من قبل ألا نصرم الحبل، وتعاهدنا من بعد ألا ننقض العهد، وكأني به وقد اتخذ إخواناً فلا بأس، فإن كان للجديد لذة فللقديم حرمة، والأخوة برودة لا تضيق بين

(١) جادها: سقاها. وقربها: أقام، أو سكن واطمأن.

(٢) توعرت المسالك: صعبت وشقت على سالكيها. والندى: الجود والكرم.

(٣) المعتفي والعافي: طالب المعروف.

اثنين، ولو شاء تعاشرنا في البين، وكان سألني أن أرتاد له^(١) منزلاً ماؤه روي، ومرعاه غدي، وأكاتبه لينهض إليه راحته؛ فهاك نيسابور ضالته التي نشدتها وقد وجدتها. وخراسان أمنيته التي طلبتها وقد أصبها، وهذه الدولة بغيته التي أرادها وقد وردتها، فإن صدقني رائداً، فليأتني قاصداً.

وله إلى بعض إخوانه يعزيه عن أبيه: وصلت رقتك يا سيدي والمصاب لعمر الله كبير، وأنت بالجزع جدير، ولكنك بالعزاء أجدر، والصبر عن الأحبة رشد كأنه الغي، وقد مات الميت فليحي الحي، والآن فاشدذ على مالك بالخمس، فأنت اليوم غيرك بالأمس، وكان الشيخ رحمه الله وكيلك، تضحك ويبكي لك، وقد موك ما ألف في سرا، وسيره، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره، وسيعجم الشيطان عودك، فإن استلانك رماك بقوم يقولون: خير المال ما أُلِف بين الشراب والشباب، وأنفق بين الحباب^(٢) والأحباب، والعيش بين القداح والأقداح^(٣)، ولولا الاستعمال، ما أريد المال! فإن أطعمهم فالיום في الشراب، وغداً في الخراب، واليوم وأطرباً للكاس، وغداً وأحرباً من الإفلاس، يا مولاي ذلك الخارج من العود يسميه الجاهل نقرأ، ويسميه العاقل فقراً. وكذلك المسموع في الناي، هو في الآذان زمر، وفي الأبواب سمر، فإن لم يجد الشيطان مغمراً في عودك من هذا الوجه، رماك بقوم يمثلون الفقر حذاء عينيك، فتجاهد قلبك، وتحاسب بطنك، وتناقش عرسك^(٤)، وتمتع نفسك، وتتوقى دنياك بوزرك، وتراه في الآخرة في ميزان غيرك، لا، ولكن قصداً بين الطريقين، وميلاً عن الفريقين، لا منع ولا إسراف، والبخل فقر حاضر، وضر عاجل، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه:

وَمَنْ يَنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي صَنَعَ الْفَقْرُ^(٥)

وليكن لله في مالك قسم، وللمروءة قسم؛ فصل الرحم ما استطعت، وقدر إذا قطعت، فلأن تكون في جانب التقدير، خير من أن تكون في جانب التبذير.

(١) أرتاد: أطلب.

(٢) الحباب: نفاخات الماء أو الشراب.

(٣) القداح: أراد بها قداح الميسر. والأقداح: أراد بها كؤوس الخمر، يعني: يضع ماله بين المقامرة والسكر.

(٤) عرس الرجل: زوجه.

(٥) البيت للمتي من قصيدة يمدح بها علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي. (انظر ديوانه: ١/ ٣٤٥).

وله إلى رئيس عناية برجل: كتابي أطال الله بقاء الرئيس، والكاتب مجهول، والكتاب فضول، وبحسب الرأي موقعه، فإن كان جميلاً فهو تَطَوُّل، وإن كان شيناً فهو تَقَوُّل، وأية سلك الظنّ فله - أيده الله تعالى - المنّ، من نيسابور عن سلامة شاملة نسأل الله تعالى ألا يُلْهِينَا بسكرها، عن شكرها، والحمد لله رب العالمين. يقول الشيخ - أيده الله تعالى: مَنْ هذا الرجل؟ وما هذا الكتاب؟ فأما الرجلُ فخاطِبٌ وُدٌّ أولاً، وموصل شكر ثانياً؛ وأما الكتابُ فليحام أرحام الكرام؛ فإن يُعِنَ الله الكرامَ تَصِلَ الأرحام. هذا الشريف قد حاربه زمانُ السوء؛ فأخرجه من البيت الذي بلغ السماءَ مَفْخَرًا ثم طلب فوقه مَظْهَرًا^(١)؛ وله بعدُ جلاله النسب، وطهارَةُ الأخلاق، وكرمُ العَهْد، وحضرني فسألته عما وراءه، فأشار إلى ضالّة الأحرار، وهو الكرم مع اليسار، ونَبَهَ على قَيْد الكرام، وهو البشرُ مع الإنعام، وحدث عن بَرْد الأكبار، وهو مساعدة الزمان للجَوَاد. ودلّ على نزهة الأبصار، وهو الثراء، ومُتَنَعَة الأسماع، وهو الشاء، وقلما اجتماعا، وعزّ ما وُجِدَا معاً. وذكر أن الشيخ الرئيس - أيده الله - جماعُ هذه الخيرات، وسألني الشهادةَ له، وبَذَلَ الخط بها، ففعلت، وسألتُ الله إعانته على هِمَّتِهِ؛ فرأيي الشيخ - أيده الله تعالى في الوقوف على ما كتبت، وفي الإجابة - إن نَشِطَ - الموفق إن شاء الله.

وله إلى ابن أخته: وَصَلَ كِتَابُكَ بما ضَمَّتْهُ من تَظَاهُرٍ نعم الله عليك، وعلى أبويك، فسكنت إلى ذلك من حالك، وسألتُ الله بقاءك، وأن يرزقني لقاءك، وذكرت مصابك بأخيك، رحمه الله تعالى، فكأنما فَتَتْ عَضْدِي، وَطَعَنْتُ في كبدي، فقد كنت معترضاً بمكانه، والقدرُ جارٍ لسانه، وكذلك المرءُ يدبّر، والقضاء يدبّر، والآمال تنقسم، والآجال تَبْسُم، فالله يجعله لك قَرطاً^(٢)، ولا يُرِينِي فيك سوءاً أبداً، وأنت إن شاء الله تعالى وارثُ عمره، وسدادِ ثَغْرِهِ، ونِعَمِ العَوْضِ بقاؤك.

إِنَّ الْأَشَاءَ إِذَا أَصَابَ مُشَدِّباً مِنْهُ أَتَمَّهَلَ ذُرّاً وَأَنْتَ أَسَافِلَا^(٣)

(١) هذا من قول النابغة الجعدي:

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدًا وَجُودًا وَسُودَدًا وَلَنَا لَنَرْجُوَ فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

(ديوانه: ص ٨٥).

(٢) القَرطُ: ما يتقدم الإنسان من أجرٍ وعمل، ويقال في الدعاء للطفل الميت: اللهم اجعله لنا قَرطاً: أجراً يتقدمنا حتى نرد عليه.

(٣) الأشياء: صغار النخل، والمشذب: الذي يقطع القشور والعيدان المتفرقة من الشجر. واتمهل: اعتدل وانتصب. والنزى: الأعالي، والقمم، وأنت: التثَنُّ وَكَثْرُ.

وأبوك سيدي أيد الله تعالى وألهمه الجميل، وهو الصبر، وأناله الجزيل، وهو الأجر، أمتعه بك طويلاً، فما سؤت بديلاً، وأنت ولدي ما دمت والعلم شأنك، والمدرسة مكانك، والدفتري نديمك، وإن قصرت، ولا إخالك، فغيري خالك.

وله من كتاب إلى أبي القاسم الداودي بسجستان:

كاتبني - أطال الله بقاء الفقيه - كتاب من ينسى الأيام وتذكره، ويطويها وتنشره، ويبعد أبناء دهره، وراء ظهره، ويخرج أهل زمانه، من ضمائه، فإذا تناولهم يميناه، وتسلمهم بيسراه، أقسم أن صفتته هي الرابعة، وكفته هي الراجعة، وأنا - أيد الله الفقيه - على قرب العهد، بالمهد، قد قطعت عرض الأرض، وعاشرت أجناس الناس، فما أحد إلا بالجهل اتبعته، وبالخبرة تبعته، وبالظن أخذته، وباليقين نبذته، وما حمد وضعت في أحد إلا ضيعته، ولا مدح صرفته إلى أحد إلا غرته، ومن احتاج إلى الناس، وزنهم بالقسطاس، ومن طاف نصف الشرق، فقد لقي ربع الخلق، ومن لم يجد في النصف لمحة دالة، لم يجد في الكل غرة لائحة، وكان لنا صديق يقول: إن عشت تسعين عاماً مت ولم أملك ديناراً، لأنني قد عشت ثلاثين ولم أملك ثلثها، وهذا لعمرى ياس، يوجه قياس، وقنوط، بالحجة سوط، ودعابة ستكون جدّاً، ووراء هذه الجملة موجدة على قوم، وعريضة إلى يوم، والأمير السيد واسع مجال الهمم، ثابت مكان القدم. وأنا في كنفه صائب سهم الأمل، وأفر الجذل، والحمد لله على ما يؤليه، ويؤلينا معشر مواليه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وذريته.

وله إلى إبراهيم بن حمزة خادم الأستاذ الجليل: قد أتبع قدمه، إلى الخدمة قلّمه، وأتلى لسانه، في الحاجة بئانه، وقد كان استأذنه في توفير هذا اليوم في مجلس السيد الجليل فأذن له على عادته السليمة، وشيمته القويمة، ومن وجد كلاً رتع^(١)، ومن صادف غيثاً انتجع^(٢)، ومن احتاج للحاجات سأل، وبقي أن يشفع الأستاذ الجليل بإزاء الحوض عقره^(٣)، وينظم إلى روض الإحسان مطره، ويطرز أنسنا بأبي فلان؛ فقد وُصف لي حتى حنت شوقاً إليه، ووجدت به، وشغفاً له، وغلوّاً فيه، ورأيه في الإصغاء إلى الكرم عالٍ، إن شاء الله تعالى.

(١) الكلاً: العشب يابسه ورطبه، ورتع: رعى.

(٢) الانتجاع: طلب المرعى.

(٣) العقر: وجه الأرض، وأول سقية سقيها الزرع.

[من مقامات بدیع الزمان]

المقامة السجستانية

ومن إنشائه في مقامات أبي الفتح السكندري:

حدَّثنا عيسى بن هشام قال: حدّاني إلى سجستان أرب^(١)، فاقتعدت طيّته، وامتنطيت مَطِيَّتَه، واستخرْتُ الله تعالى العَزْمَ حَدَوْتُهُ أمامي، والحزم جعلته قَدَّامي، حتى هداني إليها، ووافيت دُرُوبَهَا^(٢)، وقد وافت الشمس غُرُوبَهَا، واتفق المبيت حيث انتهيت؛ ولما انتَضَيْ نَصْلُ الصُّبْحِ، وبرز جَبِينُ المصباح، مضيتُ إلى السوق أتخذ منزلاً، فحيث انتهيتُ من دائرة البلد إلى نَقْطَتِهَا، ومن قلادة السوق إلى واسِطَتِهَا، خَرَقَ سَمْعِي صوتٌ له من كلِّ عِرْقٍ معنى، فانتحيْتُ وَفْدَهُ، حتى وقفتُ عنده؛ فإذا رجلٌ على فرسه، مختنقٌ بِنَفْسِهِ، قد ولّاني قَذَالَهُ وهو يقول: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرِّفه بنفسِي، أنا باكورة اليمن، أنا أحدوثة الزمن، أنا أدعية الرجال، وأخجية ربات الجبال^(٣)، سلوا عني الجبال وحُزُونَهَا، والبحارَ وعُيُونَهَا، والخيَلَ ومتونها، من الذي ملك أسوارها، وعرف أسرارها، ونهَجَ سَمْتَهَا^(٤)، وولج حَرَّتَهَا^(٥)؟ وسلوا الملوكَ وخزائنها، والأغلاقَ ومعادنها، والعلومَ وبواطِنَهَا، والخطوبَ ومَعَالِقَهَا، والحروبَ ومضايِقَهَا، من الذي أخذ مُحْتَزَنَهَا، ولم يؤدِّ ثَمَنَهَا؟ ومن الذي ملك مفاتيحها، وعرف مصالحها؟ أنا والله فعلتُ ذلك، وسفرتُ بين الملوك الصيِّدَ، وكشفتُ أَسْتَارَ الخطوبِ السُّودِ. أنا والله شهدت حتى مصَارِعَ العُشَاقِ، ومرضتُ حتى لِمَرَضِ الأحداقِ، وَهَصَرْتُ الغُصُونِ الناعماتِ^(٦)، وجنيتُ جنى الخدودِ المُرَوِّدَاتِ، ونَفَرْتُ عن الدنيات نفورَ طَبَعِ الكَرِيمِ عن وجوه اللثامِ، ونبوّتُ عن المحرماتِ نبؤَ سمع الشريفِ عن قبيح الكلامِ، والآنَ لما أُنْفِرَ صُبْحُ المشيبِ، وعَلَتْنِي أبهة الكِبَرِ، عَمَدْتُ لإصلاحِ أَمْرِ المعادِ، بإعدادِ الزَّادِ، قلم أَرَّ طريقاً أهدي إلى الرشادِ مما أنا سَالِكُهُ،

(١) الأَرَبُ: الحاجة أو البغية والأمنية.

(٢) الدروب: جمع درب، وهو الطريق.

(٣) رَبَاتُ الْجِبَالِ: النساء. وَالْجِبَالِ: جمع حَجَلَة، وهي ستر يضرب للعروس في جوف البيت.

(٤) السَّمْتُ: الطريق الواضح، والمذهب، ومنه: سَمَتَ الشَّيْءَ: قصده، وَسَمَتَ فُلَانٌ: سار على

الطريق بالظن.

(٥) الحَرَّةُ: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت.

(٦) هَصَرَ الغُصْنُ: عطفه وكسره من غير فصل، أو جذبه وأماله.

يَرَانِي أَحَدُكُمْ رَاكِبَ فَرَسٍ وَهُوسٌ^(١)، فيقول: هذا أَبُو الْعَجَبِ، لا، ولكنني أَبُو الْعَجَائِبِ، عَايَيْتُهَا وَعَايَيْتُهَا، وَأُمُّ الْكِبَائِرِ قَايَسَتْهَا وَقَايَسَتْهَا، وَأَخُو الْأَعْلَاقِ^(٢)، صَعْبًا أَخَذْتُهَا، وَهَوْنًا أَضَعْتُهَا، وَغَالِيًا اشْتَرَيْتُهَا، وَرَخِيسًا بَعْتُهَا؛ فَقَدْ وَاللَّهِ صَحَبْتُ الْمَوَاكِبِ، وَزَاخَمْتُ الْمَنَاكِبِ، وَرَعَيْتُ الْكَوَاكِبِ، وَأَنْصَيْتُ الرِّكَائِبِ^(٣)، وَلَا مَنَّ عَلَيْكُمْ، فَمَا حَصَلْتُهَا إِلَّا لِأَمْرِي، وَلَا أَعْدَدْتُهَا إِلَّا لِنَفْسِي، لَكِنِّي دَفَعْتُ إِلَى مَكَارِهِ نَذَرْتُ مَعَهَا إِلَّا أَدَخِرَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ نَفْعَهَا، وَلَا بَدَّلِي أَنْ أَخْلَعَ رِبْقَةَ هَذِهِ الْأَمَانَةِ مِنْ عُنُقِي إِلَى أَعْنَاقِكُمْ، وَأَعْرِضْ دَوَائِي هَذَا فِي أَسْوَاقِكُمْ، فَلْيَشْتَرِهِ مِنِّي مَنْ لَا يَتَقَرَّزُ مِنْ مَوْقِفِ الْعَبِيدِ، وَلَا يَأْتِفُ مِنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَلْيَصْنُهُ مَنْ أَنْجَبَتْ جَدُودُهُ^(٤)، وَسُقِّيَ بِالْمَاءِ الطَّاهِرِ عَوْدُهُ.

قال عيسى بن هشام: فَذَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ لِأَعْلَمَ عِلْمِهِ، فَإِذَا شَيْخُنَا أَوْ الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِي، وَانْتَظَرْتُ إِجْفَالَ النِّعَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ تَعَرَّضْتُ فَقُلْتُ: كَمْ يُحِلُّ دَوَاءَكَ هَذَا؟ قَالَ: يُحِلُّ الْكَيْسُ مَا مَسَّتِ الْحَاجَةُ؛ فَانْصَرَفْتُ وَتَرَكْتَهُ.

المقامة القردية

ومن إنشائه في هذا الباب: حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: بَيْنَا أَنَا بِمَدِينَةِ السَّلَامِ، قَافِلًا مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ^(٥)، أَمِيرُ مَيْسَ الرَّجُلَةِ^(٦)، عَلَى شَاطِئِ الدَّجَلَةِ، أَتَأَمَّلُ تِلْكَ الطَّرَائِفَ، وَأَتَقَصَّى تِلْكَ الزُّخَارِفَ، إِذْ انْتَهَيْتُ إِلَى حَلْفَةِ رِجَالٍ مَزْدَحْمِينَ، يَلُوي الطَّرْفُ أَعْنَاقَهُمْ، وَيَشُقُّ الضَّحِكُ أَشْدَاقَهُمْ، فَسَاقَنِي الْحِرْصُ إِلَى مَا سَاقَهُمْ، حَتَّى وَقَفْتُ بِمَسْمَعِ صَوْتِ رَجُلٍ دُونَ مَرَأَى وَجْهِهِ، لَشِدَّةِ الْهَجْمَةِ، وَفَرَطِ الرَّحْمَةِ، وَإِذَا هُوَ قَرَادٌ يُرْقِصُ قَرْدَهُ، وَيُضْحِكُ مَنْ عِنْدَهُ، فَرَقِصْتُ رَقْصَ الْمَحْرَجِ، وَسَرْتُ سِيرَ الْأَعْرَجِ، فَوْقَ أَعْنَاقِ النَّاسِ، يَلْفِظُنِي عَاتِقُ هَذَا لِسْرَةٍ ذَاكَ، حَتَّى افْتَرَشْتُ لِحْيَةَ رَجُلَيْنِ، وَقَعَدْتُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَقَدْ أَشْرَقَنِي الْخَجَلُ بِرِيقِهِ، وَأَرْهَقَنِي الْمَكَانُ لِضِيقِهِ، فَلَمَّا فَرَّغَ الْقَرَادُ مِنْ شُغْلِهِ، وَانْتَفَضَ الْمَجْلِسُ عَنْ أَهْلِهِ، قَمْتُ وَقَدْ كَسَانِي الرَّيْبُ حُلَّتَهُ، وَوَقَفْتُ لِأَرَى صَوْرَتَهُ، فَإِذَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِي، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الدَّنَاءَةُ؟ وَيَحْكُ! فَقَالَ:

- (١) الْهُوسُ: طَرَفٌ مِنَ الْجُنُونِ.
- (٢) الْأَعْلَاقُ: جَمْعُ عِلْقٍ، وَهُوَ الْغَفِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.
- (٣) أَنْصَى الدَّابَّةَ: هَزَلَهَا وَأَتَعَبَهَا.
- (٤) أَنْجَبَتْ جَدُودُهُ: كَرَّمَتْ.
- (٥) قَافِلًا مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ: عَائِدًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمَكَّةَ.
- (٦) مَاسَ فُلَانٌ مَيْسًا وَمَيْسَانًا: تَبَخَّرَ وَاخْتَالَ.

الذنبُ لآليام لا لي فَاغْتَبَ عَلَى صَرْفِ اللَّيَالِي
بِالْحُمْقِ أَدْرَكْتُ الْمُتَى وَرَفَلْتُ فِي ثَوْبِ الْجَمَالِ^(١)

المقامة الأصفهانية

ومن إنشائه في هذا الباب أيضاً: حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بأصفهان أعتزم المسيرَ إلى الرِّيِّ، فحللتها حلولَ الفَيِّ^(٢)، أتوقَّع الثَّقَلَةَ كلَّ لَمَحَةٍ، وأترقب الرِّحْلَةَ كلَّ صَبْحَةٍ؛ فلما حُمَّ ما توقَّعته، وأزِفَ ما ترقَّبتَه، نُودِيَ للصلاة نداءً سمعته، وتعيَّنَ فرضُ الإجابة؛ فأنسلتُ من بين الصحابة، أغتتم الجماعة أدركها، وأخشى فواتَ القافلة أتركها، لكنني استعنتُ ببركة الصلاة، على وَعْثَاءِ الْفَلَاةِ^(٣)؛ فصرَّتُ إلى أول الصفوف، ومثلتُ للوقوف، وتقدَّم الإمام للمخْرَابِ، وقرأ فاتحةَ الكتاب، [وثنَّى بالأحزاب]^(٤)، بقرأة حمزة، مدَّةً وهمزة، وأتبع الفاتحة بالواقعة، وأنا أنصلي بنار الصبر وأتصلب، وأنقلِّي على جمر الغيظ وأتقلَّب، وليس إلا السكوت والصبر، أو الكلام والقبر، لِمَا عرفت من خشونة القوم في ذلك المقام، أن لو قطعْتُ الصلاة دون السلام، فوقفتُ بقَدَمِ الضرورة على تلك الصورة، إلى انتهاء السورة، وقد قَنَطْتُ من القافلة، ويَسُتُّ من الراحلة، ثم حنى قَوْسَه للركوع، بنوع من الخشوع، وضرب من الخضوع، لم أعْهَنْه قبل ذلك، ثم رفع رأسه وبده، وقال: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمَدَه، وقام حتى ما شكَّكْتُ أنه نام، ثم أَكَبَّ لوجهه، فرفعت رأسي أنتَهزُ فُرْصَةً، فلم أرَ بين الصفوف فُرْجَةً، فَعُدْتُ للسجود، حتى كَبُرَ للفقود، وقام الركعة الثانية، وقرأ الفاتحة والقارعة، قراءةً استَوْفَى فيها عُمُرَ السَّاعَةِ، واسترقَّ أرواح الجماعة، فلما فرَغَ من ركعته، مال للتحية بِأَخْدَعِيهِ^(٥)، فقلت: قد قَرَّبَ الفرج، وأن المخرج، فقام رجل فقال: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَحِبُّ الصَّحَابَةَ وَالْجَمَاعَةَ، فَلْيُعِرْنِي سَمْعَهُ سَاعَةً.

قال عيسى بن هشام: فَلَزِمْتُ أَرْضِي، صِيَانَةً لِعَرْضِي، فقال: حقيق عليّ ألا أقول على الله إلا الحق، قد جئتكم ببشارة من نبيكم، لكنني لا أؤدِّبها حتى يُطَهَّرَ اللهُ هذا المسجد من نَذَلٍ جحد بُؤُوتَه، وعَادَى أَمْتَه.

(١) رَفَلَ رَفَلًا، وَرَفُولًا، وَرَفَلَانًا: جَرَّ ذَيْلَهُ وَتَبَخَّرَ فِي سَبِيهِ.

(٢) القبيء: الظل بعد الزوال ينسبط شرقاً، والخراج، والغنيمة تُنال بلا قتال.

(٣) الوعثاء: المشقة والتعب.

(٤) أي بسورة الأحزاب.

(٥) الأخدع: أحد عَرفَين في جانبي العنق، وهما الأخدعان.

قال عيسى بن هشام: فَرَبَطَنِي بِالْقَيْودِ: وَشَدَّنِي بِالْحَبَالِ الشُّودِ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُهُ ﷺ [فِي الْمَنَامِ] كَالشَّمْسِ تَحْتَ الْغَمَامِ، وَالْبَدْرُ لَيْلَةَ التَّمَامِ، يَسِيرُ وَالنَّجْمُ يَتَّبَعُهُ، وَيَسْحَبُ الذَّلِيلَ وَالْمَلَانِكَةَ تَرْفَعُهُ، ثُمَّ عَلَّمَنِي دَعَاءً، وَأَوْصَانِي أَنْ أَعْلَمَ ذَلِكَ أَقَمَّتَهُ، وَقَدْ كَتَبْتُهُ فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ بِخَلْقِي^(١) وَمِسْكِ، وَزَعْفَرَانٍ وَسُكِّ^(٢)؛ فَمَنْ اسْتَوَهَبَهُ مِنِّي وَهَبْتُهُ، وَمَنْ أَعْطَى ثَمَنَ الْقِرْطَاسِ أَخَذْتُهُ.

قال عيسى بن هشام: فَأَنَالَثَ عَلَيْهِ الدَّرَاهِمَ، حَتَّى حَيَّرْتُهُ؛ وَنَظَرْتُ فَإِذَا شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيُّ، فَقُلْتُ: كَيْفَ اهْتَدَيْتَ إِلَى هَذِهِ الْحِيلَةِ؟ وَمَتَى انْدَرَجْتَ فِي هَذِهِ الْقَبِيلَةِ؟ فَأَنشَأَ يَقُولُ:

النَّاسُ حُمْرٌ فَجَبَّوْزُ وَأَبْرَزُ عَلَيْهِمُ وَبَرَزُ
حَتَّى إِذَا نَلَيْتَ مِنْهُمْ مَا تَشْتَهِيهِ فَقَرُوزُ^(٣)

[جارية ذات أدب وجمال تبذ أبناء الخلفاء]

وُصِفَتْ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ جَارِيَةٌ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ذَاتُ أَدَبٍ وَجَمَالٍ، فَسَاوَمَهُ فِي ابْتِيَاعِهَا، فَامْتَنَعَ وَامْتَنَعَتْ، وَقَالَتْ: لَا أَحْتَاجُ لِلْخِلَافَةِ وَلَا أَرْغَبُ فِي الْخَلِيفَةِ، وَالَّذِي أَنَا فِي مَلِكِهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا. فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الْمَلِكِ فَأَغْرَاهُ بِهَا؛ فَأَضْعَفَ الثَّمَنَ لِمُصَاحِبِهَا وَأَخَذَهَا قَسْرًا، فَمَا أَعْجَبَ بِشَيْءٍ إِعْجَابَهُ بِهَا، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِ، وَصَارَتْ فِي يَدَيْهِ، أَمَرَهَا بِلِزُومِ مَجْلِسِهِ، وَالْقِيَامِ عَلَى رَأْسِهِ؛ فَبَيْنَمَا هِيَ عِنْدَهُ، وَمَعَهُ ابْنَاهُ الْوَلِيدُ وَسُلَيْمَانُ، قَدْ أَخْلَاهُمَا لِلْمَذَاكِرَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمَا فَقَالَ: أَيُّ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ أَمْدَحُ؟ فَقَالَ الْوَلِيدُ: قَوْلُ جَرِيرٍ فِيكَ^(٤):

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ^(٥)

وقال سليمان: بَلْ قَوْلُ الْأَخْطَلِ:

(١) الخلق: نوع من الطيب.

(٢) السُّكِّ: ضرب من الطيب يُرَكَّبُ مِنْ مِسْكِ وَرَامِك.

(٣) فَرُوزَ الرَّجُلِ: مَاتَ.

(٤) جرير، الديوان: ص ٧٧.

(٥) الراح: الواحدة راحة: الكف.

شُمُسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَفَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَاماً إِذَا قَدَرُوا^(١)
فَقَالَتْ: الجارية: بل أمدح بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت^(٢):

يُعْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ^(٣)
فَأُطْرُق، ثُمَّ قَالَ: أي بيت قالته العرب أرق؟ فقال الوليد: قول جرير^(٤):
إِنَّ الْعَبُونَ النَّيِّ فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ فَتَلَنَّا ثُمَّ لَمْ يُحْيِنَ قَتْلَانَا
فَقَالَ سُلَيْمَانُ: بل قول عمر بن أبي ربيعة^(٥):

حَبَّذَا رَجَعُهَا يَدَيْهَا إِلَيْهَا مِنْ يَدَيِّ دِرْعِهَا نَحْلُ الْإِزَارِ^(٦)
فَقَالَتْ الجارية: بل بيت يقوله حسان:

لَوْ يَدَبُ الْحَوْلِي مِنْ وَلَدِ الذِّ رَّ عَلَيْهَا لَأَنْدَبَتْهَا الْكُلُومُ^(٧)
فَأُطْرُق، ثُمَّ قَالَ: أي بيت قالته العرب أشجع؟ فقال الوليد: قول عترة^(٨):

إِذْ يَنْقَوْنَ بِي الْأَسْتَةِ لَمْ أَحِمَّ عَنْهَا، وَلَوْ أَنِّي تَضَايَقْتُ مُقَدِّمِي^(٩)

- (١) شُمُسُ الْعَدَاوَةِ: أشداء على العدو. يُسْتَفَادُ لَهُمْ: يُقَدَّمُ لَهُمْ الْخُضُوعُ وَيَسْلَمُ بِقِيَادَتِهِمْ وَرِيَاثَتِهِمْ. وَالْأَحْلَامُ: جمع حلم، ومن معانيه: الصبر، والعقل الراجح، والتسامح.
- (٢) حسان بن ثابت، الديوان (شرح البرقوقي): ص ٣٠٩. والبيت من قصيدة يمدح بها ملوك غسان بالشام.
- (٣) يُعْشَوْنَ: تنزل بهم الغاشية، وهم الشُّوَالُ والمستجدون وطالِبُو المعروف. وغشى فلان المكان: أتاه.
- (٤) جرير، الديوان: ص ٤٩٢. والبيت من قصيدة يتغزل بها، ويهجو الأخطل.
- (٥) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢٣٥/١. والبيت من قصيدة قالها الشاعر في مجلس عتاب ووصال.
- (٦) الدرع: القميص. ومن أجل شعر يحلّ فيه الإزار سخط الناصحون على عمر وشعره. قال ابن جريج: «ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضرّ عليهن من شعر عمر بن أبي ربيعة».
- (٧) الذُّرُّ: صغار النمل. أَنْدَبَ جِسْمُهُ: ترك فيها ندوباً، وهي آثار الجروح. والكُلُومُ: جمع كَلَم، وهو الجرح.

(٨) عترة بن شداد، الديوان: ص ٢٩.

(٩) قوله: «إِذْ يَنْقَوْنَ بِي الْأَسْتَةِ» معناه: يجعلونني بينهم وبينها، أي: يقدموني للموت. لَمْ أَحِمَّ: لم أجب. أجبين. قال جنادة بن عامر الهذلي:

لَعَمْرُكَ مَا وَكَى ابْنُ أَبِي أَنَيْسٍ وَلَا خَاصَمَ الْقِتَالِ وَلَا أَضَاعَا

(ابن منظور، لسان العرب: خيم). والمقدم: موضع الإقدام. وتضايقت مقدمي: أي ضاقت المكان الذي أقدم فيه، فلا أجد فسحةً لفرسي.

فقال سليمان: بل قوله^(١):

وَأَنَا الْمَنِةُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا فَالْمَوْتُ مِنِّي سَابِقُ الْأَجَالِ

فقلت الجارية: بل بيت يقوله كعب بن مالك^(٢):

نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطُونَا قُدُمًا وَنَلْحَقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

فقال عبد الملك: أَحَسَنْتِ، ما نرى شيئاً في الإحسان إليك أبلغ من ردك إلى أهلك .
فأجمل كُسُوتَهَا، وَأَحْسِنْ صِلَتَهَا، وَرَدَّهَا إِلَى أَهْلِهَا.

ومثل قول كعب بن مالك قول نَهْشَلِ بْنِ حَرِّي^(٣):

إِنْسَا بَنِي نَهْشَلٍ لَا نَدْعِي لِأَبٍ عَنَّهُ، وَلَا هُوَ بِالْأَبْنَاءِ يَثْرِينَا
إِنْ تُبْدِرْ غَايَةً يَوْمًا لِمَكْرُمَةٍ تَلَقَّ السَّوَابِقَ مِنَّا وَالْمُصْلِينَ
إِنْسَا لِمَنْ مَعَشَرَ أَفْتَى أَوَائِلَهُمْ قَوْلُ الْكُمَاةِ: أَلَا أَيْنَ الْمُحَامُونَ^(٤)
لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَوْا مَنْ فَارِسٌ؟ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَ^(٥)
إِذَا الْكُمَاةُ تَأَبَّوْا أَنْ يَنَالَهُمْ حَدُّ السُّيُوفِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا

إنما أردت هذا البيت .

وقوله: لو كان في الألف منا واحد، أخذه من قول طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ^(٦):

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنَّنِي عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَدِ^(٧)

(١) عنترة بن شداد، الديوان: ص ١٩١ . وفيه:

وَأَنَا الْمَنِةُ حِينَ تَشْجُرُ الْقَنَا وَالطَّغْنُ مِنِّي سَابِقُ الْأَجَالِ

(٢) البيت في الأغاني: ١٧١/١٦ . وفيه حديث حول هذا البيت بين معاوية بن أبي سفيان .

وجلسائه، وإجماع منهم على أنه أشجع بيت وصف به رجل قومه .

(٣) الأبيات الأربعة الأولى في الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٥٣٣/٢ .

(٤) في الشعر والشعراء: «قِيلُ الْكُمَاةِ» .

(٥) في الشعر والشعراء: «مَنْ عَاطَفُ؟» .

(٦) طرفة بن العبد، الديوان: ص ٢٩ .

(٧) التَّبَلَدُ: نَقِيضُ التَّجَلُّدِ، وَقِيلَ: الْمُبْتَلَدُ: الَّذِي يَتَرَدَّدُ مَتَحِيرًا.

[نَهْشَلُ بْنُ حَرِّي]

وكان نهشل شاعراً ظريفاً، وهو نهشل بن حرّي بن ضَمْرَةَ بن جابر بن قَطَن بن نهشل بن دارم، وكان اسم جده ضَمْرَةَ هذا: شِقَّة، ورد على النعمان بن المنذر فقال: من أنت؟ فقال: أنا شِقَّة، وكان قصيفاً^(١) نحيفاً دميماً، فقال له النعمان: نَسَمْعُ المَعْبِدِي لا أن نراه، والمَعْبِدِي: تصغير المَعْدِي، فذهبت مثلاً، فقال: أبيت اللعن! إن الرجال لا تُكَال بالقفزان، وليست بِمُسُوكٍ^(٢) يُسْتَقَى بها من الغُذْران، وإنما المرءُ بأصغرَيْه قلبه ولسانه، إذا نطق نطق بيان، وإذا قَاتَلَ قاتِلَ بَجَنانٍ، فقال: أنت ضَمْرَةَ! ونهشل هو القاتل^(٣):

وَيَوْمَ كَأَنَّ الْمُضْطَلَّيْنِ بِحَرِّهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَمْرٌ قِيَامٌ عَلَى الْجَمْرِ
أَقْمْنَا بِهِ حَتَّى تَجَلَّى، وَإِنَّمَا تَفَرَّجَ أَيَّامُ الْكَرِيهَةِ بِالصَّبْرِ^(٤)

[أثر الشعر]

وكان عبدُ الملك يقول: يا بني أمة، أحسابكم أعراضكم، لا تعرضوها على الجهال، فإنَّ الذمَّ باقٍ ما بَقِيَ الدهر؛ والله ما سرَّني أني هُجيت بيت الأعشى، وأن لي طَلَاعَ الأرض ذهباً، وهو قوله في عُلُقَمَةَ بن عُلَاثَةَ^(٥):

يَبِينُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءً بَطُونُهُمْ وَجَارَاتُهُمْ غَرْنَى يَتْنِ خَمَائِصَا^(٦)
والله ما يُتَالِي من مُدَحٍّ بهذين البيتين أَلَا يُمدَحُ بغيرِهِمَا، وهما قول زهير: ^(٧)
هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَجَبَلُوا الْمَالُ يُخْلُوا وَإِنْ يُسَالُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَسِيرُوا يُغْلُوا^(٨)

(١) القصيف: النحيف.

(٢) المسوك: جمع منك، وهو الجلد.

(٣) البيتان في الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٥٣٢/٢.

(٤) في الشعر والشعراء: «صَبْرْنَا لَهُ حَتَّى يَبُوحَ».

(٥) الأعشى، الديوان: ص ٢١٣.

(٦) في الديوان:

يَبِينُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءً بَطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ جَوَعَى يَتْنِ خَمَائِصَا
الخمائص: جمع خميص، وهي الجائعة الضامرة البطن.

(٧) زهير بن أبي سلمى، الديوان: ص ٦٢. والبيتان من قصيدة يمدح بها سنان بن أبي حارثة المرّي.

(٨) يُسْتَجَبَلُونَ: تستعار إيلهم لتشرب ألبانها. وَيُخْلُونَ بِتَقْضُلُون وَيَكْرُمُونَ فِي تِلْكَ الشَّدَّةِ. يَسِيرُونَ: يقامرون بالميسر. يغلون: يأخذون سمان الإبل فبقامرون عليها، ولا ينحرون إلا الغالية.

على مكثريهم حق من يعتر بهم وعند المقلين الساحة والبذل^(١)
وقال ابن الأعرابي: أمدح بيت قاله المحدثون قول أبي نواس^(٢):

أخذت بحبل من جبال محمد أمئت به من طارق الحدثان^(٣)
لتغطي من دهر يظل جناحه فعيني ترى دهر ي ولس يراني
فلو تسأل الأيام عني ما درت وأين مكاني ما عرفن مكاني^(٤)

وهذا كقول أعرابي، ذكر بعض الرواة أن مالك بن طوق كان جالساً في بهو مطل على رجبته ومعه جلساؤه، إذ أقبل أعرابي تخب به ناقته، فقال: إياي أراد، ونحوي قصد، ولعل عنده أدباً يتنفع به. فأمر حاجبه بإدخاله، فلما مثل بين يديه قال: ما أقدمك يا أعرابي؟ قال: الأمل في سيب الأمير والرجاء لثأله^(٥). قال: فهل قدمت أمام رغبتك وسيلة؟ قال: نعم، أربعة آيات قتلها بظهر البرية؛ فلما رأيت ما بباب الأمير من الأبهة والجلالة استصغرتها، قال: فهل لك أن تشدنا آياتك؟ ولك أربعة آلاف درهم، فإن كانت آياتك أحسن فقد ربحتنا عليك، وإلا قد نلت مرادك وربحت علينا، قال: قد رضيت، فأنشده:

وما زلت أخشى الدهر حتى تعلقت يداي بمن لا يتقي الدهر صاحبه
فلما رأيي الدهر تحت جناحه رأى مرتقى صعباً ميعاً مطالبه
وأنني بحيث النجم في رأس باذخ تظل الورى أكنافه وجوانبه^(٦)
فتى كسماء الغيث والناس حوله إذا أجذبوا جادت عليهم سحائبه

قال: قد ظفرنا بك يا أعرابي، والله ما قيمتها إلا عشرة آلاف درهم. قال: فإن لي صاحباً شاركته فيها ما أراه يرضى بيعي، قال: أترك حدثت نفسك بالنكت؟ قال: نعم، وجدت النكت في البيع أيسر من خيانة الشريك، فأمر له بها.

(١) في الديوان: «على مكثريهم رزق من يعتر بهم». مكثروهم: مياسيرهم وأغنياؤهم. المقلون: القليلو المال. البذل: العطاء.

(٢) أبو نواس، الديوان: ص ٤٦٩.

(٣) في الديوان: «أمئت به من نائب الحدثان».

(٤) في الديوان: «فلو تسأل الأيام ما اسمي لما درت».

(٥) النائل: العطاء.

(٦) باذخ: اسم جبل. الأكناف: النواحي.

[أنصف بيت، وأصدق بيت]

وأنصف بيت قالته العرب قولُ حسان بن ثابت لأبي سفيان بن الحارث في جوابه عما هجا به رسول الله ﷺ، وروى محمد بن عمار عن أبيه قال: أنشد النبي حسان بن ثابت قوله: هَجَوْتُ مُحَمَّدًا، فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ فقال النبي عليه السلام: جزاؤك الجنة يا حسان. فلما انتهى إلى قوله:

فإنَّ أبايَ وَوَالِدِهِ وَعَرَضِي لِعَرَضٍ مُحَقَّقٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
قال النبي عليه السلام: وَقَالَ اللَّهُ حَرَّ النَّارِ. فلما قال:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكَفٍ فَشَرُّكُمْ لِحَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ
قال من حضر: هذا أنصف بيت قالته العرب.

وأصدق بيت قالته العرب وأمدحه قولُ كعب بن زهير في رسول الله ﷺ^(١):

تَحْمِلُهُ النَّاقَةُ الْأَدْمَاءُ مُتَجَرًّا بِالْبُرْدِ كَالْبَدْرِ جَلَى لَيْلَةِ الظُّلَمِ
وَفِي عَطَافِيهِ أَوْ أَثْنَاءِ بُرْدَتِهِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمٍ

وقال الأصمعي: والجهال يروون هذا البيت لأبي دهل، واسمه وهب بن ربيعة، في عبد الله بن عبد الرحمن الأزرق والي اليمامة، والصواب ما ذكرناه، وهو بصفات النبي ﷺ أعلَق، وبمدمحه أليق.

[ألفاظ لأهل العصر في ذكر النبي]

سليل أكرم نَبْعَةٍ^(٢)، وقريع أشرف بقعة^(٣). جاب بأمتة الظلمات إلى النور، وأفاء عليهم بالظل بعد الحرور، وهو خيرة الله من خلقه، وحبته في أرضه. الهادي إلى حقه،

- (١) لم نجد هذين البيتين في ديوانه.
- (٢) النبعة: واحدة النبع، وهو شجر ينبت في قُلَّةِ الجبل، تُتَّخَذُ منه القسي والسهام. ويقال: فلان شديد النبع: شديد المراس، وفلان من نبعة كريمة: ماجد الأصل.
- (٣) القريع: السيد، يقال: فلان قريع دهره: سيد دهره.

والمُنْبَه على حكمه. والداعي إلى رُسْدِهِ والآخِذُ بفرضه. مبارك مولده، سعيدة غرته، قاطعة حجته، سامية درجته، ساطع صباحه، متوقد مصباحه، مُظْفَرَةٌ حروبه، مُيَسَّرَةٌ خطوبه، قد أُفْرِدَ بالزعامة وحده، وُخِّمَ بأن لا نبي بعده، يُفَصِّحُ بِشعاره على المنابر، وبالصلاة عليه في المحاضر، وتعمّر بذكره صدور المساجد، وتستوي في الانقياد له حالة المقرّ والجاحد. آخر الأنبياء في الدنيا عمراً وأولهم يوم القيامة ذكراً، وأرجحهم عند الله ميزاناً، وأوضحهم حجة وبرهاناً، صدع بالرسالة، وبلغ بالدلالة، ونقل الناس عن طاعة الشيطان الرجيم. أرسله الله قمراً للإسلام منيراً، وقدراً على أهل الضلال مبيراً^(١) ﷺ. خير من افتتحت بذكره الدعوات، واستنجحت بالصلاة عليه الطلبات، خير مبعوث، وأفضل وارث وموروث. وخير مولود، دعا إلى خير معبود. صلى الله على كاشف الغمة عن الأمة. الناطق فيهم بالحكمة، الصاعد بالحق، الداعي إلى الصدق، الذي ملك هَوَادِيَّ الهدى، ودلّ على ما هو خير وأبقى. صلى الله عليه بشير الرحمة والثواب، ونذير السطوة والعقاب. صلى الله على أتم بريته خيراً وفضلاً، وأطيبهم فرعاً وأصلاً، وأكرمهم عوداً ونجاراً، وأعلاهم منصباً وفخاراً، وعلى أهله الذين عظمهم توقيراً، وطهرهم تطهيراً، هم مقاليد السعادة ومفاتيحها، ومعارج البركة ومصايحها. أعلام الإسلام وأيمان الأيمان. الطييون الأخيار، الطاهرون الأبرار. الذين أذهب عنهم الأرجاس، وجعل مودتهم واجبة على الناس. هم جبل الهدى وشجرة الإيمان، أصلها نبوة، وفرعها مروءة، وأغصانها تنزيل، وورقاتها تأويل، وخدمها ميكال وجبريل.

لبديع الزمان الهمذاني

ولبديع الزمان إلى بعض الأشراف في درج كلام تقدّم:

إن جعلنا نَعُدُّ فخاركم، ونَحُدُّ آثاركم، نَفِدَ الحصى قبل نفودها، وفنيت الخواطر، قبل أن تَفْنِيَ المآثر، ولم لا، وإن ذُكِرَ الشرف فأنتم بنو بَجْدَتِهِ^(٢)، أو العلم فأنتم عاقدو إزرتة. أو الدين فأنتم ساكنو بلدته، أو الجود فأنتم لابسو جلده، أو التواضع صبرتم لشدته، أو الرأي صُلِّمْتُمْ بحدته، وإن يتأتى تولى الله عز وجل بناءه، ومَهَّدَ الرسول عليه السلام فناءه، وأقام الوصي رضوان الله عماده، وخدم جبريل عليه السلام أهله، لتحقيق أن يُصَانَّ عن مدح لسان قصير.

(١) المَبِيرُ: المَهْلِكُ.

(٢) البَجْدَةُ: حقيقة الأمر وباطنه، ويقال: عنده بجدة ذلك: علمه، وهو ابن بجدةها: العالم بالشيء المُنْتَهَن، وأصله: الدليل الهادي في الصحراء.

لأعرابي

وذكر النبي ﷺ أعرابي فقال: بأبي وأمي رسول رب العالمين، ختمت به الدنيا، وفتحت به الآخرة، ﷺ، به يبدأ الذكر الجميل ويختم.

خاتمة المؤلف

إلى هذا المكان أمسكت العنان. والإطناؤ في هذا الكتاب يعظم ويتسع. بل يتصل ولا ينقطع؛ إذ كان غرضي فيه أن ألمح المعنى من معانيه، ثم أنجر معه حيث أنجر، وأمر فيه كيف مر، وأخذ في معنى آخر غير موصول بشكله، ولا مقرون بمثله، وقد أخل نظاماً، وأفرد تواماً، نشرأ لبساط الانبساط، ورغبة في استدعاء النشاط. وهذا التصنيف لا تدرك غايته، ولا تبلغ نهايته؛ إذ المعاني غير محصورة بعدد، ولا مقصورة إلى أمد. وقد أبرزت في الصدر صفحة العُذر، يجولُ فرندُها، ويشقُبُ زندها، وذلك أني ما ادَّعيتُ فيما أتيتُ إلا ما [لا] يكون ما تركته أفضل مما أدركته، وأنني لم أسلك مذهباً مخترعاً لم أُسبق إليه، ولا قصدت غرضاً مُبدعاً لم أُغلب عليه، ومن ركب مطية الاعتذار، واجتنب خطية الإصرار فقد خرج من تبعَة التقصير، ويرى من عهدة المعاذير.

وأما بعد فإن أحق من احتكم إليه وأقصر عليه الاعتراف بفضل الإنصاف، وليعلم من يُنصف أن الاختيار ليس يعلم ضرورة، ولا يوقف له على صورة، فيكثر الإغماض، ويقل الاعتراض، ويعلم أن ما لا يقع بهواه، قد يختاره سواه، وكلُّ يَعْمَلُ اقتداره، ويحسن اختياره، فلو وقع الاجتماع على ما يُرضي وسُخط، وثبت ويسقط، لارتفع حجاج المختلفين، في أمر الدنيا والدين.

وقال المتنبي^(١):

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ^(٢)
فَقِيلَ: تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً وَقِيلَ: تَشْرُكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ

الشجب: الموت، وهي لفظة معروفة، وإن كانت غير مألوفة عند أهل النقد. وقد

(١) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٣٣. والبيتان من قصيدة يرثي بها أخت سيف الدولة الحمداني ويُعزِّيه بها.

(٢) الشجب: الموت، الهلاك. والخلف: بمعنى الاختلاف. أي تخالفت آراؤهم في كل شيء، فما اتفقوا إلا على الهلاك.

أنكرها البحرى على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في مجاذبته إياه حيث يقول:

وَلَوْ أَنَّ الْحَكَمَ وَازَنَ فِي الْ
لَفْظٍ وَاخْتَارَ لَمْ يَقُلْ شَجْبُهُ

وكان أبو الطيب نظر إلى ما رواه أبو ظبيان، قال: اجتمع نفرٌ من أهل الكلام على رجل من الملحدين، فجعلوا لا يأتون بمسألة إلا سألهم الدليل عليها، وناقضهم فيها، فأعياهم كثرة ما يقول ويقولون، فقال بعضهم: أما بعد فإن الموت لا شك فيه فقال الملحّد: ما رأيتُ خاطباً وواعظاً وشاهداً لا يُردّ أوجز منه، وقلما ترى معنى إلا وهو يُدافع أو يُناقض ويُحارّ به عن سواء المحجّة. وقيل: من طلب عيباً وجده. قال أبو عمرو بن سعيد القطريلي: ليس من بيت إلا وفيه لطاعن مطعن، إلا قول الحطيئة: (١)

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ
وَقَوْلُ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ (٢):

سَبَّيْ لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا
وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودْ
وقول علي بن زيد (٣):

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْلُ وَتَسْلُ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ مُقْتَدٍ

وللعلم بذلك قال قتيبة بن مسلم لأبي عيَّاش المتوفى، وقد دخل عليه وبين يديه سلة زعفران: أنشدني بيتاً لا يصارف ولا يكذب وهي لك، فأنشده ما ليس لطاعن فيه مطعن:

فَمَا حَمَلْتُ مِنْ سَاقَةِ فَوْقَ كُورِهَا
أَبْرَ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ (٤)

[عليه السلام]، ورحم وكرم، وشرف وعظم، وعلى آله الطيبين، وسلم تسليماً.

(١) البيت في العمدة في محاسن الشعر: ٢٨٣/١، والأغاني: ١٤٥/٢.

(٢) طرفة بن العبد، الديوان: ص ٤١.

(٣) البيت في شعراء النصرانية: ٤٦٦/١. وهو من قصيدة طويلة ضمنها أجود الحكم، ومطلعها:

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبِدٍ نَعَمْ وَرَمَاكَ الشُّوقُ قَبْلَ التَّجَلُّدِ

ويروى هذا البيت لطرفة بن العبد، (أنظر ديوانه: ص ٤٤).

(٤) الكور: الرُّحْلُ، أو هو الرجل بأداته.

فهرس محتويات

الجزء الرابع

٥	نماذج من الشعر الجيد
٥	لابن المعتز
٧	لعلي بن الخليل أمام الرشيد
٨	وصف دعوة لمحمد بن حازم
٩	من مستحسن الأجوبة
٩	بين معن بن زائدة ورجل من شيبان
٩	بين المنصور ومعن بن زائدة
١٠	من ترجمة معن بن زائدة، وأخباره
١٠	لابن أبي حفصة في بني مطر قوم معن
١٠	الرأي والشجاعة
١١	قضاء الله وعدله
١١	بنو كليب
١١	دعاء أعرابي بعرفة
١١	عتاب بين صديقين
١٢	دعاء أعرابي
١٥	جُمَل من ألوان المديح
١٦	ألفاظ لأهل العصر، في ضروب الممادح
١٩	ولهم في أدعية من صدور الكتب تليق بهذه الأئمة والممادح
٢٠	منزلة صناعة الكلام
٢٢	بعض ما قيل في النسيب

- ٢٤ عمران بن حطّان والحجاج
- ٢٥ بين أعرابي وبعض الولاة
- ٢٥ الدنيا، وأهلها
- ٢٦ أربع كلمات طيبات
- ٢٦ بين معاوية وعمرو بن سعيد
- ٢٧ من تواضع الرشيد
- ٢٧ للمتني في حُمَى أصابته بمصر
- ألفاظ لأهل العصر في العيادة وما جانسها من ذكر التشكّي والمرض وتلونه، وسوء أثره، والانزعاج
لعوارضه ٢٨
- ٢٩ فقر في تهوين العلة بحسن الرجاء، وذكر المشاركة والاهتمام بحلولها والاستبشار بزوالها ..
- ٢٩ ولهم في شكاة أهل الفضل والسؤدد
- ٣٠ ولهم في تنسّم الإقبال، وذكر الإبلال
- ٣٠ فقر في أدعية العيادة، والاستشفاء بكتبتها
- قطعة من كلام الأطباء والفلاسفة ٣١
- ٣٢ فقر في ذكر المرض والصحة والموت والحياة لغير واحد
- الموت باب الآخرة ٣٣
- من الأجوبة المقحمة ٣٤
- رثاء قدح ٣٥
- من طرائف الوصف ٣٦
- ٣٦ لابن الرومي في وصف قدح
- ٣٧ للتوخي في وصف قدح أيضاً
- ٣٧ لكشاجم في رثاء منديل
- ٣٨ وله يصف سقوط الثلج
- ٣٩ ولكشاجم أيضاً
- ٣٩ للصنوبري في المعنى
- ٤٠ للبستي
- ٤٠ للميكالي يصل الجمد
- ألفاظ لأهل العصر في وصف الثلج والبرد والأيام الشتوية ٤١

٤٢	نقيض ذلك من كلامهم في وصف القيظ وشدة الحرّ
٤٢	المجلة أم الندامة
٤٢	تأمل ورجاء
٤٤	من حسن التقسيم
٤٥	بين قَيْنَة وأربعة من عشاقها
٤٧	بين ابن المعتز وقينة
٤٨	بين ابن المعتز وبعض الوزراء
٤٨	من شعر ابن المعتز
٥٠	جرير في المدينة يُعري بشعر قيس بن الخطيم
٥٠	يعقوب بن داود
٥٢	بين أحمد بن أبي دواد والوائق
٥٢	من خطباء العرب شبيب بن شيبة وخالد بن صفوان
٥٤	عجلان بن سحبان
٥٥	دغفل بن حنظلة النسابة
٥٥	وصف العصا لأعرابي بين يدي الحجاج
٥٦	عزة الخليل بن أحمد
٥٧	من رسائل الصابي
٥٧	للصابي يعزي عن طفل
٥٩	من الصابي إلى بعض الرؤساء
٥٩	من رسائل البديع
٥٩	كتاب منه إلى بعض أصحابه
٦٠	كتاب منه إلى إبراهيم بن أحمد بن حمزة
٦٠	كتاب آخر إلى أبي نصر الميكالي
٦١	جواب منه عن صنعة
٦١	المقامة الأذربيجانية
٦٣	أيام الشباب وأيام المشيب
٦٣	لعلي العلوي
٦٣	لابن المعتز

- ٦٤ لأحمد بن أبي طاهر
 ٦٤ لخالد الكاتب
 ٦٤ لابن الرومي
 ٦٦ لكشاجم
 ٦٦ لأبي نواس
 ٦٦ لأحمد بن زياد
 ٦٧ للمتنبي
 ٦٧ لابن الرومي
 ٦٧ للمتنبي
 ٦٨ للبحري
 ٦٨ لأبي تمام الطائي
 ٦٨ لابن الرومي
 ٦٩ للعطوي
 ٦٩ لابن الرومي
 ٧٠ لأبي الفتح كشاجم
 ٧٠ شذور لأهل العصر، في وصف الشيب ومدحه وذمه
 ٧٢ فقر لغير واحد في المشيب
 ٧٣ بعض ما قالوه في الخضاب
 ٧٦ الوليد بن زيد وقد غلبت عليه لذاته
 ٧٧ بين الحجاج وأهل العراق
 ٧٨ جامع المحاربي
 ٧٨ أيوب بن القرية
 ٧٩ كثير بن أبي كثير
 ٧٩ من قولهم في المديح
 ٨٠ لمنصور النمري
 ٨١ الشراب وخطره
 ٨١ من اعتلال الطفيليين، وحيلهم
 ٨٣ ألفاظ لأهل العصر في صفة الطفيليين والأكلة وغيرهم

٨٤	وصف طائر
٨٤	أحظى النساء عند المهدي
٨٥	وصف غلام
٨٦	بين خالد بن صفوان وعلي بن الجهم
٨٧	كثرة الحدثنان
٨٧	من قولهم في الرثاء
٨٧	لأبي الشيص
٨٨	لحارثة بن بدر الغداني
٨٩	من أخبار حارثة بن بدر
٨٩	لأبي الأسود في حارثة بن بدر
٩٠	جواب حارثة بن بدر
٩٠	وصف امرأة
٩٠	من كلام الأعراب
٩١	من مقامات البديع
٩١	المقامة الأزاذية
٩٣	من رسائل بديع الزمان
٩٣	كتاب منه إلى سهل بن محمد
٩٤	كتاب منه إلى بعض الرؤساء
٩٥	عفو عن ذي جريرة
٩٥	المأمون
٩٥	أحمد بن أبي خالد
٩٥	ألفاظ لأهل العصر في التهئة بالإطلاق من الأسر
٩٥	أبو نواس يمدح الأمين
٩٧	بين الأخطل ومعاوية
١٠٠	بين السفاح وأبي نخيلة
١٠٣	ومن مستحسن رثاء الخنساء ويلي وغيرهما من النساء
١٠٣	من رثاء الخنساء
١٠٣	من بديع رثاء الخنساء

- ١٠٤ من ترجمة الخنساء، وليلى الأخيلية
- ١٠٤ من أخبار الخنساء
- ١٠٥ نسب ليلي
- ١٠٥ موازنة بينهما
- ١٠٦ لابن الرومي
- ١٠٧ للخنساء
- ١٠٨ عمرو بن الشريد وابناه
- ١٠٨ من رثاء ليلي الأخيلية
- ١١٠ وفود ليلي على معاوية
- ١١٢ وفود ليلي على مروان بن الحكم
- ١١٣ قدوم ليلي على الحجاج
- ١١٩ عود إلى رثاء شواعر العرب
- ١١٩ لهند بنت أسد ترثي أخاها
- ١١٩ لأم خالد النميرية
- ١٢٠ لحليمة الخضرية
- ١٢٠ للفارعة بنت شداد
- ١٢١ عبرات المحبين
- ١٢١ مما أنشده ثعلب
- ١٢٢ مما ينسب إلى قيس بن الملوح
- ١٢٢ لذي الرمة
- ١٢٣ للبحثري
- ١٢٣ مما أنشده جحظة
- ١٢٣ للمتبي
- ١٢٣ لأبي الشيص
- ١٢٤ من أخبار العباس بن الأحنف
- ١٢٥ موازنة بين العتابي والعباس
- ١٢٩ العين والقلب
- ١٣٠ من ماثور الحكم

١٣١	الهوى
١٣٣	من رسائل الميكالي
١٣٥	من شعر الميكالي
١٣٦	الاهتزاز لقضاء حوائج الناس
١٣٧	بين عميلة الفزاري وأسيد بن عتقاء
١٣٨	من غرر المدائح
١٣٨	صروف الدهر
١٣٩	من لا يوفي النعم حقها
١٣٩	عود إلى غرر المدائح
١٣٩	لأبي الشيص
١٣٩	لأبي الحجناء
١٤٠	لنصيب في البرامكة
١٤٠	لنصيب في بني سليمان بن علي
١٤١	فعلات الأجواد
١٤١	هشام بن عبد الملك
١٤١	عمرو بن مسعدة
١٤١	محمد بن طيفور
١٤٢	إبراهيم بن المهدي
١٤٢	محمد بن طيفور
١٤٢	من نوادر الرثاء
١٤٢	قرد زبيدة بنت جعفر
١٤٣	ثور ابن قريعة
١٤٥	عود إلى المختار من الرثاء
١٥٤	لامرأة العباس بن عبد المطلب
١٤٦	لأخت الوليد بن طريف
١٤٦	لبكر بن النطاح
١٤٧	من شعر بكر بن النطاح
١٤٨	نسب أبي دلف العجلي

١٤٨	لدعبل الخزاعي
١٤٩	رثاء عمر بن الخطاب
١٤٩	لبشار
١٥٠	للمتنبى في فاته
١٥٠	لعبد الملك الحارثي
١٥١	من كلاب الأعراب
١٥١	أعرابي يباب عبيد الله بن زياد
١٥٢	من مقامات بديع الزمان
١٥٢	المقامة البصرية
١٥٣	من رسائل البديع
١٥٣	رسالة منه لبعض الرؤساء
١٥٤	رسالة منه إلى الشيخ العميد
١٥٥	عود إلى غرر المديح
١٥٥	لأبي العباس الناشيء
١٥٦	لأحمد بن محمد يمدح ابن وهب
١٥٧	لأعرابي
١٥٧	تكاليف المجدد
١٥٧	فصل لأبي العباس بن المعتز
١٥٨	احمال الغضب
١٥٩	مما تتمين العناية بمطالعتها
١٦١	كتمان الحب
١٦١	لابن المعتز
١٦٢	لابن الأحنف
١٦٢	للفارضي
١٦٢	لابن المعتز
١٦٢	لأعرابي
١٦٣	للحسين بن مطير
١٦٥	لدعبل الخزاعي

١٦٥	لمسلم بن الوليد
١٦٥	معالي الأخلاق
١٦٥	مما أنشده الزبير بن بكار
١٦٥	رياضة النفس على الفراق
١٦٦	لابن الأحنف
١٦٧	للمتني
١٦٧	لأبي صخر الهذلي
١٦٧	شذور من كلام أهل العصر في مكارم الأخلاق
١٦٩	مواعظ عقلها بعض أهل العصر تتعلق بهذا الفصل
١٧٠	من رسائل العتايي وأدبه
١٧١	شعر الأعراب
١٧٣	خصومة قرشية
١٧٣	أدعاء
١٧٤	عزل وال
١٧٤	حرمة الكعبة
١٧٤	كتاب ينصر محارباً
١٧٥	من حكم الفرس
١٧٥	حكم للهند
١٧٦	وصية من عتبة بن أبي سفيان
١٧٦	يزيد بن معاوية
١٧٧	فضل العمامة
١٧٧	من رسائل ابن العميد
١٧٧	من كتاب له إلى أبي عبد الله الطبري
١٧٨	هرب من الوباء
١٧٩	قتيل الحب
١٧٩	ابن عباس
١٨٠	مسلم بن الوليد صريع الغواني
١٨٢	من شعر أبي نواس

١٨٣	وصف جيش
١٨٤	شعب بؤان
١٨٥	رجع إلى وصف الجيش
١٨٦	وصف سفينة
١٨٧	مما قيل في وصف الأساطيل
١٨٧	لابن هانيء يصف أسطول المعز الفاطمي
١٨٩	لعلي الإيادي يصف أسطول القائم
١٩٠	من لطائف التودد
١٩١	ومن ألفاظ أهل العصر في إقامة رسم الهدية في المهرجان والنيروز
١٩١	ولهم في التهئة بالنيروز والمهرجان وفصل الربيع
١٩٢	الصفات التي تلزم في رجل الشرطة
١٩٢	لأشجع السلمي يمدح صاحب شرطة الرشيد
١٩٣	من كلام الأعراب
١٩٣	أعرابية تلوم أباه في الجود
١٩٣	دعوة أعرابية
١٩٣	مع الولاة والخلفاء
١٩٣	السفاح وعمارة بن حمزة
١٩٣	السفاح وخالد بن صفوان
١٩٤	عمر بن عبد العزيز وخالد بن صفوان
١٩٤	شذور في المقايح ومساوىء الأخلاق
١٩٥	من المفاحرات
١٩٥	بين كاتب ونديم
١٩٦	لأبي الهيدام المرّي يرثي
١٩٦	من وصايا الحكماء
١٩٧	من الممدح
١٩٧	لابن الرومي
١٩٧	لأبي الفتح البستي
١٩٧	في مدح أبي دلف

١٩٨	أحمد بن أبي فتن
١٩٩	استطرد
١٩٩	لإسحاق الموصلي
٢٠٠	لأبي تمام يصف فرساً
٢٠١	سَبَقُ المتقدمين إلى الاستطرد
٢٠٢	لطرفه بن العبد البكري
٢٠٢	ابن عبدل وابن بشر بن مروان
٢٠٢	لبشار بن برد
٢٠٣	لبكر بن النطاح
٢٠٣	للحطيئة
٢٠٤	شاعر باهلي في حضرة الرشيد
٢٠٤	كاتب الحجاج عند سليمان بن عبد الملك
٢٠٥	من أدب إبراهيم بن العباس الموصلي
٢٠٨	رثاء مصلوب
٢٠٨	كلام لا يحتمل الجواب
٢٠٨	من محمد بن كثير إلى الرشيد
٢٠٩	تعجيل الإحسان
٢٠٩	بين المأمون ويحيى بن أكثم
٢٠٩	المأمون ورجل من بني الدهاقين
٢١٠	فضل الإيجاز
٢١٠	أبو مسلم
٢١١	من أوصاف أبي مسلم
٢١١	حساب
٢١١	من كلام الأحنف بن قيس
٢١١	الأحنف بن قيس يصف العقل
٢١٢	مما كتبه ابن الزيات
	ألفاظ لأهل العصر في التهتهة بالحج، وتفخيم [أمر] الحرم و [تعظيم] أمر المناسك والمشاعر، وما يتصل بها من الأدعية
٢١٢	

- ٢١٣ من شعر قَطْرِي بن الفجاءة
 ٢١٤ من جَيْد المديح
 ٢١٤ للمسيب بن علس
 ٢١٥ بين سعيد بن عبد الله وسعيد بن حميد
 ٢١٦ منزلة سعيد بن حميد
 ٢١٧ من السرقات الشعرية
 ٢٢٢ الاقتباس من القرآن الكريم
 ٢٢٢ أمثال للعرب والعجم والعامية وما يماثلها من كتاب الله تعالى
 ٢٢٦ جملة من مكاتبات [بعض] أهل العصر
 ٢٢٨ من مقامات بديع الزمان
 ٢٢٨ المقامة القزوينية
 ٢٣٠ عاقبة السؤال بلفظ حسن
 ٢٣١ ابن رفاعة يتحدث عن النعمان بن المنذر والحارث الغساني
 ٢٣١ أربعة أبيات
 ٢٣٢ أبو الأسود الدؤلي وامراته
 ٢٣٢ عظات ووصايا
 ٢٣٢ عظة حكيم
 ٢٣٢ عظة عبد الملك بن مروان أهله وولده
 ٢٣٣ وصف هشام بن عبد الملك بصفته
 ٢٣٣ حاتم الطائي يتحمل الديات عن عبد قيس البرجمي
 ٢٣٣ ووصف ثقیل
 ٢٣٤ طيلسان ابن حرب
 ٢٣٧ من رسائل ابن العميد
 ٢٣٧ من ابن العميد إلى الطبري
 ٢٣٧ من ابن العميد إلى عضد الدولة
 ٢٣٨ لأبي الطيب في ابني عضد الدولة
 ٢٣٩ من الإسكافي في تهنئة واستبطاء
 ٢٣٩ ألفاظ لأهل العصر في ضروب التهاني وما ينخرط في سلكها

من ذلك في التهئة بالمولود وما يجري مجراها من الأدعية وما يختص منها بالملوك أو	
الرؤساء	٢٣٩
ولهم في ذكر المولود العلوي	٢٤١
ولهم في التهئة بالولاية والأعمال، وما يتصل بها من الأدعية	٢٤٢
للوزراء والقضاة والعمال	٢٤٢
ولهم في التهئة بذكر الخلع والأجبية	٢٤٣
ولهم في التهئة بالقدوم من سفر	٢٤٤
من أحسن الشعر	٢٤٥
المراثي التي قيلت على قبر عمرو بن حممة الدوسي	٢٥٤
بلاغة الأعراب	٢٤٧
أعرابي يصف قومه	٢٤٧
أعرابي يصف حاله عند الموت	٢٤٧
الإخوان ثلاثة	٢٤٨
أعرابية تسأل	٢٤٨
ذل السؤال	٢٤٨
من مقامات بديع الزمان	٢٤٨
المقامة الأهوازية (المكفوفية)	٢٤٨
من شعر كشاجم	٢٥٠
الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره	٢٥٢
من اسمه علي ممن استخلف	٢٥٤
في بيعة يزيد بن معاوية	٢٥٥
في الإقدام حياة	٢٥٥
من أخبار أبي دلف وشعره	٢٥٦
من رسائل الميكالي	٢٥٧
عتاب	٢٥٩
للخريمي يعاتب الوليد بن أبان	٢٥٩
من ترجمة أبي يعقوب الخريمي	٢٦٠
فقر وفصول في معان شتى	٢٦١

٢٦٤	بين حنيفة ونمير
٢٦٤	دعاء
٢٦٤	من رسائل البلغاء
٢٦٤	بين المأمون وعامله على الرقة
٢٦٥	بين الحسن بن سهل والمطلب بن عبد الله
٢٦٦	رثاء يزيد بن مزيد
٢٦٦	من رسائل بديع الزمان
٢٧٠	من مقامات بديع الزمان
٢٧٠	المقامة السجستانية
٢٧١	المقامة القرديّة
٢٧٢	المقامة الأصفهانية
٢٧٣	جارية ذات أدب وجمال تَبْدُ أبناء الخلفاء
٢٧٦	نهشل بن حرّي
٢٧٦	أثر الشعر
٢٧٨	أنصف بيت، وأصدق بيت
٢٧٨	ألفاظ لأهل العصر في ذكر النبي
٢٧٩	لبديع الزمان الهمذاني
٢٨٠	لأعرابي
٢٨٠	خاتمة المؤلف

الفهارس

٢٨٥	فهرس الآيات القرآنية
٢٩٣	فهرس الأعلام
٣٦٧	فهرس الأشعار
٤٦١	فهرس المصادر والمراجع
٤٦٧	فهرس المحتويات